ذخائر العرب ٧٥

الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري

تحقيق

الإمام الدكتور عبد الحليم محمود
الدكتور محمود بن الشريف

دار المعارف

الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري

تحقيق

الإمام الدكتور عبد الحليم محمود   الدكتور محمود بن الشريف

الجزء الأول

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل مخلوق وخير مبعوث ، وعلى آله وأصحابه ومن اتَّبع هديه إلى يوم الدين .

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

[سورة الكهف : ١٠]

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والْعَصْرِ ، إنَّ الإنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

إن معالم الإيمان ، وسمات التدين ، والفكرة الصحيحة عن الهدف الذى من أجله خلق الإنسان ، والمنطق السليم فى الصلة بين الله والعالم .. إن كل ذلك يكاد – فى العصر الحاضر – يندرس ويتلاشى .

وأنه لمن المؤكد ، أن الأغلبية العظمى من الناس الآن يسيرون فى الحياة دون شعور واضح برسالة السماء ، وتوجيهها ، وهديها !! وإنهم بذلك لفى خسر ، وإنهم بذلك لمن الأشقياء ومع أن رسالة السماء ، لا تعقيد فيها ، ومع أن هدى الله سهل واضح ؛ فإن الإنسان يحاول – منذ أن كانت الرسالة الإلهية – أن ينشق عليها ، وأن يقف منها موقف المتمرد .

هذه الرسالة ، يمكن تلخيصها فى كلمة : « الإسلام » وليس هناك من تعبير أدق ، ولا أجمل من هذا التعبير ، إنه دقيق فى معناه ، جميل فى جرسه .

ورسالة الله إلى الإنسان : هى أن يُلقى الإنسان بقياده إلى خالقه ، هى أن يسلم الإنسان نفسه لربِّه . والمسلم من أسلم لله أمره ، إنه الذى يعتنق مبدأ السلام مع الله فإذا ما اعتنق مبدأ السلام مع الله ، كان قلبه سلامًا بالنسبة إلى نفسه : أى هدوءًا واطمئنانًا ، وسلامًا بالنسبة إلى الله : أى رضا وغبطة ، وسلامًا بالنسبة إلى الخلق ، فيسلم الخلق – للسلام الذى يعمر قلبه – من لسانه ويده .

فإذا ما : « أسلم » الإنسان ، فقد استجاب إلى الدعوة الإلهية .

* * *

هذه الدعوة التى تتسم بالتوحيد ، والوحدة والوحدانية ، والتى يعبَّر عنها بالإسلام : تختلف فى موقفها بالنسبة لتوجيه الإنسان ، بحسب موضوع التوجيه ؛ ذلك أنها توجِّه الإنسان بالنسبة للطبيعة ، للكون المادى للعالم المحس ، وفى هذا المجال تأمره أمرًا ، وتفرض عليه فرضًا ، أن يغزو هذا العالم : فيصل إلى أعماق أعماق الأرض والبحار ، ويرتفع فى الأفق إلى أبعد ما يصل إليه العلم بوسائله وآلاته ، ويغزو الفضاء فيما بين السماء والأرض ، وتترك له الاختيار فى استخدام الوسائل ، لذلك : لا حجر عليه فى الحرية ولا تضييق .

وموقف الدين الإسلامى من العلم واضح كل الوضوح ، فأول كلمة فى الدستور الإسلامى : « القرآن » هى : « اقرأ .. » . ثم إن الآيات القرآنية التى تحث على العلم ، وتبين فضل العلماء كثيرة : يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[1] ، ويقول الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[2] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[3] .

أما الأحاديث النبوية : فإنها هى الأخرى كثيرة ، من أجمعها : الحديث الذى رواه أبو داود ، والترمذى ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا ، سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ، ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما : إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وقد وضح هذا الاتجاه فى القرآن ، وفى الأحاديث الشريفة ، وضوحًا بيِّنًا ؛ فاندفع المسلمون إلى البحث فى جميع ميادين الحياة : روحية كانت أو عقلية أو مادية ..

ونشأ عن ذلك : الحضارة الإسلامية التى أنتجت أمثال : جابر بن حيان فى الكيمياء ، وابن الهيثم فى الطبيعيات ، وأبى بكر الرازى فى الطب ، وابن سينا فى الطب كذلك والفلسفة ، والغزالى فى الجانب الروحى ، وابن رشد فى الفلسفة العقلية ، وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ . وكثيرين غيرهم .

وقد أشاد كثيرون من منصفى الغربيين بالحضارة الإسلامية وبمناهجها يقول (غوستاف لوبون) :

« ويُعزى إلى بيكون ، على العموم : أنه أول من أقام التجربة والملاحظة اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ ولكنه يجب أن نعترف ، قبل كل شىء ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .

ويقول العلامة الشهير : « همبولد » بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة : هو

---

(١) سورة طه . الآية ١١٤ .
(٢) سورة المجادلة . الآية ١١ .
(٣) سورة فاطر . الآية ٢٨ .

أرفع درجة فى العلوم : إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريبًا » .

ويتبين لنا من هذا أن الإسلام :

* يحث على العلم ويشجعه ، ويدعو إليه ، ويأمر بالاستزادة منه .

* وأن روح الإسلام هذه أنتجت حضارة خصبة عمَّت جميع زوايا الحضارة المادية وجوانبها .

* * *

بيد أن : « اقرأ » ، أو الأمر بالعلم والثقافة فى الإسلام قيِّد بأن يكون : « بسم الله » ؛ وبذلك ينتفى الإيذاء والضرر فى العلم ، وبذلك أيضًا تفترق حضارة الإسلام فى هذا الجانب عن الحضارة الغربية ، فالحضارة الغربية لم تنشأ : بـ « بسم الله » وإنما نشأت بسم العلم . ومن أجل ذلك سخِّرت العلم فى التنكيل ، والدمار ، والاستعمار ، وإشقاء الإنسانية !! .

وحضارة الإسلام نشأت بسم الله ، ولم تنشأ بسم العلم ، ومن أجل ذلك كان هدف العلم فى الإسلام إرضاء الله وإسعاد الإنسانية هذا شأن الإسلام بالنسبة للكون المحسِّ .

على أن : « اقرأ بسم ربك الذى خلق » حينما نقيِّد العلم والثقافة بأن يكونا بـ : بسم الله ، وحينما نصبغ دراسة الكون بصبغة التوجه إلى الله ، فإنما تضعنا مباشرة أمام توجيه إلهى سافر – لا لبس فيه – يرشدنا إلى وجوب إعطاء جميع الأعمال التى نقوم بها ، صورة العبادة : ذلك أن ما كان بـ : بسم الله ، فهو عبادة .

وأن : « اقرأ بسم ربك الذى خلق » تنص على أن القراءة لا تكون : باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيًّا كانت ، ولا باسم وزير ولا أمير ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وإنما هى : بسم الله ، وإذا كانت بسم الله ، فإنها تفيد الشخص باعتباره فردًا ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطنا » ؛ وتفيد المجتمع الإسلامى العام ، بل وتفيد الإنسانية جمعاء .

إذا ما تجردت القراءة لله تعالى : وكان هدفها الأول والأخير هو : « الله » : مصدر الخير والنور ، كانت : خيرًا ، وكانت نورًا فى جميع الأرجاء ، وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى القراءة وحسب ، وإنما كانت القراءة رمزًا لكل ما يأتيه الإنسان فى الجانب الإيجابى وكل ما يدعه الإنسان فى الجانب السلبى :

إن هذه الكلمة الأولى ، تريد أن تقول : اقرأ بسم ربك .. تحرك بسم ربك ، تكلم بسم ربك ، إعمل بسم ربك ..

أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فينبغى أن يكون ذلك أيضًا بسم ربك ؛ ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلَّها وكيانك كلَّه : أسبابًا وغايات لله سبحانه وتعالى :

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى الذى يحثُّ على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة : بسم الله ، فإن الجانب السلبى – قد نزلت فيه – فيما بعد – آيات صريحة الدلالة ، واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[1] .

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به الذابح وجه الله تعالى ، فهو أيضًا فسق ؛ لأنه لم يذكر اسم الله عليه ؛ فكل مالم يذكر اسم الله عليه يجب إذن الامتناع عنه .

أما الإقدام عليه ، فإنه فسق يتفاوت فى درجته من الرجس ، زيادة ونقصانًا .

وهكذا يضعنا الإسلام منذ « اقرأ بسم ربك » : أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه ؛ على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ، وفى خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق .

فما دامت الحياة كلُّها لله ، فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفاق ، والخديعة ، وإرادة غير الله بالأعمال .

وإزالة لكل لبس فى هذا الجانب ، وحبًّا فى أن يسير الإنسان فى الحياة على بيِّنة من أمره – فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيى عن بينة – حدد الله ، سبحانه وتعالى – تحديدًا واضحًا كل الوضوح – الغاية التى خلق الإنسان من أجلها ، يقول سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ﴾[2] .

والإسلام يريد بذلك أن تكون حياة الإنسان فى جميع اتجاهاتها ، وفى جميع جوانبها وزواياها .. حياة الإنسان أسسًا وبواعث . وحياة الإنسان وسائل ومناهج .. وحياة الإنسان أهدافًا وغايات .. يريد الإسلام أن يكون كل ذلك : عبادة .

وليس ذلك بالأمر المستحيل ؛ فالعمل الواحد يعمله شخص من الأشخاص ، فيكون عملا دنيويا ، ويعمله شخص آخر فيكون العمل دينيا .

---

(١) سورة الأنعام . الآية ١٢١ .
(٢) سورة الذاريات . الآية ٢٦ .

بل إن العمل الواحد يعمله الشخص الواحد فى وقت ما ، فيكون دنيويًّا ، ويعمله هو نفسه فى وقت آخر فيكون عبادة ، وكل ذلك إنما هو بحسب النيَّة ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ؛ وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فإذا ما أراد الإنسان بعمله وجه الله كان العمل : عبادة مهما أغرق فى الصورة الدنيوية ، وأحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الجانب كثيرة معروفة .

بيد أن العبادة من ناحية قيمتها الروحية : درجات لا تحصى ؛ إنها قد تكون شكلًا من الأشكال ، مجرد شكل ، لا قيمة لها ؛ ولا وزن فى مقاييس الروح وموازينها !! وقد تسمو وتسمو ؛ فتصل إلى : « أن تعبد الله ؛ كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه ؛ فإنه يراك » .

ولقد كان الرسول ؛ صلوات الله وسلامه عليه ، المثل الأعلى لنا فى أن نعبد الله ؛ كأننا نراه ، أو فى أن نرى الله فى جميع ما نأتى وما ندع ؛ فى الكون نذلله ونسخره ، وفى المجتمع نصلحه ونهذبه ، وفى العمل نتقنه ونخلص فيه .. وفى الحديث نتحرى فيه الصدق والأمانة .

لقد حوَّل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، الحياة إلى عبادة ، فكان العمل عبادة ، وإنَّ من الذنوب ذنوبًا لا يكفِّرها إلا السعى على المعاش ؛ والجهاد عبادة وإن أفضل الأعمال : الإيمان ، ثم الجهاد .

ولقد وصل الأمر به صلوات الله وسلامه عليه : أن جعل الأكل والشرب والمشى عبادة .

وهكذا أصبحت الحياة حركة وسكونًا لله ، سبحانه ، فأصبحت الحياة كلها عبادة : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[١] .

ولقد وضح هذا الاتجاه منذ اللحظة الأولى للوحى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾[٢] ثم إن القرآن كلّه فسره ، ووضحته أعمال الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه : الحياة عبادة ، الأنفاس ، والحركات ، والسكنات والنوم ، واليقظة ؛ الحياة كلها بل ، والموت عبادة .

---

(١) سورة الأنبياء . الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) سورة العلق . الآية : ١ .

تلك هى حياة الصوفية ، وذلك هو معنى الدين ؛ وهو معنى الإسلام ، وهو ما أراده الله بصريح آياته الكريمة وهديه المستقيم .

إن توضيح هذا ونشره ، والعمل على إحياء معنى الدين ، ونشر الشعور الدينى ، وبيان معنى : « الإسلام وقيادة الأمم – من أجل سعادة الإنسانية – لتسلم وجهها لله .. ذلك هو المهمة الأولى لعلماء الدين : أجلُّ مهمة ، وأسمى وظيفة .. إنها وظيفة الأنبياء والرسل .

ومن أجل ذلك ومساهمة منا فى توضيح الطريق ، نشرنا هذا الكتاب راجين الله سبحانه ، أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا .

نشرنا هذا الكتاب الذى يتحدث عن الصوفية وعن التصوف .

ذلك أن الصوفية هى الطائفة التى تعبد الله – فى كل عصر – كأنها تراه .

وهى الطائفة التى تحس إحساسًا واضحًا بالفكرة الدينية فى معناها العميق .

إنهم مثل عليا كأشخاص ، ومثل عليا كمبادئ ، إنهم أمثلة حيَّة لما ينبغى أن يكون عليه المتدين ، وهم أمثلة حاولت الكمال فى الاقتداء برسول الله ﷺ والتخلق بأخلاق القرآن :

١ – وفى نشر هذا الكتاب رسم لفكرة العبودية الصحيحة ، وتوضيح لما ينبغى أن تكون عليه الصلة بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان ومجتمعه .

٢ – ومما لاشك فيه أن كل ما يقرؤه الإنسان يؤثر فيه ، ونحن إذن سعداء بالأثر الجميل الذى سيكون – بإذن الله – ثمرة لنشر هذا الكتاب .

٣ – ولقد أحضرنا مخطوطتين للرسالة القشيرية من تونس : إحداهما بخط مشرقى ، والأخرى بخط مغربى ، ويسعدنا أن نخرج النص محققًا صحيحًا .

٤ – ولقد ألَّف الإمام القشيرى ، هذا الكتاب تصحيحًا وتوضيحًا للفكرة الصوفية فى سلامتها ، ونقائها ونحن سعداء بإحياء هذا الكتاب فى هذا العصر الذى شوهت فيه الفكرة عن التصوف ، وأنكر كثير من الناس – عن جهل ، أو متعمدين – المثل العليا فى الأخلاق ، والمعاملات ، التى دعا إليها الصوفية .

٥ – ولقد كان كثير من الباحثين يتمنون أن يكون هذا الكتاب الذى يعتبر مصدرًا أصيلًا من مصادر التصوف – بين أيديهم محققًا مفهرسًا ويسعدنا أن نحقق لهم هذه الرغبة .

ولقد كان من تيسير الله ، لهذا العمل ، أن هذا الكتاب قد شرحه علم من أعلام الإسلام ، هو شيخ الإسلام : زكريا الأنصارى ، وكتبه علم من أعلام الإسلام ، هو شيخ الإسلام :

السيد مصطفى العروسى ، على الشرح حاشية نفيسة .

وقد استفدنا من الشرح والحاشية واغترفنا من أنوارهما الكثير .

* * *

أما مؤلف الكتاب : فإنه الإمام أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى النيسابورى الشافعى (٣٧٦ هـ - ٤٦٥ هـ) .

ولد رضى الله عنه سنة : ست وسبعين وثلثمائة ، فى شهر ربيع الأول ، فى بلدة « إستوا » وكان سكانها من العرب الذين قدموا خراسان .

وهو عربىٌّ من قبيلة « قشير بن كعب » .

توفى أبوه وهو صغير ، فرُبِّى يتيمًا ، ولكن النجابة ظهرت فيه من صغره ؛ فتثقف بالأدب والعربية . ولكنه لم يكن يعلم الحساب فذهب إلى « نيسابور » ليتعلم طرفًا من الحساب ، حتى يتمكن من إدارة قرية له بإستوا .

وأرادت المقادير ، أن يحضر درس أبى علىٍّ الدقاق ، فيرى إخلاصًا ويرى تقوى ، ويرى نورًا يرتسم على وجهه ، ويشرق من كلماته فينبر قلوب السامعين ، ويجذبهم إلى الله ، وكانت فطرة القشيرى النقية على استعداد تام لسلوك الطريق ، ورأى الإمام أبو على الدقّاق فيه النجابة ، فقبله فى زمرة مريديه ، ثم اصطفاه فى زمرة أخصائه ، وزوجه ابنته ، مع كثرة أقاربها .

وانتهى الأمر بالقشيرى إلى أن أصبح - كما يقول عنه الإمام عبد الغافر - « الإمام مطلقًا ، الفقيه ، المتكلم ، الأصولى ، المفسر ، الأديب ، النحوى ، الكاتب الشاعر ، لسان عصره وسيد وقته ، وسر الله بين خلقه ، مدار الحقيقة ، وعين السعادة ، وقطب السيادة ، من جمع بين الشريعة والحقيقة ، كان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى والفروع على مذهب الشافعى .. » .

ولقد ترجم له صاحب كتاب : « دمية القصر » أبو الحسن الباخرزى فقال :

« جامع لأنواع المحاسن تنقاد له صعابها ذلل المراسن ، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ارتبط إبليس فى مجلس تذكيره لتاب ، وله فصل الخطاب فى فصل المنطق المستطاب ، ماهر فى التكلم على مذهب الأشعرى ، خارج فى إحاطته بالعلوم عن الحد البشرى ، كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد ، وأعقاب منبره للعارفين وسائد ، ثم إذا عقد بين

مشايخ الصوفية حَبْوَته ، ورأوا قربته من الحق وحظوته : تضاءلوا بين يديه ، وتلاشوا بالإضافة إليه ، وطواهم بساطه فى حواشيه ، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه . وله شعر يتوج به رءوس معاليه ، إذا ختمت به أذناب أماليه .. » .

وقد كتب الإمام القشيرى كثيرًا من الكتب منها :

١ - الرسالة القشيرية التى نقدمها اليوم للقراء مغتبطين ، كتبها المؤلف فى سنة : سبع وثلاثين وأربعمائة « إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام » .

كتبها تصحيحًا لأوضاع كثيرة انحرفت ، وبيانًا لما ينبغى أن يكون عليه المريد الصادق .

لقد كانت هناك جوانب كثيرة فى الأجواء التى تزعم أنها صوفية قد دب إليها الفساد ، وسلك بعض المدَّعين مسالك ، لا تمت إلى الدين ولا إلى التصوف بصلة ، كما هو الشأن دائمًا فى المدعين المزيفين الذين يوجدون فى كل عصر : وفى كل ميدان ؛ فأشفق الإمام القشيرى « على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر : (أى أمر التصوف) على هذه الجملة قد بُنى قواعده ، وعلى هذا النحو سار سلفه » .

وقاده هذا الاشفاق إلى أن يكتب هذه الرسالة ، مبيِّنًا فيها جانبين :

الجانب الأول : سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم ، وذكر فى هذا الجانب كثيرًا من أعلام الصوفية ، كنماذج ، يسير المريد على هديهم .

أما الجانب الثانى : فإنه مبادئ السلوك ومناهجه .. أو كما يقول هو بأسلوبه : « ذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى : آدابهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم وعقائدهم ، بقلوبهم ، وما أشاروا إليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم ، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة ، ومنكم لى بتصحيحها شهادة ، ولى فى نشر هذه الشكوى سلوة ، ومن الله الكريم فضلًا ومثوبة » .

ولقد كانت هذه الرسالة ، وماتزال ، النبع الصافى الذى يستقى منه كل دارس للتصوف وكل مستشرق لحياة النور » .

تلك هى الرسالة القشيرية : أما كتبه الأخرى فإن له :

٢ - فى تفسير القرآن : « لطائف الإشارات » طبع حديثا .

٣ - وله كتاب « الفتوى » التى أوردها السبكى فى الطبقات .

٤ - وله كتاب « حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح » مخطوط بالأسكوريال .

٥ - وله كتاب « المعراج » فى بانكيبور ، وأخرجه وحققه الدكتور حسن عبدالقادر ، نشر بالقاهرة .

٦ - وله كتاب « شكاية أهل السنة » ذكرها السبكى فى « طبقات الشافعية » كاملة .

٧ - وله كتاب « الفصول » وهو مخطوط بالقاهرة .

٨ - وله كتاب « اللمع » وهو مخطوط بالقاهرة .

٩ - وله كتاب « التوحيد النبوى » وهو مخطوط بالقاهرة .

١٠ - وله كتاب « التيسير فى علم التفسير » وهو مخطوط فى الهندوليدن .

١١ - وله كتاب « ترتيب السلوك » لم يطبع بعد ، وموجود ، مخطوطًا فى الفاتيكان .

١٢ - وله كتاب « التمييز فى علم التذكير » فى استانبول ، وفارس ، والقيروان ، والقاهرة .

١٣ - وله كتاب « القصيدة الصوفية » مخطوط بالقاهرة .

١٤ - وله كتاب « الأربعين حديثا » مخطوط فى ليدن .

١٥ - وله كتاب « شرح أسماء الله الحسنى » مخطوط فى : الموصل ، وفارس ، وتونس ، ودمشق ، وله كتب أخرى .

وقد توفى الإمام القشيرى صبيحة يوم الأحد ، فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ خمس وستين وأربعمائة بمدينة « نيسابور » ودفن بجوار شيخه أبى على الدقاق ، رحمهما الله رحمة واسعة .

الدكتور عبدالحليم محمود
الدكتور محمود بن الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى تفرَّد بجلال ملكوته[1] ، وتوحَّد بجمال جبروته[2] ، وتعزَّز بعلوِّ أحديته ، وتقدَّس بسموِّ صمديته[3] ، وتكبر فى ذاته عن مضارعة كل نظير[4] ، وتنزَّه فى صفاته عن كل تناهٍ وقصور ، له الصفات المختصة بحقِّه[5] ، والآيات الناطقة بأنه غير مشبَّه بخلقه .

فسبحانه من عزيز ، لاحدَّ يناله[6] ، ولاعد يحتاله[7] ، ولا أمد[8] يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ولد يشفعه ، ولا عدد يجمعه ، ولا مكان يمسكه ، ولا زمان يدركه ، ولا فهم يقدره ، ولا وهمٍ يصوره .

تعالى عن أن يقال : كيف هو ؟ أو أين هو ؟ أو اكتسَب بصنعه الزين[9] ، أو دَفع بفعله النقص والشين ؛ إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ولا يغلبه حيٌّ ، وهو الخبير القدير .

أحمده على مايُولى ويصنع ، وأشكره على مايزوى[10] ويدفع[11] ، وأتوكل عليه وأقنع ، وأرضى بما يعطى ويمنع .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة موقن بتوحيده ، مستجير بحسن تأييده .

وأشهدُ أن سيدنا محمدًا عبده المصطفى ، وأمينه المجتبى[12] ورسوله المبعوث إلى كافة

---

(١) ملكوته : سلطانه وملكه العظيم .
(٢) جبروته : قهره لغيره أو جبره لكل كسير .
(٣) صمديته : كونه المقصود فى الحوائج على الدوام .
(٤) مضارعة كل نظير : مشابهة كل شبيه .
(٥) وهى صفات الربوبية التى تميز بها عن خلقه .
(٦) لاحد يناله : لا حصر يدرك كنهه .
(٧) لا عد يحتاله : لا كثرة تجمعه وتقدر عليه بالاحتيال .
(٨) أمد : غاية .
(٩) الزين : الكمال والحسن .
(١٠) يزوى : يقبض ويمنع .
(١١) يدفع : يبسط ويمنح .
(١٢) المجتبى : المختار .

الورى . صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى ، وعلى أصحابه مفاتيح الهدى ، وسلِّم تسليما كثيرًا .

هذه رسالة كتبها الفقير إلى الله تعالى عبدالكريم بن هوازن القشيرى ، إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة .

أما بعد :

- رضى الله عنكم - فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضَّلهم على الكافة من عباده ، بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصَّهم من بين الأمة بطوالع أنواره .

فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق .

صفاهم من كدورات(١) البشرية ، ورقَّاهم إلى محال(٢) المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفَّقهم للقيام بآداب العبودية ، وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية(٣) .

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تكليف ، وتحققوا(٤) بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف .

ثم رجعوا إلى الله(٥) ، سبحانه وتعالى ، بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار ، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال ، علمًا منهم بأنه جلَّ وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه : إبتداء فضل ، وعذابه : حكم بعدل ، وأمره قضاء فصل(٦) .

---

(١) صفاهم من كدرات البشرية : خلصهم وطهرهم من حظوظ أنفسهم ، حيث وفقهم للمجاهدة والرياضة الدائمة .

(٢) محال : أماكن ومنازل .

(٣) مجارى أحكام الربوبية : منشأ تصرفاته تعالى فيهم وفى غيرهم من العطاء والمنع والإسعاد والإضلال .

(٤) تحققوا : أى اتصفوا الطمأنينة قلوبهم بما أبرزته القدرة العلية والحكمة الأزلية .

(٥) رجعوا إلى الله : فعملوا بأحكام الله تعالى متبرئين من الحول والقوة ، مراقبين الله فى حركاتهم وسكناتهم ملاحظين أنفسهم بالانكسار والافتقار إليه تعالى .

(٦) وهؤلاء الموصوفون بما ذكر ، هم : المقربون المتصفون بالإحسان . وفى الخبر الصحيح : « ما الإحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك » والأمة درجاتهم متفاوتة ، وينقسمون إلى : أصحاب اليمين ، وإلى المقربين كما دل عليه القرآن الكريم ، فمن صح إيمانه وعمل بما أمر به شرعاً فهو من أصحاب اليمين ، ومن قلت غفلاته وتوالت منه نوافله وطاعاته ، وتوالى على قفيه ذكره ودعواته فهو المقرب والمحسن ، ويعبر عنه بـ « الصوفى » الذى صفا عن الأخلاق المذمومة وتخلق بالأخلاق المحمودة ، حتى أحبه الله وحفظه فى جميع حركاته وسكناته ، كما جاء فى الخبر الصحيح : « ماتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » .

ثم اعلموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أمـا الخيـام فـإنها كخيـامهم   وأرى نسـاء الحى غـير نسائهـا

حصلت الفترة[١] فى هذه الطريقة ،، لا ، بل اندرست[٢] الطريقة بالحقيقة :

مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطُه .

وارتحل عن القلوب حرمة[٣] الشريعة ، فعدُّوا قلة المبالاة بالدين أوثقَ ذريعة[٤] ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام[٥] . ودانوا[٦] بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفُّوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ، والارتفاق[٧] بما يأخذونه من السوقة ، والنسوان ، وأصحاب السلطان .

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا من رقِّ الأغلال[٨] وتحققوا بحقائق الوصال[٩] وأنهم قائمون بالحق ، تجرى عليهم أحكامه ، وهم محو[١٠] ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كُوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية[١١] ، وزالت عنهم أحكام البشرية . وبقوا

---

(١) الفترة : التراخى والتفريط فى طريقة الصوفية .

(٢) اندرست : زالت ومحيت ، يقصد أن طريقة الصوفية فى الحقيقة قد زالت معالمها من نفوسٌ الكثيرين بعد أن غلب عليهم قلة المبالاة ومخالفتهم الشريعة .

(٣) حرمة الشريعة : احترامها .

(٤) أى جعلوا قلة الاهتمام بأحكام الدين أقوى وسيلة يصلون بوساطتها لمقاصدهم الدنيوية الخسيسة .

(٥) لم يفرقوا بين الحلال والحرام ، بل جمعوا بينهما من غير تحر .

(٦) تدينوا بعدم احترام الشيخ والعالم والكبير .

(٧) الارتفاق : الانتفاع .

(٨) زعموا أنهم وصلوا إلى الحقائق العليا ، وتخلصوا من محبة ما سوى الله ، ونفضوا أغلال الرق والعبودية لغير المولى سبحانه . والوصول عند الصوفية هو فناء العبد عن أوصافه وعاداته فى أوصاف الحق سبحانه وتعالى .

(٩) أى زعموا أنهم اتصفوا بالقرب المعنوى من الله .

(١٠) وهذا من تتمة زعمهم : أى أنهم لم يبق فيهم بقية يتعلق بها التكليف لتمام فنائهم حتى صاروا إلى حالة ينتفى فيها العتب ، وينعدم اللوم على كل ما يصدر عنهم .

(١١) أى جذبت قلوبهم وأرواحهم للحق جذباً سريعاً حتى لم يبق فيهم سعة لغيره تعالى .

بعد فنائهم عنهم[1] بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا .

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار ، غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء ، أو يجد مخالف لثلبهمْ مساغًا[2]؛ إذ البلوى فى هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة .

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم[3]، ولعل الله سبحانه يجود بلطفه فى التنبه لمن حاد عن السنة المثلى فى تضييع آداب هذه الطريقة .

ولما أبى الوقت إلا استصعابًا . وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تماديًا فيما اعتادوه واغترارًا بما ارتادوه[4] .

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر[5] – على هذه الجملة[6] – بنى قواعده . وعلى هذا النحو سار سلفه .

فعلَّقت[7] هذه الرسالة إليكم ، أكرمكم الله ، وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم ، وعقائدهم بقلوبهم[8]، وما أشاروا إليه من مواجيدهم[9]، وكيفية ترقيهم[10] من بدايتهم إلى نهايتهم ؛ لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة ، ومنكم لى بتصحيحها شهادة[11]، ولى فى نشر هذه الشكوى سلوة[12]، ومن الكريم فضلا ومثوبة .

وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره ؛ وأستكفيه ؛ وأستعصمه[13]. من الخطأ فيه[14] واستغفره واستعينه . وهو بالفضل جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

---

(١) أى عن أنفسهم .
(٢) أى لنقصهم مدخلا .
(٣) آمل أن تنقطع الأسباب المفضية إلى التهاون والتكاسل عما به صلاح النفس .
(٤) ارتادوه : اختاروه وتلبسوا به .
(٥) وهو الوصول إلى أعلى الحقائق والأحوال .
(٦) مزاعمهم وادعاءاتهم .
(٧) علقت : جمعت وألفت .
(٨) ومعتقداتهم فى قلوبهم .
(٩) مواجيدهم : ما تجده قلوبهم من الإلهامات الإلهية .
(١٠) انتقالهم من كمال إلى كمال أعلى منه .
(١١) شهادة : إقرار بأنه صحح طريق السلف ، بايضاح ما كانوا عليه .
(١٢) سلوة : بغضاً لأولئك الزاعمين المدعين .
(١٣) أستكفيه وأستعصمه ، أطلب منه الكفاية والعصمة والحفظ .
(١٤) وفى نسخة أخرى « وأستعفيه » أى أطلب منه العفو عن الخطأ .

فصـــل

فى بيان اعتقاد هذه الطائفة فى مسائل الأصول(١)

اعلموا ، رحمكم الله ، أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة(٢) فى التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع(٣) ودانوا(٤) بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة : من توحيد ليس فيه تمثيل(٥) ولا تعطيل(٦)، وعرفوا ما هو حق القدم(٧). وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم(٨) .

ولذلك قال سيِّد هذه الطريقة « الجنيد »(٩)، رحمه الله : « التوحيد إفراد القدم من الحدث(١٠).

---

(١) أصول علم التوحيد ومسائله المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته ، وما يجب له وما يجوز ، وما يستحيل فى حقه .

(٢) قال الشيخ العروسى فى حاشيته « نتائج الأفكار القدسية » : « إن الدين بستان والشريعة سياجه ، والطريقة رياضه ، والحقيقة ثمراته ، فمن لا شريعة له لا دين له ، ومن لا طريقة له لا شريعة له ، ومن لاحقيقة له لا طريقة له ، ثم قال : « إن طريقة الصوفية تشتمل على عشرة أشياء : أحدها حقيقة التصوف ، وهى ترجع إلى صدق التوجه إلى الله تعالى ، والثانى : أن مدار ذلك على إفراد القلب والقالب لله وحده ، والثالث : أنه من الدين بمنزلة الروح من الجسد ، والرابع أن نظر الصوفى فى وجه الكمال والنقص ، والخامس : أن نظر الفقيه فيما يسقط الحرج ، والأصولى ، فيما يصح به الإيمان ويثبت ، فنظر الصوفى أخَص من نظرهما ولذلك صح إنكارهما عليه ، ولا يصح إنكاره على أحدهما ، « فصوفى الفقهاء خير من فقيه الصوفية » . والسادس : إظهار شرف التصوف ودليله : برهانًا ونصًا ، والسابع أن الفقه شرط فى صحته ، فلذلك قدم عليه ؛ والثامن : ذكر الاصطلاح واختصاصه بكل فن على حسبه ، والتاسع مفاتيح الفتح فيه أربعة أحكام : المبادىء ؛ وصدق الرغبة فى الوصول ، والتشوف للحقائق ، وعدم التقيد بالمنقول مع التحقيق . والعاشر : أنه طريق عجيب وغريب ومبناه على اتباع الأحسن دائمًا ، ففى العقائد على اتباع السلف ، وفى الأحكام على الفقه ، وفى الفضائل على مذهب المحدثين ، وفى الآداب على ما به صلاح القلوب » .

(٣) البدع : جمع بدعة ، وهى ما يجرى على أصول الشَريعة من نص الكتاب أو الحديث ، أو الإجماع ، أو القياس .

(٤) اتخذوا ما وجدوا عليه السلف من الاعتقادات والأعمال ديناً لهم .

(٥) تمثيل : تشبيه بحادث من الحوادث .

(٦) تعطيل : أى بنفى الصفات فراراً من تعدد القدماء كما ذهب إليه جماعة « المعطلة » .

(٧) أى اعتقدوا بما يجب فى حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل ؛ والمراد بالقدم : القديم ، وهو الله سبحانه وتعالى .

(٨) التزموا الخضوع والافتقار إليه سبحانه ، واتخذوا العبودية شعاراً ، فلم ينازعوا فى شىء من أحكام الربوبية ، والموجود عن العدم ، هو : الحادث الذى وجد بعد أن لم يكن .

(٩) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، مولده ووفاته ببغداد « ٢٩٧ هـ - ٩١٠ م » وعرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز ، قال أحد معاصريه : ما رأت عيناى مثله ؛ الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه ، وهو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد . وقال ابن الأثير فى وصفه : إمام الدنيا فى زمانه ؛ وعده العلماء شيخ مذهب التصوف ، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة ، محمى الأساس من شبه الغلاة ، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع .

(١٠) افراده سبحانه من الحدث : أى الحدوث ، وذلك إنما يتم بعد معرفة ما يجب له تعالى ، وما يجوز ، وما يستحيل .

وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ، ولائح الشواهد .

كما قال أبو محمد الجريرى[١]، رحمه الله : « من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور فى مهواة من التلف » يريد بذلك : أن من ركن إلى التقليد ، ولم يتأمل دلائل التوحيد ؛ سقط عن سنن[٢] النجاة ؛ ووقع فى أسر الهلاك .

ومن تأمل ألفاظهم ، وتصفح كلامهم ، وجد فى مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها ما يثق - بتأمله - بأن القوم لم يقصروا فى التحقيق[٣] عن شأو[٤]، ولم يعرجوا فى الطلب على تقصير .

ونحن نذكر فى هذا الفصل جملا من متفرقات كلامهم فيما يتعلق بمسائل الأصول .

ثم نحرر على الترتيب بعدها ما يشتمل على ما يحتاج إليه فى الاعتقاد ، على وجه الإيجاز والاختصار ، إن شاء الله تعالى .

سمعت : الشيخ أبا عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمى[٥]، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالله بن موسى السلامي يقول : سمعت أبا بكر الشبلى[٦] يقول : « الواحد : المعروف قبل الحدود[٧] وقبل الحروف » وهذا صريح من الشبلى أن القديم - سبحانه - لا حدَّ لذاته[٨]، ولا حروف لكلامه .

سمعت أبا حاتم الصوفى ، يقول : سمعت أبا نصر الطوسى يقول : سئل رُويم[٩] عن أول فرض افترضه الله عزَّ وجلَّ على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة ؛ لقوله جلَّ ذكره : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[١٠]. قال ابن عباس : إلا ليعرفون[١١].

---

(١) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن حسن الجريرى ، من كبار أصحاب الجنيد توفى سنة ٣١١ هـ .

(٢) سنن : طريق .

(٣) أى التحقيق للعقائد .

(٤) شأو : غاية .

(٥) من علماء المتصوفة ولد سنة (٣٣٠ هـ - ١٩٤٢ م) وتوفى سنة (٤١٢ هـ ١٠٢١ م) مولده ووفاته فى نيسابور ، له عدة كتب منها : «حقائق التفسير» وهو مختصر على طريقة أهل التصوف، «وطبقات الصوفية» و «أدب الصحبة» و «الفتوة».

(٦) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، بغدادى المولد والنشأة توفى سنة ٣٣٤ هـ وتفقه على مذهب الإمام مالك ؛ وصحب الجنيد .

(٧) الحدود : الجهات . والحروف : الأصوات .

(٨) لا حد لذاته : لا جهة تحويه .

(٩) رويم هو أبو محمد رويم بن أحمد ، مات سنة ٣٠٢ هـ ببغداد ، وكان عالما بالقرآن عارفاً بالتصوف .

(١٠) آية ٥٦ من سورة الذاريات .

(١١) فهو تعالى إنما خلق العالم ليستدل به عليه ، كما قال تعالى ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ولهذا قيل « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » .

وقال الجنيد : إن أول ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة[١] : معرفة المصنوع صانعه[٢]، والمحدث كيف كان إحداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدَث ، ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ؛ فإن من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

أخبرنى محمد بن الحسين ، قال : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت أبا الطِّيب المراغى يقول : للعقل دلالة[٣]، وللحكمة[٤] إشارة ، وللمعرفة شهادة ؛ فالعقل يدل . والحكمة تشير . والمعرفة تشهد : أن صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد .

وسئل الجنيد عن التوحيد ، فقال : إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته : أنه الواحد ، الذى لم يلد ، ولم يولد . بنفى الأضداد ، والأنداد ، والأشباه ، بلا تشبيه . ولا تكييف ، ولا تصوير ولا تمثيل[٥] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٦] .

أخبرنا محمد بن يحيى الصوفى ، قال : أخبرنا عبدالله بن على التميمى الصوفى ، يحكى عن الحسين بن على الدامغانى ، قال : سئل أبو النصراباذى عن المعرفة ، فقال : المعرفة : اسم ، ومعناه وجود تعظيم فى القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه .

وقال أبو الحسن البوشنجى[٧]، رحمه الله : التوحيد : أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ، ولا منفىِّ الصفات .

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت محمد بن محمد بن غالب . قال : سمعت أبا نصر أحمد بن سعيد الأسفنجانى يقول ، قال : الحسين بن منصور[٨] : ألزم الكلَّ الحدث[٩]، لأنَّ القدم له، فالذى بالجسم ظهوره[١٠] فالعرضَ يلزمه، والذى بالأداة[١١]

---

(١) عقد الحكمة : اعتقادها .

(٢) بصفاته التى يتميز بها عن سائر الممكنات .

(٣) براهين يستدل بها على وحدانية الله سبحانه .

(٤) الحكمة : هى العلم بحقائق الأشياء ، وأوصافها ، وخواصها ، وأحكامها وارتباط الأسباب بالمسببات ، والعمل بمقتضى ذلك كله .

(٥) أى أن التوحيد هو اعتقاد الوحدة لله تعالى اعتقاداً ناشئاً عن نظر ، نافياً الضد والند ، بلا كيف ولا صورة .

(٦) آية ١١ من سورة الشورى .

(٧) أبو الحسن على بن أحمد بن سهل البوشنجى توفى سنة ٣٤٨ هـ بنيسابور .

(٨) هو الحلاج : أبو مغيث الحسين بن منصور . فيلسوف متعبد زاهد ؛ أصله من بيضاء فارس ، نشأ فى العراق . ظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ وتوفى سنة ٣٠٩ هـ كثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسى فسجن وعذب وهو صابر .

(٩) أحكم بأن جميع المخلوقات حادثة .

(١٠) فالحادث الذى يدرك بالجسم .

(١١) بالأداة : بالأسباب ، كالحياة ، وغيرها .

اجتماعه[١] فقواها تمسكه[٢] والذى يؤلِّفه وقت يفرقه وقت ، والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه[٣]. والذى الوهم يظفر به[٤] فالتصوير يرتقى إليه ؛ ومن آواه محل أدركه أين[٥]، ومن كان له جنس طالبه مكيِّف[٦] .

إنه سبحانه لا يظلُّه فوق[٧]، ولا يقله تحت[٨]، ولا يقابله حد[٩] ولا يزاحمه عند[١٠]، ولا يأخذه[١١] خلْف ، ولا يحدُّه أمام ، ولم يظهره قبل ولم يفنه بعد[١٢] ولم يجمعه كلٌّ ولم يوجده كان[١٣]، ولم يفقده ليس .

وصفه : لا صفة له[١٤]. وفعله : لا علة له[١٥]؛ وكونه : لا أمد له[١٦]. تنزَّه عن أحوال خلقه ، ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج[١٧]. باينهم بقدمه ، كما باينوه بحدوثهم .

إن قلت : متى[١٨]، فقد سبق الوقتَ كونه[١٩]. وإن قلت : هو ، فالهاء والواو خلْقه وإن قلت : أين ، فقد تقدَّم المكانَ وجوده .

فالحروف آياته[٢٠]. ووجوده إثباته[٢١] ومعرفته توحيده[٢٢]. وتوحيده تمييزه من خلقه .

---

(١) اجتماعه : أى اجتماع حواسه الظاهرة والباطنة .
(٢) أى قوى هذه الأسباب تمسكه عن التفرق .
(٣) أى والذى يكون وجوده بغيره ، فشدة الافتقار إلى ذلك الغير لازمة له لزوماً ذاتيا .
(٤) يتخيله الذهن ويتعلق به .
(٥) أى ومن ثبت له التحيز والمكان جاز أن يسأل عنه بلفظ « أين » ، التى يسأل بها عن المكان .
(٦) أى سائل « بكيف » التى يسأل بها عن الحال ، وعن تمييز أنواع الجنس الواحد .
(٧) فوق : علو ، أى ليس فوقه شىء .
(٨) لا يحمله سفل ، لأن ذلك تحيز وهو من عوارض الأجسام والله منزه عن ذلك .
(٩) حد : جهة .
(١٠) عند : محل .
(١١) يأخذه : يحده ويحصره .
(١٢) بل هو ظاهر قبل وجود الخلق وبعد .
(١٣) لا يقال فى حقه تعالى وجد فى وقت كذا .. لحدوث الزمان والحق - تعالى - أزلى قديم . ولثبوت قدمه لا يقبل الانتفاء (وهذا معنى قوله لا يفقده ليس) .
(١٤) أى لا كيفية له ولا يمكن إدراك حقيقة وصفه حتى يكيف ويصور .
(١٥) علة : غرض وباعث .
(١٦) وجوده لا نهاية له .
(١٧) معالجة بوسايط وأسباب للإيجاد .
(١٨) متى : أى متى وجد .
(١٩) كونه : وجوده .
(٢٠) أى مادة آياته ودلائله المنزلة على نبيه محمد ﷺ .
(٢١) لا يكفى مجرد الاعتقاد بوجوده ، بل لابد من إقامة الأدلة على ثبوته .
(٢٢) معرفته بصفاته وليده توحيده .

ما تُصوِّر فى الأوهام فهو بخلافه ، كيف يحلُّ به ما منه بدأه ؟ أو يعود إليه ما هو أنشأه ؟ لا تماقله[١] العيون ، ولا تقابله الظنون[٢] قربه كرامته[٣]، وبُعده إهانته ، علوهُ من غير توقُّل[٤] ومجيئه من غير تنقُّل[٥] .

هو : الأول[٦]، والآخر[٧]، والظاهر[٨]، والباطن ، القريب البعيد الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

سمعت أبا حاتم السجستانى[٩] يقول : سمعت أبا نصر الطوسىَّ السرَّاج يحكى عن يوسف ابن الحسين ، قال : قام رجل بين يدى ذى النون المصرى[١٠]، فقال :

أخبرنى عن التوحيد : ما هو ؟ فقال هو : أن تعلم قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلَّة كل شىء صنعه[١١]، ولا علَّة لصنعه . وليس فى السموات العلا ، ولا فى الأرضين السفلى مدبِّر غير الله ، وكل ما تصوّر فى وهمك فالله بخلاف ذلك .

وقال الجنيد : التوحيد : علمك وإقرارك بأن الله فرد فى أزليته[١٢] لا ثانى معه ولا شىء يفعل فعله .

وقال أبو عبدالله بن خفيف : الإيمان : تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب[١٣] .

وقال أبو العباس السيارى[١٤] : عطاؤه على نوعين : كرامة ، واستدراج فما أبقاه عليك فهو كرامة ، وما أزاله عنك فهو استدراج ، فقل : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى . وأبو العباس السيارى كان شيخ وقته .

---

(١) لاتماقلة العيون : لا تراه بالمقل .
(٢) لا تدركه الأوهام والعقول ، لقصور الحادث عن إدراك القديم جل شأنه .
(٣) قربه من عبده إحسان له وإكرام .
(٤) علوه على عبده جلالة وعظمة ، لا علو مكان .
(٥) مجىء فضله ونزول أمره من غير حركة أو انتقال .
(٦) قبل كل شىء بلا بداية .
(٧) بعد كل شىء بلا نهاية .
(٨) آثار قدرته .
(٩) هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمى توفى سنة ٢٤٨ هـ ، من أهل البصرة عالم له نيف وثلاثون كتاباً .
(١٠) هو أبو الفيض ذو النون المصرى الإخميمى . عالم صوفى ، ورع توفى سنة ٢٤٥ هـ .
(١١) قدرته أوجدت الكائنات فلا صانع غيره .
(١٢) منفرد فى أزليته ، لأنه كان ولا شىء معه .
(١٣) أى جزم القلوب وتصديقها بحقية الذى أعلمه الحق لنبيه من الأحكام والشرائع التى كانت تعد قبل البعثة مما غاب عن الخلق ، ولم تعلم إلا بوساطته ﷺ .
(١٤) ستأتى ترجمته .

سمعت الأستاذ أبا على الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول : غمزَ رَجلٌ رِجل أبى العباس السيارى : فقال : تغمز رِجلا ما نَقلتها قط فى معصية الله عزَّ وجل !! .

وقال أبو بكر الواسطى[1] : من قال « أنا مؤمن بالله حقا » قيل له : الحقيقة تشير[2] إلى إشراف ، وإطلاع ، وإحاطة ، فمن فقده بطل دعواه فيها .

يريد بذلك ما قاله أهل السنَّة : إن المؤمن الحقيقى من كان محكوما له بالجنة[3] فمن لم يعلم ذلك من سرٍّ حكمة الله تعالى[4]، فدعواه : بأنه مؤمن حقا غير صحيحة .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا الحسن العنبرى يقول : سمعت سهل بن عبدالله التسترى[5] يقول : ينظر إليه ، تعالى ، المؤمنون[6] بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

وقال أبو الحسين النورى[7] : شاهد الحقُّ القلوبَ ، فلم ير قلبًا أشوق إليه من قلب محمد ﷺ ، فأكرمه بالمعراج ، تعجيلا للرؤية والمكالمة .

سمعت الإمام أبا بكر محمد بن الحسن بن فورك[8]، رحمه الله تعالى ، يقول : سمعت محمد ابن المحبوب – خادم أبى عثمان المغربى – يقول : قال لى أبو عثمان المغربى يومًا :

يامحمد ، لو قال لك أحد : أين معبودك ؟ إيش تقول ؟

قال : قلت : أقول حيث لم يزل[9] .

قال : فإن قال : أين كان فى الأزل[10] ؟ إيش تقول ؟

---

(١) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطى ؛ عالم كبير من خراسان من كبار اتباع الجنيد توفى بمرو سنة ٣٢٠ هـ .

(٢) تشير : تستلزم والمراد من العبارة أن الإيمان المجرد عن النظر الصحيح المؤدى إلى التصديق بكل ما جاء من عند الله لا ينفع وأن من لم يحصل له اعتقاد صحيح مستند إلى نظر قوى بطلت دعواه بأنه مؤمن بالله حقاً .

(٣) لاستناده إلى البرهان القوى الذى أوصله إلى الإيمان الحقيقى .

(٤) بأن نطق بالإيمان بلسانه مع خلو قلبه عن معانيه فدعواه غير صحيحة ؛ إذ النطق باللسان مع خلو القلب عن معانى الإيمان لا يغنى فى الخروج من أسر الجهالات والضلالات .

(٥) صوفى ورع ، لقى ذا النون وأخذ عنه الأكابر طبقة بعد طبقة . توفى بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ .

(٦) فى الآخرة لقوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة .

(٧) هو : أبو الحسين أحمد بن محمد النورى . بغدادى المولد والمنشأ ، من أقران الجنيد ، قال الخطيب البغدادى : هو أعلم العراقيين بلطائف القوم . توفى سنة ٢٩٥ هـ .

(٨) الأنصارى الأصبهانى ، من كبار الصوفية وفقهاء الشافعية توفى على مقربة من نيسابور ودفن بها سنة ٤٠٦ هـ .

(٩) أى على الحالة والصفة اللائقين به فيما لا يزال من الزمن المتجدد .

(١٠) على أى صفة كونه فى القدم ؟

قال : قلت : أقول حيث هو الآن ، يعنى : أنه كما كان ولا مكان فهو الآن كما كان[١] .

قال : فارتضى منى ذلك ، ونزع قميصه وأعطانيه .

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك ، رحمه الله تعالى ، يقول : سمعت أبا عثمان المغربى ، يقول : كنت أعتقد شيئًا من حديث الجهة[٢]، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبى[٣]، فكتبت إلى أصحابنا بمكة : أنى أسلمت الآن إسلامًا جديدًا .

سمعت محمد بن الحسين السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول ، وقد سئل عن الخلق ، فقال : قوالب وأشباح تجرى عليهم أحكام القدرة[٤] .

وقال الواسطى : لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله[٥]، وظهرتا به لا بذواتها ، كذلك قامت الخطرات والحركات بالله لا بذواتها ، إذ الحركات والخطوات فروع الأجساد والأرواح[٦] . صرَّح بهذا الكلام أن أكساب العباد[٧] مخلوقة لله تعالى ، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله تعالى ، فكذلك لا خالق للأعراض إلا الله تعالى .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبدالله يقول : سمعت أبا جعفر الصيدلانى يقول : سمعت أبا سعيد الخراز[٨] يقول : من ظنَّ أنه يبذل الجهد[٩] يصل إلى مطلوبه فمتَعنٍ[١٠]، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمنٍ .

---

(١) لا مكان له ولا زمان .

(٢) أى كنت أميل إلى القول بالجهة له تعالى وأنه تعالى على العرش .

(٣) بعد أن سمع كلام المحققين والبراهين الدالة على تنزيهه عن الجهة .

(٤) تصرفهم قدرة الله ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا .

(٥) وجدت بقدرته .

(٦) الحركات تابعة للأجسام، والخواطر تابعة للأرواح ، والأرواح والأجسام موجودة بقدرة الله ، وهى أصل ، والحركات والخواطر فرع ، وماثبت للأصل من كونه وجد بقدرة الله يثبت كذلك للفرع .

(٧) أكتساب العباد : أفعالهم البدنية والقلبية .

(٨) هو : أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، من بغداد توفى سنة ٢٧٧ هـ . شيخ الصوفية . عارف بالله ، صحب ذا النون المصرى وغيره من أقطاب الصوفية . له كتاب « الطريق إلى الله » وغيره .

(٩) الجهد : فتح الجيم وضمها : الطاقة .

(١٠) متعن : متعب نفسه ، مجهد لها . وقال الشيخ العروسى « إن الوصول بمعنى القرب من رحمته سبحانه وتعالى ، لا يلزم ترتبه على العمل ، بل الاعتبار بما سبق به القضاء الأزلى ، مما لا إطلاع لنا عليه ، وحينئذ فلا يصح الاعتماد على خير العمل ، ولا القنوط من شر ، لجهل المقدر ، فعلى العبد الامتثال مع التفويض إليه تعالى : وغاية الأمر أن الاستقامة على الأعمال الخيرية علامة على حسن العاقبة .

وقال الواسطى : المقامات(١) أقسام قُسِّمت(٢)، ونعوت أجريت ، كيف تُستجلب بحركات ؟ أو تنال بسعايات(٣) ؟ .

وسئل الواسطى عن الكفر بالله أو لله ، فقال : الكفر والإيمان ، والدنيا والآخرة : من الله ، وإلى الله ، وبالله ، ولله : من الله ابتداءً وإنشاء ، وإلى الله مرجعًا وانتهاءً ، وبالله بقاءً وفناءً ، ولله ملكًا وخلقًا .

وقال الجنيد : سئل بعض العلماء عن التوحيد ، فقال : هو اليقين .

فقال السائل : بيِّن لى ما هو ؟

فقال : هو : معرفتك ، أن حركات الخلق وسكونهم ، فعل الله عزَّ وجلَّ ، وحده ، لا شريك له فإذا فعلت ذلك فقد وحَّدته .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالواحد بن على ، يقول : سمعت القاسم بن القاسم يقول سمعت محمد بن موسى الواسطى يقول محمد بن الحسين الجوهرى يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول ، وقد جاءه رجل فقال : ادع الله لى فقال :

إن كنت قد أيدت فى علم الغيب(٤) بصدق التوحيد ، فكم من دعوة مجابة قد سبقت لك ، وإلا فإن النداء لا يُنقذ الغرقى(٥) .

وقال الواسطى : ادَّعى فرعون الربوبية على الكشف(٦) ، وادَّعت المعتزلة على الستر ، تقول : ما شئت فعلت(٧) .

وقال أبو الحسين النورى : التوحيد : كلُّ خاطر يشير إلى الله تعالى ، بعد أن لا تزاحمه خواطر التشبيه .

وأخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت عبدالواحد بن على

---

(١) المقامات : الطرق الموصلة إليه تعالى كالزهد والورع وغيرهما .

(٢) قسمت : قدرت بتقدير الله .

(٣) وما دامت الأعمال والحركات لا توصل إلى الدرجات العالية ، فاللازم فى حق العبيد القيام بمقتضى الأمر والنهى مع تفويض القبول وعدمه إلى الله تعالى ، حتى يدوم لهم الخوف والرجاء اللذان بهما تتحقق لهم العبودية .

(٤) أى فى علم الله .

(٥) أى وإن لم تكن مؤيداً فى علم الغيب ، فمجرد الدعاء لا ينتج حصول المطلوب بعينه ، كمجرد نداء الغريق بدون اتخاذ الأسباب لإخراجه من الغرق .

(٦) أى بصريح العبارة حيث قال « أنا ربكم الأعلى » .

(٧) المعتزلة ، ذهبوا إلى أنهم خلقوا أفعالهم الاختيارية ، وقالوا « ماشئنا فعلنا » والحق أنه لا يفعل ما يشاء إلا الحق سبحانه وتعالى .

بكر ، يقول : سمعت هلال بن أحمد يقول : سئل أبو على الروذبارى[١] عن التوحيد ، فقال :

التوحيد : استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل ، وإنكار التشبيه ، والتوحيد فى كلمة واحدة : كل ما صورَّه الأوهام والأفكار فالله سبحانه بخلافه ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٢].

وقال أبو القاسم النصر أباذى[٣] : الجنة باقية بإبقائه ، وذكرُه لك ، ورحمته ، ومحبته لك باق ببقائه ، فشتان بين ما هو باق ببقائه ، وبين ما هو باق بإبقائه[٤] .

وهذا الذى قاله الشيخ أبو القاسم النصر أباذى ، هو غاية فى التحقيق ؛ فإن أهل الحق قالوا صفات ذات القديم سبحانه : باقيات ببقائه تعالى . فنبه على هذه المسألة وبين أن الباقى باقٍ ببقائه بخلاف ما قاله مخالفو أهل الحق[٥] « فخالفوا الحق » .

أخبرنا محمد بن الحسين ؛ قال : سمعت النصر أباذى يقول : أنت متردد بين صفات الفعل وصفات الذات ، وكلاهما صفته تعالى ، على الحقيقة ، فإذا هيَّمك[٦] فى مقام التفرقة قرّنك بصفات فعله ، وإذا بلَّغك إلى مقام الجمع قرنك بصفات ذاته ، وأبو القاسم النصر أباذى كان شيخ وقته .

سمعت الإمام أبا إسحق الإسفراينى ، رحمه الله ، يقول : لما قدمت من بغداد كنت أدرس فى جامع نيسابور مسألة الروح ، وأشرح القول فى أنها مخلوقة ، وكان أبو القاسم النصر أباذى قاعدًا متباعدًا عنا ؛ يصغى إلى كلامى ، فاجتاز بنا بعد ذلك يومًا - بأيام قلائل ، فقال لمحمد الفراء : اشهد أنى أسلمت جديدًا على يد هذا الرجل ، وأشار إلىّ[٧] .

سمعت محمد بن الحسين السلمى ، يقول : سمعت أبا حسين الفارسى يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك يقول : سمعت الجنيد يقول : متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له

---

(١) هو : أبو على أحمد بن محمد الروذبارى . أقام بمصر ومات بها سنة ٣٢٢ هـ وولد ببغداد ، كان إماما من أئمة الصوفية ، وأعلم أهل زمانه بها .

(٢) آية ١١ من سورة الشورى .

(٣) هو : أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر أباذى ، كان محدثا زاهداً ورعاً وكان فى علم التصوف إماماً ، مات بمكة سنة ٣٦٦ هـ .

(٤) الجنة . وما أعده الله فيها للمؤمنين ، كل ذلك من الذى يبقى بإبقاء الله تعالى له ، ومحبة الله : وذكره لعبده ، من الذى يبقى ببقاء الذات : فالثانى أفضل وأشرف من الأول .

(٥) من أنه لا يبقى شيء ببقائه . والغرض مما قاله الشيخ : أنه ينبغى للعبد أن يكون مشتغلا بنيل ذكر الله له . ومحبته له وشرف منزلته عنده ، دون ما يخلقه له من كرامة دنيوية أو أخروية .

(٦) هيمك : فرق قلبك ووزعه .

(٧) لأنه كان يعتقد قدم الروح ؛ فلما سمع منه أدلة حدوثها صرح بذلك للتصريح السابق .

شبيه ونظير ؟! هيهات ، هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ، ولا وهْم ، ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان .

أخبرنا محمد بن الحسين ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت عبدالواحد بن بكر يقول : حدثنى أحمد بن محمد بن على البرذعى ، قال : حدثنا طاهر بن إسماعيل الرازى ، قال : قيل ليحيى بن معاذ : أخبرنى عن الله عزَّ وجل .

فقال : إله واحد .

فقيل له : كيف هو ؟

فقال : ملك قادر .

فقيل : أين هو ؟

فقال : هو بالمرصاد .

فقال السائل : لم أسألك عن هذا !! ..

فقال : ما كان غير هذا كان صفةَ المخلوق .فأما صفته فما أخبرتك عنه .

وأخبرنا محمد بن الحسين ، قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : كل ماتوهمه[1] متوهم بالجهل أنه كذلك ، فالعقل يدل على أنه بخلافه .

وسأل ابن شاهين الجنيدَ عن معنى : مع[2] .

فقال : مع ، على معنيين : مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة[3]، قال الله تعالى ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[4] .

ومع العامة بالعلم والإحاطة[5]، قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[6] .

فقال ابن شاهين : مثلك يصلح أن يكون دالاًّ للأمة على الله .

وسئل ذو النون المصرى عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ .

---

(١) توهمه : تخيله . وكل تخيل بالنسبة لله تعالى إنما هو وهم .

(٢) فيما فيه المعية من الله بالنسبة إلى خلقه ، نحو قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وقوله « إن الله مع الذين اتقوا » .

(٣) الكلاءة : الحفظ .

(٤) آية ٤٦ من سورة طه .

(٥) وبهذا التفسير ظهر استحالة أن يكون معنى « المعية المصاحبة أو المجاورة أو المداناة .

(٦) آية ٧ من سورة المجادلة .

فقال : أثبتَ ذاته ونفى مكانه ، فهو موجود بذاته ، والأشياء موجودة بحكمه ، كما شاء سبحانه .

وسئل الشبلى[١] عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فقال : الرحمن لم يزل[٢]، والعرش محدث والعرش بالرحمن استوى[٣]. وسئل جعفر بن نصير عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فقال : استوى علمه بكل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء وقال جعفر الصادق[٤] : من زعم أن الله فى شيء ، أو من شيء ، أوعلى شيء ، فقد أشرك ؛ إذ لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان فى شيء لكان محصورًا ، ولو كان من شيء لكان محدثًا[٥] .

وقال جعفر الصادق أيضًا فى قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ : من توهَّم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة ، إنما التدانى أنه كلما قرب منه بَعَّده عن أنواع المعارف[٦] إذ لا دنوَّ ولا بُعد .

ورأيت بخط الأستاذ أبى علىّ أنه قيل لصوفىّ : أين الله ؟ .

فقال : أسحقك الله !! تطلب مع العين أين ؟! .

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، سمعت أبا العباس بن الخشاب البغدادى يقول : سمعت أبا القاسم بن موسى يقول : سمعت محمد بن أحمد يقول : سمعت الأنصارى[٧] يقول : سمعت الخراز يقول :

حقيقة القرب : فقد حِس الأشياء من القلب وهدوء الضمير إلى الله تعالى :

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن على الحافظ يقول : سمعت أبا معاذ

---

(١) هو : أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، بغدادى المولد والمنشأ ، ولد سنة ٢٤٧ هـ وتوفى ٣٣٤ هـ ، صحب الجنيد ، وكان إمام زمانه علماً وورعًا ومعرفةً .

(٢) أى قديم .

(٣) أى والعرش بقدرة الرحمن استوى . فهو تعالى مستغن عنه وعن غيره ، وإنما خلقه إظهاراً لعظمته ، لامكاناً لذاته ، لتعاليه عن ذلك .

(٤) هو أبو عبد الله ، جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين ، الهاشمى القرشى ، سادس الأئمة الأثنى عشر عند الإمامية كان من التابعين وعنه أخذ جماعة منهم : أبو حنيفة ومالك وجابر بن حيان . ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٤٨ هـ .

(٥) سئلت أم سلمة رضى الله عنها عن قوله « الرحمن على العرش استوى » فقالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر .

وسئل عنه الإمام مالك رضى الله عنه فقال : « الاستواء منه غير مجهول والكيف به غير معقول . والإيمان به سنة والسؤال عنه بدعة » .

(٦) قرب منه بقلبه ومناجاته ، بعدت عنه أنواع المعارف الدنيوية الحسية : لاشتغاله بمولاه لا بما عداه .

(٧) هو : أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى .

القزوينى يقول : سمعت أبا الدقَّاق يقول : سمعت أبا عبدالله بن قهرمان يقول : سمعت إبراهيم الخواص[١] يقول :

انتهيت إلى رجل ، وقد صرعه الشيطان ، فجعلت أؤذن فى أذنه ، فنادانى الشيطان من جوفه : دعنى أقتله ؛ فإنه يقول القرآن مخلوق .

وقال ابن عطاء[٢] : إن الله تعالى : لما خلق الأحرف جعلها سرًا له ، فلما خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر[٣]، ولم يبث ذلك السر فى أحد من ملائكته ، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان وفنون اللغات ، فجعلها الله صورًا لها[٤]. صرح ابن عطاء القول بأن الحروف مخلوقة .

وقال سهل بن عبدالله : إن الحروف لسان[٥] فعل ، لا لسان ذات ؛ لأنها فعل[٦] فى مفعول[٧] .

قال : وهذا أيضًا تصريح بأن الحروف مخلوقة .

وقال الجنيد فى جوابات مسائل الشاميين : التوكل عمل القلب ، والتوحيد قول القلب ، قال : هذا قول أهل الأصول ، إن الكلام : هو المعنى الذى قام بالقلب من معنى الأمر والنهى ، والخبر ، والاستخبار .

وقال الجنيد فى جوابات مسائل الشاميين أيضًا : تفرد الحق بعلم الغيوب ، فعلم ما كان ، وما يكون ، وما لايكون : أن لو كان كيف كان يكون .

وقال الحسين بن منصور : من عرف الحقيقة فى التوحيد سقط عنه[٨] : لِمَ وكيف .

أخبرنا محمد بن الحسين ، قال : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : قال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد .

وقال الواسطى : ما أحدث الله شيئًا أكرم من الروح . صرَّح بأن الروح مخلوقة .

---

(١) هو : أبو اسحق إبراهيم بن أحمد الخواص ، لازم الجنيد ، وتوفى سنة ٢٩١ هـ .
(٢) أحمد بن عطاء الروذبارى .
(٣) علمه إياه .
(٤) أى أصبحت هذه الحروف قوالب للمعانى على حسب اختلاف اللغات .
(٥) أى دالة .
(٦) أى مخلوق من جملة ما خلق .
(٧) أى فى مختلف اللغات .
(٨) أى سقط عنه الاعتراض على ما يشاهده ، ولم يقع منه سؤال بلم كان كذا ؟ ، أو كيف كان كذا ؟.

قال الأستاذ الإمام زين الإسلام أبو القاسم[١]، رحمه الله : دلت هذه الحكايات على أن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحق[٢] فى مسائل الأصول .

وقد اقتصرنا على هذا المقدار خشية خروجنا عما أثرناه من الإيجاز والاختصار .

---

(١) القشيرى .

(٢) أهل السنة والجماعة .

فصـــل

قال الأستاذ زين الإسلام أبو القاسم ، أدام الله عزَّه :

وهذه فصول تشتمل على بيان عقائدهم فى مسائل التوحيد ذكرناها على وجه الترتيب .

قال شيوخ هذه الطريقة ، على مايدلُّ عليه متفرقات كلامهم ، ومجموعاتها ، ومصنفاتهم فى التوحيد :

إن الحق ، سبحانه وتعالى : موجود ، قديم[١]، واحد[٢]، حكيم[٣]، قادر[٤]، عليم[٥]، قاهر[٦]، رحيم ، مريد ، سميع ، مجيد ، رفيع[٧]، متكلم ، بصير ، متكبر[٨]، قدير ، حيٌّ ، أحد ، باق[٩]، صمد[١٠] .

وأنه عالم بِعلم ، قادر بقدرة ؛ مريد بإرادة ؛ سميع بسمع ؛ بصير ببصر ؛ متكلم بكلام ؛ حيٌّ بحياة ؛ باقٍ ببقاء .

وله يدان هما صفتان ؛ يخلق بهما ما يشاء ، سبحانه ، على التخصيص

وله الوجه[١١]. وصفات ذاته[١٢] مختصة بذاته ، لا يقال هى هو ، ولا هى أغيار له ، بل هى صفات أزلية[١٣]، ونعوت سرمدية[١٤]، وأنه أحديُّ الذات ، ليس يشبه شيئًا من المصنوعات ، ولا

---

(١) قديم : لا أول لوجوده .

(٢) واحد : لا ثانى له فى الألوهية .

(٣) حكيم : يضع الشىء فى موضعه .

(٤) قادر : لا يعجزه شىء .

(٥) عليم : لا يعزب عن علمه شىء .

(٦) قاهر : غالب .

(٧) رفيع : عظيم .

(٨) متكبر : متعظم ومتعال على غيره .

(٩) باق : باق على الدوان فلا يلحقه العدم .

(١٠) صمد : مقصود .

(١١) الوجه : الذات وفى نسخة : الوجه الجميل .

(١٢) كالعلم والقدرة ، مختصة بذاته لا تتجاوزه إلى غيره ؛ لأنها قديمة ، وغيره حادث والقديم لا يتعلق بالحادث .

(١٣) أزلية : قديمة ، نسبة إلى الأزل وهو القدم .

(١٤) أوصاف دائمة .

يشبهه شيء من المخلوقات ، ليس بجسم ، ولا جوهر ولا عرض ، ولا صفاته أعراض ، ولا يتصورَّ فى الأوهام ، ولا يتقدَّر فى العقول ، ولا له جهة ولا مكان ، ولا يجرى عليه وقت وزمان ، ولا يجوز فى وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا يخصُّه هيئة وقد[١]، ولا يقطعه[٢]نهاية وحدٌّ ، ولا يحله حادث ، ولا يحمله على الفعل باعث[٣]، ولا يجوز عليه لون ولا كوْن ، ولا ينصره مدد ولاعون ؛ ولا يخرج عن قدرته مقدور ؛ ولا ينفك عن حكمه مفطور[٤] ؛ ولا يعزب[٥] عن علمه معلوم ؛ ولا هو على فعله كيف يصنع ملوم ؛ لا يقال له : أين ؛ ولا حيث ؛ ولا كيف[٦]؛ ولا يُستفتح له وجود : فيقال : متى كان : ولا ينتهى له بقاء : فيقال استوفى الأجل والزمان ، ولايقال : لِمَ فعل ما فعل ؛ إذ لا علَّة لأفعاله[٧]؛ ولايقال ما هو ؛ إذ لا جنس له فيتميز بأمارة عن أشكاله[٨] يُرى لا عن مقابلة ، ويَرى غيره لا عن مماقلة ، ويصنع لا عن مباشرة ومزاولة . له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، يَفعل ما يريد ، ويذل لحكمه العبيد ، لا يجرى فى سلطانه إلا ما يشاء ، ولا يحصل فى ملكه غير ما سبق به القضاء ، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون ، وما علم أنه لا يكون ، مما جاز أن يكون : أراد أن لا يكون ، خالق أكساب العباد : خيرها وشرِّها . ومبدع ما فى العالم من الأعيان والآثار : قُلها وكُثْرها ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه .

ومتعبِّد الأنام على لسان الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ؛ بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه ، ومؤيد نبينا محمد ﷺ ، بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، بما أزاح به العذر ، وأوضح به اليقين والنُكر ، وحافظ بيضة[٩] الإسلام بعد وفاته ، ﷺ ، بخلفائه الراشدين ، ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه ، عصم الأمة الحنفية عن الاجتماع على الضلالة ، وحسم مادة[١٠] الباطل بما نصب من الدلالة ، وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشرِكُون ﴾[١١] .

فهذه : فصول تشير إلى أصول المشايخ على وجه الإيجاز . وبالله التوفيق .

---

(١) هيئة وقد : كيفية ومقدار .
(٢) يقطعه : يعدمه .
(٣) لأنه منزه عن الغرض والعلة وإن كانت أفعاله لا تخلو من حكمة .
(٤) مفطور : مخلوق .
(٥) يعزب : يغيب .
(٦) لأنه منزه عن المكان والكيفية .
(٧) لا يسأل عما يفعل .
(٨) أشكاله : أمثاله .
(٩) عزه وجماعته .
(١٠) مادة : أصل ومنشأ .
(١١) آية : ٣٣ من سورة التوبة .

بـاب

فى ذكر مشايخ هذه الطريقة[1]

وما يدلُّ من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة[2]

اعلموا ، رحمكم الله تعالى ، أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ :

لم يتسمَّ أفاضلهم فى عصرهم بتسمية عَلَم ، سوى صحبة رسول الله ﷺ ، إذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم : الصحابة .

ولمَّا أدركهم أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة : التابعين . ورأوا فى ذلك أشرف سِمة[3]. ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس مِمَّن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزّهاد والعُبَّاد .

ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعى[4] بين الفرق ، فكل فريق ادَّعوا أن فيهم زهادًا .

فانفرد خواصُّ أهل السُّنة المراعون أنفاسهم[5] مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم « التصوف » .

واشتهر هذا الأسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة .

ونحن نذكر فى هذا الباب أسامى جماعة من شيوخ هذه الطريقة ، من الطبقة الأولى إلى وقت المتأخرين منهم ، ونذكر جُملا من سِيَرهم ، وأقاويلهم ، بما يكون فيه تنبيه على أصوله ، وآدابهم إن شاء الله تعالى .

---

(١) أى الطريقة المعنوية المعبر بها عن القيام بوظائف العبادات ، والمتوصل بها إلى المقامات : كالزهد والورع وغيرها .

(٢) الشريعة : ما شرعه الله لعباده من الدين .

(٣) سمة : علامة .

(٤) التداعى : التنازع .

(٥) الدائمون على الاشتغال بالعبادة مع المراقبة ، فلا يخرج لهم نفس إلا حاسبوا أنفسهم عليه .

فمنهم :

أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور

من كُورة بلخ ، رضى الله تعالى عنه .

كان من أبناء الملوك ، فخرج يومًا متصيِّدًا ، فأثار ثعلبًا أو أرنبًا وهو فى طلبه ، فهتف به هاتف[1] : يا إبراهيم ، ألهذا خلقتَ ، أم بهذا أُمرت ؟ .

ثم هُتف به أيضًا من « قربوس »[2] سرجه : والله ما لهذا خُلقت ، ولا بهذا أُمرت .

فنزل عن دابته .

وصادف راعيًا لأبيه ، فأخذ جُبَّةً للراعى من صوف ، ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية ، ثم دخل مكة ، وصحب بها سفيان الثورى[3] .

والفضيل[4] بن عياض ، ودخل الشام ومات بها .

وكان يأكل من عمل يده ، مثل : الحصاد ، وحفظ البساتين ، وغير ذلك .

وأنه رأى فى البادية رجلًا علَّمه « اسم الله الأعظم » فدعا به بعده[5] ، فرأى الخضر عليه السلام ، وقال له : إنما علَّمك أخى داود اسم الله الأعظم .

---

(١) من ملك أو حاطر وقع فى قلبه ملهمًا .

(٢) القربوس (بفتح القاف) حنو السرج أى : قسمة المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره .

(٣) هو : سفيان بن سعيد الثورى ولد سنة ٩٧ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ هـ وكان عالمًا عابدًا زاهدًا ، كانوا يسمونه أمير المؤمنين فى الحديث وكان لا يعلم أحدًا العلم إلا إذا تعلم الأدب والتزمه ، وكان يقول : إذا فسد العلماء فمن بقى فى الدنيا يصلحهم ؟ ثم ينشد :

يا معشر العلماء يا ملح البلد ... من يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

وكان إذا جلس للعلم ، وأعجبه منطقه ، يقطع الكلام – خوفًا من الغرور – ويقوم ويقول : أخذنا ونحن لا نشعر ، وكان يملى الحديث ، ويقول : والله لو رآنى عمر بن الخطاب لضربنى بالدرة وأقام لى ، وقال « مثلك لا يصلح للحديث » .

وكان يقول للناس – إذا طلبوا منه الحديث : والله ما أرى نفسى أهلًا لإملاء الحديث ، ولا أنتم أهلًا لأن تسمعوه وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل : « افتضحوا فاصطلحوا » . وكان قد امتنع من الجلوس للعلم فقيل له فى ذلك ، فقال : والله لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه الله لأتيتهم فى بيوتهم وعلمتهم ولكن إنما يريدون به المباهاة وقولهم حدثنا سفيان » . وكان رحمه الله من أعلم هذه الأمة وأعبدها وأزهدها .

(٤) هو أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى شيخ الحرم من أكابر العباد الصلحاء . كان ثقة فى الحديث : أخذ عنه الإمام الشافعى . ومولده فى سمر قند سنة ١٠٥ هـ وتوفى بمكة سنة ١٨٧ هـ .

(٥) أى بعد انصراف الرجل .

أخبرنا بذلك الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : حدثنا محمد بن الحسين بن الخشاب قال : حدثنا أبو الحسن على بن محمد المصرى ، قال : حدثنا أبو سعيد الخراز قال : حدثنا إبراهيم بن بشَّار قال : صحبت إبراهيم بن أدهم ، فقلت : خبِّرنى عن بدء أمرك فذكر هذا .

وكان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن فى باب الورع ، ويحكى عنه أنه قال :

أطب مطعمك ، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار

وقيل : كان عامة[1] دعائه : « اللهم انقلنى من ذلِّ معصيتك إلى عزِّ طاعتك » وقيل لإبراهيم بن أدهم : إن اللحم قد غلا !! .

فقال : أرخصوه أى : لا تشتروه . وأنشد فى ذلك :

وإذا غـلا شىء علـىَّ تركتـه   فيكون أرخص ما يكون إذا غـلا

أخبرنا محمد بن الحسين ، رحمه الله تعالى ، قال : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول سمعت أحمد بن خضرويه يقول ، قال إبراهيم بن أدْهم لرجل فى الطواف :

أعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

أولاها : تغلق[2] باب النعمة ، وتفتح[3] باب الشدَّة .

والثانية : تغلق باب العزِّ ، وتفتح باب الذلِّ .

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

والرابعة : تغلق باب النوم ؛ وتفتح باب السهر .

والخامسة : تغلق بابا الغنى ، وتفتح باب الفقر .

والسادسة تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت .

وكان إبراهيم بن أدهم يحفظ كَرْمًا ، فمرَّ به جندى ، فقال : أعطنا من هذا العنب فقال : ما أمرنى به صاحبُه .

---

(١) عامة : أكثر .

(٢) تغلق : تعرض .

(٣) تفتح : تتعرض .

فأخذ يضربه بسوطه ، فطأطأ رأسه وقال :

اضرب رأسًا طالما عصى الله . فأعجز الرجل ومضى .

قال سهل بن إبراهيم : صحبت إبراهيم بن أدهم ، فمرضت ، فأنفق عليَّ نفقته فاشتهيت شهوة ، فباع حماره وأنفق عليَّ ثمنه ، فلما تماثلت ، قلت :

يا إبراهيم ، أين الحمار ؟ فقال : بعناه ، فقلت : فعلى ماذا أركب ؟ فقال : يا أخى على عنقى ، فحملنى ثلاث منازل .

ومنهم :

أبو الفيض ذو النون المصرى

واسمه : ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن إبراهيم ، وأبوه كان نوبيا[١].

تُوفى سنة : خمس وأربعين ومائتين . فائق فى[٢] هذا الشأن ، وأوحد وقته علمًا ، وورعًا ، وحالا ، وأدبًا .

سعَوا به إلى المتوكِّل ، فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظَه فبكى المتوكِّل وردَّه إلى مصر مكرَّمًا ، وكان المتوكل إذا ذُكر بين يديه أهل الورع يبكى ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحيهلا[٣] بذى النون .

وكان رجلًا نحيفًا ، تعلوهُ حمرة ، ليس بأبيض اللحية .

سمعت أحمد بن محمد يقول : سمعت سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون يقول : مدار الكلام على أربع :

حبُّ الجليل ، وبغض القليل ، واتِّباع التنزيل ، وخوف التحويل[٤] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ؛ يقول : سمعت سعيد بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول : سمعت سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

من علامات المحبِّ لله عزَّ وجل : متابعة حبيب الله ، ﷺ ، فى أخلاقه ، وأفعاله ، وأوامره ، وسننه .

---

(١) أصله من النوبة ، ثم نزل بأخميم من ديار مصر فأقام بها .

قال ابن يونس : امتحن وأوذى « لكونه أتى بعلم لم يعهد ، روى عن مالك والليث ، وروى عنه كثيرون منهم : الحسن بن مصعب ، وابن صبيح ، والطائى .

سمع يومًا صوت لهو دفاف ، فقال : ما هذا ؟ قيل له : عرس ، وسمع بجانبه بكاء وصياحًا ، فقال : ما هذا ؟ قيل : فلان مات . فقال : أعطى هؤلاء فما شكروا وابتلى هؤلاء فما صبروا .

ومن كلامه : « من راقب العواقب سلم » و « والزهاد ملوم الآخرة وهم فقراء العارفين » و « من وثق بالمقادير لم يغتم » و « الأنس بالله نور ساطع والأنس بالناس سم قاطع » و « مفتاح العبادة الفكرة » و « علامة الإصابة مخالفة النفس ، والعبودية أن تكون عبده فى كل حال كما هو ربك فى كل حال » .

(٢) فى نسخة بدون : فى .

(٣) أى فأسرع بذكره ؛ فإنه أفضلهم .

(٤) التحويل : التغيير من حال إلى حال أسوأ ، وزيد فى بعض النسخ بعد العبارة الماضية « فإذا عرف العبد ربه ودنياه ، وتمت استقامته . وخاف على نفسه من الخاتمة فقد استقامت أحواله » .

وسئل ذو النون عن السِّفلة فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله ، ولا يتعرفه .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبدالله ابن شاذان يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول :

حضرت مجلس ذى النون يومًا ؛ وجاءه سالم المغربى ، فقال له : يا أبا الفيض ، ما كان سبب توبتك ؟ قال : عجب لا تطيقه ، قال : بمعبودك إلا أخبرتنى .

فقال ذو النون : أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى ، فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، ففتحت عينى ، فإذا أنا[1] بـ « قنبرة » عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها « سكرجتان »[2] : إحداهما ذهب ، والأخرى فضة وفى إحداهما سمسم ، وفى الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا ، وتشرب من هذا .

فقلت : حسبى ، قد تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت علىَّ بن عمر الحافظ يقول : سمعت ابن رشيق : يقول : سمعت أبا دجانة يقول : سمعت ذا النون يقول :

لا تسكن الحكمة[3] معدة مُلئت طعامًا .

وسئل ذو النون عن التوبة[4] فقال :

توبة العوام[5] تكون من الذنوب ، وتوبة الخواصِّ تكون من الغفلة[6].

---

(١) طائر .

(٢) سكر جتان (مثنى ، والواحدة سكرجة بضم السين) وهى : الصفحة التى يوضع فيها الأكل :

(٣) الحكمة : العلم النافع مع العمل المتقن . قال العروسى : « إن الحكمة حكمتان : منطوق بها ، وهى : علوم الشريعة والطريقة ، ومسكوت عنها ، وهى أسرار الحقيقة التى لا يفهمها علماء الرسوم والعامة ؛ والحكمة المجهولة : هى ما غاب عنا وجهها من أحكام سر القدر الذى استأثر الله بعلمه .. وكل ذلك إنما يتوصل إليه بالجوع الموجب للنشاط فى العبادة ، والمؤثر فى تنوير القلوب حتى تدرك جواهر العلوم قال ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حسب المسلم أكلات يقمن صلبه . فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

(٤) وهى – على الحقيقة – إقلاع التائب عما يتوب عنه ، وعزمه على أن لا يعود إليه ، ورده ظلامه الآدمى إن تعلقت به ..

(٥) قال العروسى « اعلم أنهم يريدون من العوام : القائمين بما عليهم من أحكام الأوامر والنواهى » ثم قال : « حرية العامة بالتخلص من رق الشهوات ، والخاصة بالتخلص من رق العادات ، وخاصة الخاصة بالتخلص من الوقوف مع الأحوال والمقامات حيث تكون لهم أنفة لا ترضى إلا بمشاهدة الذات » .

(٦) أى الغفلة عن الطاعات .

ومنهم :

أبو على الفضيل بن عياض[١]

خرسانى [٢] ، من ناحية مرو .

وقيل إنه وُلد بسمرقند ، ونشأ بأبيَورد مات بمكة فى المحرم سنة : سبع وثمانين ومائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر قال : حدثنا الحسن بن عبدالله العسكرى ، قال : حدثنا ابن أخى أبى زرعة ، قال : حدثنا محمد بن إسحق بن راهويه قال : حدثنا أبو عمار ، عن الفضل بن موسى ، قال :

كان الفضيل شاطرًا[٣]: يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليًا يتلو : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِين آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴾[٤] فقال : يارب قد آن .

فرجع .. فآواه الليل إلى خرِبة ، فإذا فيها رُفقة[٥]، فقال بعضهم : نرتحل ، وقال قوم : حتى نصبح ، فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا .

فتاب الفضيل[٦] وأمَّنهم . وجاور الحرم حتى مات .

وقال الفضيل بن عياض : إذا أحبَّ عبدًا أكثر غمَّه[٧]، وإذا أبغض عبدًا وسَّع عليه دنياه[٨] .

وقال ابن المبارك : إذا مات الفضيل ارتفع الحزن[٩] .

---

(١) هو : الفضيل بن مسعود بن بشر التميمى ، كان إمامًا ربانيًا صمديًا عابدًا شديد الخوف دائم الفكر ، من كلامه « قلوب العارفين : الهموم عمرانها والأحزان أوطانها » و « جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها » و « من خاف الله لم يضره شىء ومن خاف غيره لم ينفعه شىء » و « يهابك الخلق على قدر هيبتك لله » .

(٢) ولد بخراسان . بكورة أبيورد ، وقدم الكونة وهو كبير .

(٣) شطر (بضم الطء) شطارة : اتصف بالدهاء والخباثة فهو شاطر ، والشاطر أيضًا : من أعجزه أهله بخبثه .

(٤) آية ١٦ من سورة الحديد .

(٥) جماعة .

(٦) أى جدد توبته وأظهرها .

(٧) بتذكره أمر آخرته ، وبتقصيره فى أمر دينه .

(٨) قال الشيخ زكريا الأنصارى : « .. أى شغله عنه بحبه لها » .

(٩) لكونه أكثر الناس حزنًا فى وقته .

وقال الفضيل :

لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت علىَّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها ، كما يَتقذَّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه .

وقال الفضيل :

لو حلفت أنِّى مُراء أحبُّ إلىَّ من أن أحلف أنِّى لست بمراء .

وقال الفضيل :

ترك العمل لأجل الناس[١] هو الرياءُ ، والعمل لأجل الناس[٢] هو الشرك .

وقال أبو علىٍّ الرازى : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكًا[٣]،ولا مبتسمًا ، إلا يوم مات ابنه على ، فقلت له فى ذلك ، فقال :

إن الله أحبَّ أمرًا فأحببت ذلك .

وقال الفضيل :

إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خُلق حمارى[٤] وخادمى .

---

(١) أى لأجل ثنائهم .

(٢) حبا فى الحمد ؛ أو نيلًا لعرض فان .

(٣) فيه دليل على كمال حزنه فى سائر أوقاته ، وإنما تكلف الضحك والسرور بموت ولده على خلاف عادته ، لأنه علم أن الله تعالى يحب منه هذه الحالة ، لكونها دليل الرضا بقضائه ..

(٤) أى بأن يتعاصى عليه حماره .. وهذا يفعله الله حفظًا لأوليائه إذا قصروا فى أحوالهم فيما بينهم وبينه ، أدبهم ليرجعوا إليه بسرعة ، وتارة يعكس عليهم أسباب دنياهم . وتارة أخرى أسباب آخرتهم من تغير قلوبهم ، وعدم نشاطهم ، فإذا رجعوا إليه بالتذلل والسؤال من عليهم بشريف نواله ..

ومنهم :

أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى[١]

كان من المشايخ الكبار ، مجاب الدعوة[٢]، يُستشفَى بقبره .

يقول البغداديون : قبر معروف ترياق مجرَّب .

وهو من موالى علىٍّ بن موسى الرضا[٣]، رضى الله عنه ، مات سنة مائتين : وقيل : سنة إحدى ومائتين ، وكان أستاذ السّرى السقطى ، وقد قال له يومًا : إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بى .

سمعت الأستاذ أبا على الدَّقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول : كان معروف الكرخى أبواه نصرانيان ، فسلَّموا معروفًا إلى مؤدبهم ، وهو صبى ، فكان المؤدب يقول له : قل ثالث ثلاثة . فيقول بل هو واحد . فضربه المعلم يومًا ضربًا مبرحًا ، فهرب معروف ، فكان أبواه يقولان : ليته يرجع إلينا على أىِّ دين يشاء ، فنوافقه عليه .

ثم إنه أسلم على يدى « علىٍّ بن موسى الرضا » .. ورجع إلى منزله .. ودقَّ الباب . فقيل : من بالباب ؟ فقال : معروف . فقالوا : على أى دين جئت ؟

فقال : على الدين الحنيفى . فأسلم أبواه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا بكر الحربى يقول : سمعت سريا السقطى يقول : رأيت معروفًا الكرخى فى النوم كأنه تحت العرش ، فيقول الله عز وجل لملائكته : من هذا ؟ فيقولون : أنت أعلم يارب .

---

(١) لم يكن فى العراق فى وقته من يربى المريدين مثله ، وجميع المشايخ يعرفون فى ذلك فضله . قال الغزالى : « كان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان إليه ويسألانه . ولم يكن فى علم الظاهر مثلهما » والكرخى « نسبة إلى كرخ » وهى قرية ببغداد .

(٢) قال خليل الصياد : غاب ولدى فتألمت ، فجئت إلى معروف ، فقلت : غاب ولدى . قال وما تريد ؟.

قلت : رجوعه . فقال : اللهم إن السماء سماؤك والأرض أرضك وما بينهما لك إئت بمحمد ، فأتيت باب الشام فإذا هو واقف ، فقلت : أين كنت ؟ قال : كنت الساعة بالأنبار ولا أعلم ما صار .

(٣) ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، أجله المأمون وعهد إليه الخلافة من بعده ومات قبل أن يمكنه بنو العباس منها ، ولد فى المدينة سنة ١٤٨ هـ ومات بطوس سنة ٢٠٣ هـ .

له كرامات كثيرة : منها أنه قال لرجل صحيح سليم : استعد لما لابد منه « فمات بعد ثلاثة أيام ؛ وروى الحاكم أن أبا حبيب قال : « رأيت المصطفى عليه الصلاة والسلام فى النوم . فى المنزال الذى ينزله الحاج ببلدنا ، فوجدت عنده طبقًا من خوص فيه تمر (صيحانى) ، فناولنى ثمانى عشرة تمرة . وبعد عشرين يومًا قدم على الرضا من المدينة ونزل ذلك المنزل ، وفزع الناس للسلام عليه ، ومضيت نحوه فإذا هو جالس بالموضع الذى رأيت المصطفى جالسًا فيه ، وبين يديه طبق فيه تمر صيحانى فناولنى قبضة فإذا عدتها بعدد ما ناولنى المصطفى ، فقلت : زدنى . فقال : لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك .

فيقول هذا معروف الكرخى ، سَكر من حُبى ، فلا يفيق إلا بلقائى .

وقال معروف : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل ؛ فإن ذلك الذى يقرِّبك إلى رضا مولاك . فقلت : وما ذلك العمل ؟ .

فقال : دوام طاعة ربك ، وخدمة[١] المسلمين ، والنصيحة لهم .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت علىَّ بن محمد الدَّلال يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أبى يقول :

رأيت معروفًا الكرخى فى النوم ، بعد موته ، فقلت له : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى .

فقلت : بِزهدك وورعك ؟ فقال : لا ، بقبولى موعظة ابن السماك ، ولزوم[٢] الفقر ، ومحبتى للفقراء .

وموعظة ابن السماك : ما قاله معروف :

كنت مارا بالكوفة ، فوقفت على رجل يقال له : « ابن السماك » وهو يعظ الناسَ .

فقال فى خلال كلامه : من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة .. ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه[٣] ، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه ، ومن كان مرَّة ومرَّة فالله يرحمه وقتًا ما ، فوقع كلامه فى[٤] قلبى ، فأقبلت على الله تعالى ، وتركت جميع ما كنت عليه ، إلا خدمة مولاى « على بن موسى الرضا » .

وذكرت هذا الكلام لمولاى ، فقال : يكفيك بهذا موعظة إن اتعظت .

أخبرنى بهذه الحكاية محمد بن الحسين ، قال : سمعت عبد الرحيم بن على الحافظ ببغداد يقول :

سمعت محمد بن عمر بن الفضل يقول : سمعت على بن عيسى يقول : سمعت سريا السقطى يقول : سمعت معروفًا يقول ذلك .

وقيل لمعروف فى مرض موته : أوصِ .

---

(١) وفى بعض النسخ « وحرمة المسلمين » أى إحترامهم .

(٢) وفى بعض النسخ « ولزومى » .

(٣) وفى نسخة « عليه » .

(٤) وفى نسخة « على » .

فقال : إذا متُّ فتصدَّقوا بقميصى ؛ فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانًا كما دخلتها عريانًا :

ومرَّ معروف بسقَّاء يقول : رحم الله من يشرب ، وكان صائمًا[١] ، فتقدَّم فشرب ، فقيل له ألم تكن صائمًا ؟ فقال : بلى ، ولكنى رجوت دعاءه[٢] .

---

(١) صيام نفل وتطوع والرسول ﷺ قال : الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر .

(٢) ومن كلامه : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، ورجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق ، وقال : التصوف : الأخذ بالحقائق واليأس مما بأيدى الخلائق .

وقال : طول الأمل يمنع خير العمل .

وقال : ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين منهم .

وقال : إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهه إلا من بقلبه مرض ..

وقال : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم ..

وقال : حقيقة الوفاء : إفاقة السر من رقدة الغفلات ، وفراغ الهم عن فضول الآفات .

ومنهم :

أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى[١]

خال الجنيد ، وأستاذه .

وكان تلميذ معروف الكرخى ؛ كان أوحد زمانه فى الورع ، وأحوال السنة[٢] وعلوم التوحيد :

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن على الطوسى يقول : سمعت أبا عمرو ابن علوان يقول : سمعت أبا العباس بن مسروق يقول :

بلغنى أن السرىَّ السقطى كان يتَّجر فى السوق ، وهو من أصحاب معروف الكرخى ، فجاءه معروف يومًا ، ومعه صبيٍ يتيم ، فقال : اكس هذا اليتيم . قال سرى : فكسوته ، ففرح به معروف ، وقال : بغَّض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه .

فقمت من الحانوت وليس شىء أبغض إلىَّ من الدنيا .

وكل ما أنا فيه من بركات معروف .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمر الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول :

ما رأيت أعبدَ من السرى : أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعًا إلا فى علة الموت .

ويحكى عن السرى أنه قال :

التصوُّف : اسم لثلاث معان[٣] :

وهو الذى لا يطفئُ نورُ معرفته نورَ ورعه[٤] .

---

(١) بغدادى المولد والوفاة ، كان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته : أخذ عن الكرخى وسمع الحديث من الفضيل وروى عنه الجنيد وأبو العباس بن مسروق . وهو أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد وتكلم فى الحقائق والإشارات ، من كلامه « عجباً لضعيف كيف يعصى قوياً » و « احذر أن تكون ثناء منشوراً وعيباً مستوراً » .

(٢) وفى نسخة و « الأحوال السنية » .

(٣) أى ومن قامت به هذه المعانى فهو الصوفى .

(٤) يقول العروسى : والمعنى أن نور المعرفة الذى من جملته علم ويقين لا يطفئ نور الورع المفيد للاجتهاد وبذل الوسع فى الطاعة والعمل فلا يجوز ترك العمل والاعتماد على ما سبق به القضاء .

ولا يتكلّم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة .

ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

مات السرى سنة : سبع وخمسين ومائتين .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدَّقاق يحكى عن الجنيد ، رحمه الله ، أنه قال :

سألنى السرى يومًا عن المحبَّة ، فقلت : قال قوم : هى الموافقة ، وقال قوم : الإيثار ، وقال قوم :كذا .. وكذا .. فأخذ السرى جلدة ذراعه ، ومدها ، فلم تمتدّ ، ثم قال :

وعزَّته تعالى ، لو قلت :إن هذه الجلدة يبستْ على هذا العظم من محبته لصدقت .

ثم غشى عليه ، فدار وجهه كأنه قمر مشرق ، وكان السرىُّ به أُدمة[1] .

ويحكى عن السرىِّ أنه قال : منذ ثلاثين سنة أنا فى الاستغفار[2] من قولى : الحمد لله مرّة .

قيل : وكيف ذلك ؟ فقال : وقع ببغداد حريق ، فاستقبلنى رجل ، فقال لى : نجا حانوتك .

فقلت : الحمد لله . فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت ، حيث أردت لنفسى خيرًا مما حصل للمسلمين !!.

أخبرنى به عبد الله بن يوسف قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا بكر الحربى يقول : سمعت السرىَّ يقول ذلك .

ويحكى عن السرىَّ أنه قال : أنا أنظر فى أنفى فى اليوم كذا .. وكذا مرَّة ، مخافة أن يكون قد اسودَّ ، خوفًا من الله أن يسود صورتى لِما أتعاطاه[3] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن الحسن بن الخشاب يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرَّى يقول : أعرف طريقًا مختصرًا قصدًا إلى الجنة :

فقلت له : ما هو ؟.

فقال : لا تسأل من أحد شيئًا ، ولا تأخذ من أحد شيئًا ، ولا يكن معك شىء تعطى منه أحدًا .

---

(١) سمرة .

(٢) وفى نسخة عن .

(٣) أى من التقصير فى كمال التعظيم لله .

سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج الطوسى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت الجنيد بن محمد يقول : سمعت السرى يقول : أشتهى أن أموت ببلد غير بغداد ، فقيل له : ولم ذلك ؟ فقال : أخاف ألا يقبلنى قبرى فأفتضح .

سمعت عبد اللهبن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا الحسن بن عبد الله الغوطى الطرسوسى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرىَّ يقول :

اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذلِّ الحجاب[١] .

سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول : دخلت يومًا على السرىَّ السقطى وهو يبكى ، فقلت له : ما يبكيك ؟

فقال : جاءتنى البارحة الصبيَّة[٢] ،فقالت :

يا أبتِ ، هذه ليلة حارَّةٌ ، وهذا الكوز أُعلِّقه هاهنا .

ثم إنى حملتنى[٣] عيناى فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء ، فقلت : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرَّد فى الكيزان[٤] .

فتناولت الكوز فضربت به الأرض فكسرته[٥] .

قال الجنيد : فرأيت الخزف لم يرفعه ولم يمسَّه ، حتى عفا[٦] عليه التراب .

---

(١) قال الأنصارى : أراد بالحجاب الجهل والضلال أو كل ما يشغل العبد عن الحق ، ومن أكثف الحجب : حجاب الدنيا ، والخلق ، والشيطان ، والنفس .

(٢) بنته .

(٣) وفى نسخة ثم « إنه غلبتنى » .

(٤) أى لمن يمنع نفسه منه مع رغبته فيه .

(٥) هذه اللفظة ساقطة فى بعض النسخ .

(٦) عفا : درس .

ومنهم :

أبو نصر بشر بن الحارث الحافى

أصله من « مرو » وسكن بغداد ، ومات بها ، وهو ابن أخت علىٍّ ابن خشرم . مات سنة سبع وعشرين ومائتين[1] . وكان كبير الشأن[2] .

وكان سبب توبته : أنه أصاب فى الطريق كاغدة[3] مكتوبًا فيها اسم الله عزَّ وجلَّ قد وطئتها الأقدامُ ، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية[4] ، فطيَّب بها الكاغدة ، وجعلها فى شق حائط .. فرأى فيما يرى النائم كأن قائلًا يقول له :

يا بشر ، طيَّبت اسمى ، لأطيبنَّ اسمك فى الدنيا والآخرة .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

مرَّ بشر ببعض الناس ، فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كلَّه ، ولا يفطر إلا فى كل ثلاثة أيام مرة ؛ فبكى بشر ، فقيل له فى ذلك فقال :

إنى لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يومًا لم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى فى القلوب أكثرَ مما يفعله العبد لطفًا منه ، سبحانه ، وكرمًا .. ثم ذكر ابتداء أمره : كيف كان على ما ذكرناه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت عبد الرحمن بن أبى حاتم يقول : بلغنى أن بشر بن الحارث الحافى قال :

رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقال لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا ، يا رسول الله .

قال : باتِّباعك لسنَّتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابى ، وأهل بيتى : وهو الذى بلَّغك منازل الأبرار .

---

(١) وولد سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧) م . وصحب الفضيل بن عياض ورأى سريا السقطى .

(٢) استشفع المأمون بأحمد بن حنبل فى أن يأذن الحافى للمأمون فى زيارته فأبى الحافى .

ومن كلامه : « من أراد أن يلقن الحكمة فلا يعصى الله » « إذا أعجبك الكلام فاصمت أو السكوت فتكلم » « من سأل الله الدنيا فانما يسأله طول الوقوف بين يديه » « هب أنك ما تخاف أما تشتاق ؟ » .

(٣) كاغدة : ورقة .

(٤) نوع من الطيب .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت بلالا الخواص يقول : كنت فى تيه بنى إسرائيل ، فإذا رجل يماشينى ، فتعجبت منه ، ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام ، فقلت له : بحقِّ الحقِّ من أنت ؟

فقال : أخوك الخضر ؛ فقلت له : أريد أن أسألك ، فقال : سل . فقلت :

ما تقول فى الشافعى[1] رحمه الله ؟

فقال : هو من الأوتاد[2] .

فقلت : ما تقول فى أحمد بن حنبل[3] رضى الله عنه ؟ قال رجل صدِّيق .

قال : فما تقول فى بشر بن الحارث الحافى ؟

قال : لم يخلق[4] بعده مثله[5] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

أتى بشر الحافى باب المعافى بن عمران ، فدقَّ الحافى عليه الباب ، فقيل : من ؟ فقال : بشر الحافى .

فقالت له بُنيةٌ من داخل الدار : لو اشتريت لك نعلاً بدانقين[6] لذهب عنك اسم الحافى .

أخبرنى بهذه الحكاية محمد بن عبد الله الشيرازى ، قال :

حدّثنا عبد العزيز بن الفضل قال : حدثنى محمد بن سعيد ، قال : حدثنى محمد بن عبد الله قال : سمعت عبد الله المغازلى يقول : سمعت بشرًا الحافى يذكر هذه الحكاية .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسين الحجاجى يقول : سمعت المحاملى يقول : سمعت الحسن المسوحى يقول : سمعت بشر بن الحارث يحكى هذه الحكاية .

---

(١) هو : محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمى القرشى ، أحد الأئمة الأربعة ولد فى غزة سنة ١٥٠ هـ وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ وتوفى فى القاهرة سنة ٢٠٤ هـ أقبل على الفقه والحديث وأفتى وهو ابن عشرين سنة .

(٢) قال العروسى : (الأوتاد : هم الرجال الأربعة الذين هم على منازل الجهات الأربع . من العالم : أى الشرق والغرب والشمال والجنوب يحفظ الله تلك الجهات كلها بهم) .

(٣) هو : أبو عبدالله أحمد بن حنبل ، إمام المذهب الحنبلى ، وأحد الأئمة الأربعة . ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ ، وتوفى سنة ٢٤١هـ « ٨٥٥ م » تفقه على الشافعى .

وفى أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل تولى المعتصم فسجن ابن حنبل قرابة سنتين لامتناعه عن القول بخلق القرآن .

(٤) وفى نسخة أخرى « لم يخلف » .

(٥) أى فى زمنه .

(٦) الدانق : سدس الدرهم .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الفضل العطَّار يقول : سمعت أحمد بن على الدمشقى يقول : قال لى أبو عبد الله بن الجلاء :

رأيت ذا النون ، وكانت له العبارة[١] ، ورأيت سهلا ، وكانت له الإشارة ، ورأيت بشر بن الحارث ، وكان له الورع .

فقيل له : فإلى من كنت تميل ؟. فقال : لبشر بن الحارث أستاذنا .

وقيل : إنه اشتهى الباقلاء[٢] سنين ، فلم يأكله ، فرؤى فى المنام بعد وفاته فقيل له :

ما فعل الله بك ؟ فقال : غَفر لى ، وقال : كُلْ يا من لم يأكل ، واشرب يا مَنْ لم يشرب .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا عبيد الله بن عثمان بن يحيى قال : حدثنا أبو عمرو بن السماك قال : حدثنا محمد بن العباس قال : حدثنا أبو بكر ابن بنت معاوية قال : سمعت أبا بكر بن عفان يقول : سمعت بشر بن الحارث يقول :

إنى لأشتهى الشِّواء منذ أربعين سنة ما صفا لى ثمنه !!

وقيل لبشر : بأىِّ شىء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافية وأجعلها إدامًا .

أخبرنا به محمد بن الحسين ، رحمه الله ، قال : أخبرنا عبيد الله بن عثمان قال : أخبرنا أبو عمرو بن السماك قال : حدثنا عمر بن سعيد قال : حدثنا ابن أبى الدنيا قال : قال رجل لبشر الحكاية المذكورة .

وقال بشر : لا يحتمل الحلالُ السرف[٣] .

ورؤى بشر فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟

فقال : غفر لى ، وأباح لى نصف الجنة ، وقال لى :

يا بشر ، لو سجدتَ لى على الجمر ما أديتَ شكرَ ما جعلته لك فى قلوب عبادى .

وقال بشر : لا يجدُ حلاوة الآخرة رجل يُحِبُّ أن يعرفه الناس .

---

(١) أى النطق بالحكمة ، وكانت له : أى اشتهر بها .

(٢) الفول .

(٣) لعزة الحلال وقلته .

ومنهم :

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى

عديم النظير فى زمانه علمًا ، وورعًا ، ومعاملة ، وحالًا[١] .

بصريُّ الأصل ، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

قيل : إنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئًا ، قيل ، لأن أباه كان يقول بالقدر[٢] ، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئًا ، وقال : صحَّت الرواية عن النبى ﷺ ، أنه قال : « لا يتوارث أهل ملَّتين شيئًا » .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت محمد بن مسروق يقول : مات الحارث بن أسد المحاسبى وهو محتاج إلى درهم ، وخلف أبوه ضِياعًا وعقارًا ، فلم يأخذ منه شيئًا .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

كان الحارث المحاسبى إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرَّك على أصبعه عِرق ، فكان يمتنع منه .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم :

الحارث بن أسد المحاسبى ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رُويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكىِّ ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله على الطوسى يقول : سمعت جعفرًا الخلدى يقول : سمعت أبا عثمان البلدى يقول : قال الحارث المحاسبى :

من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهرَه بالمجاهدة واتِّباع السنَّة .

---

(١) (قال التميمى : هو إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام . وقال الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » : « المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة . وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال » .

ومن كلامه : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة . وسمى بالمحاسبى ؛ لأنه كان يحاسب نفسه عملا بقول الرسول : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » .

(٢) كان من القدرية القائلين بإنكار عموم القدر الذى يجب الإيمان به .

ويحكى عن الجنيد أنه قال : مرَّ بى يومًا الحارث المحاسبى ، فرأيت فيه أثر الجوع ، فقلت : يا عم ، تدخل الدار وتتناول شيئًا ؟ فقال : نعم .

فدخلت الدار وطلبت شيئًا أقدِّمه إليه ، فكان فى البيت شىء من طعام حمل إلىَّ من عرس قوم ، فقدَّمته إليه ، فأخذ لقمة وأدارها فى فمه مرات ، ثم إنه قام وألقاها فى الدهليز ، ومرَّ .

فلما رأيته بعد ذلك بأيام قلت له فى ذلك ، فقال :

إنى كنت جائعًا ، وأردت أن أسرَّك بأكلى وأحفظ قلبك ، ولكن بينى وبين الله ، سبحانه ، علامة : أن لا يسوغنى طعامًا فيه شبهة ، فلم يمكنِّى ابتلاعه ، فمن أين كان لك ذلك الطعام ؟.

فقلت : إنه حُمل إلىّ من دار قريب لى من العرس ، ثم قلت : تدخل اليوم ؟ فقال : نعم . فقدمت إليه كِسرًا يابسة كانت لنا ، فأكل وقال :

إذا قدمت إلى فقير شيئًا فقدِّم إليه مثل هذا .

ومنهم :

أبو سليمان داود بن نصير الطائى

وكان كبير الشأن[١] . أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا أبو عمرو بن مطر قال : حدثنا محمد بن المسيِّب قال : حدثنا ابن خُبيق قال ، قال يوسف ابن سباط :

ورث داود الطائى عشرين دينارًا فأكلها فى عشرين سنة .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : كان سبب زهد داود الطائى : أنه كان يمرُّ ببغداد ، فمرَّ[٢] يومًا ، فنحّاه[٣] المطرقون[٤] بين يدى حميد الطوسى ، فالتفت داود فرأى حميدًا ، فقال داود : أُفٍّ لدنيا سبقك بها حميد .

ولزم البيت وأخذ فى الجهد والعبادة .

وسمعت ببغداد بعض الفقراء يقول : إن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأىِّ خديك تبدى البلى وأى عينيك إذًا سالا

وقيل : كان سبب زهده : أنه كان يجالس أبا حنيفة ، رضى الله عنه ، فقال له أبو حنيفة يومًا :

يا أبا سليمان ، أمَّا الأداة[٥] فقد أحكمناها فقال له داود : فأى شىء بقى ؟ فقال : العمل به .

قال داود : فنازعتنى نفسى إلى العُزلة ، فقلت لنفسى : حتى تجالسهم ولا تتكلم فى مسألة .

قال : فجالستهم سنة لا أتكلم فى مسألة ، وكانت المسألة تمرُّ بى ، وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعًا من العطشان إلى الماء البارد ولا أتكلَّم به .

---

(١) قال الذهبى : « كان إمامًا فقيهًا ذا فنون عديدة ثم تعبد وآثر الوحدة وأقبل على شأنه وساد أهل زمانه توفى سنة ١٦٦ هـ . بالكوفة » .

ومن كلامه : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهى بهم ذلك إلى آخر سفرهم ؛ فإن استطعت أن تقدم فى كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل ، وقال : لا تمهر الدنيا دينك ، فمن أمهرها دينه زفت إليه الندم » .

(٢) لفظة « فمر » ساقطة فى بعض النسخ .

(٣) رده إلى جانبها .

(٤) الموسعون لها .

(٥) أى العلم .

ثم صار أمره إلى ما صار .

وقيل : حجم « جنيدُ الحجام » داود الطائى ، فأعطاه دينارًا ، فقيل له : هذا إسراف .

فقال : لا عبادة لمن لا مروءة له .

وكان يقول بالليل : إلهى همُّك عطَّل علىَّ الهموم الدنيوية ، وحال بينى وبين الرقاد .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفىَّ يقول : حدثنا محمد بن يوسف قال : حدثنا سعيد بن عمرو قال : حدثنا علىُّ بن حرب الموصلى قال : حدثنا إسماعيل بن زياد الطائىّ قال : قالت دايةُ[1] داود الطائى له :

أما تشتهى الخبز ؟ فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءةُ خمسين آية .

ولما تُوفى داود رآه بعض الصالحين فى المنام وهو يعدُو فقال له : مالك ؟

فقال : الساعة تخلَّصت من السجن .

فاستيقظ الرجل من منامه ، فارتفع الصياح يقول للناس : مات داود الطائى .

وقال له رجل : أوصنى . فقال له : عسكرُ الموتِ[2] ينتظرونك .

ودخل بعضهم عليه ، فرأى جرَّة ماء انبسطت عليها الشمس ، فقال له : ألا تحوِّلها إلى الظل ؟

فقال : حين وضعتها لم يكن شمس ، وأنا أستحى أن يران الله أمشى لما فيه حظُّ نفسى .

ودخل عليه بعضهم ، فجعل ينظر إليه ، فقال : أما علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام ؟

أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانى قال : أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى :

قال : حدثنا قاسم بن أحمد ، قال : سمعت ميمونًا الغزالى قال : قال أبو الربيع الواسطى :

قلت لداود الطائى : أوصنى .

فقال : صُمْ عن الدنيا ، واجعل فطرك الموت ، وفر من الناس كفرارك من السبع .

---

(١) جارية ، وقالت له ذلك حينما رأته لا يأكل الخبز ، بل يشرب الفتيت .

(٢) وفى نسخة « عسكر الموتى » .

ومنهم :

أبو على شقيق بن إبراهيم البلخى

من مشايخ خراسان[١] . له لسان فى التوكُّل[٢] ، وكان أستاذ حاتم الأصم .

قيل : كان سبب توبته : أنه كان من أبناء الأغنياء ، خرج للتجارة إلى أرض الترك[٣] ، وهو حدث ، فدخل بيتًا للأصنام ، فرأى خادمًا للأصنام فيه ؛ قد حلق رأسه ولحيته ، ولبس ثيابًا أُرجوانية[٤] ، فقال شقيق للخادم ؛ إنَّ لك صانعًا حيًّا ، عالمًا ، قادرًا ، فاعبده .. ولا تعبد هذه الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع !!.

فقال : إن كان كما تقول ، فهو قادر على أن يرزقك ببلدك ، فلم تعنَّيت إلى هاهنا للتجارة ؟.

فانتبه شقيق .. وأخذ فى طريق الزهد .

وقيل : كان سبب زهده : أنه رأى مملوكًا يلعب ويمرح فى زمان قحط ، وكان الناس مهتمين به[٥] ، فقال شقيق : ما هذا النشاط الذى فيك ؟ أما ترى ما فيه الناس من الجدب[٦] والقحط ؟.

فقال ذلك المملوك : وما علىّ من ذلك ، ولمولاى قريةٌ خالصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه ، فانتبه شقيق ، وقال : إن كان لمولاه قرية ، ومولاه مخلوق فقير ، ثم إنه ليس يهتم لرزقه ، فكيف ينبغى أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غنى ؟!.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الحسين بن أحمد العطار البلخى يقول : سمعت أحمد بن محمد البخارى يقول : قال حاتم الأصم :

---

(١) أخذ الفقه عن أبى حنيفة ، وقال الذهبى : سافر أبو على شقيق البلخى ومعه تلاتمائة فقير ، فتوسل إليه المأمون حتى اجتمع به ، واجتمع به قبله أبوه الرشيد ، وقال له : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال : نعم ، شقيق ، ولست بالزاهد فقال له : أوصنى قال : إن الله قد أجلسك مكان الصديق وإنه يطلب منك مثل صدقه ، ومكان الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحق وغيره ومكان عثمان ويطلب منك مثل حيائه وكرمه ، ومقام على ، ويطلب منك مثل علمه وعدله .

(٢) أى توسع فى معانيه .

(٣) وفى نسخة أخرى إلى « أرض الشرك » .

(٤) أى مصبوغة بالأرجوان ، وهو صبغ أحمر شديد الحمرة .

(٥) وفى نسخة « كان الناس فيه مهتمين أى بتحصيل قوتهم » .

(٦) وفى نسخة أخرى « من الحزن » .

كان شقيق بن إبراهيم موسرًا ، وكان يتفتى[١] ويعاشر الفتيان ، وكان عليٌّ بن عيسى بن ماهان أميرَ بلخ ، وكان يحب كلاب الصيد ، ففقد كلبًا من كلابه ، فسعى برجل أنه عنده ، وكان الرجل فى جوار شقيق ، فطلب الرجل ، فهرب .. فدخل دار شقيق مستجيرًا ، فمضى شقيق إلى الأمير ، وقال :

خلوا سبيله ، فإن الكلب عندى أرده إليكم إلى ثلاثة أيام .

فخلوا سبيله ، وانصرف شقيق مهتما لما صنع . فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائبًا من بلخ فرجع إليها ، فوجد فى الطريق كلبًا عليه قلادة ، فأخذه ، وقال : أهديه إلى شقيق ، فإنه يشتغل بالتفتىٍّ .

فحمله إليه ، فنظر شقيق فإذا هو كلب الأمير ، فسرَّ به ، وحمله إلى الأمير وتخلّص من الضمان فرزقه الله الانتباه ، وتاب مما كان فيه وسلك طريق الزهد .

وحكى أن حاتمًا الأصمَّ قال : كنا مع شقيق فى مصاف[٢] نحارب الترك فى يوم لا ترى فيه إلا رءوسًا تندر[٣] ، ورماحًا تنقصف ، وسيوفًا تنقطع ، فقال لى شقيق :

كيف ترى نفسك يا حاتم فى هذا اليوم ؟ تراه مثل ما كنت فى الليلة التى زفّت إليك امرأتك ؟

فقال : لا والله .

قال : لكنّى والله أرى نفسى فى هذا اليوم مثلَ ما كنتُ تلك الليلة .

ثم نام بين الصفّين ودرقته[٤] تحت رأسه حتى سمعت غطيطه .

وقال شقيق : إذا أردتَ أن تعرف الرجل فانظر إلى ما وعده الله ووعده الناس ، فبأيها يكون قلبه أوثق[٥] ؟

وقال شقيق : تُعرف تقوى الرجل فى ثلاثة أشياء : فى أخذِه ، ومنعِه ، وكلامِه .

---

(١) أى يفعل فعل الفتيان والشباب .

(٢) مصاف : جمع صف واحد الصفوف : التى تكون تلقاء وجه العدو فى الحرب .

(٣) تسقط .

(٤) الدرق (بفتح الدال والراء) = الترس من جلد ليس فيه خشب .

(٥) قال العروسى : المقصود الحمل على عدم الغفلة عن النفس ، بل يلزم الإنسان دائما تفتيشها وامتحانها فيما توهمته من المقامات والأحوال ، حتى يتحقق رسوخها ، وبعد هذا فلا يركن إلى ما منح ، بل يدوم على الجد لينال ما فوق ذلك ، أو ليدوم له ما هو فيه .. إذ قد يسلب السائر من حيث لا يشعر . وفيه تنبيه على أنه قوى وثوقه بما وعده الله من ثواب الامتثال ، وأنه انقطع عن الحظوظ ..

ومنهم :

أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى

وكان جدُّه مجوسيا أسلم .

وكانوا ثلاثة إخوة : آدم ، وطيفور ، وعلىّ . وكلهم كانوا زهّادًا عبَّادًا .

وأبو يزيد كان أجلَّهم حالاً(١) .

قيل مات سنة : إحدى وستين ومائتين ، وقيل : أربع وثلاثين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول :سمعت أبا الحسن الفارسى ، يقول : سمعت الحسن بن علىّ يقول : سئل أبو يزيد : بأى شىء وجدتَ هذه المعرفة ؟

فقال : ببطن جائع ، وبدن عار .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول :سمعت عمى البسطامى يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا يزيد يقول : عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئًا أشدَّ علىَّ من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد .

وقيل : لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كلَّه .

حدثنا أبو حاتم السجستانى قال : أخبرنا أبو نصر السرَّاج ، قال : سمعت طيفور البسطامى يقول : سمعت المعروف بعمِّى البسطامى يقول : سمعت أبى يقول : قال لى أبو يزيد : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلاً مقصودًا مشهورًا بالزهد ، فمضينا إليه ؛ فلما خرج من بيته ، ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلِّم عليه ، وقال : هذا غيرُ مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ؛ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه ؟

وبهذا الإسناد قال أبو يزيد : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة الأكل ومؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ إياه ؟ فلم أسأله ، ثم

---

(١) ذكر ابن عربى أنه كان القطب الغوث فى زمانه .

ومن كلامه : ليس العالم من يحفظ من كتاب الله فإذا نسى ما حفظ صار جاهلًا ؛ بل من يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا تحفظ ودرس . وهذا هو العلم الربانى . وقال : أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت .

إن الله سبحانه وتعالى كفانى مؤنة النساء ؛ حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسن بن على يقول : سمعت عمى البسطامى يقول : سمعت أبى يقول :سألت أبا يزيد عن ابتدائه وزهده ، فقال :

ليس للزهد منزلة . فقلت : لماذا ؟ فقال : لأنى كنت ثلاثة أيام فى الزهد .

فلما كان اليومُ الرابع خرجت منه : اليوم الأول : زهدت فى الدنيا وما فيها ، واليوم الثانى : زهدت فى الآخرة وما فيها ، واليوم الثالث : زهدت فيما سوى الله ، فلما كان اليوم الرابع لم يبق لى سوى الله .. فهِمْتُ ، فسمعت ، هاتفًا يقول :

يا أبا يزيد لا تقوى معنا . فقلت : هذا الذى أريده .

فسمعت قائلًايقول : وجدتَ ، وجدت .

وقيل لأبى يزيد : ما أشد ما لقيتَ فى سبيل الله ؟ فقال : لا يمكن وصفه .

فقيل له : ما أهون ما لقيَت نفسُك منك ؟

فقال : أمّا هذا فنعم ، دعوتها إلى شىء من الطاعات فلم تجبنى ، فمنعتها الماءَ سنة .

وقال أبو يزيد : منذ ثلاثين سنة أصلِّى ، واعتقادى فى نفسى عند كل صلاة أصليها : كأنى مجوسى أريد أن أقطع زُنّارى[١] .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله يقول : سمعت عبد اللهبن على يقول : سمعت موسى بن عيسى يقول ، قال لى أبى : قال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى[٢] فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة[٣] .

وحكى عمى البسطامى عن أبيه أنه قال : ذهب أبو يزيد ليلة إلى الرباط ، ليذكر الله ، سبحانه ، على سور الرباط ، فبقى إلى الصباح لم يذكر ، فقلت له فى ذلك ، فقال : تذكّرتُ كلمة جرت على لسانى فى حال صباى[٤] ، فاحتشمت أن أذْكره سبحانه وتعالى .

---

(١) ما يشد به الوسط ، أراد به كدورات الحظوظ والرغبات .

(٢) وفى نسخة يرتفع ، وفى أخرى يتربع .

(٣) مراد الحث على اتباع الكتاب والسنة وعدم الخروج عن سننها ، أو الغرور بمن حاله يخالفها ، فهو وإن كان صادقا فى الحقيقة ، فلا يتابع بحكم الطريقة كما قال العروسى .

(٤) فيه أشعار بعدم صدور المخالفات منه بعد التكليف ، وإلا لكان أسرع تذكرًا لها وأكثر معرفةً بها .

ومنهم :

أبو محمد سهل بن عبدالله التسترى

أحد أئمة القوم ، لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع[1] .

وكان صاحب كرامات ، لقى ذا النون المصرى بمكة سنة خروجه إلى الحج .

تُوفى ، كما قيل ، سنة : ثلاث وثمانين ومائتين ، وقيل : ثلاث وسبعين ومائتين .

وقال سهل : كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار ، وكان يقوم بالليل ، فربما كان يقول لى : ياسهل اذهب فنمْ فقد شغلتَ قلبى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت أبا الفتح يوسف بن عمر الزاهد يقول : سمعت عبدالله بن عبدالحميد يقول : سمعت عبيدالله بن لؤلؤ يقول : سمعت عمر بن واصل البصرى يحكى عن سهل بن عبدالله قال : قال لى خالى يومًا :

ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ .

فقلت : كيف أذكره ؟ فقال لى : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات . من غير أن تحرِّك به لسانك : الله معى ، الله ناظرٌ إلىّ ، الله شاهد علىّ .

فقلت ذلك ثلاث ليال ، ثم أعلمته ، فقال لى :

قل فى كل ليلة سبع مرات . فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل فى كل ليلة إحدى عشرةَ مرةً ، فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى له حلاوة .

فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ما علَّمتك ، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر ، فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة .

فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة فى سرِّى .

ثم قال لى خالى يومًا : ياسهل ، من كان الله معه : وهو ناظر إليه وشاهده ، أيعصيه ؟ إيَّاك والمعصيةَ .

---

(١) حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع وفقه العبارة وهو ابن عشر فيحسن الإجابة . ومن قوله : ما أعطى أحد شيئًا أفضل من علم يستزيد به افتقارًا إلى الله . وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى . وقال « حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت . وقال : كل عالم خاض فى الدنيا فلا تصغ لكلامه ، بل يتهم فيما يقول ؛ لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .

فكنت أخلو ، فبعثونى[١] إلى الكتَّاب ، فقلت :

إنى لأخشى أن يتفرق علىَّ همىِّ[٢] ، ولكن شارطوا المعلِّم : أنى أذهب إليه ساعة ، فأتعلّم ، ثم أرجع .

فمضيت إلى الكتّاب ، وحفظتُ القرآن ، وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر ، وقوتى خبز الشعير ، إلى أن بلغت اثنتى عشرة سنة ، فوقعت لى مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، فسألت أهلى أن يبعثونى إلى البصرة أسأل عنها ، فجئت البصرة وسألت علماءها فلم يشف أحد منهم عنى شيئًا !! .

فخرجت إلى « عبادان » ، إلى رجل يُعرف بأبى حبيب حمزة بن عبدالله العبادانى ، فسألته عنها فأجابنى ، وأقمت عنده مدَّة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت إلى « تستر » فجعلت قوتى اقتصارًا على أن يشترى لى بدرهم من الشعير « الفرْق[٣] » فيطحن ويخبز لى ، فأفطر عند السحر كلَّ ليلة على أوقية واحدة بحتا ، بغير ملح ولا إدام فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة .

ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ، ثم أفطر ليلة ، ثم خمسًا ، ثم سبعًا ، ثم خمسًا وعشرين ليلة . وكنت عليه[٤] عشرين سنة . ثم خرجتُ أسيح فى الأرض سنين ، ثم رجعت إلى « تستر » وكنت أقوم الليل كله .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت إبراهيم بن فراس يقول : سمعت نصر بن أحمد يقول : قال سهل بن عبدالله :

كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ، طاعة كان أو معصية ، فهو عيش النفس[٥]، وكلُّ فعل يفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس[٦] .

---

(١) وفى نسخة « فبعثوا بى » .
(٢) أى ما أهتم به وهو ذكر ربى مع حضور قلبى فى الخلوة .
(٣) مكيال يكال به .
(٤) وفى نسخة « فكنت عليها » .
(٥) أى حظها .
(٦) وقال سهل : دخلت الفتنة على العامة من الرخص والتأويلات ، وعلى العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر .
وقال : من أعظم المعاصى الجهل بالجهل ، والنظر إلى العامة ، وسماع كلام أهل الغفلة .
وقال : أصول طريقنا سبعة التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

ومنهم :

أبو سليمان عبدالرحمن بن عطية الدارانى

و « داران » قرية من قرى دمشق . مات : سنة خمس عشرة ومائتين .

سمعت محمد الحسين يقول : سمعت عبدالله بن محمد الرازىّ يقول : أخبرنا إسحق بن إبراهيم بن أبى حسان يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان يقول :

مَن أحسن فى نهاره كوفئَ فى ليله ، ومن أحسن فى ليله كوفئَ فى نهاره . ومن صدّق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذّب قلبًا بشهوة تُركت له .

وبهذا الإسناد قال : إذا سكنت الدنيا القلب ترحَّلت منه الآخرة .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير ، يقول : سمعت الجنيد يقول : قال أبو سليمان الدارانى :

ربما يقع فى قلبى النكتة[١] من نكت القوم أيامًا ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنَّة .

وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال : خلاف هوى النفس .

وقال : لكلِّ شىء عَلَم[٢]، وعَلَمُ الخذلان[٣] ترك البكاء .

وقال : لكل شىء صدأ ، وصدأ نور القلب شبَعُ البطن .

وقال : كلُّ ما شغلك عن الله تعالى من أهل ، أو مال ، أو ولد فهو عليك مشئوم .

وقال : أبو سليمان : كنت ليلة باردة فى المحراب ، فأقلقنى البرد : فخبَّأت إحدى يدى من البرد ، وبقيت الأخرى ممدودة[٤]، فغلبتنى عيناى فهتف بى هاتف : يا أبا سليمان ، وقد وضعنا فى هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها .

فآليت على نفسى أن لا أدعو إلا ويداى خارجتان ، حرًّا كان الزمن أو بردًا .

---

(١) كلمة الحكمة .

(٢) علامة .

(٣) عدم القبول .

(٤) أى ممدودة للدعاء .

وقال أبو سليمان : نمت عن وردى ، فإذا أنا بحوراء تقول لى : تنام وأنا أرَبى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام !! .

أخبرنا عبدالله بن يوسف الأصبهانى ، قال : أخبرنا أبو عمرو الجولستى ، قال : أخبرنا محمد بن إسماعيل قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال : دخلتُ على أبى سليمان يوما وهو يبكى ، فقلت له ما يبكيك ؟ .

فقال : يا أحمد ، ولم لا أبكى ، وإذا جنَّ الليل ، ونامت العيون ، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقّطرت فى محاربهم ، وأشرف الجليل ؛ سبحانه وتعالى ؛ فنادى : يا جبريل ، بعينى من تلذَّذ بكلامى واستراح إلى ذكرى ، وإنى لمطَّلع عليهم فى خلواتهم .. أسمع أنينهم .. وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادى فيهم ياجبريل : ما هذا البكاء ؟! .

هل رأيتم حبيبًا يعذِّب أحباءه ؟

أم كيف يجمل بى أن آخذ قومًا إذا جنّهم الليل تملّقوا[1] لى فبى حلفت : أنهم إذا وردوا علىّ يوم القيامة لأكشفنَّ لهم عن وجهى الكريم ، حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم[2] .

---

(١) أى إذا سترهم الليل توددوا .

(٢) ومن أقواله :

لا ينبغى لفقير أن يزيد فى نظافة ثوبه على نظافة قلبه ، ليتشاكل باطنه ظاهره . ليت قلبى فى القلوب كثوبى فى الثياب . .

من صارع الدنيا صرعته ، ومن سكنت الدنيا قلبه ترحلت منه الآخرة ..

من أظهر الانقطاع إلى الله تعالى لزمه خلع ما دونه من عنقه ..

إذا بلغ العبد غاية الزهد أخرجه إلى التوكل ..

القناعة أول الرضا ، والورع أول الزهد ..

مفتاح الآخرة الجوع ، ومفتاح الدنيا السره ، ومفتاح كل خير الخوف من الله تعالى .

ومنهم :

أبو عبدالرحمن حاتم بن علوان

ويقال حاتم بن يوسف الأصم ، من أكابر مشايخ خراسان :

وكان تلميذ شقيق ، وأستاذ أحمد بن خضرويه .

قيل : لم يكن أصمَّ ، وإنما تصامم[1] مرَّة فسُمِّى به .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها فى تلك الحالة صوت ، فخجلت ، فقال حاتم : ارفعى صوتك فأُرى[2] من نفسه : أنه أصمُّ ، فسرَّت المرأة بذلك ، وقالت :

إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم الصمم .

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : سمعت أبا علىّ سعيد بن أحمد يقول : سمعت أبى يقول : سمعت محمد بن عبدالله يقول : سمعت خالى محمد بن الليث يقول : سمعت حامدًا اللقاف يقول : سمعت حاتمًا الأصمَّ يقول :

ما من صباح إلا والشيطان يقول لى : ماذا تأكل ؟ وماذا تلبس ؟ وأين تسكن ؟ فأقول له ، آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر .

وبإسناده قيل له : ألا تشتهى ؟ .

فقال : أشتهى عافية يوم إلى الليل .

فقيل له : أليست الأيام كلها عافية ؟ .

فقال : إن عافية يومى ، أن لا أعصى الله فيه .

وحكى عن حاتم الأصمِّ ، أنه قال : كنت فى بعض الغزوات ، فأخذنى شخص فأضجعنى للذبح فلم يشتغل به قلبى ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فىَّ ..

فبينما هو يطلب السكين من حقةً أصابه سهم غرْب[3]. فقتله ، وطرحه عنى فقمتُ .

---

(١) تصامم : تكلف الصمم .

(٢) فأرى : فأظهر .

(٣) أى أتاه من حيث لا يدرى .

سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر منصور بن محمد بن إبراهيم الفقيه يقول : سمعت أبا محمد جعفر بن محمد بن نصير يقول : روى عن حاتم أنه قال :

من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت :

موتًا أبيض ، وهو الجوع .

وموتًا أسود ، وهو : احتمال الأذى من الخلق .

وموتًا أحمر ، وهو : العمل الخالص من الشوْب فى مخالفة الهوى .

وموتًا أخضر ، وهو : طرح الرقاع بعضها على بعض[1] .

---

(١) أى ترقيع الثياب .

ومنهم :

أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى الواعظ

نسيج وحدَه فى وقته ، له لسان[١] فى الرجاء خصوصًا ، وكلام فى المعرفة . خرج إلى بلخ ، وأقام بها مدَّة .

ورجع إلى « نيسابور » ومات بها سنة : ثمان وخمسين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالله بن محمد بن أحمد بن حمدان الكعبرى يقول : سمعت أحمد بن محمد بن السرِّى يقول : سمعت أحمد بن عيسى يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول : كيف يكون زاهدًا من لا وَرع له ؟! تورَّع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما لك .

وبهذا الإسناد قال :

جوع التوَّابين تجربة ، وجوع الزاهدين سياسة ، وجوع الصدِّيقين تكرمة .

وقال يحيى : الفوت أشد من الموت ؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق .

وقال يحيى : الزهد[٢] ثلاثة أشياء ، القلَّة ، والخلوة ، والجوع .

وقال يحيى : لا تربح على نفسك بشىء أجلّ من أن تشغلها فى كل وقت بما هو أولى بها .

وقيل : إن يحيى بن معاذ تكلم ببلخ فى تفضيل الغنى على الفقر ، فأُعطى ثلاثين ألف درهم ، فقال بعض المشايخ : لا بارك الله له فى هذا المال فخرج إلى نيسابور ، فوقع عليه اللص وأخذ المال منه .

أخبرنا عبدالله بن يوسف الأصبهانى قال : أنبأنا[٣] أبو القاسم عبدالله بن الحسين بن بالويه الصوفى قال : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت الحسين بن علوية يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول :

من خان الله فى السرِّ هتك الله ستره فى العلانية .

---

(١) أى كلام .

(٢) أى علامات الزهد .

(٣) وفى نسخة أخرى « أخبرنا » .

سمعت عبدالله بن يوسف يقول : سمعت أبا الحسين محمد بن عبدالعزيز المؤذّن يقول : سمعت محمد بن محمد الجرجانى يقول : سمعت علىّ بن محمد يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول :

تزكية الأشرار لك هُجْنة بك[1]، وحبُّهم لك عيب عليك ، وهانَ عليك من احتاج إليك[2].

(١) قبح ونقص .

(٢) ومن كلامه : مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام ومفاوز الآخرة بالقلوب . وقال : العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وهيأ قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

ومنهم :

أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى

من كبار مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب النخشبى .

قدم نيسابور ، وزار أبا حفص ، وخرج إلى بسطام فى زيارة أبي يزيد البسطامى وكان كبيرًا فى الفتوة[١] .

وقال أبو حفص : ما رأيت أحدًا أكبر همَّة ، ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضرويه .

وكان أبو يزيد يقول : أستاذنا أحمد .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : كنت جالسًا عند أحمد بن خضرويه ، وهو فى النزع ، وكان قد أتى عليه خمس وتسعون سنة .

فسأله بعض أصحابه عن مسألة ؛ فدمعت عيناه ، وقال :

يابنى ، بابٌ كنت أدقه منذ خمس وتسعين سنة ، وهو ذا يُفتح لى الساعة لا أدرى أبالسعادة يُفتح أم بالشقاوة ؟ أنَّى لى أوان الجواب ؟ .

قال : وكان عليه سبعمائة دينار ، وغرماؤه عنده ، فنظر إليهم ، وقال :

اللهم إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال ، وأنت تأخذ عنهم وثيقَتَهم فأدِّعنىٍّ .

قال : فدّق داقٌ الباب وقال : أين غرماء أحمد ؟ فقضى عنه .

ثم خرجت روحه . ومات ، رحمه الله ، سنة أربعين ومائتين .

وقال أحمد بن خضرويه : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رقّ أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة[٢] .

---

(١) قوة البذل للمال والجاه والعلم ، وصفه بعضهم فقال : ولى عارف ، سخى ببذل التالد والطارف ، أيس من الفضول ، فأونس بالوصول ، كان يجلب القلوب بوعظه ، وينثر الدرر برقيق لفظه ، ما رآه فقيه جاحد ، أو مكابر منتقد ، إلا اعترف ، ووقف على شاطئ التسليم ، وربما اغترف .

(٢) وقال : أفضل الأعمال رعاية السر عن الالتفات إلى شىء غير الله .

وقال : القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق فاضت زيادة أنوارها على الجوارح .

وقال : الصبر زاد المضطرين ، والرضا درجة العارفين .

وقال : حقيقة المحبة معرفته تعالى بالقلب ، وذكره باللسان ، مع الحضور والاحترام ، ورفع الهمة عن كل ما سواه .

ومنهم :

أبو الحسين أحمد بن أبى الحوارى[١]

من أهل دمشق ، صحب أبا سليمان الدارانى وغيره ، مات سنة : ثلاثين ومائتين . وكان الجنيد يقول : أحمد بن أبى الحوارى : ريحانة الشام .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا أحمد الحافظ يقول : سمعت سعيد ابن عبدالعزيز الحلبى يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول :

من نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحبٍّ لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه ، وبهذا الإسناد يقول : من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ ، فباطل عمله .

وبهذا الإسناد قال أحمد بن أبى الحوارى :

أفضل البكاء : بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافَقَة[٢].

وقال أحمد : ما ابتلى الله عبدًا بشىء أشد من الغفلة والقسوة .

---

(١) يروى أنه طلب العلم ثلاثين سنة ، فلما بلغ ، حمل كتبه إلى البحر فأغرقها ، وقال : ياعلم ، لم أفعل بك هذا هوانًا بك ولا استخفافًا بحقك ، بل كنت أطلب لأهتدى بك إلى ربى والآن استغنيت عنك .

ومن حكمه : « لا دليل على الله سواه » و « إذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند إدبارها فهو خدعة ، وإذا حدثتك بتركها عند إقبالها فذاك » .

(٢) أى لما جاءت به السنة .

ومنهم :

أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد

من قرية يقال لها « كورداباذ » على باب مدينة نيسابور ، على طريق « بخارى » .

كان أحد الأئمة والسادة[١] . مات سنة نيِّف وستين ومائتين .

قال أبو حفص : المعاصى بريد[٢] الكفر ، كما أن الحمىَّ بريد الموت .

قال أبو حفص : إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

وقال : حُسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن .

وقال : الفتوةً : أداء الإنصاف ، وترك مطالبة الإنصاف[٣] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسن محمد بن موسى يقول : سمعت أبا على الثقفي يقول : كان أبو حفص ، يقول : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنّة ، ولم يتهم خواطره ، فلا نعدُّه فى ديوان الرجال[٤] .

---

(١) هو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور ، صحب ابن خضروية والأبيوردى وكان حدادًا فبينما غلامه ينفخ غاب فكره فى ذكر محبوبه ففنى عن الحس البشرى ونسى أن يخرج الحديد من الكير بالآلة فأخرجه بيده ؛ فصاح الغلام : الحديد فى يدك بلا آلة ، فرماه به ، وخرج سائحًا فى البرية وهو يقول : شرط المحبة الستر والكتمان لا الافتضاح والإعلان .

ومن كلامه : الزاهد حقًا لا يذم الدنيا ، ولا يمدحها ولا ينظر إليها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ولا يحزن عليها إذا أدبرت « وسئل عن التوبة ، فقال : ليس للعبد من التوبة شيء ؛ لأن التوبة إليه ، لا منه » .

(٢) أى رسله ومقدماته .

(٣) أى لا يطلب النصفة من أحد فإن طلبها دليل على تقصيره .

(٤) أى الذين قال الله فيهم : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

ومنهم :

أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى

صحب حاتمًا الأصمَّ ، وأبا حاتم العطَّار المصرى .

مات سنة : خمس وأربعين ومائتين[١] .

قيل : مات بالبادية نهسته[٢] السباع .

وقال ابن الجلاء : صحبت ستمائة شيخ ، ما لقيت فيهم مثل أربعة : أوَّلهم : أبو تراب النخشبى .

قال أبو تراب : الفقير قُوتُه : ما وجده ، ولباسه : ماستره ، ومسكنه : حيث نزل .

وقال أبو تراب : إذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله ، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته ولذّته وقت مباشرة الفعل .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت جدِّى إسماعيل بن نجيد يقول : كان أبو تراب النخشبى إذا رأى من أصحابه ما يكره زاد فى اجتهاده وجدَّد توبته ويقول :

بشؤمى دفعوا إلى ما دُفعوا إليه ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ قال : وسمعته يقول أيضًا لأصحابه : من لبس منكم مُرَقعة فقد سأل ، ومن قعد فى خانقاه أو مسجد فقد سأل ، ومن قرأ القرآن مِن مصحف ، أو كيما يسمع الناس فقد سأل .

قال : وسمعته يقول : كان أبو تراب يقول : بينى وبين الله عهد أن لا أمد يدى إلى حرام إلا قصرت يدى عنه .

ونظر أبو تراب يومًا إلى صوفى من تلامذته قد مدَّ يده إلى قشر بطيخ ، وقد طوى ثلاثة أيام ، فقال له أبو تراب :

تمد يدك إلى قشر البطيخ ؟ أنت لا يصلح لك التصوف ، الزم السوق .

---

(١) تفقه على مذهب الإمام الشافعى ، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل ، ومن حكمه : الناس يحبون ثلاثة وليست لهم : النفس والروح ، وهما لله . والمال وهو للورثة : ويطلبون اثنين ولا يجدونهما : الفرح والراحة وهما فى الجنة .

(٢) أخذت لحمه بمقدم أسنانها .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت أبا عبدالله الفارسى يقول سمعت أبا الحسين الرازى يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت أبا تراب النخشبى يقول :

ما تمنت نفسى علىّ شيئًا قط[1]، إلا مرة واحدة : تمنت علىّ خبزًا وبيضًا ، وأنا فى سفرى ، فعدلت عن الطريق إلى قرية ، فوثب رجل وتعلق بى وقال : كان هذا مع اللصوص ، فبطحونى وضربونى سبعين خشبة . قال : فوقف علينا رجل صوفى ، فصرخ وقال : ويحكم هذا أبو تراب النخشبى ، فخلونى واعتذروا إلىّ وأدخلنى الرجل منزله ، وقدّم إلىّ خبزًا وبيضًا ، فقلت[1] : كلْها بعد سبعين جلدة .

وحكى ابن الجلاء قال : دخل أبو تراب مكة طيِّب النفس ، فقلت : أين أكلت أيُّها الأستاذ ؟ فقال : أكلة بالبصرة ، وأكلة بالنباج ، وأكلة هاهنا .

---

(١) أى منذ أخذ فى الرياضة .

(٢) أى فى نفسى لنفسى .

ومنهم :

أبو محمد عبدالله بن خبيق

من زهّاد المتصوِّفة ، صحب يوسف بن أسباط .

كان كوفىَّ الأصل ، ولكنه سكن أنطاكية .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الفرج الورثانى يقول : سمعت أبا الأزهر الميافارقينى يقول : سمعت فتح بن شخرف يقول : حدثنى عبد الله بن خبيق أول ما لقيته فقال لى :

ياخراسانى ، إنما هى أربع لا غير : عينك ، ولسانك ، وقلبك ، وهواك .. فانظر عينك ، لا تنظر بها إلى ما لا يحل ، وانظر لسانك ، لا تقل به شيئًا يعلم الله تعالى خلافه من قلبك ؛ وانظر قلبك ، لا يكن فيه غلٌّ ولا حقد على أحد من المسلمين ، وانظر هواك لا تهوى به شيئًا من الشرِّ ، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال ، فاجعل الرماد على رأسك ؛ فقد شقيت .

وقال ابن خُبيق : لا تغتمَّ إلا من شىء يضرك غدًا ، ولا تفرح إلا بشىء يسرُّك غدًا .

وقال ابن خبيق : وحشة العباد عن الحق ، أوحشتْ منهم القلوب ، ولو أنهم أنسوا بربِّهم لأنس بهم كل أحد .

وقال : أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصى ، وأطال منك الحزن على ما فاتك ، وألزمك الفكرة فى بقية عمرك ، وأنفع الرجاء : ما سهَّل عليك العمل .

وقال : طول الاستماع إلى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب .

ومنهم :

أبو على أحمد بن عاصم الأنطاكى

من أقران بشر بن الحارث ، والسرىّ السقطى ، والحارث المحاسبىّ .

وكان أبو سليمان الدارانى يسميه : جاسوس القلب ، لحدة فراسته .

وقال أحمد بن عاصم : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك[1] .

وقال أحمد بن عاصم : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ونحن نستزيد من الفتنة[2] .

---

(١) إنما خص اللسان بالذكر لعظم جرائمه التى تؤثر فى القلب ظلمة زائدة ، فعلى العاقل أن يشغل لسانه بالذكر والتلاوة ، ليتنور قلبه .

(٢) ومن كلامه : « احذر الغيبة كما تحذر عظيم البلاء ؛ فإنها إذا ثبتت فى القلب أتتها أخواتها من النميمة والبغى وسوء الظن والبهتان . وهى مجانبة للإيمان » .

« كفى بالعبد عارًا أن يدعى دعوة لا يحققها بفعله ، أو يجعل لغير ربه من قلبه نصيبًا أو يستوحش مع ذكره » .

« من كان بالله أعرف ، كان منه أخوف » .

وكان ، رضى الله عنه ، من المحدثين .

ومنهم :

أبو السرى منصور بن عمار[١]

من أهل مرو ، من قرية يقال لها : « يرانقان » .

وقيل إنه من « بوشنج » أقام بالبصرة : وكان من الواعظين الأكابر .

وقال منصور بن عمار : من جزع من مصائب الدنيا تحوَّلت مصيبته فى دينه .

وقال منصور بن عمار : أحسن لباس العبد : التواضع ، والانكسار ، وأحسن لباس العارفين : التقوى ، قال الله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ .

وقيل : إن سبب توبته أنه وجد فى الطريق رقعة مكتوبًا عليها « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فرفعها ، فلم يجد لها موضعًا[٢] فأكلها ، فرأى فى المنام كأن قائلا قال له :

فتح الله عليك باب الحكمة ؛ باحترامك لتلك الرقعة .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول سمعت أبا العباس القاصّ يقول سمعت أبا الحسن الشعرانى يقول :

رأيت منصور بن عمار فى المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟

فقال قال لى : أنت منصور بن عمار ؟ فقلت : بلى يارب .

قال : أنت الذى كنتَ تزهدُّ الناس فى الدنيا وترغب فيها ؟

قلت : قد كان ذلك يارب ، ولكنى ما اتخذت مجلسًا إلا بدأت بالثناء عليك وثنَّيت بالصلاة على نبيك ؛ ﷺ ، وثلَّثت بالنصيحة لعبادك .

---

(١) ويسمى « المرزوى » مات ببغداد سنة خمس وعشرين ومائتين .

كتب إليه بشر المريسى : ما قولك فى القرآن ، أمخلوق أم لا ؟ .

فكتب إليه : أما بعد ، عافانا الله وإياك من كل فتنة ، فإن يفعل فأعظم بها من نعمة ، وإلا فهو الهلكة ، اعلم أن الكلام فى القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلف المجيب ما ليس له ، والله تعالى الخالق ، وما دون الله مخلوق ، والقرآن كلام الله ، وانته إلى أسمائه التى سماه الله بها تكن من المهتدين ، ولا تبتدع فى القرآن من قبلك اسمًا تكن من الضالين « وذر الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » .

(٢) أى يليق بها .

٧٥

فقال : صدق ، ضعوا له كرسيا ، يمجدنى فى سمائى بين ملائكتى ، كما كان يمجِّدنى فى أرضى بين عبادى[1] .

(١) قال العروسى : هذه القصة تشير إلى أن العبرة بما سبق من العناية ، وإن ظهر خلاف طريق الهداية ، لتحقق فائدة الرجاء والأمل ، لكل من عمل ومن لم يعمل ، وذلك بواسطة فيوضات الكرم ، من خزائن ولى النعم – ومع هذا فعلى المكلف دوام الامتثال ، وتفويض القبول لرب الأفضال ، فلا يغتر الإنسان بكثرة العبادات ، ولايقنط بكبير المخالفات ، لثبوت الجهل بما علمه العليم ، مما قضاه بحكمه القويم ، فيلزم أن يكون عمله بين الرجاء والخوف ، ولا يضيع وقته ما بين عسى وسوف ، حيث ذلك من علامة الخذلان ، والقائد إلى دركات النيران ، هذا ما تحرر فى أحكام الشريعة ، والمعول عليه فى أصول الحقيقه .

ومنهم :

أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار

نيسابورى ، منه انتشر مذهب الملامتية[١] بنيسابور .

صحب سلما[٢] الباروسى ، وأبا تراب النخشبى .

مات : سنة إحدى وسبعين ومائتين .

سئل حمدون : متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس[٣] ؟ .

فقال : إذا تعين عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى فى علمه ، أو خاف هلاك إنسان فى بدعة ، وهو يرجو أن ينجيه الله تعالى منها[٤] .

وقال : من ظن أن نفسه خير من نفس فرعون[٥] ، فقد أظهر الكبر .

وقال : مذ علمت أن للسلطان فراسة فى الأشرار ، ما خرج خوف السلطان من قلبى .

وقال : إذا رأيت سكرانًا فتمايل ؛ لئلا تبغى عليه ، فتبتلى بمثل ذلك[٦] .

وقال عبدالله بن منازل : قلت لأبى صالح : أوصنى .

فقال : « إن استطعت أن لا تغضب لشىء من الدنيا ، فافعل » .

ومات صديق له ، وهو عند رأسه ، فلما مات أطفأ حمدون السراج . فقالوا له :

---

(١) الملامتية : هم الذين يسترون صلاحهم بأمور تتداولها العوام ليست بمخالفات ولامعاص مبالغة فى الخفاء عن الشهرة ويعقب الإمام العروسى على هذا المذهب بقوله : « ولكن طريق الاتباع أكمل ، والله سبحانه بعباده أعلم » وقد أفرد السهروردى فصلًا فى عوارفه لبيان أحوالهم والحديث عنهم .

(٢) وفى نسخة أخرى « سالما » .

(٣) أى يعظمهم .

ومن كلامه : لايجزع من المصيبة إلا من اتهم ربه » ، « لا أحد أدون ممن يتزين إلى دار فانية ، ويتذلل إلى من لا يملك له ضرًا ولا نفعًا » ، « إنما كان كلام السلف أنفع من كلامنا لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق » (إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا كفرحهم بثلاثة : مؤمن قتل مؤمنا ، ورجل يموت كافرًا ، وقلب فيه خوف الفقر) ، (إذا استطعت أن تصبح مفوضا لا مدبرا فافعل) ، (من شغله طلب الدنيا عن الآخرة ، ذل فى الدنيا والآخرة) .

مات رحمه الله سنة إحدى وسبعين ومائتين ، ودفن بنيسابور . وقد أسند الحديث عن جماعة من الأعيان ، وروى عنه آخرون .

(٤) هذا إذا سلم حال تكلمه من الكبر والعجب والرياء ، ونحوها من الآفات . كما قال الأنصارى فى شرحه .

(٥) أى : فى الآخرة ، لأنه لا يدرى بم يختم له ، أما الحكم فى الحال بأن المؤمن خير من الكافر فحق لا كبر فيه .

(٦) المراد ترك الكبر على العصاة ، ورحمتهم ، وصدور الموعظة لهم على وجه الرفق بهم والخوف عليهم .

فى مثل هذا الوقت يزاد فى السراج الدهنُ .

فقال لهم : إلى هذا الوقت كان الدهن له ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة .

وقال حمدون : من نظر فى سير السلف عرف تقصيره وتخلفه عن درك درجات الرجال .

وقال : لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستورًا منك .

ومنهم :

أبو القاسم الجنيد بن محمد

سيد هذه الطائفة وإمامهم[١] .

أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وأبوه كان يبيع الزجاج ؛ فلذلك يقال له : « القواريرى » .

وكان فقيهًا على مذهب « أبى ثور » وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، صحب خاله السرى ، والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب .

مات سنة : سبع وتسعين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين ؛ رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن الحسين البغدادى يقول : سمعت الفراغانى يقول : سمعت الجنيد ؛ وقد سئل : من العارف ؟

قال : من نطق عن سرِّك[٢] وأنت ساكت .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول :

ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع ؛ وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا نصر الأصبهانى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال :

أهل المعرفة بالله : يصلون إلى ترك الحركات[٣] من باب البرِّ والتقرُّب إلى الله عزّ وجلّ .

---

(١) قال ابن عربى فى الفتوحات : هو سيد أهل الطائفة ، كان من الفقهاء المتعبدين على مذهب الشافعية وتفقه على أبى ثور . توفى ببغداد سنة ٢٩٨ هـ ، وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والفقهاء لتقريره ، والفلاسفة لدقة نظره ومعانية ، والمتكلمون لتحقيقه ، والصوفية لإشاراته وحقائقه .

ومن حكمه : الإخلاص سر بين العبد وربه لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيهلكه ، وقال : بنى الطريق على أربع : لا تتكلم إلا عن وجود ، ولا تأكل إلا عن فاقه ، ولاتنم إلا عن غلبة ، ولا تسكت إلا عن خشية .

(٢) وفى نسخة أخرى : بسرك .

(٣) أى الأعمال .

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّة إلا أن يحال بى دونها .

وقال الجنيد : إن أمكنك أن لا تكون آلة بيتك إلا خزفًا ، فافعل .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا عمر الأنماطى يقول سمعت الجنيد يقول :

لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة ، كان مافاته أكثر مما ناله .

وقال الجنيد : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به فى هذا الأمر[1] ، لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنَّة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا نصر الأصبهانى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول عن الجنيد : مذهبنا هذا : مقيَّد بأصول[2] الكتاب والسنَّة .

وقال الجنيد : علمنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله ﷺ .

أنبأنا محمد بن الحسين رحمه الله ، قال : سمعت أبا الحسين بن فارس يقول : سمعت أبا الحسين على بن إبراهيم الحداد يقول : حضرت مجلس القاضى[3] أبى العباس بن شريح ، فتكلَّم فى الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلما رأى إعجابى قال :

أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضى .

فقال : هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد .

وقيل للجنيد : من أين استفدت هذا العلم ؟ .

فقال : من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، وأومأ إلى درجة فى داره .

---

(١) أى التصوف .

(٢) وفى نسخة أخرى (بالأصول) .

(٣) فى نسخة بدون ذكر (القاضى) .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يحكى ذلك ، وسمعته يقول :

رؤى فى يده سبحة ، فقيل له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ؟!

فقال : طريق به وصلت إلى ربى لا أفارقه .

سمعت الأستاذ أبا عليّ ، رحمه الله ، يقول :

كان الجنيد يدخل كل يوم حانوته ، ويسبل الستر ، ويصلى أربعمائة ركعة ، ثم يعود إلى بيته .

وقال أبو بكر العطوى :

كنت عند الجنيد حين مات ، فرأيته ختم القرآن .. ثم ابتدأ من البقرة وقرأسبعين آية ثم مات رحمه الله[1] .

---

(١) ومن أقواله :

« لا يسمى عبد عاقلا حتى لا يظهر على جوارحه شيء ذمه ربه » .

« بنى الطريق على أربع : لا تتكلم إلا عن وجود ، ولا تأكل إلا عن فاقة ، ولا تنم إلا عن غلبة ، ولا تسكت إلا عن خشية » .

« صفاء القلوب على حسب صفاء الذكر وخلوصه من الشوائب » .

« يجعل أحدهم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة » .

« طريق التصوف عنوة لا صلح فيها » .

« لا يصفو قلب لعمل الآخرة ، إلا إذا تجرد من حب الدنيا » .

ومنهم :

أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبرى

المقيم بنيسابور . وكان من « الرى » صحب شاه الكرمانى ، ويحيى بن معاذ الرازى ثم ورد نيسابور ، مع شاه الكرمانى ؛ على[1] أبى حفص الحداد وأقام عنده ، وتخرَّج به ، وزوجه أبو حفص ابنته .

مات سنة ثمان وتسعين ومائتين ، وعاش بعد أبى حفص نيفا وثلاثين سنة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا عمرو بن حمدان يقول : سمعت أبا عثمان يقول : لا يكمل إيمان الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء .

المنع ، والإعطاء ، والعزّ ، والذلّ .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالرحمن بن عبدالله يقول : سمعت بعض أصحاب أبى عثمان يقول : سمعت أبا عثمان ، يقول : صحبت أبا حفص مدَّة ، وأنا شاب ، فطردنى مرَّة ، وقال : لا تجلس عندى .

فقمت ، ولم أوَله ظهرى ، وانصرفت إلى ورائى ، ووجهى إلى وجهه .. حتى غبت عن عينيه[2] ، وجعلت على نفسى : أن أحفر على بابه حفرة لا أخرج منها إلا بأمره .

فلما رأى ذلك أدنانى ، وجعلنى من خواصّ أصحابه .

قال : وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم :

أبو عثمان بنيسابور ، والجنيد ببغداد ، وأبو عبدالله بن الجلاءِ بالشام .

وقال أبو عثمان : منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ولا نقلنى إلى غيره فسخطته .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالله بن محمد الشعرانى يقول : سمعت أبا عثمان يقول ذلك .

ولما تغيَّر على أبى عثمان الحال[3] مزّق ابنه أبو بكر قميصًا على نفسه ، ففتح أبو عثمان

---

(١) أى وقرأ على أبى حفص .

(٢) وفى نسخة أخرى « عنه » .

(٣) أى حينما غشى عليه فى مرضه .

عينيه وقال : خلاف[1] السُّنة يابنى فى الظاهر ، علامة رياء فى الباطن .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت محمد بن أحمد الملامتى يقول : سمعت أبا الحسين الوَّراق يقول : سمعت أبا عثمان يقول :

الصحبة مع الله : بحسن الأدب ؛ ودوام الهيبة ، والمراقبة .

والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باتِّباع سنَّته ، ولزوم ظاهر العلم .

والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة .

والصحبة مع الأهل : بحسن الخلق .

والصحبة مع الأخوان : بدوام البشر ما لم يكن إثما .

والصحبة مع الجهَّال : بالدعاء لهم والرحمة عليهم .

سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى رحمه الله يقول :

سمعت أبا عمرو بن نجيد يقول : سمعت أبا عثمان يقول :

من أمَّر[2] السنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[3] .

---

(١) أى ما فعله ابنه من اظهار الحزن والألم عليه حتى لا يذم بترك الحنو على والده . إذ لم يراقب الله فى أمره ونهيه عند نزول المصائب .

(٢) لازمها ولم يخرج عنها .

(٣) آية ٥٤ من سورة النور ، ومن أقواله أيضًا :

« حق على من أعزه الله بالطاعة ألا لا يذل نفسه بالمعصية » .

« أصل التعليق بالخير ، قصر للأمل .. ومادمت تتبع شهوتك وإرادتك فأنت مسجون . فإذا فوضت أمرك إلى الله وسلمت استرحت » .. أى مع العمل .

أصحب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل .. فإن التعزز على الأغنياء تواضع ، والتذلل للفقراء شرف .

« علامة السعادة أن تطيع الله وتخاف أن تكون مردودًا ، والشقاوة : أن تعصيه وترجو أن تكون مقبولاً .

ومنهم :

أبو الحسين أحمد بن محمد النورى

بغدادى المولد والمنشأ ، بغوى الأصل .

صحب السرىَّ السقطى ، وابن أبى الحوارى ، وكان من أقران الجنيد رحمه الله .

مات سنة : خمس وتسعين ومائتين ، وكان كبير الشأن ، حسن المعاملة واللسان .

قال النورى ، رحمه الله : التصوُّف : ترك كل حظ للنفس .

وقال النورى : أعزُّ الأشياء فى زماننا شيئان :

عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة .

سمعت أبا عبدالله الصوفى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن محمد البرذعى يقول : سمعت المرتعش يقول سمعت النورى يقول :

من رأيتَه يدَّعى مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعى فلا تقربنَّ منه .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت الفرغانى يقول : سمعت الجنيد يقول :

منذ مات النورى لم يخْبِر عن حقيقة الصدق أحد .

وقال أبو أحمد المغازلى :

ما رأيت أعبد من النورى ، قيل : ولا الجنيد قال : ولا الجنيد .

وقال النورى : كانت المراقع غطاءً على الدرِّ ، فصارت اليوم مزابل على جيَف .

وقيل : كان يخرج كلَّ يوم من داره ، ويحمل الخبز معه . ثم يتصدَّق به فى الطريق ، ويدخل مسجدًا يصِّلى فيه إلى قريب من الظهر ؛ ثم يخرج منه ويفتح باب حانوته ، ويصوم[1] .

فكان أهله يتوهَّمون أنه يأكل فى السوق ، وأهل السوق يتوهَّمون أنه يأكل فى بيته .

وبقى على هذا[2] فى ابتدائه عشرين سنة[3] .

---

(١) بقية يومه .

(٢) وفى نسخة أخرى « وبقى علَى هذا النهج » أى الطريق : وهو إخفاء حاله فى عبادة ربه .

(٣) ومن كلامه :

« من وصل إلى وده ، أنس بحبه .. ومن توصل بالوداد ، فقد اصطفاه الله من بين العباد » .

« نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجدان » ..

ومنهم :

أبو عبدالله بن يحيى الجلاء

بغداديُّ الأصل ، أقام بالرملة ودمشق ، من أكابر مشايخ الشام .

صحب أبا تراب ، وذا النون ، وأبا عبيد البُسرى ؛ وأباه يحيى الجلَّاء .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبدالعزيز الطبرى يقول : سمعت أبا عمر الدمشقى ، يقول : سمعت ابن الجلَّاء يقول :

قلت لأبى وأمى : أحبُّ أن تهبانى لله عزَّ وجل . فقالا : قد وهبناك لله عز وجلَّ .

فغبت عنهما مدَّة ، فلما رجعت كانت ليلة مطيرة ، فدققت الباب ، فقال لى أبى : من ذا ؟ قلت : ولدك أحمد .

فقال : كان لنا ولد ، فوهبناه لله تعالى ، ونحنُ من العرب لانسترجع ما وهبناه ، ولم يفتح لى الباب .

وقال ابن الجلَّاء : من استوى عنده المدح والذم ، فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض فى أول مواقيتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله ، فهو مُوحِّد لا يرى إلا وَاحدًا .

ولما مات ابن الجلَّاء نظروا إليه ، وهو يضحك . فقال الطبيب : إنه حى .

ثم نظر إلى مجسَّته فقال : إنه ميت . ثم كشف عن وجهه ، فقال : لا أدرى أهو ميت أم حى !! .

وكان فى داخل جلده عِرق على شكل « الله » .

وقال ابن الجلَّاء ، رحمه الله ، كنت أمشى مع أستاذى ، فرأيت حدثًا جميلًا فقلت : يا أستاذى ، تُرى يعذِّب الله هذه الصورة ؟ .

فقال : أوَ نظرت إليه !! سترى غبَّه[1] .

قال : فنسيت القرآن بعده بعشرين سنة[2] .

---

(١) غبه :. عاقبته .

(٢) ومن أقواله :

« سمت هم المريدين إلى طلب الطريق إليه ، فأفنوا نفوسهم فى الطلب ، وسمت هم العارفين إلى مولاهم فلم تعطف على شىء سواه .. الحق استصحب أقواما للكلام ، واستصحب أقواما للخلة .. فمن استصحبه الحق لمعنى ابتلاه بأنواع المحن . فليحذر أحدكم طلب رتبة الأكابر .

« .. من بلغ بنفسه إلى رتبة سقط عنها . ومن بلغ به ثبت عليها .

ومنهم :

أبو محمد رويم بن أحمد

بغداديٌّ ، من أجلَّة المشايخ مات : سنة ثلاث وثلاثمائة .

وكان مقرئا ، وفقيها على مذهب داود[١] .

قال رويم : من حِكم الحكيم ، أن يوسِّع على إخوانه فى الأحكام ، ويضيِّق على نفسه فيها ، فإن التوسعة عليهم اتباع العلم ، والتضييق على نفسه من حكم الورع .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالواحد بن بكر يقول : سمعت أبا عبدالله بن خفيف يقول : سألت رويما ، فقلت : أوصنى .

فقال : ما هذا الأمر ، إلا ببذل الروح[٢]، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا ، وإلا فلا تشتغل بترَّهات[٣] الصوفية .

وقال رويم : قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية ، فإن كل الخَلق قعدوا على الرسوم[٤]، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع ، وطالب هؤلاء أنفسهَم بحقيقة الورع ، ومداومة الصدق ، فمن قعد معهم وخالفهم فى شيء مما يتحققون به نزع الله نورَ الإيمان من قلبه .

وقال رويم :

اجتزت ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك ، وأنا عطشان ، فاستقيت من دار ، ففتحت صبيَّة بابها ، ومعها كوز ، فلما رأتنى قالت :

صوفىٌّ يشرب بالنهار !!

فما أفطرتُ بعد ذلك اليوم قط .

---

(١) داود الظاهرى : وهو أبو سليمان ، داود بن على بن خلف الأصبهانى . أحد الأئمة المجتهدين فى الإسلام تنسب إليه الطائفة الظاهرية ، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأى والقياس ، مولده فى الكوفة سنة ٢٠١ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ هـ .

(٢) أى بذل الجهد فى الطاعات والإعراض عن المحرمات .

(٣) جمع ترهة : وهى الأباطيل والخرافات .

(٤) أى تعلقوا بالأعمال الظاهرية .

وقال رويم :

إذا رزقك الله المقال[1] ، والفعال ، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال فإنها نعمة ، وإذا أخذ منك الفعال ، وأبقى عليك المقال ، فإنها مصيبة ، وإذا أخذ منك كليهما فهى نقمة وعقوبة[2] .

---

(١) المقال أى العلم – والفعال : أى العمل به .

(٢) ومن أقواله :

« . السكون إلى الاحوال اغترار » ، – « رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين » ، : الفقر له حرمه ، وحرمته ستره وإخفاؤه والغيره عليه والضن بكسفه » .

« الإخلاص : ارتفاع رؤيتك عن فعلك ، والفتوة : أن تعذر إخوانك فى زللهم ، ولا تعاملهم بما يحوج إلى الاعتذار إليهم » .

« الصبر : ترك السكوى ، والرضا : التلذذ بالبلوى ، واليقين : المشاهدة بالبصيرة » .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى

ساكن سمرقند : بلخى الأصل ، أخرج منها ، فدخل سمرقند ، ومات بها .

وصحب أحمد بن خَضْرويه ، وغيره ، وكان أبو عثمان الحيرى يميل إليه جدا . مات سنة : تسع عشرة وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن محمد الفرَّاء ، يقول : سمعت أبا بكر بن عثمان يقول : كتب أبو عثمان الحيرى إلى محمد بن الفضل يسأله : ما علامة الشقاوة ؟ فقال : ثلاثة أشياء : يُرزق العلم ويحرم العمل ، ويرزق العمل ويحرم الإخلاص ، ويرزق صحبة الصالحين ولا يحترمُ لهم .

وكان أبو عثمان الحيرى يقول : محمد بن الفضل سمسار(١) الرجال .

سمعت محمد الحسين يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول : سمعت محمد بن الفضل يقول : الراحة فى السِّجن(٢) من أمانى النفوس .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت محمد بن الفضل يقول :

ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بمالا يعلمون ، ولا يتعلمون مالا يعلمون ، ويمنعون الناس من التعلم .

وبهذا الإسناد ، قال :

العجب ممن يقطع المفاوز ليصل إلى بيته(٣) ، فيرى آثار النبوة ، كيف لا يقطع نفسه وهواه ، ليصل إلى قلبه فيرى آثار ربِّه عزَّ وجل !؟

وقال : إذا رأيت المريد يستزيد من الدنيا ، فذلك من علامات إدباره .

---

(١) أى يعرف أقدارهم ورتبهم فى الدين ، كما يعرف سمسار السلع قدرها وقدر أثمانها .

(٢) المراد بالسجن : الدنيا ، مصداقا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام :« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .

(٣) أى بيت الله تعالى .

وسئل عن الزهد ، فقال :

النظر إلى الدنيا بعين النقص والإعراض عنها تعزُّزًا ، وتظرفاً ، وتشرفًا[١]

---

(١) ومن أقواله : أعرف الناس بالله : أشدهم مجاهدة فى أوامره ، وأتبعهم لسنة نبيه ﷺ ، وقال : « من استوى عنده ما دون الله نال المعرفة بالله » « أنزل نفسك منزلة من لا حاجة له فيها ، ولا بدله منها ، فإن من ملك نفسه عز ، ومن ملكته نفسه ذل » .

ومن كلامه : « ست خصال يعرف بها الجاهل : الغضب فى غير شىء ، والكلام فى غير نفع ، والعظة فى غير موضعها ، وإفشاء السر ، والثقة بكل أحد ، ولا يعرف صديقه من عدوه » أ . هـ .

ومنهم :

أبو بكر أحمد بن نصر الزقاق الكبير

كان من أقران الجنيد . من أكابر مصر .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن أحمد يقول : سمعت الكتانى يقول :

لما مات الزَّقاق انقطعت حُجَّة الفقراء فى دخولهم مصر[١] .

وقال الزقاق : من لم يصحبه التَقى فى فقره أكل الحرام المحض .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن عبد العزيز يقول : سمعت الزقاق يقول :

تهت فى تيه بنى إسرائيل مقدار خمسة عشر يوماً ، فلما وقعتُ على الطريق استقبلنى إنسان جندى ، فسقانى شربة من ماء ، فعادت قسوتها على قلبى ثلاثين سنة .

---

(١) أى أن الفقراء الذين يدخلون مصر بعد وفاته يتهمون بأن دخولهم مصر إنما يكون للاستزادة من خيراتها المادية الوافرة وليس للاستفادة الروحية التى انتهت - فى نظر القائل - بوفاة الزقاق .

ومنهم :

أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكى

لقى أبا عبد الله النباجى ، وصحب أبا سعيد الخرَّاز وغيره .

شيخ القوم ، وإمام الطائفة فى الأصول والطريقة .

مات ببغداد سنة : إحدى وتسعين ومائتين .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد يقول : سمعت عمرو بن عثمان المكى يقول :

كل ما توهمه قلبك ، أو رسخ[١] فى مجارى فكرتك ، أو خطر فى معارضات قلبك من حسن ، أو بهاء ، أو أنس ، أو جمال ، أو ضياء ، أو شبح ، أو نور ، أو شخص ، أو خيال ، فالله تعالى بعيد من ذلك ، ألا تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وبهذا الإسناد قال :

العلم قائد ، والخوف سائق ، والنفس حَرون بين ذلك ، جَموح ، خدَّاعة ، روَّاغة ، فاحذرها بسياسة العلم ، وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد .

وقال : لا تقع على الواجد[٢] عبارة ، لأنه سر الله عند المؤمنين[٣] .

---

(١) وفى نسخة أخرى (أوسنح) أى عرض وخطر .

(٢) وفى نسخة أخرى : (الوجد) عبارة : أى يعبر بها عنه .

(٣) وقال : (الصبر : الثبات مع الله ، وملاقاة بلائه بالرحب والدعة) (المروءة : التفاعل عن زلل الإخوان) .

ومنهم :

سمنون بن حمزة

وكنيته : أبو الحسن ، ويقال : أبو القاسم .

صحب السريَّ ، وأبا أحمد القلانسى ، ومحمد بن على القصَّار ؛ وغيرهم .

قيل إنه أنشد :

وليس لى فى سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرنى

فأخذه الأسر[1] من ساعته فكان يدور على المكاتب ، ويقول : ادعوا لعمِّكم الكذَّاب .

وقيل : إنه أنشد هذه الأبيات ، فقال بعض أصحابه لبعض : سمعت البارحة ، وكنت فى الرُّستاق صوت أستاذنا « سمنون » يدعو الله ، ويتضَرَّع إليه ، ويسأله الشفاءِ .

فقال آخر : وأنا أيضاً ، كنت سمعت هذا البارحة ، وكنت بالموضع الفلانى .

فقال ثالث ، ورابع ، مثل هذا ، فأخبر سمنون ، وكان قد امتُحن بعلّة الأسر ، وكان يصبر ولا يجزع ، فلما سمعهم يقولون هذا ؛ ولم يكن هو دعا ؛ ولا نطق بشىء من ذلك ، علم أن المقصود منه إظهار الجزع تأدُّباً بالعبودية ، وستراً لحاله ، فأخذ يطوف على المكاتب ويقول : ادعوا لعمِّكم الكذَّاب .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول سمعت أبا العباس محمد بن الحسن البغدادى يقول : سمعت جعفراً الخلدى يقول : قال لى أبو أحمد المنازلى :

كان ببغداد رجل فرّق على الفقراء أربعين ألف درهم ، فقال لى سمنون :

يا أبا أحمد ، ألا نرى ما قد أنفق هذا ، وماقد عمله ؟ ونحن ما نجد شيئاً !! فامض بنا إلى موضع نصلِّى فيه بكل درهم أنفقه ركعة[2] .

---

(١) الأسر : احتباس البول ، ويروى ابن عربى سبب ذلك فيقول : « لما أساء سمنون الأدب مع الله وأراد أن يقاوم القدرة الإلهية لما وجد فى نفسه من حكم الرضا والصبر ، أبتلى بالأسر الذى هو احتباس البول فكان يتلوى منه كالحية على الرمل ، إذ مقاومة القهر الالهى سوء أدب .

ولما تاب الله عليه وشفاه ، أنشد :

أنا راض بطول صدك عنى ... ليس إلا لأن ذاك هواكا

فامتحن بالجفا ضميرى الود ... ودعنى معلقاً برجاكا

(٢) أى ركعة كما فى نسخة أخرى .

فمضينا إلى المدائن ، فصلّينا أربعين ألف صلاة .

وكان سمنون ظريف الخُلق ، أكثر كلامه فى المحبَّة ، وكان كبير[1] الشأن مات قبل الجنيد ، كما قيل .

(١) ومن كلامه فى ذلك : أول وصل العبد هجرانه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه . وسئل عن المحبة فقال : صفاء الود مع دوام الذكر ، وعن التصوف ، فقال : أن لا تملك شيئا ولا يملكك شىء .. وقيل له : إنا نذكر الله ولا نجد فى قلوبنا حلاوة ، فقال : أحمدوا الله على أن زين جارحة من جوارحكم بذكره ».

ومنهم :

أبو عبيد البسرى

من قدماء المشايخ صحب أبا تراب النخشَبى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن علىٍّ يقول : سمعت الدُّقى يقول : سمعت ابن الجلاَّءِ يقول :

لقيت ستمائة شيخ فما رأيت مثل أربعة :

ذى النون المصرى ، وأبى[١] ، وأبى تراب ، وأبى عبيد البُسرى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن محمد البَغَوى يقول : سمعت محمد بن معمر يقول : سمعت أبا زرعة الحسنى يقول :

كان أبو عبيد البسرى يوماً على « جرجر »[٢] يدرس قمحًا له ، وبينه وبين الحج ثلاثة أيام ؛ إذ أتاه رجلان ، فقالا :

يا أبا عبيد ، تنشط للحج ؟

فقال : لا .

ثم التفت إلىّ وقال :

شيخك على هذا[٣] أقدر منها ، يعنى نفسه .

---

(١) هو : يحيى الجلاء .

(٢) نوح .

(٣) أى : على الحج قبل فوات أوانه عن طريق هذا الأمر المسمى بـ « طى الأرض » .

ومنهم :

أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى

كان من أولاد الملوك .

صحب أبا تراب النَخْشَبِّى ، وأبا عُبيد البُسْرى ، وأولئك الطبقة .

وكان أحد الفتيان[١] كبير الشأن[٢] ، مات قبل الثلاثمائة .

وقال شاه : علامة التقوى الورع ، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات .

وكان يقول لأصحابه :

اجتنبوا الكذب ، والخيانة ، والغيبة ، ثم اصنعوا ما بدا لكم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت جدِّى ابن نجيد يقول :

قال شاه الكرمانى : من غَضَّ بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وعوّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة .

---

(١) من أهل الفتوة والبذل .

(٢) ومن كلامه : (لأهل الفضل فضل ، ما لم يروه ، فإذا رأوه فلا فضل لهم ، ولأهل الولاية ولايه ما لم يروها ، فإذا رأوها فلا ولاية لهم) .

(من صحبك على ما يحب ، وخالفك فيما يكره ، فإنما يصحب هواه)

(التوكل : سكون القلب إلى الله تعالى فى حالتى الموجود والمفقود) .

ومنهم :

يوسف بن الحسين[١]

شيخ الريّ والجبال فى وقته .

وكان نسيج وحده فى إسقاط التصنُّع[٢] .

وكان عالما أديباً ، صحب ذا النون المصرى ، وأبا تراب النخشبى ، ورافق أبا سعيد الخرَّاز مات سنة : أربع وثلاثمائة .

قال يوسف بن الحسين : لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحبُّ إلى من أن ألقاه بذرَّةٍ من التصنع .

وقال يوسف بن الحسين : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص ، فاعلم أنه لا يجىء[٣] منه شىء .

وكتب إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك[٤] ! فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً .

وقال يوسف بن الحسين : رأيت آفات الصوفية فى صحبة الأحداث ، ومعاشرة الأضداد ، ورِفق النسوان[٥] .

---

(١) هو يوسف بن الحسين أبو يعقوب الرازى .

(٢) أى التزين والتحسن للخلق باظهار العبادة والطاعة .

(٣) مما يرجوه من معالى الأمور .

(٤) أى لذة شهواتها الذميمة كلذة الرياسة والمنزلة وتعظيم الخلق .

(٥) أى الانتفاع بالعطايا والهبات وقبول ما يدفعنه من ذلك .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن على الترمذى[١]

من كبار الشيوخ ، وله تصانيف فى علوم القوم .

صحب أبا تراب النَّخشبى ، وأحمد بن خضرويه ؛ وابن الجلَّاءِ ، وغيرهم سئل محمد بن على : عن صفة الخَلْق ، فقال :

ضعف ظاهر ، ودعوى عريضة .

وقال محمد بن علىٍّ : ما صَّنفت حرفاً عن تدبير ، ولا لينسب إلىَّ شىء منه ولكن كان إذا اشتد علىَّ وقتى أتسلى به .

---

(١) نسبة إلى ترمذ : مدينة على طرف نهر بلخ المسمى بجيحون . قال الحافظ بن النجار فى تاريخه : كان إمامًا من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث ، وقال الكلاباذى فى « التعرف » هو : من أئمة الصوفية : وقال ابن عطاء الله : كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان : هو أحد الاوتاد الأربعة .

ومن حكمه : إذا سكنت الأرواح بالسر نطقت الجوارح بالبز ، وقال : « الولى أبدًا فى ستر حاله والكون ناطق بولايته ، ومدعى الولاية ناطق بولايته والكون كله يكذبه » وقال مااستصغرت أحداً من المسلمين إلا وجدت نقصا فى معرفتى وإيمانى . وما منع الناس من الوصول إلا لركضهم فى الطريق بغير دليل » .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى

أقام ببلخ .

وصحب أحمد بن خضرويه ، وغيره . وله تصانيف فى الرياضيات .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن يقول : سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن محمد البلخى يقول : سمعت أبا بكر الورّاق يقول :

من أرضى الجوارح بالشهوات غرس فى قلبه شجر الندامات .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت أبا بكر البلخى يقول : سمعت أبا بكر الورّاق يقول :

لو قيل للطمع من أبوك ؟ قال : الشك فى المقدور .

ولو قيل : ما حرفتك ؟

قال : اكتساب الذلّ .

ولو قيل : ما غايتك ؟

قال : الحرمان .

وكان أبو بكر الورّاق يمنع أصحابه عن الأسفار والسياحات ويقول :

مفتاح كل بركة الصبر فى موضع إرادتك[1] إلى أن تصحّ لك الإرادة ، فإن صحّت لك الإرادة ، فقد ظهرت عليك أوائل البركة .

---

(١) إرادتك : سلوكك .

ومنهم :

أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز

من أهل بغداد .

صاحب ذا النون المصرى ، والنباجى ، وأبا عبيد البسريَّ ، والسرى ، وبشراً ، وغيرهم .. مات سنة : سبع وسبعين ومائتين .

قال أبو سعيد الخرّاز : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا العباس الصياد يقول : سمعت أبا سعيد الخرّاز يقول :

رأيت إبليس فى النوم ، وهو يمرّ عنى ناحية ، فقلت له : تعال ، مالك ؟

فقال : إيش أعمل بكم ، وأنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس !!

فقلت : وما هو ؟ قال : الدنيا .

فلما ولى عنى ، التفت إلىّ ، وقال : غير أن لى فيكم لطيفة[1] .

فقلت : وماهى ؟ قال : صحبة الأحداث .

وقال أبو سعيد الخرّاز :

صحبت الصوفية ما صحبت ، فما وقع بينى وبينهم خلاف .

قالوا : لِمَ ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى .

---

(١) لطيفة : أى أمر خفى .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربى

أستاذ إبراهيم بن شيبان[١] ، وتلميذ علىّ بن رزين .

عاش مائة وعشرين سنة ومات سنة : تسع وتسعين ومائتين .

كان عجيب الشأن ، لم يأكل مما وصلت إليه يد بنى آدم سنين كثيرة ، وكان يتناول من أصول الحشيش أشياء تعود أكلها .

وقال أبو عبد الله المغربى :

أفضل الأعمال عمارة الأوقاتِ بالموافقات[٢] .

وقال : أعظم الناس ذلًّا فقير داهن غنيا ، أو تواضع له وأعظم الخلق عزًّا غنىّ تذلل للفقراء ، وحفظ حرمتهم[٣] .

---

(١) الخواص .

(٢) بين أعمال القلب والجوارح بأن تكون واقعة على أفضل ما يرضى الله ، وفى نسخة بالمراقبات .

(٣) ومن أقواله : « الفقير لا يرجع إلى مستند فى الكون ، غير الالتجاء إلى من إليه فقره ، ليغنيه بالاستغناء به » . و « من ادعى العبودية وله مراد باق فهو كذاب ، إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته فى مرادات سيده » . و« العارف تضىء له أنوار العلم فينظر بها عجائب الغيب »..

ومنهم :

أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق

من أهل طوس[١] . سكن بغداد ، وصحب الحارس المحاسبى ، والسرىَّ السقطى توفى ببغداد سنة تسع ، وقيل : سنة ثمان وتسعين ومائتين .

قال ابن مسروق : من راقب الله تعالى فى خطرات قلبه عصمه الله فى حركات جوارحه .

وقال : تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى ، وبه يصل العبد إلى محل حقيقة التقوى .

وقال : شجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة ، وشجرة الغفلة تسقى بماءِ الجهل ، وشجرة التوبة تسقى بماءِ الندامة ، وشجرة المحبة تسقى بماءِ الاتفاق[٢] والموافقة .

وقال : متى طمعت فى المعرفة[٣] ، ولم تحكم قبلها مدارج الإرادة[٤] فأنت فى جهل ، ومتى طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة ، فأنت فى غفلة عمَّا تطلب .

---

(١) أخذ الحديث عن كثيرين . ومن أقواله : من لم يحترز بعقله من عقله لعقله ، هلك بعقله . وقال : المؤمن يقوى بذكر الله ، والمنافق بالأكل والشرب .

(٢) أى اتفاق مراد العبد ومطلوب الرب تعالى والموافقة للكتاب والسنة .

(٣) المعرفة بالله .

(٤) السلوك .

ومنهم :

أبو الحسن على بن سهل الأصبهانى

من أقران الجنيد .

قصده عمرو بن عثمان المكىّ فى دَيْن ركبه ، فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم .

لقى أبا تراب النخشبى والطبقة[1] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الطبرى يقول : سمعت علىَّ بن سهل يقول :

المبادرة إلى الطاعة من علامة التوفيق .

والتقاعد عن المخالفات من علامات حسن الرعاية .

ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ .

وإظهار الدعاوى من رعونات البشرية ، ومن لم تصح مبادئ إرادته لا يسلم فى منتهى عواقبه[2] .

---

(١) أى الذين فى طبقته . ومن كلامه : حرام على من عرف الله أن يسكن لغيره وقال : التصوف : التبرى عمن دونه ، والتخلى عما سواه .

(٢) ومن أقواله : « من فقه قلبه أورثه ذلك الإعراض عن الدنيا وأهلها ، فإن من جهل القلب متابعة سرور لا يدوم » .

ومنهم :

أبو محمد بن محمد بن الحسين الجريرى[١]

من كبار أصحاب الجنيد ، وصحب سهل بن عبد الله ، أُقعد بعد الجنيد فى مكانه وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة ، كبير الحال ، مات سنة : إحدى عشرة وثلاثمائة .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، يقول : سمعت أحمد بن عطاء الروذبارى يقول :

مات الجريرى سنة الهبير[٢] ، فجزت به بعد سنة ، فإذا هو مستند جالس وركبته إلى صدره ، وهو مشير إلى الله[٣] بأصبعه .

من استولت عليه النفس صار أسيرًا فى حكم الشهوات ، محصوراً فى سجن الهوى ، وحرّم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذّ بكلام الحق تعالى ؛ ولا يستحليه وإن كثر تزداده على لسانه ؛ لقوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[٤] .

وقال الجريرى :

رؤية الأصول[٥] باستعمال الفروع ، وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول[٦] ، ولا سبيل إلى مقام مشاهدة الأصول إلا بتعظيم ما عظَّم الله من الوسائط والفروع[٧] .

---

(١) نسبة إلى جرير بن عباد من بنى بكر بن وائل .
(٢) أى السنة التى كان فيها هلاك الناس وتقطيعهم .
(٣) إلى انفراده سبحانه بالوحدانية .
(٤) آية ١٤٦ من سورة الاعراف .
(٥) أصول الأحكام الشرعية وهى الكتاب والسنة .
(٦) أى عرض الفروع عليها .
(٧) والمقصود أن اعتقاد العظمة والصحة فى الأصول فرع اعتقاد العظمة والصدق فيمن شرعها ، واعتقاد عظمة الأصول لا يتم إلا بإيقاع الفروع صحيحة على موافقتها ، وإلا فلا فائدة .. ومن كلامه إن الله لا يعبأ بصاحب حكاية وإنما يعبأ بصاحب قلب ورواية ، وقال : من توهم أن أعماله توصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضل عن الطريق : لأن المصطفى ﷺ يقول . لن ينجى أحدكم عمله . فما لا ينجى من المخوف كيف يبلغ المأمول ؟ ، ومن صح اعتماده على فصله (مع العمل) فذاك الذى يرجى له الوصول .

ومنهم :

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمى[١]

من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم[٢] ، كان الخرّاز يعظّم شأنه .

وهو من أقران الجنيد ، وصحب إبراهيم المارستانى ، مات سنة : تسع وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا سعيد القرشى يقول : سمعت ابن عطاء يقول : من ألزم نفسه آداب الشريعة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ ، فى أوامره ؛ وأفعاله ، وأخلاقه .

وقال ابن عطاء : أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربِّه عز وجلّ ، وغفلته عن أوامره ونواهيه ، وغفلته عن آداب معاملته .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الرحمن بن أحمد الصوفىَّ يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول :

كل ما سئلتَ عنه فاطلبه فى مفازة[٣] العلم ، فإن لم تجده ، ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزِنه بالتوحيد[٤] ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

---

(١) بفتح الهمزة والدال : نسبة إلى بيع الأدم وهو الجلد .

(٢) قال : رأيت فى النوم قائلا يقول : أى شىء أصح فى الصلاة ؟ قلت : صحة القصد . فقال هاتف : بل رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد ، وقال « رؤية الثواب عند ذكر الله غفلة عن الله » .

(٣) أى بمجاله لا تساعه وهو الأدلة المأخوذة من الكتاب والسنة .

(٤) أى بما تقرر فى علم التوحيد هل تليق نسبته إلى الله أم لا .

ومنهم :

أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الخواص

من أقران الجنيد والنُّورى ، وله فى التوكل والرياضات حظٌّ كبير ، مات بالرى سنة : إحدى وتسعين ومائتين .

كان « مبطونا »[١] ؛ فكان كلما قام توضأ ، وعاد إلى المسجد ، وصلى ركعتين ، فدخل مرَّة الماء فمات . رحمه الله .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الخوّاص يقول : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العالم من اتَّبع العلم واستعمله ؛ واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت الأزدىَّ يقول : سمعت الخوّاص يقول :

دواءِ القلب خمسة أشياء :

قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ؛ والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين[٢] .

---

(١) أى مريضا بداء البطن وهو الإسهال .

(٢) ومن فوائده : « من لم يصبر لم يظفر » . وكان عامة مناجاته :
برح الخفاء وفى التلقى راحة هل يشتفى خل بغير خليله .

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن محمد الخراز

من أهل الريّ ، جاور بمكة .

صحب أبا حفص ، وأبا عمران الكبير .

وكان من المتورعين ، مات قبل العشرة والثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي ، يقول : سمعت أبا نصر الطوسي يقول : سمعت الدقي يقول : دخلت على عبد الله الخرّاز ، ولى أربعة أيام لم آكل ، فقال :

يجوع أحدكم أربعة أيام فيصبح ينادى عليه الجوع .

ثم قال :

إيش يكون لو أن كلّ نفس منفوسة[1] تلفت فيم تؤمِّله عند الله ترى يكون ذلك كثيراً .

وقال أبو محمد عبد الله الخرّاز :

الجوع طعام الزاهدين ، والذكر طعام العارفين[2] .

---

(١) منفوسة . مولودة .

(٢) قال العروسى : وإنما كان طعامهم الذكر لأنهم تحققوا بالله ورفضوا ما سواه فكانت حياتهم بالذكر ، وتنعماتهم بالفكر ، وأنسهم بالقرب .. فجناتهم بالمشاهدات ، ونارهم بالغفلات .. فرضى الله عنهم وأرضاهم عنا .

ومنهم :

أبو الحسن بنان بن محمد الحمال

واسطى الأصل .

أقام بمصر ، ومات بها سنة : ست عشرة وثلاثمائة .

كبير الشأن ، صاحب الكرامات .

سئل بُنان عن أجلِّ أحوال الصوفية ، فقال :

الثقة بالمضمون[١] ؛ والقيام بالأوامر ، ومراعاة السر[٢] ، والتخلى من الكوفين .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسن بن أحمد الرازى ، يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول :

ألقى بنان الحمال بين يدى السبع[٣] ، فجعل السبع يشمه ولا يضره .

فلما أخرج ، قيل : ما الذى كان فى قلبك حيث شمَّك السبع ؟

قال : كنت أفكر فى اختلاف العلماء فى سؤر[٤] السبع .

---

(١) وهو الرزق

(٢) السر القلب .

(٣) بأمر ابن طولون حين اشتد فى الأمر بالمعروف ، أو حين اتهم بما يستحق العقوبة .

(٤) رطوبة فمه هل هى طاهرة أو ليست بطاهرة .

ومنهم :

أبو حمزة البغدادى البزاز

مات قبل الجنيد ، وكان من أقرانه . صحب السرىَّ ، والحسن المسوحى وكان عالماً بالقراءات ، فقيهًا .

وكان من أولاد عيسى بن أبان ، وكان أحمد بن حنبل يقول له فى المسائل ما تقول فيها يا صوفى ؟

قيل : كان يتكلم فى مجلسه يوم جمعة فتغير عليه الحال ، فسقط عن كرسيه : ومات فى الجمعة التالية .

وقيل : مات سنة تسع وثمانين ومائتين .

قال أبو حمزة :

من علم طريق الحق تعالى سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ فى أحواله ، وأفعاله وأقواله .

وقال أبو حمزة :

من رُزق ثلاثة أشياء ، فقد نجا من الآفات :

بطن خال مع قلب قانع ، وفقر دائم معه زهد حاضر ، وصبر كامل معه ذكر دائم .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن موسى الواسطى

خراسانى الأصل من « فرغانة » صحب الجنيد والنورى .

عالم كبير الشأن ، أقام بمرو ، ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة .

قال الواسطى : الخوف والرجاء زمامان يمنعان العبد من سوء الأدب .

وقال : مطالعة الأعواض[١] على الطاعات من نسيان الفضل .

وقال الواسطى : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف ، يريد به صحبة الأحداث .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد العزيز المروزى ، يقول : سمعت الواسطى يقول :

جعلوا سوء أدبهم إخلاصاً ، وشره نفوسهم انبساطا ؛ ودناءة الهمم جلادة ، فعموا عن الطريق ، وسلكوا فيه المضيق ، فلا حياة تنمو فى شواهدهم[٢] ، ولا عبادة تزكو فى محاضرتهم ، إن نطقوا فبالغضب وإن خاطبوا فبالكبر ، توثب أنفسهم ينبئ عن خبث ضمائرهم ، وشرههم فى المأكول يظهر ما فى سويداء أسرارهم . قاتلهم الله أنّى يؤفكون .

سمعت الأستاذ أبا علی الدقّاق ، رحمه الله ، يقول :

سمع بعض المراوزة إنساناً صيدلانياً ، يقول :

اجتاز الواسطىُّ يوم جمعة بباب حانوتى ، قاصداً إلى الجامع ، فانقطع شسع[٣] نعله ، فقلت :

أيها الشيخ ، أتأذن لى أن أصلح نعلك ؟

فقال : أصلح .

---

(١) الأعواض : جمع عوض . وهو ما يكون فى مقابلة الشىء والمراد به هنا : الأجر المرتب على الطاعة : والمطالبة : التشوف والمطالبة :

(٢) شواهدهم : مشاهدتهم .

(٣) أحد سيوره .

فأصلحت شسعه ، فقال : أتدرى لم انقطع شسع نعلى ؟

فقلت : حتى تقول .

قال : لأنى ما اغتسلت للجمعة !!

فقلت له : يا سيدى ، هاهنا حمَّام تدخله ؟ فقال : نعم . فأدخلته الحمَّام فاغتسل[1] .

---

(١) ومن فوائده : الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب : وقال : الخروج من ميدان الغفلة . إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب . إذا تجلى الحق على السرائر ذهب الخوف والرجاء ، أفقر الفقراء من ستر الحق حقيقة حقه عنه : الكلمة التى بها كملت المحاسن : الاستقامة .

ومنهم :

أبو الحسن بن الصائغ

واسمه : على بن محمد بن سهل الدِّينورى .

أقام بمصر ، ومات بها ، وكان من كبار المشايخ .

قال أبو عثمان المغربى :

ما رأيت من المشايخ أنور من أبى يعقوب النهر جورى ، ولا أكثر هيبة من أبى الحسن بن الصائغ .

مات سنة : ثلاثين وثلاثمائة .

سئل ابن الصائغ عن الاستدلال بالشاهد على الغائب ، فقال :

كيف يستدل بصفات من له مثل ونظير على من لا مثل له ولا نظير ؟!

وسئل عن صفة المريد ، فقال :

ما قال الله عز وجل : « وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم[1] » الآية .

وقال : الأحوال كالبروق ، فإذا ثبتت فهو حديث النفس وملازمة الطبع[2] .

---

(١) الآية هى ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ : التوبة آية : ١١٨ .

(٢) وفى بعض النسخ ، وملاءمة الطبع أى موافقته :

ومنهم :

أبو إسحق إبراهيم بن داود الرقى

من كبار مشايخ الشّام .

من أقران الجنيد ، وابن الجلّاء .

وقد عمر ، وعاش إلى سنة : ست وعشرين وثلاثمائة .

وقال إبراهيم الرقى :

المعرفة : إثبات الحق على ما هو ، خارجاً عن كل ما هو موهوم .

وقال : القدرة ظاهرة ، والأعين مفتوحة ، ولكن أنوار البصائر قد ضعفت .

وقال : أضعف الخلق : من ضعف عن ردّ شهواته ، وأقوى الخلق : من قوى على ردّها .

وقال : علامة محبة الله : إيثار طاعته ، ومتابعة نبيه ﷺ[1] .

(١) ومن كلامه : نفسك سائرة بك ، وقلبك طائر بك ، فكن مع أسرعهما وقال : « قيمة كل إنسان بقدر همته ، فإن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، وإن كانت همته رضا الله فلا يمكن إدراك غاية قيمته ولا الوقوف عليها : وقال : « السياحة بالنفس لأرباب الظواهر علماً وشرعًا وخلقًا ، والسياحة بالقلب لأرباب البواطن حالاً ووجداً وكشفًا » .

ومنهم :

ممشاد الدينورى

من كبار مشايخهم[1] . مات سنة : تسع وتسعين ومائتين .

قال ممشاد :

أدب المريد فى التزام حُرمات المشايخ ، وخدمة الإخوان ، والخروج عن الأسباب ، وحفظ آداب الشرع على نفسه .

وقال ممشاد :

ما دخلت قط على أحد من شيوخى ، إلا وأنا خال من جميع مالى أنتظر بركات مايرد علىّ من رؤيته وكلامه ، فإن من دخل على شيخ بحظه[2] انقطع عن بركات رؤيته ومجالسته ، وكلامه .

---

(١) صحب ابن الجلاء ، وكان عابدًا زاهدًا ، ومن اقواله : إنما ورث الحكماء الحكمة بالصمت والتفكير .
وقال : ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برك ، وعن ذكر من لا يغفل عن ذكرك . وقال : لو جمعت حكم الأولين والآخرين ، وأدعيت أحوال الأولياء والصادقين ، لم تصل إلى درجة العارفين ، حتى يسكن سرك إلى الله تعالى ، وتثق به فيما ضمن لك :

(٢) أى بنية الامتحان ومعرفة ما عنده .

ومنهم :

خير النساج

صحب أبا حمزة البغدادىَّ ، ولقى السرى ، وكان من أقران أبى الحسن النورى إلا أنه عمَّر عمرا طويلًا ، وعاش ، كما قيل ، مائة وعشرين سنة[1] .

وتاب فى مجلسه : الشبلى ، والخوَّاص . وكان أستاذ الجماعة .

وقيل : كان اسمه محمد بن إسماعيل ، من « سامرة » ، وإنما سُمى « خير النساج » ، لأنه خرج إلى الحج ، فأخذه رجل على باب الكوفة وقال :

أنت عبدى ، واسمك خير .

– وكان أسود – فلم يخالفه . واستعمله الرجل فى نسج الخز ، فكان يقول له : يا خير فيقول : لبيك .

ثم قال له الرجل بعد سنين :

غلطت ، لا أنت عبدى . ولا اسمك خير .

فمضى وتركه ، وقال :

لا أغيِّر اسما سمانى به رجل مسلم .

وقال : الخوف سوط الله يقوِّم به أنفساً قد تعودت سوء الأدب .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الحسن القزوينى يقول : سمعت أبا الحسين المالكى ، يقول :

سألت من حضرَ موت خير النساج عن أمره ؟ فقال :

لما حضرت صلاةُ المغرب غشى عليه ، ثم فتح عينيه ، وأومأ[2] فى ناحية البيت وقال : قف ، عافاك الله ، فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبدٌ مأمور .

وما أُمرت به لا يفوتك وما أمرت به يفوتنى .

---

(١) أصله من أهل سامرة ، ثم سكن بغداد ، ومن فوائده : الصبر من أخلاق الرجال ، والرضا من أخلاق الكرام .

(٢) أى أشار إلى ملك الموت .

ودعا بماء فتوضأ للصلاة ، ثم تمدّد . وغمض عينيه ، وتشهَّد ، ومات فرؤى فى المنام فقيل له :

ما فعل الله بك ؟

فقال لسائله : لا تسألنى عن هذا ، ولكن استرحت من دنياكم الوضرة[1] !!

---

(١) وفى نسخة القذرة والمعنى واحد . ومن أقواله : « الصبر من أخلاق الرجال ، والرضا من أخلاق الكرام » « العمل الذى يصل به العبد إلى الدرجات العلا ، رؤية التقصير والعجز والضعف » .

ومنهم :

أبو حمزة الخراسانى

بنيسابور ، أصله من محَّلة « ملقاباذ » . من أقران الجنيد ، والخرَّاز وأبى تراب النخشبى . وكان ورعا ، ديِّنا .

قال أبو حمزة :

من استشعر ذكر الموت حبب الله إليه كل باق ، وبغّض إليه كل فان .

وقال : العارف بالله يدافع عيشه يوماً بيوم ، ويأخذ عيشه يوماً ليوم .

وقال له رجل : أوصنى .

فقال : هيئ زادك للسفر الذى بين يديك .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الطيب العكى يقول : سمعت أبا الحسن المصرى يقول : سمعت أبا حمزة الخراسانى ، يقول :

كنت قد بقيت محرماً فى عباء[1] ، أسافر كل سنة ألف فرسخ تطلع للشمس على وتغرب ، كلما حللت أحرمت .

توفى سنة : تسعين ومائتين .

---

(١) أى كساء ، ويقال فيه : عباية وعباة .

ومنهم :

أبو بكر بن جحدر الشبلى

بغدادىُّ المولد والمنشأ . وأصله من « أسرُ وشْنة » .

صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته : حالاً ، وظرفاً ، وعلماً[1] .

مالكى المذهب . عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة : أربع وثلاثين وثلاثمائة . وقبره ببغداد .

ولما تاب الشبلى فى مجلس « خير النسَّاج » أتى « دماوند » ، وقال :

كنت والى بلدكم ، فاجعلونى فى حل[2] .

وكانت مجاهداته فى بدايته فوق الحدّ .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ؛ رحمه الله ، يقول :

بلغنى أنه اكتحل بكذا . وكذا .. من الملح ؛ ليعتاد السهر ، ولا يأخذه النوم ولو لم يكن من تعظيمه للشرع إلا ما حكاه « بكران الدينورى » فى آخر عمره لكان كثيراً .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : كان الشبلى ، رحمه الله ، يقول فى آخر أيامه :

---

(١) سمع بائعًا يقول : الخيار عشرة بدرهم ، فصاح وقال : فكيف الشرار .

ومن حكمه : ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق ، وقال : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا فانظر إلى نفسك ، فخذ كفا من تراب ، فإنك منه خلقت وفيه تعود .

وسأله رجل : أى الصبر أشد ؟ قال : الصبر فى الله . قال : لا . قال : الصبر مع الله ، قال : لا . قال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : فأى شىء قال : الصبر عن الله . فصرخ الشبلى وأنشد :

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

وقال : ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور ، وأنشد فى الذكر :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى ... شهدتك موجودًا بكل مكان
فخاطبت موجودًا بغير تكلم ... ولاحظت معلومًا بغير عيان

وقال : ليس من جذبته أنوار مقدسة إلى أنسه كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته .

(٢) لأنه بالتوبة تنقل من حقوق الخالق وبقى عليه حقوق المخلوقين ، فالخروج من حقوق الآدميين معتبر فى تحقق التوبة .. وبذلك كانت توبته خالصة كاملة ..

وكم من موضع[1] لو مت فيه لكنت به نكالا فى العشيرة

وكان الشبلى إذا دخل شهر رمضان جد فوق جدّ من عاصره ، ويقول : هذا شهر عظمه ربى ، فأنا أوّل من يعظّمه .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ يحكى ذلك عنه .

---

(١) أراد بالموضع المقامات المذمومة التى نقله الله منها .

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش

نيسابورى ، من محَّلة « الحيرة » . وقيل : من « ملقاباذ » .

صحب أبا حفص ، وأبا عثمان ، ولقى الجنيد ، وكان كبير الشأن[١] .

وكان يقيم فى مسجد « الشونزيّه[٢] » . مات ببغداد سنة : ثمان وعشرين وثلاثمائة .

قال المرتعش :

الإرادة : حبس النفس عن مراداتها ، والإقبال على أوامر الله تعالى ، والرضا بموارد القضاء عليه .

وقيل له : إن فلاناً يمشى على الماء .

فقال : عندى أنَّ من مكَّنه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى فى الهواء .

---

(١) وقال المناوى : عجائب الدنيا فى التصوف ثلاثة : الشبلى فى الإشارات ، والمرتعش فى النكت ، وجعفر الخلدى فى الحكايات .

ومن حكم المرتعش ، قوله : من كمل إسلامه أحبه الحق ، ومن كمل إيمانه استغنى عن الحق . وقوله :
أصول التوحيد : معرفة الله بالربوبية . والإقرار له بالوحدانية ، ونفى الأضداد عنه بالكلية . وقال ، سكون القلب لغير الله عقوبة عجلت فى الدنيا .

(٢) نسبة إلى الشونيز مقبرة ببغداد .

ومنهم :

أبو على أحمد بن محمد الروذبارى

بغداديٌّ ، أقام بمصر . ومات بها سنة : اثنتين وعشرين وثلاثمائة .

صحب الجنيد ، والنورى ، وابن الجلاء ، والطبقة .

أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة[١] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سئل أبو على الروذبارى عمن يسمع الملاهى ويقول :

هى لى حلال ، لأنى وصلت إلى درجة لا تؤثر فى اختلاف الأحوال .

فقال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سقر !

وسئل عن التصوف ، فقال : هذا مذهب كله جدٌّ ، فلا تخلطوه بشىء من الهزل .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : من علامة الاغترار أن تسىء فيحسن الله إليك ، فتترك الإنابة والتوبة ، توهماً أنك تسامَح فى الهفوات ، وترى أن ذلك من بسط الحق لك .

وقال : كان أستاذى فى التصُّوف : الجنيد . وفى الفقه : أبو العباس بن شريح[٢] ، وفى الأدب : ثعلب ، وفى الحديث : إبراهيم الحربى .

---

(١) ومن أقواله ، المريد ، من لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، والمراد : لا يريد من الكونين شيئاً غيره ، وقال : المشاهدة للقلوب ، والمكاشفة للإسرار ، والمعاينة للبصائر ، والمرئيات للإبصار » .

(٢) فى نسخة ، ابن سريج ،

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن منازل

شيخ الملامتية[١] ، وأوحد وقته ، صحب حمدون القصّار .

وكان عالماً ، وكتب الحديث الكثير .

مات بنيسابور سنة : تسع وعشرين ، أو ثلاثين وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله المعلم يقول : سمعت عبد الله بن منازل يقول : ولم يبْلَ أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت أبا أحمد بن عيسى يقول : سمعت عبد الله بن منازل يقول :

أفضل أوقاتك : وقت تسلم فيه من هواجس نفسك ، ووقت تسلم[٢] فيه من سوء ظنِّك .

لم يضيّع أحد فريضة من الفرائض إلا إبتلاه الله تعالى بتضيع السنن .

---

(١) هم طائفة خاصة من الصوفية يعتمدون على الإخلاص والتهرب من الرياء والمبالغة فى ذلك .. وقد فصل السهر وردى الحديث عنهم فى عوارفه .

(٢) وفى نسخة أخرى : « يسلم الناس » .

ومنهم :

أبو على محمد بن عبد الوهاب الثقفى

إمام الوقت[1] صحب أبا حفص ، وحمدون القصَّار .

وبه ظهر التصوف بنيسابور : مات سنة : ثمان وعشرين وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول :

سمعت أبا على الثقفى يقول : لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة : من شيخ ، أو إمام ، أو مؤدِّب ناصح . ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريَه عيوب أعماله ، ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات .

وقال أبو على رحمه الله :

يأتى على هذه الأمة زمان لا تطيب المعيشة فيه لمؤمن إلا بعد استناده إلى منافق .

وقال : أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت ، وأف من حسراتها إذا أدبرت ، والعاقل من لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان شغلاً ، وإذا أدبر كان حسرة .

---

(١) ومن أقواله : كمال العبودية العجز والتقصير عن معرفة عللِ الأشياء بالكلية وقال : لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صوابًا ومن صوابها إلا ما كان خالصًا ، ومن خالصها إلا ما كان موافقاً للسنة ، وقال : ليس شىء أولى بأن تمسكه من نفسك ولا شىء أولى بأنه تغلبه من هواك .

ومنهم :

أبو الخير الأقطع[١]

مغربيُّ الأصل ، سكن « تينَات » .

وله كرامات ، وفراسة حادَّة .

كان كبير الشأن ، مات سنة : نيف وأربعين وثلاثمائة .

قال أبو الخير :

مابَلغ أحد إلى حالة شريفة إلاَّ بملازمة الموافقة[٢] ، ومعانقة الأدب ، وأداء الفرائض ، وصحبة الصالحين .

---

(١) قال المناوى فى طبقاته : هو : « النيناتى » نسبة إلى « تننات » قرية ببلاد المشرق ، على أميال من المصيصة ، وهى مدينة على ساحل البحر . واسمه « عباد بن عبدالله » .

وأصله من المغرب . وقدم المشرق فصحب ابن الجلاء وغيره ، ومات بمصر ، بقرب قبر ذى النون المصرى ومن كلامه : لا يجوز التصدر للمشيخة إلا لمن فرغ من تهذيب نفسه . ومن بقى عليه بقية ، فهو مريد ، والمريد لا يكون له مريد . وقال : « من أحب اطلاع الناس على عمله ، فهو مراء . أو على حاله ، فهو كذاب » . وقال القلوب ظروف : فقلب مملوء إيمانًا ، فعلامته الشفقة على جميع المسلمين ، والاهتمام بما يهمهم ، ومعاونتهم بما يعود صلاحه إليهم ، وقلب مملوء نفاقًا ، فعلامته : الحقد ، والغل ، والغش ، والحسد » . وقال : لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية لله تعالى ، ولن يصفو بدنك إلا بخدمة أولياء الله تعالى » .

(٢) أى موافقة الكتاب والسنة فى العلم والعمل .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن على الكتانى[١]

بغدادى الأصل .

صحب الجنيد ، والخراز ، والنورى .

وجاور بمكة إلى أن مات سنة : اثنتين وعشرين وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : نظر الكتانى إلى شيخ أبيض الرأس واللحية يسأل الناس ، فقال :

هذا رجل أضاع حق الله فى صِغره ، فضيَّعه الله فى كبره .

وقال الكتانى : الشهوة زمام الشيطان ، فمن أخذ بزمامه كان عبده .

---

(١) وهو : محمد بن على بن جعفر ، وكنيته أبو بكر كان أحد الأئمة . حكى محمد المرتعش أنه كان يقول : « الكتانى سراج الحرم » .

ومن قوله : إذا سألت الله تعالى التوفيق فابدأ العمل ، وكن فى الدنيا ببدنك وفى الآخرة بقلبك ، وقال : الغافلون يعيشون فى حلم الله ، والذاكرون يعيشون فى رحمة الله ، والعارفون يعيشون فى لطف الله ، والصادقون يعيشون فى قرب الله .

وسئل عن الصوفى ، فقال : من عزفت نفسه عن الدنيا تطرفًا ، وعلت همته عن الآخرة ، وسخت نفسه بالكل وطلباً وشوقًا إلى من له الكل .

وقيل له : من العارف ؟ . فقال : من يوافق معروفه فى أوامره ، ولا يخالفه فى شىء من أحواله ، ويتحبب إليه بمحبة أوليائه ، ولا يفتر عن ذكره طرفة عين . وسئل عن المتقى ، فقال : من اتقى ما لهج به العوام من متابعة الشهوات ، وركوب المخالفات ، ولزم باب الموافقة ، وأنس براحة اليقين وأتته الفوائد من الله عز وجل فى كل حال فلم يغفل عنها .

ومنهم :

أبو يعقوب إسحق بن محمد النهر جورى[١]

صحب أبا عمرو المكىَّ ، وأبا يعقوب السوسى ، والجنيد ، وغيرهم .

مات بمكة[٢] مجاوراً بها ، سنة ثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسين أحمد بن على يقول : سمعت النهر جورى ، يقول :

الدنيا بحر ، والآخرة ساحل ، والمركب التقوى ، والناس سفْر .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازىَّ يقول : سمت النهر جورى يقول رأيت رجلاً فى الطواف بفرد عين ، يقول أعوذ بك منك .

فقلت : ماهذا الدعاء ؟

فقال : نظرت يوماً إلى شخص فاستحسنته ، وإذا لطمة وقعت على بصرى ، فألست عينى ، فسمعت هاتفاً يقول :

لطمة بنظرة . ولو زدت لزدناك .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن علىٍّ يقول : سمعت النهرجورى يقول :

أفضل الأحوال ماقارن العلم[٣] .

---

(١) النهر جورى ، نسبة إلى نهر جور - بضم الجيم وسكون الواو - بين الإهراز وميسان .

(٢) قال له قائل ، وهو يجود بأنفاسه الأخيرة : قل لا إله إلا الله . فتبسم ، وقال : إياى تعنى ؟!. وعزة من لا يذوق الموت ، ما بينى وبينه إلا حجاب العزة . ثم مات فوراً .

سئل عن التصوف ، فقال : « تلك أمة قد خلت » .

وقال فى الفناء والبقاء : « هو فناء رؤية قيام العبد لله ، وبقاء رؤية قيام الله فى الأحكام » .

وقال : الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية وحقيقة الصدق : القول بالحق فى مواطن التهلكة » .

وقال : « من كان شبعه بالمال لم يزل جائعًا . ومن كان غناه بالمال لم يزل مفتقرًا ومن طمع فى الخلق لم يزل محرومًا . ومن استعان على أمر بغير الله لم يزل مخذولاً .

(٣) أى ما وافق العلم الشرعى ، وشهد له العلم بالصحة والكمال ، إذ غير ذلك من تلبيس الشيطان .

ومنهم :

أبو الحسن على بن محمد المزين

من أهل بغداد ، من أصحاب سهل بن عبد الله ، والجنيد ، والطبقة .
مات بمكة مجاوراً سنة : ثمان وعشرين وثلاثمائة .
وكان ورعاً كبيراً[١] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت المزيِّن يقول :

الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب الأوَّل ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة الأولى .

وسئل المزين عن التوحيد ، فقال :

أن تعلم أن أوصافه تعالى بائنة لأوصاف خلقه ، بَاينَهم بصفاته قدْماً كما باينوه بصفاتهم حدثا .

وقال : من لم يستغن بالله أحوجه الله إلى الخلق ، ومن استغنى بالله أحوج الله الخلق إليه[٢] .

---

(١) سئل عن المعرفة ، فقال : « أن تعرف الله بكمال الربوبية ، وتعرف نفسك بالعبودية ، وتعلم أن الله أول كل شيء ، وبه يقوم كل شيء ، واليه مصير كل شيء ، وعليه رزق كل شيء .

وسئل عن التوحيد ، فقال : « أن توحد الله بالمعرفة ، وتوحده بالعبادة ، وتوحده بالرجوع إليه فى كل مالك وعليك ، وتعلم أن ما خطر بقلبك أو أمكنك الإشارة إليه فالله تعالى بخلاف ذلك ، وتعلم أن أوصافه مباينة لأوصاف خلقه » .

(٢) وفى نسخة : أحوج الله إليه الخلق .

ومنهم :

أبو على بن الكاتب

واسمه الحسن بن أحمد . صحب أبا على الروذبارى ، وأبا بكر المصرى ، وغيرهما .

كان كبيراً فى حاله[١] .

مات سنة : نيف وأربعين وثلاثمائة .

قال ابن الكاتب :

إذا سكن الخوف فى القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه .

وقال ابن الكاتب :

المعتزلة نزَّهوا[٢] الله تعالى من حيث العقل فأخطئوا ، والصوفية نزَّهوه من حيث العلم فأصابوا .

---

(١) ومن مأثوراته : « إذا انقطع العبد إلى الله بكليته ، فأول ما يفيده الله الاستغناء به عن سواه » .
وقوله : « إذا سمع الرجل الحكمة ، فلم يقبلها ، فهو مذنب ، وإذا سمعها ولم يعمل بها فهو منافق » .
وقال : « إن الله تعالى يرزق العبد حلاوة ذكره به فإن فرح بها وشكره آنسه بقربه وإن قصر فى الشكر أجرى الذكر على لسانه ، وسلبه حلاوته » .
وقيل له : إلى أى الجنبتين أنت أميل ؟ إلى الفقر أو إلى الغنى ؟ فقال : إلى أعلاهما رتبة ، واسناهما قدرًا ، ثم أنشد يقول :

ولست بنظار إلى جانب الغنى ... إذا كانت العليا فى جانب الفقر
وإنى لصبار على ما ينوبنى ... وحسبك أن الله أثنى على الصبر

(٢) عن أن يخلق الشر والكفر وسائر المعاصى .

ومنهم :

مظفر القرمسيني

من أشياخ الجبل[1] . صحب عبد الله الخرَّاز ، وغيره .

قال مظفر القرمسيني[2] :

الصوم على ثلاثة أوجه :

صوم الروح بقصر الأمل ، وصوم العقل بخلاف الهوى ، وصوم النفس بالإمساك عن الطعام والمحارِم .

وقال مظفر : أخَسُّ الأرفاق[3] : أرفاق النسوان ، على أيِّ وجه كان .

وقال : الجوع إذا ساعدته القَناعة فهو مزرعة الفِكرة ، وينبوع الحكمة ، وحياة الفطنة ، ومصباحُ القلب .

وقال : أفضل أعمال العبيد : حفظُ أوقاتها الحاضرة ، وهو أن لا يقصِّروا فى أمر ، ولا يتجاوزوا عن حدٍّ .

وقال : من لم يأخذ الأدب عن حكيم لم يتأدَّب به مريد .

---

(١) الجبل : جبل سفح قاسون .

(٢) القرمسيني : نسبة إلى قرمسين ، مدينة بجبال العراق .

سئل عن التصوف ، فقال : الأخلاق المرضية .

وقال : « من أفقره الله إليه أغناه به ، ليعرفه بالفقر عبوديته . وبالغنى ربوبيته .

وقال : « من قتله الحب أحياه القرب » وقال : « يحاسب الله المؤمنين – يوم القيامة – بالمنة والفضل ، ويحاسب الكفار بالحجة والعدل .

وسئل : ما خير ما أعطى العبد ؟ . فقال : فراغ القلب عما لا يعنيه ، لينفرغ إلى ما يعنيه » .

(٣) العطايا والهبات .

ومنهم :

أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهرى

ومن أقران الشبلىّ . من مشايخ الجبل .

عالم وَرع[١] ، صحب يوسف بن الحسين ، وغيره .

مات بقرب من الثلاثين والثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله ، يقول : سمعت أبا بكر بن طاهر يقول :

« من حُكم الفقير أن لا يكون له رغبة ، فإن كان ولابد ، فلا تجاوز رغبتَه كفايتُه » يعنى المحتاج إليه .

وبهذا الإسناد قال :

إذا أحببت أخاً فى الله ، فاقلل مخالطته فى الدنيا .

---

(١) سئل عن الحقيقة فقال « الحقيقة كلها علم ، وسئل عن العلم ، فقال : العلم كله حقيقة ، ومن حكمه قوله : « فى المحن ثلاثة أشياء : تطهير ، وتكفير ، وتذكير ، فالتطهير من الكبائر ، والتكفير من الصغائر ، والتذكير لأهل الصفاء » .

وقيل له : « ما بال الإنسان يحتمل من معلمه ما لا يحتمل من أبويه ؟ . فقال : لأن أبويه سبب حياته الفانية ، ومعلمه سبب حياته الباقية ، وتصديق ذلك : قول النبى ، ﷺ : « اغد عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعًا ، أو محبا ، ولا تكن الخامسة فتهلك » .

ومنهم :

أبو الحسين بن بنان

ينتمى إلى أبى سعيد الخرَّاز . من كبار مشايخ مصر[١] .

قال ابن بُنان :

كل صوفىّ كان همُّ الرزق قائماً فى قلبه فلزومُ العمل أقرب إليه .

وعلامة سكون القلب إلى الله : أن يكون بما فى يد الله أوثقُ منه بما فى يده .

وقال : اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبون الحرام[٢] .

---

(١) ومن كلامه : « لا يعظم أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله تعالى » .
وقال : « من علامة سكون القلب إلى الله تعالى إنشراحه إذا زالت عنه الدنيا . وكان يقول : « الناس يعطشون فى البرارى ، وأنا عطشان على شط النيل !! » .

(٢) وفى نسخة : المحارم .

ومنهم :

أبو إسحق إبراهيم بن شيبان القرمسينى

شيخ وقته[1] . صحب أبا عبد الله المغربىَّ ، والخوَّاص ، وغيرهما .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت أبا يزيد المروزى الفقيه يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول : من أراد أن يتعطَّل أو يتبطل فليلزم الرُّخص .

وبهذا الإسناد قال :

علم الفناء[2] والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية ، وصحة العبودية وما كان غير هذا ، فهو المغاليط والزندقة .

وقال إبراهيم : السِّفلة[3] من يعى الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) قال المناوى : كان شيخ الجبل فى زمانه ، شديدا على المدعين ، متمسكا بالكتاب والسنة ، ملازمًا طريق الأئمة توفى سنة ثلاثين وثلاثمائة .

(٢) الفناء عن غير الله والبقاء مع الله .

(٣) أراذل الناس .

ومن كلامه : قال لى أبى : يابنى تعلم العلم ، لآداب الظاهر ، واستعمل الورع لآداب الباطن ، وإياك أن يشغلك عن الله شاغل ، فقل من أعرض عنه فأقبل عليه .

وسئل عن وصف العارف ، فقال : كنت على جبل الطور مع شيخنا أبى عبد الله المغربى ، فبينما نحن قعود بمكان فيه عشب ، والشيخ يتكلم فى العلوم والمعارف رأيت شابا يتنفس ، فاحترق ما بين يديه من العشب الأخضر ، فقال الشيخ : هذا هو العارف .

وقال : إذا دخل الخوف قلبًا أحرق مواضع الشهوات منه .

ومنهم :

أبو بكر الحسين بن على بن يزدانيار

من أرمينية[1] . له طريقة يختص بها فى التصوف .

وكان عالما ورعا ، وكان ينكر على بعض العارفين[2] فى إطلاقات وألفاظ لهم[3] .

قال ابن يزدانيار :

إيَّاك أن تطمع فى الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس .

وإيَّاك أن تطمع فى حبِّ الله وأنت تحب الفضول .

وإيَّاك أن تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس .

---

(١) وفى نسخة أرمية : بالضم ، وسكون الراء ، وأمينية بفتح الهمزة : بلدة من بلاد الروم .

(٢) وفى نسخة العراقيين وربما كانت أصح .

(٣) أفشوا بها ، فى نظره ، أسرار الطريق ، وهو يقول فى ذلك : « ترانى تكلمت بما تكلمت به ، إنكارا على التصوف والصوفية ؟! . والله ، ما تكلمت إلا غيره عليهم ، حيث أفشوا أسرار الحق ، وأبدوها إلى غير أهلها ، فحملنى ذلك على الغيرة عليهم ، والكلام فيهم ، وإلا : فهم السادة ، وبحبتهم أتقرب إلى الله تعالى .

وسئل عن الفرق بين العارف والمريد ، فقال : « المريد طالب والعارف مطلوب والمطلوب مقتول ، والطالب مرغوب ، وفى رواية « والمطلوب مقبول » والطالب مرغوب .

وسئل عن العبد إذا خرج إلى الله سبحانه ، على أى أصل يخرج ؟ فقال . على أن لا يعود إلى ما منه خرج ، ولا يراعى غير من إليه خرج ويحفظ سره عن ملاحظة ما تبرأ منه . فقيل له : هذا حكم من خرج عن عدم ، فما علامة وجدانه ؟ قال : وجود الحلاوة فى المستأنف عوضاً عن المرارة فى السالف .

ومنهم :

أبو سعيد بن الأعرابى

واسمه : أحمد بن محمد بن زياد البصرىّ[1] .

جاور الحرم ، ومات به سنة : إحدى وأربعين وثلاثمائة .

صحب الجنيد ، وعمرو بن عثمان المكىّ ، والنورى ، وغيرهم .

قال ابن الأعرابى :

أخْسَر الأخسرين من أبدى للناس صالح أعماله ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

---

(١) كان من كبار المحدثين وصفه الذهبى وغيره : بالإمام الحافظ الثقة الزاهد ، روى عنه الطبرانى والخطابى ، وصنف كتبًا فى الطريق .

ومن أقواله : « المعرفة كلها الاعتراف بالجهل ، والتصوف كله ترك الفضول ، والزهد كله أخذ ما لابد منه وإسقاط ما بقى ، والمعاملة كلها استعمال الأولى فالأولى من العلم ، والرضا كله ترك الاعتراض ، والمحبة كلها إيثار المحبوب على الكل ، والصبر كله تلقى البلاء بالرحب ، والثقة بالله علمك أنه بك وبمصالحك أعلمَ منك بنفسك .

وقال : « إن الله تعالى جعل نعمته سبباً لمعرفته ، وتوفيقه سبباً لطاعته ، وعصمته سببًا لاجتناب معصيته ، ورحمته سببًا للتوبة ، والتوبة سبباً لمغفرته والدنو منه .

وقال العارفون بين : ذائق ، وشائق ، ووامق ، فالمقة شاقتهم ، والشوق ذوقهم فمن ذاق - فى شوق - فروى ، سكن وتمكن ، ومن ذاق فيه من غير رى ، أورثه الانزعاج والهيمان » .

ومنهم :

أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجي النيسابوري

جاور بمكة سنين كثيرة ومات بها .

صحب الجنيد ، وأبا عثمان ، والنوريَّ ، والخوَّاص ، ورويماً .

مات سنة : ثمان وأربعين وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت جدىَّ أبا عمرو بن نجيد يقول :

سئل أبو عمرو الزجاجي : ما بالك تتغير عند التكبيرة الأولى فى الفرائض ؟

فقال : لأنى أخشى أن أفتتح فريضتى بخلاف الصدق، فمن يقول : الله أكبر ، وفى قلبه شىء أكبر منه ، أو قد كبرَّ شيئاً سواه على مرور الأوقات ، فقد كذَّب نفسه على لسانه .

وقال : من تكلم عن حال لم يصل إليها كان كلامه فتنة لمن يسمعه ، ودعوى تتولد فى قلبه ، وحرَمه الله الوصول إلى تلك الحال .

وقد جاور بمكة سنين كثيرة لم يتطهر فى الحرم ، بل كان يخرج إلى الحلِّ ويتطهر فيه[1] .

---

(١) احتراما للحرم كما فى نسخة .

ومن كلامه : « المعرفة على ستة أوجه : معرفة الوحدانية ومعرفة التعظيم ، ومعرفة المنة ، ومعرفة القدرة ، ومعرفة الأزل ، ومعرفة الأسرار » .

وقال « كان الناس فى الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم ، فجاء النبى ﷺ ، فردهم إلى الشريعة والاتباع ، فالعقل الصحيح وهو الذى يستحسن محاسن الشريعة ويستقبح ما تستقبحه » .

ومنهم :

أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير[1]

بغدادى المنشأ والمولد .

صحب الجنيد ، وانتمى إليه ، وصحب النورى ، رويما ، وسمنون ، والطبقة . مات ببغداد سنة : ثمان وأربعين وثلاثمائة .

قال جعفر :

لا يجد العبد لذَّة المعاملة مع الله مع لذة النفس ، لأن أهل الحقائق قطعوا العلائق التى تقطعهم عن الحق ، قبل أن تقطعهم العلائق .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت جعفرًا يقول :

إن ما بين العبد وبين الوجود أن تسكن التقوى قلبه ، فإذا سكنت التقوى قلبه نزلت عليه بركات العلم ، وزالت عنه رغبة الدنيا .

---

(١) الخواص البغدادى ، ويعرف بالخلدى ، قال الخطيب فى تاريخه . هو شيخ الصوفية ، رحل إلى مكة والفرات ومصر ولقى فيها المشايخ الكبار من المحدثين والصوفية ثم عاد إلى بغداد وروى بها علماً كثيرًا ، وقال : عندى مائة ونيف وثلاثون ديوانًا من دواوين الصوفية .

وعن كلامه : المحب يجتهد فى كتمان حبه ، وتأبى المحبة إلا اشتهارا .

وقال : العقل ما يبعدك عن مواطن الشبهات .

ومنهم :

أبو العباس السيارى

واسمه : القاسم بن القاسم[١] .

من « مرو » صحب الواسطى ، وانتمى إليه فى علوم هذه الطائفة .

وكان عالمًا[٢] .

مات سنة : اثنتين وأربعين وثلاثمائة .

سئل أبو العباس السيَّارى : بماذا يروض المريد نفسه ؟

فقال : بالصبر على فعل الأوامر ، واجتناب النواهى ، وصحبة الصالحين ، وخدمة الفقراء .

وقال : ما التذَّ عاقل بمشاهدة الحق قط ، لأن مشاهدة الحق فناء ، ليس فيها لذة .

---

(١) اسمه : القاسم بن القاسم بن مهدى .

(٢) ومن كلامه :

قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ أى « إظهار غائب وتغييب ظاهر » .

وقال : له رجل : أوصنى ! فقال : (كن شريف الهمة ، قريب المنظر ، بعيد المأخذ عزيزاً غريبا) .

وقال : (لباس الهداية للعامة ، ولباس الهيبة للعارفين ، ولباس الزينة لأهل الدنيا ، ولباس اللقاء للأولياء ، ولباس التقوى لأهل الحضور ، قال الله تعالى : ولباس التقوى ذلك خير) .

وقال : قيل لبعض الحكماء : من أين معاشك ؟ قال : من عند من ضيق المعاش على من شاء ، من غير علة ، ووسع على من شاء ، من غير علة) .

ومنهم :

أبو بكر محمد بن داود الدينورى

المعروف بالدقىّ .

أقام بالشام وعاش أكثر من مائة سنة .

مات بدمشق بعد الخمسين والثلاثمائة[1] .

صحب ابن الجلَّاء ، والزقّاق .

قال أبو بكر الدقىّ :

المعدة موضع يجمعُ الأطعمة ، فإذا طرحتَ فيها الحلال صدرت الأعضاء بالأعمال الصالحة ، وإذا طرحت فيها الشبهة اشتبه عليك الطريق إلى الله تعالى - وإذا طرحت فيها التبعات كان بينك وبين أمر الله حجاب .

---

(١) مات سنة : ثلاث وستين وثلاثمائة .

ومن أقواله : (علامة القرب الانقطاع عن كل شيء سوى الله تعالى) و(كم من مسرور سروره بلاؤه ، وكم من مغموم غمه نجاته) وقال : (من عرف ربه لم ينقطع رجاؤه . ومن عرف نفسه لم يعجب بعمله ، ومن عرف الله لجأ إليه . ومن نسى الله لجأ إلى المخلوقين . والمؤمن لا يسهو حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن واستغفر) .

وسئل عن الفرق بين الفقر والتصوف ، فقال : (الفقر حال من أحوال التصوف .

فقيل له : ما علاقة الصوفى ؟ ، فقال : أن يكون مشغولاً بكل ما هو أولى به من غيره ، ويكون معصومًا عن المذمومات) .

وقال عن الإخلاص (الإخلاص : أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه ، وسكونه ، وحركاته ، خالصًا لله ، لا يشوبه حظ نفس ، ولا هوى ، ولا خلق ، ولا طمع) .

ومنهم :

أبو محمد عبد الله بن محمد الرازى[١]

مولده ومنشؤه بنيسابور .

صحب أبا عثمان الحيرىَّ ، والجنيد ، ويوسف بن الحسين ، ورويمًا ، وسمنونًا ، وغيرهم .

مات سنة : ثلاث وخمسين وثلاثمائة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول وقد سئل : ما بال الناس يعرفون عيوبهم ولا يرجعون إلى الصواب ؟

فقال :

لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ، ولم يشتغلوا باستعماله ، واشتغلوا بالظواهر ولم يشتغلوا بآداب البواطن ، فأعمى الله قلوبهم ، وقيد جوارحهم عن العبادات .

---

(١) وهو المعروف بالحداد .

ومن كلامه : العبارة تعرفها العلماء ، والإشارة تعرفها الحكماء ، واللطائف تقف عليها السادة النبلاء . وقال : (علامة الصبر ترك الشكوى ، وكتمان الضر والبلوى .

ومن علامات الإقبال على الله تعالى صيانة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار ، وأحسن العبيد حالاً من رأى نعمة الله عليه بأن أهله لمعرفته ، وأذن له فى قربه ، وأباح له سبيل مناجاته ، وخاطبه على لسان أعز أنبيائه) .

ومنهم :

أبو عمرو إسماعيل بن نجيد

صحب أبا عثمان[1] ، ولقى الجُنيد .

وكان كبير الشأن[2] .

آخر من مات من أصحاب أبى عثمان . توفى بمكة سنة : ست وستين وثلاثمائة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت جدِّى أبا عمرو بن نجيد يقول :

كل حال لا يكون عن نتيجة علم ؛ فإن ضررَه على صاحبه أكثر من نفعه .

قال : وسمعته يقول : من ضيع فى وقت من أوقاته فريضة افترضها الله عليه حرِمَ لذَّة تلك الفريضة ، ولو بعد حين .

قال : وسئل عن التصوف ، فقال :

الصبر تحت الأمر والنهى .

قال ، وقال : آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه .

---

(١) هو أبو عثمان الحيرى .

(٢) أخذ الحديث عن أحمد بن حنبل . وأسند الحديث . ورواه . وكان ثقة .

وسئل عن التوكل ، فقال: « أدناه حسن الظن بالله تعالى ، والمتوكل : الذى يرضى بحكم الله تعالى فيه » ومن حكمه « التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر » . وقوله « من أظهر محاسنه لمن لا يملك ضره ولا نفعه ، فقد أظهر جهله » . وقاله « الطمأنينة إلى الخلق عجز » .

ومنهم :

أبو الحسن على بن أحمد بن سهل البوشنجى[(١)]

أحد فتيان خُراسان .

لقى أبا عثمان ، وابن عطاء ، والجريرى ، وأبا عمرو الدِّمشقىَّ .

مات سنة : ثمان وأربعين وثلاثمائة .

وسئل البوشنجى عن المروءة ، فقال :

هى ترك استعمال ما هو محرَّم عليك مع الكرام الكاتبين .

وقال له إنسان : ادع الله لى .

فقال : أعادك الله من فتنتك .

وقال : أوَّل الإيمان منوط بآخره .

---

(١) نسبة إلى « بوشنج » وهى بلدة على سبعة فراسخ من هراة .
سئل عن التصوف ، فقال : « اسم ولا حقيقة ، وقد كان قبل حقيقة ولا اسم » .
وقال : الناس على ثلاث منازل :
الأولياء ، وهم الذين باطنهم أفضل من ظاهرهم .
والعلماء ، وهم الذين سرهم وعلانيتهم سواء .
والجهال ، وهم الذين علانيتهم تخالف أسرارهم ، ولا ينصفون من أنفسهم ويطلبون الإنصاف من غيرهم » .
وقال « من ذل فى نفسه رفع الله قدره . ومن عز فى نفسه أذله الله فى أعين عباده » .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى[1]

صحب رويمًا ، والجريرى ، وابن عطاء ، وغيرهم .

مات سنة : إحدى وسبعين وثلاثمائة .

وهو شيخ الشيوخ وواحد وقته .

قال ابن خفيف : الإدارة استدامةُ الكدِّ ؛ وترك الراحة .

وقال : ليس شيء أضر على المريد من مسامحة النفس فى ركوب الرخص وقبول التأويلات .

وسئل عن القرب ، فقال :

قُربك منه بملازمة الموافقات ، وقُربه منك بدوام التوفيق .

سمعت أبا عبد الله الصوفىَّ ، يقول : سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول :

ربَّما كنت أقرأ فى ابتداء أمرى فى ركعة واحدة عشرة آلاف مرَّة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وربما كنت أقرأ فى ركعة واحدة القرآن كله ، وربما كنت أصلى من الغداة إلى العصر ألف ركعة .

سمعت أبا عبد الله بن باكويه الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا أحمد الصغير يقول : دخل يومًا من الأيام فقير ، فقال للشيخ أبى عبد الله بن خفيف .

بى وسوسة !!

فقال الشيخ :

عهدى بالصوفيَّة يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطان يسخر منهم .

وسمعته يقول : سمعت أبا العباس الكرخى يقول : سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول : ضعفت عن القيام فى النوافل ، فجعلت بدل كل ركعة من أورادى ركعتين قاعدًا ، للخبر : « صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم[2] » .

---

(١) هو محمد بن خفيف بن إسفكشاد الضبى الشيرازى الشافعى . أمه نيسابورية ؛ وأقام بشيراز ، كان من الأمراء ثم تفقه وتصوف وتزهد : أخذ عن ابن شريح الأشعرى والواسطى والجريرى وابن عطاء والمقدسى ، ولقى الحلاج . وأخذ عنه القاضى الباقلانى .

(٢) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والطبرانى .

ومنهم :

أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازى

كان عالمًا بالأصول ، كبيرًا فى الحال .

صحب الشبلى .

مات « بأرَّجان »[١] سنة : ثلاث وخمسين وثلاثمائة .

قال بُندار بن الحسين :

لا تخاصم لنفسك ، فإنها ليست لك ، دعها لمالكها يفعل بها ما يريد .

وقال بُندار :

صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق .

وقال بُندار[٢] :

اترك ما تهوى لما تأمل .

---

(١) أرجان – بفتح أوله وتشديد الراء ، وعامة العجم يسمونها أرغان ، مدينة كبيرة بينها وبين شيراز ستون فرسخًا . وفى بعض النسخ « أنه مات بأذربيجان » .

(٢) ومن أقواله : « من أقبل على الدنيا أحرقته بنيرانها « يعنى الحرص » ومن أقبل على الآخرة أحرقته بنورها يعنى الخوف ، فصار سبيكه ذهب ، ومن أقبل على الله أحرقه الله بنور التوحيد فصار جوهرًا لا يقابل بثمن .

وقال : من مشى فى الظلم إلى ذى النعم أجلسه على بساط الكرم ، ومن قطع لسانه بشفرة السكوت بنى له بيتًا فى الملكوت .

وسئل عن الفرق بين الصوفى والمتصوف فقال : الصوفى من اختاره الله لنفسه فصافاه ، وعن نفسه براه ، ولم يرده إلى تعمل وتكلف ، وصوفى على زنة عوفى ، أى عافاه الله ، وكوفى : أى كافأه الله ، وجوزى : أى جازاه الله ، ففعل الله تعالى ظاهر على اسمه .

والمتصوف : المزاحم على المراتب مع تكلف وكمون رغبة فى الدنيا » .

وقال : « الصوفية متفقون فى الوحدانية – فى الجملة – قولاً ، متفرقون فى الوصول إليها معاينة ومنازلة ، وكل واحد يستحق اسم ما ظهر عليه من حاله ، الذى هو به موصوف ، بعد اتفاقهم فى الوحدانية قولاً : فمن بين مجتهد ، وزاهد ، وعابد وخائف ، وراج ، وغنى ، وفقير ، ومريد ، ومراد ، وصابر ، وراض ، ومتوكل ومحب ، ومستهتر ، ومستأنس ، ومشتاق ، وواله ، وهائم ، وواجد : وفان ، وباق وأحوال يكثر تعدادها ، وقد تجتمع الأحوال كلها فى واحد ويسمى بما عليه من الجميع » .

ومنهم :

أبو بكر الطمستانى

صحب إبراهيم الدَّباغ ، وغيره .

وكان أوحد وقته علمًا ، وحالاً . مات بنيسابور بعد سنة : أربعين وثلاثمائة قال أبو بكر الطِّمستانى :

النعمة العظمى الخروج من النفس[1] ، والنفس أعظم حجاب بينك وبين الله .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله الأصبهانى ، يقول : سمعت أبا بكر الطِّمستانى يقول :

إذا همّ القلب عوقب فى الوقت .

وقال : « الطريق واضح ، والكتاب والسنّة قائم[2] بين أظهرنا وفضل الصحابة معلوم ؛ لسبقهم إلى الهجرة ، ولصحبتهم ؛ فمن صحب منا الكتاب والسنة وتغرَّب[3] عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله ، فهو الصادق المصيب[4] » .

---

(١) أى البعد بها عما طبعت عليه وألفته من خلق مذموم وعادة قبيحة ، يوضح ذلك قوله « لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يمكن الخروج من النفس بالله تعالى ، وذلك بصحة الإرادة لله عز وجل » .

(٢) وفى بعض النسخ « قائمان » وفى بعضها الآخر « قائمة » .

(٣) أى بعد عنها .

(٤) وكان يقول ما الحياة إلا فى الموت ، أى : ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس وقال : « النفس كالنار ، إذا أطفئت فى موضع تأججت فى آخر ؛ كذلك النفس إذا هدأت من جانب ثارت من جانب آخر » .

ومنهم :

أبو العباس أحمد بن محمد الدينورى

صحب يوسف بن الحسين ، وابن عطاء ، والجريرىَّ .

وكان عالمًا فاضلًا ؛ ورد « نيسابور » وأقام بها مدَّة ، وكان يعظ الناس ، ويتكلم على لسان المعرفة ، ثم ذهب إلى « سمرقند » ، ومات بها بعد الأربعين وثلاثمائة .

قال أبو العباس الدِّينورى :

أدْنى الذكر أن تنسى ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر فى الذكر عن الذكر .

وقال أبو العباس : لسان الظاهر[1] لا يغيِّر حكم الباطن .

وقال أبو العباس الدينورى :

نقضوا[2] أركان التصوف ، وهدموا سبيلها ، وغيروا معانيها بأسامى أحدثوها :

سمُّوا الطمع « زيادة » ، وسوء الأدب « إخلاصًا » والخروج عن الحق .

« شطحا » ، والتلذذ بالمذموم « طيبة »[3] ، واتباع الهوى « ابتلاء » والرجوع إلى الدنيا « وصلًا » ، وسوء الخلق « صولة » ، والبخل « جلادة » والسؤال « عملًا » وبذاءة اللسان « ملامة » . وما هذا كان طريق القوم[4] .

---

(١) وفى نسخة « لباس الظاهر » والمقصود أن الشريعة والحقيقة واحدة وإنما الاختلاف فى التعبير : فلا شريعة إلا بحقيقة ولا حقيقة إلا بشريعة .

(٢) أى المتشبهين بالصوفية .

(٣) أى شيئا يتطيب به ويتفكه به .

(٤) ومن أقواله : « مكاشفات الأعيان بالأبصار ومكاشفات القلوب بالاتصال » .

ومنهم :

أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى

واحد عصره ، لم يوصف مثله قبله .

صحب ابن الكاتب ، وحبيبًا المغربى ، وأبا عمرو الزجاجىَّ ، ولقى النهر جورى وابن الصائغ وغيرهم .

مات بنيسابور سنة : ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

وأوصى بأن يُصلى عليه الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى .

سمعت الأستاذ أبو بكر بن فورك يقول :

كنت عند أبى عثمان المغربى حين قرب أجله ، وعلىّ القوال الصغير يقول شيئًا ، فلما تغير عليه الحال أشرنا على علىّ بالسكوت ، ففتح الشيخ أبو عثمان عينيه ، وقال : لم لا يقول علىّ شيئًا ؟

فقلت لبعض الحاضرين : سلوه ، علام يسمع المستمع[1] ، فإنى أحتشمه[2] فى تلك الحالة . فسألوه ، فقال :

إنما يسمع من حيث يسمع[3] .

وكان فى الرياضة كبير الشأن .

وقال أبو عثمان :

التقوى ، هى : الوقوف مع الحدود ، لا يُقصر فيها ولا يتعدَّاها .

وقال :

من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب[4]

---

(١) أى : على أى وجه يسمع .

(٢) استحى منه .

(٣) أى : من حيث يسمعه الله تعالى لاختلاف مقامات الناس ومعرفتهم بالله ومحبتهم له ، فقد يسمع العبد من الخوف ، وقد يسمع من الرجاء ..

(٤) ومن أقواله : « عاص نادم خير من طائع مدع : لأن العاصى يطلب طريق توبته ويعترف بنقصه ، والمدعى يتخبط فى حبال دعواه » .

وقال : الصوفى من يملك الأشياء اقتدارا ولا يملكه شىء إقهاراً » .

وقال : « ليكن تدبرك فى الخلق تدبر عبرة وتدبرك فى نفسك تدبر موعظة ، وتدبرك فى القرآن تدبر حقيقة ومكاشفه » .

ومنهم :

أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذى[1]

شيخ « خراسان » فى وقته .

صحب الشبلىَّ ، وأبا على الروذبارىَّ ، والمرتعش .

جاور بمكة سنة : ست وستين وثلاثمائة . ومات بها سنة : تسع وستين وثلاثمائة .

وكان عالمًا بالحديث ، كثير الرواية .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت النصراباذى يقول :

إذا بدا لك شىء من بوادى الحق ، فلا تلتفت معها إلى جنّة ، ولا إلى نار ، فإذا رجعت عن تلك الحال فعظِّم ما عظمه الله .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : قيل للنصراباذى :

إن بعض الناس يجالس النسوان ، ويقول : أنا معصوم فى رؤيتهن .

فقال :

ما دامت الأشباح[2] باقية فإنَّ الأمر والنهى باق ، والتحليل والتحريم مخاطب به ؛ ولن يجترئ على الشبهات إلا من تعرض للمحرمات .

وسمعت محمد بن الحسين ، رحمة الله ، يقول : قال النصراباذى :

أصل التصوف : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات .

---

(١) واسمه : إبراهيم بن محمد بن محمويه نيسابورى الأصل ، والمنشأ ، والمولى والنصر اباذى : نسبة إلى نصر أباذ ، محلة من محال نيسابور .

ومن كلامه : « أنت بين نسبتين » نسبة إلى الحق ونسبة إلى آدم ، فإذا انتسبت إلى الحق دخلت فى مقامات الكشف والبراهين والعظمة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال الله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ وقال : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وإذا انتسبت إلى آدم دخلت فى مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ .

ومن كلامه أيضاً « الأشياء أدلة منه ، ولا دليل عليه سواه » .

(٢) أى الأشخاص .

ومنهم :

أبو الحسن على بن إبراهيم الحصرى البقرى

سكن بغداد .

عجيب الحال واللسان ، شيخ وقته .

ينتمى إلى الشبلىّ .

مات ببغداد سنة : إحدى وسبعين وثلاثمائة .

قال الحصرى :

الناس يقولون : الحصرى لا يقول بالنوافل[1] ، وعلى أوراد من حال الشباب لو تركت ركعة لعوقبت .

وقال :

من ادَّعى فى شىء من الحقيقة كذَّبته شواهد كشف البراهين .

---

(١) أى : لا يعتنى بها .

ومنهم :

أبو عبد الله بن أحمد بن عطاء الروذبارى

ابن أخت الشيخ أبى على الروذبارى :

شيخ الشام فى وقته مات « بصور »[١] سنة : تسع وستين وثلاثمائة[٢] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت على بن سعيد المصيصى ، يقول : سمعت أحمد بن عطاء الروذبارى يقول :

كنت راكبًا جملًا . فغاصت رجلا الجمل فى الرمل ، فقلت : جل الله ، فقال الجمل : جل الله . وكان أبو عبد الله الروذبارى إذا دعا أصحابه معه إلى دعوة فى دور السوقة ، ومن ليس من أهل التصوف لا يُخْبر الفقراء بذلك ، وكان يطعمهم شيئًا ، فإذا فرغوا أخبرهم ، ومضى بهم فكانوا قد أكلوا فى الوقت فلا يمكنهم أن يمدوا أيديهم إلى طعام الدعوة إلا بالتعزز[٣] .

وإنما كان يفعل ذلك ، لئلا تسوء ظُنون الناس[٤] بهذه الطائفة فيأثموا بسببهم .

وقيل : كان أبو عبد الله الروذبارى يمشى على أثر الفقراء يوماً ، وكذا كانت عادته أن يمشى على أثرهم[٥] ، وكانوا يمضون إلى دعوة فقال إنسان بقّال :

هؤلاء المستحلون[٦] . وبسط لسانه فيهم ، وقال فى أثناء كلامه :

إن واحدا منهم قد استقرض منىٍّ مائة درهم . ولم يردها علىَّ ولست أدرى أين أطلبه ؟

فلما دخلوا دار الدعوة ، قال أبو عبد الله الروذبارى لصاحب الدار وكان من محبِّى هذه الطائفة :

ائتنى بمائة درهم إن أردت سكون قلبى .

---

(١) صور – بضم الأول وسكون الثانى : مدينة من ثغور المسلمين مشرفة على بحر الشام (البحر المتوسط) فتحها المسلمون أيام عمر بن الخطاب . وهى شرقى عكا .

(٢) ومن أقواله : « من قلت آفاته اتصلت بالحق أوقاته » وسئل عن القبض والبسط ، وعن حال من قبض ونعته ، وعن حال من بسط ونعته فقال : إن القبض أول أسباب الفناء ، والبسط أول أسباب البقاء ، فحال من قبض : الغيبة ، وحال من بسط الحضور ، ونعت من قبض : الحزن ، ونعت من بسط : السرور .

(٣) أى : التقلل .

(٤) وفى نسخة « عوام الناس » .

(٥) أى : يتأخرهم ، ويسير خلفهم ، تواضعاً .

(٦) أى لأموال الناس .

فأتاه بها فى الوقت فقال لبعض أصحابه :

احمل هذه المائة إلى البقَّال الفلانىِّ ، وقل له : هذه المائة التى استقرضها منك بعض أصحابنا ، وقد وقع له فى التأخير بها عذر ، وقد بعثها الآن . فاقبل عذره !! فمضى الرجل ، وفعل ، فلما رجعوا من الدعوة اجتازوا بحانوت البقَّال ، فأخذ البقال فى مدحهم يقول :

هؤلاء هم الثقاةُ الأمناء الصلحاء ، وما أشبه ذلك

وقال أبو عبد الله الروذبارى :

أقبح من كل قبيح صوفى شحيح .

* * *

قال أبو القاسم الأستاذ الإمام جمال الإسلام[1] ، رضى الله عنه هذا هو ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة .

وكان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة ؛ متصفون بسلوك طرق الرياضة ، مقيمون على متابعة السنة ، غير مخلين بشىء من آداب الديانة ، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً[2] على الله سبحانه وتعالى ، فيما يدعيه ، متفونا ، هلك فى نفسه ، وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله .

ولو تقصينا ، وتتبعنا ما ورد عنهم : من ألفاظهم ، وحكاياتهم ، ووصفِ سيرهم مما يدل على أحوالهم ، لطـال به الكتاب ، وحصل منه الملال :

وفى هذا القدر الذى لو حنا به فى تحصيل المقصود غنية ، وبالله التوفيق .

* * *

فأما المشايخ الذين أدركناهم ، وعاصرناهم ، وإن لم يتفق لنا لقياهم ، مثل :

الأستاذ الشهيد ، لسان وقته ، وأوحد عصره ، أبى علىٍّ الحسن بن على الدقاق ، والشيخ ، نسيج وحده فى وقته ، أبى عبد الرحمن السلمى وأبى الحسن على بن جَهضم مجاور الحرم ، والشيح أبى العباس القصار بطبرستان ، وأحمد الأسود بالدينور ؛ وأبى القاسم الصيرفى بنيسابور ، وأبى سهل الخشاب الكبير بها ، ومنصور بن خلف المغربى ، وأبى سعيد المالينى ،

---

(١) وفى نسخة أخرى « قال الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيرى .

(٢) مختلقاً .

وأبى طاهر الخوزندى ، قدس الله أرواحهم ، وغيرهم ، فلو اشتغلنا بذكرهم ، وتفصيل أحوالهم ، لخرجنا عن المقصود فى الإيجاز . وغير مُلْتَبَس من أحوالهم حسن سيرتهم فى معاملاتهم .

وسنورد من حكاياتهم طرفا فى مواضع من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

باب
فى تفسير[١] ألفاظ تدور بين هذه الطائفة
وبيان ما يشكل منها

اعلم أنَّ من المعلوم : أن كلَّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها - فيما بينهم - أنفردوا بها عمن سواهم ، تواطئوا عليها ؛ لأغراض لهم فيها : من تقريب الفهم[٢] على المخاطبين بها ، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة فى الوقوف على معانيهم ، بإطلاقها ، وهذه الطائفة يستعملون ألفاظًا فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والإجمال والستر على من باينهم فى طريقتهم ؛ لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها ، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف ، أو مجلوبة بضرب تصرُّف ، بل هى معان أودعها الله تعالى قلوب قوم ، واستخلص لحقائقها أسرار قوم .

ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ : تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طرقهم ، ومتبعى سنَّتهم .

---

(١) وفى نسخة أخرى سقطت لفظة « تفسير » .

(٢) وفى نسخة أخرى للفهم .

فمن ذلك :

الوقت

حقيقة الوقت عند أهل التحقيق : حادث متوهم علق حصوله على حادث متحقق[١] فالحادث المتحقق ، وقت للحادث المتوهم ، تقول : آتيك رأس الشهر ، فالإتيان متوهم[٢] ، ورأس الشهر حادث متحقق . فرأس الشهر وقت الإتيان .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

الوقت : ما أنت فيه ، إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسُّرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .

يريد بهذا : أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان .

وقد يعنون بالوقت : ما هو[٣] فيه من الزمان ، فإن قوماً قالوا : الوقت ما بين الزمانين ، يعنى الماضى والمستقبل .

ويقولون : الصوفى ابن وقته ، يريدون بذلك : أنه مشتغل بما هو أولى به من العبادات فى الحال ، قائم بما هو مطلوب به فى الحين .

وقيل : الفقير لا يهمه[٤] ماضى وقته وآتيه ، بل يهمه وقته الذى هو فيه .

ولهذا قيل : الاشتغال بفوات وقت ماض . تضييع وقت ثان .

وقد يريدون بالوقت : ما يصادفهم من تصريف الحقِّ لهم ، دون ما يختارونه لأنفسهم .

ويقولون : فلان بحكم الوقت ، أى : أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له .

وهذا فيما ليس لله تعالى عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع ، إذ التضييع لما أمرت به : وإحالة الأمر فيه على التقدير وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير : خروج عن الدين .

---

(١) ذكر الأنصارى أن صواب العبارة « حادث متحقق علق عليه حصول حادث متوهم ، بدليل قوله : فالحادث المتحقق .. إلخ .

(٢) يستعمل القدماء كثيرًا : التوهم بمعنى التخيل .

(٣) أى ما الإنسان فيه : أى يخصون الوقت بالحال دون ا لماضى والمستقبل .

(٤) يهمه . بضم الياء أى يقلقه ، وبفتحها أى : يدينه .

ومن كلامهم : الوقت سيف . أى : كما أنَّ السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق[١] ويجريه غالب[٢] .

وقيل : السيف لين مسه ، قاطع حده ، فمن لا نيهُ سلم ، ومن خاشنه اصطلم[٣] . كذلك الوقت : من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه انتكس وتردى .

وأنشدوا فى ذلك :

وكالسيف إن لا نيته لان مسه[٤] وحدَّاه إن خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت : فالوقت له وقت .

ومن ناكده الوقت : فالوقت عليه مقت .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :

الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك .

يعنى : لو محاك وأفناك لتخلصت حين فنيت ، لكنه يأخذ منك ولا يمحوك بالكلية – وكان ينشد فى هذا المعنى :

كل يوم يمر يأخذ بعضى يورث القلب حسرة ثم يمضى

وكان ينشد أيضاً :

كأهل النار إن نضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود

وفى معناه :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميِّت ميت الأحياء

والكيِّس : من كان بحكم وقته ؛ إن كان وقته الصحو فقيامه بالشريعة ، وإن كان وقته المحو ، فالغالب عليه أحكام الحقيقة .

---

(١) بما يقدره الله .
(٢) وافع .
(٣) استؤصل .
(٤) وفى نسخة « متنه » أى وسطه والمراد عرضه .

ومن ذلك :

المقام

والمقام : ما يتحقق به العبد بمنازلته[١] من الآداب ؛ مما يتوصَّل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلُّب ، ومقاساة تكلف .

فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك[٢] ، وما هو مشتغل بالرياضة له .

وشرطه : أن لا يرتقى من مقام إلى مقام آخر ، مالم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا تصح له التوكل ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد .

والمقام : هو الإقامة ، كالمُدخل بمعنى الإدخال ، والمخرج بمعنى الإخراج ولا يصحُّ لأحد منازلة مقام إلا بشهود[٣] إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام ، ليصحَّ بناء أمره على قاعدة صحيحة .

سمعت الأستاذ أبا على الدَّقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

لما دخل الواسطى نيسابور ، سأل أصحاب أبى عثمان :

بماذا كان يأمركم شيخكم ؟

فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ، ورؤية التقصير فيها .

فقال : أمركم بالمجوسيَّة المحضة ، هلا أمركم بالغيبة عنها ، برؤية منشئها ومجريها ؟

وإنما أراد الواسطى بهذا : صيانتهم عن محل الإعجاب[٤] .

لا تعريجاً فى أوطان التقصير ، أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب .

---

(١) أى بنزوله فيه وبما اكتسب له .

(٢) أى عند اكتسابه ما يوصل إليه . قال الإمام الغزالى : لابد لكل مقام من علم ، وعمل ، وحال ؛ فالمقام يثمر علماً ، والعمل يثمر حالاً ، لأن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب وحركات القلوب جارية بحركات الأجسام .

(٣) أى رؤية .

(٤) أى أنه جعل من أعجب بطاعته كأنه مجوسى ؛ حيث نظر إلى فعل نفسه مع غفلته عن مجريه المنعم به .

ومن ذلك :

الحال

والحال عند القوم : معنى يَرِد على القلب ، من غير تعمد منهم ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب لهم ، من : طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج أو هبة ، أو احتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات . مكاسب .

والأحوال تأتي من عين الجواد[١] ، والمقامات تحصل ببذل المجهود .

وصاحب المقام ممكن[٢] في مقامه ، وصاحب الحال مُترقّ[٣] عن حاله[٤] .

وسئل ذو النون المصرى ، عن العارف ، فقال : كان هاهنا ، فذهب .

وقال بعض المشايخ : الأحوال كالبروق : فإن بقى فحديث نفْس[٥] .

وقالوا : الأحوال كاسمها ، يعنى أنها : كما تحلُّ بالقلب تزول فى الوقت .

وأنشدوا :

لو لم تَحُلْ ما سميت حالا وكل ما حال فقد زالا
انظر إلى الفىء[٦] إذا ما انتهى يأخذ فى النقص إذا طالا

وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ، ودوامها . وقالوا : إنها إذا لم تدم ولم تتوال فهى لوائح وبواده[٧] ، ولم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمىً ؛ « حالاً » .

وهذا أبو عثمان الحيرى يقول :

منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهْتهُ .

أشار إلى دوام الرِّضا ، والرِّضا من جملة الأحوال .

---

(١) وفى نسخة أخرى : من غير الوجود .
(٢) وفى نسخه « متمكن » .
(٣) وفى نسخة « مرقى » .
(٤) أى فالمقامات مستقرة والأحوال متغيرة .
(٥) أى : إن بقى شيء منها مع العبد فالباقى حديث نفسه بالحال ، لا نفس الحال .
(٦) فاء الظل يفيء فيئاً : إذا رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق .
(٧) لوائح : من لاح له المعنى إذا ظهر ، وبواده : من بدهه إذا فجأه وبغته .

فالواجب فى هذا : أن يقال : إن من أشار إلى بقاء الأحوال فصحيح ما قال ، فقد يصير المعنى شِرْباً[١] لأحد فيربّى فيه .

ولكن لصاحب هذه الحال أحوال : هى طوارق[٢] لا تدوم فوق أحواله التى صارت شرباً له ؛ فإذا دامت هذه الطوارق له ، كما دامت الأحوال المتقدمة ، ارتقى إلى أحوال أخر ، فوق هذه وألطف من هذه ، فأبداً يكون فى الترقى .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول فى معنى قوله ﷺ : « إنه ليغَان[٣] على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة[٤] » : أنه كان ﷺ أبداً فى الترقى من أحواله فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها ، فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها ، فكان يعدهُّا « غيْنا » بالإضافة إلى ما حصل فيها ، فأبداً كانت أحواله فى التزايد .

ومقدورات الحق سبحانه ، من الألطاف : لا نهاية لها ؛ فإذا كان حق الحق تعالى ، العز ، وكان الوصول إليه بالتحقيق محالاً ، فالعبد أبداً فى ارتقاء أحواله .

فلا معنى يوصل إليه ، إلا وفى مقدوره سبحانه ما هو فوقه ، يقدر أن يوصله إليه . وعلى هذا يحمل قولهم : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وسئل الجنيد عن هذا ، فأنشد :

طوارق أنوار تلوح إذا بدت ... فتظهر كتماناً وتخبر عن جمع

---

(١) شربا : أى حظا ومقاماً .

(٢) أحوال .

(٣) يغطى .

(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى .

ومن ذلك :

القبض والبسط

وهما : حالتان ، بعد ترقِّي العبد عن حالة الخوف والرجاء .

فالقبض للعارف : بمنزلة الخوف للمستأنف[1] .

والبسْط للعارف : بمنزلة الرجاء للمستأنف .

ومن الفصل[2] بين القبض والخوف ، والبسط والرجاء : أن الخوف إنما يكون من شيء فى المستقبل ، إما أن يخاف فوت محبوب أو هجوم محذور .

وكذلك الرجاء : إنما يكون بتأميل محبوب فى المستقبل ، أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه فى المستأنف[3] .

وأما القبض : فلمعنى حاصل فى الوقت ، وكذلك البسط ، فصاحب الخوف والرجاء : تعلق قلبه فى حالتيه بآجله ، وصاحب القبض والبسط أخذ[4] وقته بوارد غلب عليه فى عاجله .

ثم تتفاوت نعوتهم فى القبض والبسط على حسب تفاوتهم فى أحوالهم :

فمن واردٍ يوجب قبضًا ، ولكن يبقى مساغ للأشياء الأخر ، لأنه غير مستوف ومن مقبوض لا مساغ لغير وارده فيه ، لأنه مأخوذ عنه بالكلية بوارده .

كما قال بعضهم : أنا ردْم[5] ، أى : لا مساغ فىّ .

وكذلك المبسوط : قد يكون فيه بسط يسع الخلق ، فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطا[6] لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

دخل بعضهم على أبى بكر القحطى ؛ وكان له ابن يتعاطى ما يتعاطاه الشباب ، وكان ممر هذا الداخل على هذا الابن ، فإذا هو مع أقرانه فى اشتغاله ببطالته .

---

(١) للمبتدىء خوفه ، وهو المريد .
(٢) الفرق .
(٣) المستقبل .
(٤) وفى نسخة « أخيذ وقته » أى أسير .
(٥) مردوم .
(٦) منشرح الصدر .

فرق قلبه ، وتألم للقحطى ، وقال :

مسكين هذا الشيخ ، كيف ابتلى بمقاساة هذا الإبن ؟

فلما دخل على القحطى ، وجده كأنه لا خبر له بما يجرى[١] عليه من الملاهى ، فتعجب منه ، وقال فديت ، من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى .

فقال القحطى :

إنا قد حررنا عن رق الأشياء فى الأزل .

ومن أدنى موجبات القبض : أن يرد على قلبه وارد موجبه إشارة إلى عتاب ورمز[٢] باستحقاق تأديب ، فيحصل فى القلب لا محالة ، قبض .

وقد يكون موجب بعض الواردات إشارة إلى تقريب ، أو إقبال بنوع لطف وترحيب ، فيحصل للقلب بسط .

وفى الجملة : قبض كل أحد حسب بسطه ، وبسطه على حسب قبضه .

وقد يكون قبض يشكل على صاحبه سببه : يجد فى قلبه قبضًا لا يدرى موجبه ولا سببه ، فسبيل صاحب هذا القبض التسليم ، حتى يمضى ذلك الوقت ، لأنه لو تكلف نفيه ، أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد فى قبضه .

ولعله يعد ذلك منه : سوء أدب .

وإذا استسلم لحكم الوقت ، فعن قريب يزول القبض ، فإن الحق سبحانه قال : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ .

وقد يكون بسط يرد بغتة ، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سبباً ، يهز صاحبه ويستفزُّه ، فسبيل صاحبه السكون ، ومراعاة الأدب ، فإن فى هذا الوقت له خطراً عظيما فليحذر صاحبه مكراً خفيا .

كذا قال بعضهم : فتح علىَّ باب من البسط ، فزللت زلة فحجبت عن مقامى .

ولهذا قالوا : قف على البساط ، وإيَّاك والانبساط .

وقد عدّ أهل التحقيق حالتى القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه ، لأنها بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلاك العبد واندراجه فى الحقيقة : فقر وضر .

---

(١) وفى نسخة عما يجرى من ابنه .

(٢) وفى نسخة أخرى « أو رمز » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : الخوف من الله يقبضنى ، والرجاء منه : يبسطنى . والحقيقة : تجمعنى . والحق : يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى على إذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى ، فغطانى عنه ، فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى ، وموحشى غير مؤنسى ، فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى ، فليتهَ أفنانى عنى فمتعنى ، أو غيبنى عنى فروحنى .

ومن ذلك :

الهيبة والأنس

وهما : فوق القبض والبسط .

فكما أن القبض : فوق رتبة الخوف .

والبسط : فوق منزلة الرجاء .

فالهيبة : أعلى من القبض والأنس أتم من البسط ، وحق الهيبة الغيبة ، فكل هائب غائب .

ثم الهائبون : يتفاوتون فى الهيبة على حسب تباينهم فى الغيبة فمنهم .. ومنهم[١] وحق الأنس : صحو بحق ، فكل مستأنس : صاح ثم[٢] يتباينون حسب تباينهم فى الشرب[٣] .

ولهذا قالوا : أدنى محل الأنس : أنه لو طرح فى لظى لم يتكدر عليه أُنسه قال الجنيد ، رحمه الله : كنت أسمع السرىَّ يقول :

يبلغ العبد إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر .

وكان فى قلبى منه شىء ، حتى بان لى أن الأمر كذلك .

وحكى أبى عن مقاتل العكى أنه قال :

دخلت على الشبلى ؛ وهو ينتف الشَّعر من حاجبه بمنقاش ، فقلت :

ياسيدى ، أنت تفعل هذا بنفسك ! ويعود ألمه إلى قلبى !!

فقال : ويلك ، الحقيقة ظاهرة لى ولست أطيقها : فهو ذا[٤] ، فأنا أدخل الألم على نفسى ؛ لعلى أحس به ، فيستتر عنى ، فلست أجد الألم ، وليس يستترعنى[٥] ، وليس لى به طاقة :

وحال الهيبة والأنس ، وإن جلتا ، فأهل الحقيقة يعدونها : نقصاً لتضمنهما تغير العبد فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغير ، وهم محو فى وجود العين[٦] ، فلا هيبة لهم ولا أنس ، ولا علم ولا حس .

---

(١) أى فمنهم تطول غيبته ومنهم من تقصر على حسب هيبته .

(٢) أى المستأنسون .

(٣) الحظ .

(٤) أى : فالسبب هذا .

(٥) أى ألم الحقيقة .

(٦) أى الحق أى محيت منهم الذوات والصفات فى ذات الحق تعالى .

والحكاية معروفة عن أبى سعيد الخرَّاز ، أنه قال :

تهت فى البادية مرة ، فكنت أقول :

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا سوى ما يقول الناس فى وفى جنسى
أتيه على جن البلاد وإنسها فإن لم أجد شخصاً أتيه على نفسى

قال فسمعت هاتفاً يهتف بى ، ويقول :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده ويفرح بالتيه الدنى وبالأنس
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى
وكنت بلا حال مع الله واقفاً تصان عن التذكار للجن والإنس

وإنما يرتقى العبد عن هذه الحالة بالوجود .

ومن ذلك :

التواجد ، والوجد ، والوجود

فالتواجد : استدعاء[1] الوجد بضرب اختيار ، وليس لصاحبه كمال الوجد ؛ إذ لو كان لكان واجداً ، وباب التفاعل أكثره على إظهار الصفة ، وليست كذلك .

قال الشاعر :

إذا تخازرت ، وما بى من خزر[2]
ثم كسرت العين من غير ما عور

فقوم قالوا : التواجد غير مسلم لصاحبه ، لما يتضمن من التكلف ويبعد عن التحقيق .

وقوم قالوا : إنه مسلَّم للفقراء المجرّدين ، الذين ترصَّدوا لوجدان هذه المعانى ، وأصلهم ، خبرُ الرسول ﷺ : « ابكوا ، فإن لم تبكوا ، فتباكوا » ، والحكاية المعروفة لأبى محمد الجريرى ، رحمه الله ، أنه قال :

كنت عند الجنيد ، وهناك ابن مسروق وغيره ، وثَمّ قوال ، فقام ابن مسروق وغيره .. والجنيد ساكن ، فقلتُ :

يا سيدى ، مالك فى السَّماع شىء ؟!

قال الجنيد :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ[3] ﴾ ثم قال :

وأنت يا أبا محمد ، مالك فى السماع شىء ؟

فقلت : يا سيدى ، أنا إذا حضرت موضعًا فيه سماع وهناك محتشم[4] أمسكت على نفسى وجدى ، فإذا خلوت أرسلت وجدى ، فتواجدْت .

فأطلق فى هذه الحكاية « التواجد » ، ولم ينكر عليه الجنيد .

---

(١) استدعاء : أى طلب واكتساب .
(٢) خزر : صغر العين أو ضيقها .
(٣) آية ٨٨ من سورة النمل .
(٤) أى مستحيا منه .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

لما راعى أبو محمد ، أدب الأكابر فى حال السماع ، حفظ الله عليه وقته ، ببركات الأدب ، حتى يقول : أمسكت على نفسى وجدى فإذا خلوت أرسلت وجدى فتواجد ؛ لأنه لا يمكن إرسال الوجد ، إذا شئت ، بعد ذهاب الوقت وغلباته .

ولكنه لما كان صادقاً فى مراعاة حرمة الشيوخ ، حفظ الله تعالى عليه وقته ، حتى أرسل وجده عند الخلوة .

فالتواجد : ابتداء الوجد على الوصف الذى جرى ذكره ، وبعد هذا الوجد[١] .

والوجد : ما يصادف قلبك ، ويرد عليك بلا تعمد وتكلف ولهذا قال المشايخ :

الوجد : المصادفة[٢] والمواجيد[٣] : ثمرات الأوراد[٤] .

فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله لطائفه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

الواردات : من حيث الأوراد فمن لا ورد له بظاهره لا ورد له فى سرائره ، وكل وجد فيه من صاحبه شىء ، فليس بوجد .

وكما أن ما يتكلفه العبد من معاملات ظاهرة يوجب له حلاوة الطاعات ، فما ينازله[٥] العبد من أحكام باطنه يوجب له المواجيد .

فالحلاوات ثمرات المعاملات والمواجيد : نتائج المنازلات .

اما الوجود : فهو بعد الارتقاء عن الوجد .

ولا يكون وجود الحق ، إلا بعد خمور البشرية[٦] ، لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة .

---

(١) أى وبعد حصول هذا يحصل الوجد .
(٢) يشير بذلك إلى أنه غير مكتسب بل هو من تفضلات الحق تعالى عن العبد .
(٣) جمع وجد .
(٤) المراد بالأوراد : وظائف الأعمال الموافقة للعلوم الشرعية .
(٥) ينتقل .
(٦) أى غيبة العبد عن إحساسه بها .

وهذا معنى قول أبى الحسين النورى :

أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ؛ أى : إذا وجدت ربى فقدت قلبى ، وإذا وجدت قلبى فقدت ربى .

وهذا معنى قول الجنيد :

علم التوحيد : مباين لوجوده[1] ، ووجوده مباين لعلمه[2] .

وفى هذا المعنى أنشدوا :

وجودى أن أغيب عن الوجود   بما يبدو علىَّ من الشهود

فالتواجد : بداية . والوجود : نهاية والوجد واسطة بين البداية والنهاية .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :

التواجد يوجب استيعاب العبد .

والوجد : يوجب استغراق العبد .

والوجود يوجب استهلاك العبد .

فهو كمن شهد البحر ، ثم ركب البحر ، ثم غرق فى البحر .

وترتيب هذا الأمر[3] : قصود ، ثم ورود ، ثم شهود ، ثم جمود ، ثم خمود . وبمقدار الوجود يحصل الخمود ، وصاحب الوجود له : صحو ، ومحو .

فحال صحوه : بقاؤه بالحق ، وحال محوه : فناؤه بالحق .

وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه :

فإذا غلب عليه الصَّحو بالحق ، فيه يصول ، وبه يقول .

قال عليه السلام ، فيما أخبر عن الحق « فبى يسمع ، وبى يبصر » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول :

وقف رجل على حلقة الشبلى ، فسأله :

---

(١) أى لوجود الوحيد .

(٢) والمقصود أن العبد يكون عالما بالتوحيد بالاستدلال بالآثار ، ولا يكون واجداً له ، لأن وجوده لا يبقى للعبد معه إحساس بنفسه فضلاً عن علمه به واستدلاله عليه .

(٣) وهو الانتقال من حال إلى حال .

هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟؟

فقال : نعم : نور يزهر[١] مقارناً[٢] لنيران الاشتياق ، فتلوح على الهياكل[٣] آثارها كما قال ابن المعتز :

وأمطر الكأس ماء من أباريقها
فأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجباً
نوراً من الماء فى نار من العنب
سلافة[٤] ورثتها عاد عن إرم
كانت ذخيرة كسرى عن أب فأب

وقيل لأبى بكر الدقى :

إن جهماً الدقىّ أخذ شجرة بيده فى حال السماع فى ثوراته ، فقلعها من أصلها : فاجتمعا فى دعوة[٥] ، وكان الدقى كفّ بصرهُ ، فقام الدقى يدور فى حال هيجانه فقال الدقى : إذا قرب منىٍّ أرونيه .

وكان الدقى ضعيفاً ، فمر به ، فلما قرب منه ، قالوا له : هذا هو .

فأخذ الدقى ساق جهم فوقفه ، فلم يمكنه أن يتحرك .

فقال جهم : أيها ، الشيخ ، التوبة .. التوبة !! فخلاه :

قال الأستاذ الإمام ، أدام الله جماله :

فكان ثوران جهم فى حق ،.وإمساك الدقى بساقه بحق ، ولما علم جهم أن حال الدقى فوق حاله رجع إلى الإنصاف واستسلم وكذا من كان بحق لا يستعصى عليه شىء ، فأما[٦] إذا كان الغالب عليه المحو فلا علم ، ولا عقل ، ولا فهم ؛ ولا حس .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يذكر بإسناده ان أبا عقال المغربى : أقام بمكة أربع سنين لم يأكل ، ولم يشرب ، إلى أن مات .

ودخل بعض الفقراء على أبى عقال ، فقال له : سلام عليكم .

---

(١) يشرق .
(٢) مترتباً .
(٣) الأشخاص .
(٤) خمر .
(٥) وليمة .
(٦) وفى نسخة وأما .

فقال له أبو عقال : وعليكم السلام فقال الرجل : أنا فلان فقال أبو عقال : أنت فلان ، كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ : وغاب عن حالته .

قال هذا الرجل ، فقلت له : سلام عليكم .

فقال : وعليكم السلام وكأنه لم يرنى قط .

ففعلت مثل هذا غير مرة ، فعلمت أن الرجل غائب ، فتركته ، وخرجت من عنده .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت عمر بن محمد بن أحمد يقول : سمعت امرأة أبى عبد الله النروغندى تقول .

لما كانت أيام المجاعة ، والناس يموتون من الجوع ، دخل أبو عبد الله النروغندى بيته ، فرأى فى بيته مقدار منوين[1] حنطة ، فقال : الناس يموتون من الجوع ، وفى بيتى حنطة !!

فخولط فى عقله ، فما كان يفيق إلا فى أوقات الصلاة يصلى الفريضة ثم يعود إلى حالته ، فلم يزلَ كذلك إلى أن مات .

دلَّت هذه الحكاية على أن هذا الرجل كان محفوظاً عليه آداب الشريعة عند غلبات أحكام الحقيقة ، وهذا هو صفة أهل الحقيقة ، ثم كان سبب غيبته عن تمييزه : شفقته على المسلمين ، وهذا أقوى سمة لتحققه فى حاله .

---

(١) منوين : تثنية منا : وهو مكيال مقداره رطلان .

ومن ذلك :

الجمع والفرق

لفظ « الجمع والتفرقة » يجرى فى كلامهم كثيراً .

وكان الأستاذ أبو على الدقاق يقول :

الفرق : ما نسب إليك .

والجمع : ما سلب عنك .

ومعناه : أن ما يكون كسباً للعبد ، من إقامة العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية ، فهو : فرق .

وما يكون من قبل الحق ، من إبداء معان ، وإسداء لطف وإحسان فهو : جمع هذا أدنى أحوالهم فى الجمع والفرق ، لأنه من شهود الأفعال .

فمن أشهده الحق – سبحانه – أفعاله عن طاعاته ومخالفاته فهو : عبد بوصف التفرقة[١] ، ومن أشهده الحق – سبحانه – ما يوليه : من أفعال نفسه سبحانه ، فهو : عبد بشاهد الجمع .

فإثبات الخلق من باب التفرقة ، وإثبات الحق من نعت الجمع .

ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة[٢] له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له ، فقوله : « إياك نعبد » إشارة إلى الفرق . وقوله : « وإياك نستعين » إشارة إلى الجمع .

وإذا ما خاطب العبد الحق سبحانه ، بلسان نجواه : إما سائلًا ، أو داعياً ، أو مثنياً ، أو شاكراً ، أو متنصلًا[٣] ، أو مبتهلًا ؛ قام فى محل التفرقة .

وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه ، واستمع بقلبه ما يخاطبه به ، فيما ناداه ، أو ناجاه ، أو عرفه ، أو لوح لقلبه وأراده ، فهو يشاهد الجمع .

---

(١) التفرقة بين العابد والمعبود .

(٢) وجه التفرقة والجمع على ما ذكره للعروسى فى حاشيته : فى قوله « نعبد » الاستقلال ؛ آعتباراً بظاهر الحال . وفى قوله « نستعين » الرجوع إلى قوة الكبير المتعال .

(٣) متنصلا من ذنبه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

أنشد قوال بين يدى الأستاذ أبى سهل الصعلوكى ، رحمه الله :

جعلت تنزهى نظرى إليك .

وكان أبو القاسم النصراباذى ، رحمه الله ، حاضراً ، فقال الأستاذ أبو سهل :

جعلت ، بنصب التاء[1] . وقال النصر اباذى : بل جعلت بضم التاء :

فقال الأستاذ أبو سهل : أليس عين الجمع أتم ؟[2] فسكت النصراباذى .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى أيضاً يحكى هذه الحكاية على هذا الوجه .

ومعنى : هذا أن من قال « جعلت » بضم التاء يكون إخباراً عن حال نفسه ، فكأن العبد يقول هذا من عنده . وإذا قال « جعلت » بالفتح فكأنه يتبرأ من أن يكون ذلك يتكلفه ، بل يخاطب مولاه فيقول :

أنت الذى خصصتنى بهذا ، لا أنا بتكلفى .

فالأول على خطر[3] الدعوى ، والثانى بوصف التبرى من الحول ، والإقرار بالفضل والطول : والفرق بين من يقول بجهدى أعبدك . وبين من يقول : بفضلك ولطفك أشهدك .

---

(١) وفى نسخ ، وهو أصوب ، بفتح التاء .

(٢) لأن نسبة الأفعال إلى الله أتم من نسبتها إلى العبد .

(٣) أى المخاطرة فيها بنفسه حيث نسب لنفسه حالاً أو مقاماً .

ومن ذلك :

جمع الجمع

وجمع الجمع : فوق هذا .

يختلف الناس فى هذه الجملة على حسب تباين أحوالهم ، وتفاوت درجاتهم : فمن أثبت نفسه ، وأثبت الخلق ، ولكن شاهد الكل قائماً بالحق ، فهذا هو : جمع .

وإذا كان مختطفاً عن شهود الخلق ، مصطلماً[١] عن نفسه ، مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكلِّ غير ، بما ظهر ، واستولى من سلطان الحقيقة ، فذاك جمع الجمع[٢] .

فالتفرقة : شهود الأغيار لله عزَّ وجلَّ .

والجمع : شهود الأغيار بالله .

وجمع الجمع : الاستهلاك بالكلية ، وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة .

وبعد هذا حالة عزيزة يسميها القوم :

الفرق الثانى

وهو أن يرد للعبد إلى الصحو عند أوقات أداء الفرائض ، ليجرى عليه القيام بالفرائض فى أوقاتها ، فيكون رجوعًا لله تعالى لا للعبد بالعبد :

فالعبد يطالع نفسه ، فى هذه الحالة ، فى تصريف الحق سبحانه ، يشهد مبدىء ذاته وعينه بقدرته ، ومجرى أفعاله وأحواله عليه ، بعلمه ومشيئته .

وأشار بعضهم بلفظ « الجمع والفرق » إلى تصريف الحق جميع الخلق .

فجمع الكل فى التقليب والتصريف : من حيث إنه منشىء ذواتهم ومجرى صفاتهم ، ثم فرقهم فى التنويع : ففريقاً أسعدهم ، وفريقاً أبعدهم وأشقاهم ، وفريقاً هداهم ، وفريقاً أضلهم

---

(١) غافلا ، والهاً .

(٢) وهو لا يتم التحقق به لأحد إلا بعد الفناء عن الأفعال والصفات والذات .

وأعماهم ، وفريقاً حجبهم عنه ، وفريقاً جذبهم إليه ، وفريقاً آنسهم بوصله ، وفريقاً آيسهم من رحمته . وفريقاً أكرمهم بتوفيقه ، وفريقاً اصطلمهم[1] عند رومهم لتحقيقه ، وفريقاً أصحاهم ، وفريقاً محاهم وفريقاً قربهم . وفريقا غيبهم وفريقاً أدناهم وأحضرهم ، ثم أسقاهم فأسكرهم . وفريقاً أشقاهم وأخرهم ثم أقصاهم وهجرهم .

وأنواع أفعاله لا يحيط بها حصر ، ولا يأتى على تفصيلها شرح ولا ذكر وأنشدوا للجنيد ، رحمه الله ؛ فى معنى الجمع والتفرقة :

وتحققتك فى سرى فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعانى وافترقنا لمعانى
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى
فقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

وأنشدوا :

إذا ما بدا لى[2] تعاظمته فأصدر[3] فى حال من لم يرد
جمعت وفرقت عنى به ففرد التواصل مثنى العدد

---

(١) غيبهم .
(٢) أى ظهر لى نور الحق .
(٣) فأرجع .

ومن ذلك :

الفناء والبقاء

أشار القوم بالفناء : إلى سقوط الأوصاف المذمومة .

وأشاروا بالبقاء : إلى قيام الأوصاف المحمودة به .

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين ، فمن المعلوم : أنه إذا لم يكن أحدُ القسمين كان القسمَ الآخر لا محالة ، فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة ، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة .

واعلم أن الذى يتصف به العبد : أفعال ، وأخلاق ، وأحوال .

فالأفعال : تصرفاته باختياره .

والأخلاق : جبلةٌ فيه ، ولكن تتغيرُ بمعالجته على مستمرِّ العادة .

والأحوال : ترد على العبد على وجه الابتداء ، لكن صفاؤها بعد زكاء الأعمال .

فهى كالأخلاق من هذا الوجه ، لأن العبد إذا نازل[1] الأخلاق بقلبه فينفى بجهده سفسافها[2] ، مَنّ الله عليه بتحسين أخلاقه ، فكذلك إذا واظب على تزكية أعماله ، ببذل وُسعه من الله عليه بتصفية أحواله بل بتوفية أحواله .

فمن ترك مذمومَ أفعاله بلسان الشريعة يقال : إنه فنى عن شهواته .

فإذا فنى عن شهواته بقى بنيتّه وإخلاصه فى عبوديته .

ومن زَهد فى دنياه بقلبه ، يقال : فنى عن رغبته :

فإذا فنى عن رغبته فيها بقى بصدق إنابته .

ومن عالج أخلاقه ، فنفى عن قلبه الحسد والحقد ، والبخل ، والشح والغضب ، والكبر ، وأمثال هذا من رعونات النفس ، يقال : فنى عن سوء الخلق .

فإذا فنى عن سوء الخلق بقى بالفتوة والصدق .

---

(١) انتقل إليها .

(٢) حقيرها .

ومن شاهد جريان القدرة فى تصاريف الأحكام ، يقال : فنى عن حسبان الحدثان من الخلق فإذا فنى عن توهم الآثار من الأغيار بقى بصفات الحقِّ .

ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثرًا ؛ ولا رسماً ، ولا طللاً ؛ يقال : إنه فنى عن الخلق وبقى بالحقِّ .

ففناء العبد عن أفعاله الذميمة ، وأحواله الخسيسة : بعدم هذه الأفعال .

وفناؤه عن نفسه ، وعن الخلق : بزوال إحساسه بنفسه وبهم .

فإذا فنى عن الأفعال ، والأخلاق ، والأحوال ، فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجوداً .

وإذا قيل : فنى عن نفسه ؛ وعن الخلق ، فنفسه موجودة ، والخلق موجودون . ولكنه لا علم له بهم ولا به ، ولا إحساس ، ولا خبر ، فتكون نفسه موجودة ، والخلق موجودين ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين ، غير محس بنفسه وبالخلق .

وقد ترى الرجل يدخل على ذى سلطان ؛ أو محتشم ، فيُذهل عن نفسه ، وعن أهل مجلسه هيبة ، وربما يذهل عن ذلك المحتشم ، حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده ، عن أهل مجلسه وهيآت ذلك الصدر[١] ، وهيآت نفسه ، لم يمكنه الإخبار عن شيء .

قال الله تعالى : ﴿ فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ﴾ .

لم يجدن عند لقاء يوسف عليه السلام ، على الوهلة[٢] ألم قطع الأيدى ، وهن أضعف الناس ، وقلن : « ماهذا بشراً » - ولقد كان بشراً - .

وقلن : « إن هذا إلا ملك كريم » - ولم يكن ملكاً -

فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق ، فما ظنك بمن تكاشف[٣] بشهود الحق سبحانه ؟!

فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه ، فأى أعجوبة فيه ؟!

فمن فنى عن جهله بقى بعلمه .. ومن فنى عن شهوته بقى بإنابته .. ومن فنى عن رغبته بقى بزهادته .. ومن فنى عن منيته[٤] بقى بإرادته[٥] تعالى .

---

(١) أى المحتشم . وفى نسخة « وهيئة » .
(٢) البغته .
(٣) أى أزيلت عند الحجب .
(٤) طلبته .
(٥) وفى نسخة (بإرادته) فقط .

وكذلك القول فى جميع صفاته :

فإذا فنى العبد عن صفته بما جرى ذكره ، يرتقى عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه وإلى هذا أشار قائلهم :

فقوم تاه فى أرض بفقر　　وقوم تاه فى ميدان حبه
فأَفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا　　وأبقوا بالبقاء من قرب ربه

فالأول أفناه[1] عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق .

ثم فناؤه عن صفات الحق بشهودة الحق .

ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق .

---

(١) وفى نسخة (فناؤه) .

ومن ذلك :

الغيبة والحضور

فالغيبة : غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق ، لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره ، بوارد من تذكر ثواب ، أو تفكر عقاب .

كما روى أن : الربيع بن خيثم كان يذهب إلى ابن مسعود ، رضى الله عنه ، فمر بحانوت حدَّاد ، فرأى الحديدة المحماة فى الكير ، فغشى عليه .. ولم يفق إلى الغد .

فلما أفاق ، سئل عن ذلك ، فقال :

تذكرت كون أهل النار فى النار :

فهذه غيبة زادت على حدها ، حتى صارت غشية .

وروى عن على بن الحسين : أنه كان فى سجوده ، فوقع حريق فى داره ، فلم ينصرف عن صلاته ، فسئل عن حاله ، فقال :

ألهتنى النار الكبرى عن هذه النار .

وربما تكون الغيبة عن إحساسه بمعنى[1] يكاشف به من الحق سبحانه وتعالى :

ثم إنهم[2] مختلفون فى ذلك على حسب أحوالهم ، ومن المشهور :

أن ابتداء حال أبى حفص النيسابورى الحداد فى ترك الحرفة ، أنه كان على حانوته ، فقرأ قارئ آية من القرآن ، فورد على قلب أبى حفص وارد تغافل عن إحساسه ، فأدخل يده فى النار ، وأخرج الحديدة المحماة بيده ، فرأى تلميذا له ذلك ، فقال : يا أستاذ ، ما هذا ؟

فنظر أبو حفص إلى ما ظهر عليه ، فترك الحرفة ؛ وقام من حانوته .

وكان الجنيد قاعداً ؛ وعنده امرأته ؛ فدخل عليه الشبلى ؛ فأرادت امرأته أن تستتر ؛ فقال لها الجنيد : لا خبر للشبلىِّ عنك ؛ فاقعدى .

---

(١) أى بوارد .

(٢) أى من يرد عليهم الوارد .

فلم يزل يكلمه الجنيد ؛ حتى بكى الشبلى ؛ فلما أخذ الشبلى فى البكاء قال الجنيد لامرأته : استترى ، فقد أفاق الشبلى من غيبته .

سمعت أبا نصر المؤذن بنيسابور ؛ وكان رجلاً صالحاً ، قال :

كنت أقرأ القرآن فى مجلس الأستاذ أبى علىٍّ الدَّقاق بنيسابور ؛ وقت كونه هناك وكان يتكلم فى الحج كثيراً ، فأثَّر فى قلبى كلامه ، فخرجت إلى الحج تلك السنة ؛ وتركت الحانوت والحرفة ؛ وكان الأستاذ أبو على رحمه الله ؛ خرج إلى الحج أيضاً فى تلك السنة . وكنت مدَّة كونه بنيسابور أخدمه . وأواظب على القراءة فى مجلسه فرأيته يوماً فى البادية : تطهر .. ونسى قمقمة كانت بيده .. فحملتها ، فلما عاد إلى رحله وضعتها عنده فقال : جزاك الله خيراً . حيث حملت هذا .

ثم نظر إلىَّ طويلاً كأنه لم يرَن قط : وقال : رأيتك مرة . فمن أنت ؟

فقلت : المستغاث بالله !! صحبتك مدة .. وخرجت عن مسكنى ومالى بسببك ، وتقطعت فى المفازة بك والساعة تقول رأيتك مرة !!

وأما الحضور :

فقد يكون حاضراً بالحق ؛ لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق ، على معنى أنه يكون كأنه حاضر ، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه ، فهو حاضر بقلبه بين يدى ربه تعالى ؛ فعلى حسب غيبته عن الحق يكون حضوره بالحق ، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة .

فإذا قيل : فلان . حاضر ، فمعناه أنه حاضر بقلبه لربه ، غير غافل عنه ، ولا ساهٍ ، مستديم لذكره . ثم يكون مكاشفاً فى حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحق سبحانه وتعالى بها .

وقد يقال لرجوع العبد إلى إحساسه بأحوال نفسه ، وأحوال الخلق : إنه حضر أى رجع عن غيبته ، فهذا يكون حضوراً بخلق ، والأول حضوراً بحق .

وقد تختلف أحوالهم فى الغيبة . فمنهم من لا تمتد غيبته ، ومنهم من تدوم غيبته .

وقد حكى أن ذا النون المصرى بعث إنساناً من أصحابه إلى أبى يزيد ، لينقل إليه صفة أبى يزيد .. فلما جاء الرجل إلى بسطام . سأل عن دار أبى يزيد فدخل عليه فقال له أبو يزيد : ما تريد ؟

فقال أريد أبا يزيد .

فقال : من أبو يزيد ؟ وأين أبو يزيد ؟ أنا فى طلب أبى يزيد .

فخرج الرجل ، وقال : هذا مجنون .

ورجع الرجل إلى ذى النون . فأخبره بما شهده . فبكى ذو النون وقال : أخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين إلى الله .

ومن ذلك :

الصحو والسكر

فالصحو : رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة .

والسكر : غيبة بوارد قوى .

والسكر زيادة على الغيبة من وجه ، وذلك أن صاحب السكر قد يكون مبسوطا إذا لم يكن مستوفى[1] فى حال سكره ، وقد يسقط إخطار الأشياء عن قلبه فى حال سكره ، وتلك حال المتساكر ، الذى لم يستوفه الوارد ، فيكون للإحساس فيه مساغ ، وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة ، فربما يكون صاحب السكر أشد غيبة من صاحب الغيبة إذا قوى سكره ، وربما يكون صاحب الغيبة أتمَّ فى الغيبة من صاحب السكر ، إذا كان متساكراً غير مستوف .

والغيبة قد تكون للعباد ، بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقتضيات الخوف والرجاء .

والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد .

فإذا كوشف العبد بنعت الجمال حصل السكر ، وطاب[2] الروح ، وهام القلب ، وفى معناه أنشدوا :

فصحوك من لفظى هو الوصل كله ... وسكرك من لحظى يبيح لك الشربا
فما ملَّ ساقيها وما مل شارب ... عقار لحاظ كأسه يسكر اللبا

وأنشدوا :

فأسكر القوم دور كأس ... وكان سكرى من المدير

وأنشدوا :

لى سكرتان ، وللندمان واحدة ... شىء خصصت به من بينهم وحدى

وأنشدوا :

---

(١) بأن كان فيه بقية إدراك وفى نسخة . مستوفياً فى سكره .

(٢) وفى نسخة : وطرب .

سكران : سكر هوى وسكر مدامة   فمتى يفيق فتى به سكران

واعلم أن الصحو على حسب السكر ، فمن كان سكره بحق ، كان صحوه بحق .

ومن كان سكره بحظ مشوباً ؛ كان صحوه بحظ[١] مصحوباً .

ومن كان محقا فى حاله[٢] كان محفوظاً فى سكره .

والسكر والصحو يشيران إلى طرف من التفرقة .

وإذا ظهر من سلطان الحقيقة علم[٣] فصفة العبد الثبور ، والقهر .

وفى معناه أنشدوا :

إذا طلع الصباح لنجم راح   تساوى فيه سكران وصاح

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

هذا[٤] مع رسالته وجلالة قدره خر صعقا ، وهذا[٥] مع صلابته ، وقوته ، صار دكاً متكسراً .

والعبد فى حال سكره بشاهد الحال .

وفى صحوه بشاهد العلم .

إلا أنه فى حال سكره محفوظ[٦] لا بتكلفه :

وفى حال صحوه متحفظ بتصرفه .

والصحو والسكر بعد الذوق والشرب .

---

(١) وفى نسخة . بحظ صحيح .
(٢) أى فى حال صحوه .
(٣) علامة ، وفى نسخة . علم أن صفة .
(٤) أى موسى عليه السلام .
(٥) أى الجبل .
(٦) أى محفوظ بالله .

ومن ذلك :

الذوق والشرب

ومن جملة ما يجرى فى كلامهم : الذوق ، والشرب .

ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلى ، ونتائج الكشوفات ، وبوارد الواردات .

وأول ذلك : الذوق ، ثم الشرب ، ثم الريُّ .

فصفاءِ معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى .

ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب .

ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الريَّ .

فصاحب الذوق متساكر[1] ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الريِّ صاح .

ومن قوى حبه تسرمد[2] شربه ، فإذا دامت به تلك الصفة لم يوُرثه الشرب سكراً ، فكان صاحياً بالحق ، فانياً عن كل حظ : لم يتأثر بما يرد عليه ، ولا يتغير عما هو به .

ومن صفا سره ، لم يتكدر عليه الشرب . ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ، ولم يبق بدونه .

وأنشدوا :

وإنما الكأس رضاع بيننا فإذا لم نذقها لم نعش

وأنشدوا :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى فهل أنسى فأذكر ما نسيت ؟
شربت الحبَّ كأساً بعد كأس فما نفد الشراب ولا رويتُ

ويقال : كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد البسطامى :

« ها هنا من شرب من كأس[3] المحبة لم يظمأ بعده » .

---

(١) وهو من بقى فيه بقية شعور بماله من الأحوال .
(٢) دام .
(٣) وفى نسخة . من شرب كأساً من المحبة .

فكتب إليه أبو يزيد :

عجبت من ضعف حالك !! هاهنا من يحتسى بحار الكون وهو فاغر فاه يستزيد .

واعلم أن كاسات القرب تبدو من الغيب ، ولاتدار إلا على أسرار معتقة ، وأرواح عن رقق الأشياء محررة .

ومن ذلك :

المحو والإثبات

المحو : رفع أوصاف العادة :

والإثبات : إقامة أحكام العبادة .

فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة ، وأتى بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة ، فهو صاحب محو وإثبات .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : قال بعض المشايخ لواحد : إيش تمحو ؟ وإيش تثبت ؟

فسكت الرجل !!

فقال : أما علمت أن الوقت محو وإثبات ، إذ من لا محو له ، ولا إثبات ، فهو معطل ، مهمل .

وينقسم إلى محو الزلة عن الظواهر ، ومحو الغفلة عن الضمائر ، ومحو العلة عن السرائر ، ففى محو الزلة : إثبات المعاملات ؛ وفى محو الغفلة : إثبات المنازلات .

وفى محو العلة إثبات المواصلات .

هذا محو وإثبات بشرط العبودية .

وأما حقيقة المحو والإثبات ، فصادران عن القدرة : فالمحو : ما ستره الحق ونفاه والإثبات ما أظهره الحق وأبداه .

والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة . قال الله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » .

قيل : يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالى ، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله ، ومحو الحق لكل أحد وإثباتهُ على ما يليق بحاله .

ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدة[1] ، أثبته[2] بحق حقه[3] .

---

(١) أى مشاهدته لنفسه وأفعاله .

(٢) حققه .

(٣) أى جعل حالة الوجود بواسطة فنائه ، بحق الحقيقة : أى بغلبة مشاهدة أنوار الحقيقة فيتم له الوجود بها .

ومن محاه الحق عن إثباته به ردَّه إلى شهود الأغيار ؛ وأثبته فى أودية التفرقة .

وقال رجل للشبلىّ رحمه الله :

مالى أراك قلقاً ، أليس هو معك ، وأنت معه ؟

فقال الشبلى :

لو كنت أنا معه كنت أنا ، ولكنى محو فيما هو .

والمحق فوق المحو ؛ لأن المحو يبقى أثراً ، والمحقُ لا يبقى أثراً .

وغاية همة القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ، ثم لا يردَّهم إليهم بعدما محقهم عنهم .

ومن ذلك :

الستر والتجلّ

العوام[1] فى غطاء الستر[2] ، والخواص فى دوام التجلى .

وفى الخبر : « إن الله إذا تجلى لشىء خشع له » .

فصاحب الستر ، بوصف شهوده ، وصاحب التجلى أبداً ، بنعت خشوعه .

والستر للعوام عقوبة ، وللخواص رحمة ، إذ لولا أنه يستر عليهم[3] ما يكاشفهم به ، لتلاشوا عند سلطان الحقيقة : ولكنه كما يظهر لهم ، يستر عليهم .

سمعت منصور المغربىَّ يقول :

وافى بعض الفقراء حيا من أحياء العرب ، فأضافه شاب ، فبينا الشاب فى خدمة هذا الفقير إذ غشى عليه ، فسأل الفقير عن حاله ، فقالوا :

له بنت عم ، وقد علقها[4] ، فمشت فى خيمتها ، فرأى الشاب غبار ذيلها ، فغشى عليه .

فمضى الفقير إلى باب الخيمة ، وقال :

إن للغريب فيكم حرمة وذماماً ، وقد جئتُ مستشفعًا إليك فى أمر هذا الشاب ، فتعطفى عليه فيما هو به من هواك .

فقالت : سبحان الله ، أنت سليم القلب ، إنه لا يطيق شهود غبارَ ذيلى ، فكيف يطيق صحبتى .؟

وعوامُّ هذه الطائفة عيشهم فى التجلِّ ، وبلاؤهم فى الستر .

وأما الخواص ، فهم بين طيش وعيش[5] ، لأنهم إذا تجلى لهم طاشوا ، وإذا ستر عليهم ردوا إلى الحظ فعاشوا .

---

(١) أى من الصوفية .

(٢) بأن يخفى الله عنهم أحوالهم ، ليدوموا على جدهم واجتهادهم فى عباداتهم .

(٣) بمعنى عنهم .

(٤) تعلق قلبه بها .

(٥) بين سكر وصحو .

وقيل : إنما قال الحق تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ﴾ ، ليستر عليه ببعض ما يعلله[١] به بعض ما أثر فيه من المكاشفة بفجأة السماع .

وقال ﷺ : « إنه ليغان[٢] على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » .

والاستغفار : طلب الستر ، لأن الغفر : هو الستر ، ومنه غفر الثوب ، والمغفر ، وغيره :

فكأنه أخبر أنه يطلب الستر على قلبه عند سطوات الحقيقة ، إذ الخلق لا بقاء لهم مع وجود الحق ، وفى الخبر : « لو كشف[٣] عن وجهه[٤] لأحرقت سبحات[٥] وجهه ما أدرك بصره »[٦] . .

---

(١) يلاطفه .

(٢) ليغطى .

(٣) أى للعبد .

(٤) أى وجه الله .

(٥) أى أنوار عظمة الله وجلاله .

(٦) أى أن العبد – كما قال الشيخ زكريا الأنصارى – لا يطيق رؤية الحق تعالى ولا كمال جلاله ؛ وإنما يكشف لكل عبد من رؤيته فى الدنيا ما تقوى عليه بصيرته وليس المراد بقولهم « المكاشفة » و « المشاهدة » ونحوهما من الألفاظ : معاينة الذات حقيقة ، فإن ذلك لا يقع فى الدنيا ولافى الآخرة على الوجه المعهود .

ومن ذلك :

المحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة

المحاضرة ابتداءً[١] ، ثم المكاشفة ، ثم المشاهدة .

فالمحاضرة : حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان ، وهو بعدُ وراء الستر[٢] ، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر .

ثم بعده . المكاشفة : وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر فى هذه الحالة إلى تأملٍ الدليل ، وتطلب السبيل ، ولا مستجر[٣] من دواعى الريب . ولا محجوب من نعت الغيب .

ثم المشاهدة : وهى حضور الحق من غير بقاء تهمة[٤] .

فإذا أصحت سماء السِّر عن غيوم الستر ، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف . وحق المشاهدة ما قاله الجنيد ، رحمه الله :

وجود الحق مع فقدانك[٥] :

فصاحب المحاضرة مربوط بآياته ، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته :

وصاحب المشاهدة ملقى بذاته ، وصاحبُ المحاضرة يهديه عقله ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تمخوه معرفته .

ولم نرد فى بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكى رحمه الله .

ومعنى ما قاله : أنه تتوالى أنوار التجلىِّ على قلبه من غير أن يتخللها ستر وانقطاع كما لو قُدر اتصال البروق ، فكما أن الليلة الظلماء بتوالى البروق فيها ، واتصالها ، إذا قدرت تصير فى ضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلى مَتع[٦] نهاره فلا ليل .

وأنشدوا :

ليلى بوجهك مشرق ... وظلامه فى الناس سارى

---

(١) أى أول المراتب .
(٢) الحجاب .
(٣) أى : مستعيذ .
(٤) شبهة .
(٥) أى فنائك عما سواه .
(٦) أى طال .

والناس فى سدف[1] الظلام ونحن فى ضوء النهار

وقال النورى : لا يصح للعبد المشاهدة وقد بقى له عِرق قائم .

وقال : إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح :

وتوهمَّ قوم أن المشاهدة تشير إلى طرف من التفرقة ، لأن باب المفاعلة فى العربية بين اثنين . وهذا وهم من صاحبه . فإن فى ظهور الحق سبحانه ، ثبور[2] الخلق وباب المفاعلة جملتها لا تقضى مشاركة الاثنين نحو : سافر ، وطارق النعل ، وأمثاله .

وأنشدوا :

فلما استبان الصبح أدرك[3] ضوؤه
بأنواره أنوار ضوء الكواكب
يجرعهم كأساً لو ابتلى[4] به اللظى
بتجريعة طارت كأسرع ذاهب

كأس ، أى كأس !! تصطلمهم عنهم ، وتفنيهم ، وتختطفهم منهم ، ولا تبقيهم .

كأس .. لا تبقى ولا تذر ، تمحوهم بالكلية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية .

كما قال قائلهم :

ساروا فلم يبق لارسم ولا أثر

---

(١) ظلمة .

(٢) هلاك .

(٣) وفى نسخة أدرج أى : غيب .

(٤) وفى نسخة : لو ابتليت لظى أى : جهنم .

ومن ذلك :

اللوائح ، والطوالع ، واللوامع

قال الأستاذ رضى الله عنه :

هذه الألفاظ متقاربة المعنى ، لا يكاد يحصل بينها كبير فرق . وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب ، فلم يدم لهم بعد ضياء شموس المعارف .

لكن الحق سبحانه وتعالى ، يؤتى رزق قلوبهم فى كل حين ، كما قال : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا[١] ﴾ ، فكلَّما أظلم عليهم سماءُ القلوب بسحاب الحظوظ سنح[٢] لهم فيها لوائح الكشف وتلألأ لوامعُ القرب وهم فى زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح[٣] .

فهم كما قال القائل :

يـأيها البـرق الـذى يلمـع   من أى أكناف السما تسطع

فتكون[٤] أولا : لوائح ، ثم لوامع ، ثم طوالع :

فاللوائح كالبروق ، ما ظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

افتــرقنـا حــولاً فلما التقينـا   كــان تسليمـه عـلّى وداعــاً

وأنشدوا :

يـاذا الـذى زار ومـا زارا   كـأنـه مـقـتـبس نـاراً
مـر بباب الـدار مستعجـلاً   ما ضره لو دخل الـدارًا ؟

واللوامع : أظهر من اللوائح : ليس زوالها بتلك السرعة ، فقد تبقى اللوامع وقتين ، وثلاثة .

ولكن كما قالوا :

والعين باكية لم تَشْبع النظرا

---

(١) آية ٦٢ من سورة مريم .
(٢) ظهر .
(٣) ينتظرون مجىء اللوائح بغتة .
(٤) أى الأشياء التى تظهر لهم .

وكما قالوا :

لم تَرِد ماء وجهه العينُ إلا　　شرقت قبل ريها برقيب

فإذا لمَع قطعك عنك ، وجمعك به ، لكن لم يسفر نور نهاره حتى كر عليه عساكر الليل ، فهؤلاء بين روح ونوح ؛ لأنهم بين كشف وستر .

كما قالوا :

فالليل يشملنا بفاضل برده　　والصبح يلحفنا رداء مذهبا

والطوالع : أبقى وقتاً ، وأقوى سلطانا ، وأدوم مكثاً ، وأذهب للظلمة وأنفى للتهمة ، لكنها موقوفة على خطر الأفول ، ليست برفيعة الأوج ، ولا بدائمة المكث ، ثم أوقات حصولها وشيكة الارتحال ، وأحوال أفولها طويلة الأذيال .

وهذه المعانى ، التى هى : اللوائح واللوامع والطوالع ، تختلف فى القضايا[١] ، فمنها ما إذا مات لم يبق عنها أثر[٢] ، كالشوارق إذا أفلت ، فكأنَّ الليل كان دائماً .

ومنها ما يبقى عنه أثر ، فإن زال رقمه[٣] بقى ألمه ، وإن غربت أنواره بقيت آثاره فصاحبه بعد سكون غلباته[٤] يعيش فى ضياء بركاته ، فإلى أن يلوح ثانيا يرجى[٥] وقته على انتظار عوده ، ويعيش بما وجد فى كونه[٦] .

―

(١) الأحكام .
(٢) والأولى أن يقول « عنه » .
(٣) أى أثره .
(٤) قلقه .
(٥) وفى نسخة يزجى : أى يدافع .
(٦) أى زمن وجوده .

ومن ذلك :

البواده والهجوم

البواده :

ما يفجأ قلبك من الغيب علي سبيل الوهلة[1] ، إما موجب فرح ، وإما موجب ترح .

والهجوم :

ما يرد على القلب بقوةً الوقت ، من غير تصنع منك .

ويختلف فى الأنواع على حسب قوَّة الوارد وضعفه .

فمنهم من تغيره البواده ، وتصرفه الهواجم .

ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالاً وقوة . أولئك سادات الوقت كما قيل :

لا تهتدى نوب[2] الزمان إليهم
وهم على الخطب الجليل لجام

---

(١) البغتة .

(٢) أحداثه . لجام : قوة وثبات .

ومن ذلك :

التلوين والتمكين

التلوين : صفة أرباب الأحوال .

التمكين : صفة أهل الحقائق .

فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين ، لأنه يرتقى من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف ويخرج من مرحل[1] ويحصل فى مربع[2] ، فإذا وصل تمكن .

وأنشدوا :

مازلت أنزل فى ودادك منزلاً تتحير الألباب دون نزوله

وصاحب التلوين أبداً فى الزيادة وصاحب ، التمكين وَصل ثم أتّصل .

وأمارة أنه اتّصل : أنه بالكلية عن كليته بطل .

وقال بعض المشايخ :

انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا .

قال الأستاذ رحمه الله :

بريد انخناس أحكام البشرية ، واستيلاء سلطان الحقيقة ، فإذا دام للعبد هذه الحالة فهو صاحب تمكين .

كان الشيخ أبو علىٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

كان موسى عليه السلام صاحب تلوين ، فرجع من سماع الكلام واحتاج إلى ستر وجهه ، لأنه أثر فيه الحال ، ونبينا ﷺ ، كان صاحب تمكين ، فرجع كما ذهب ، لأنه لم يؤثر فيه ما شاهده تلك الليلة .

وكان يستشهد على هذا بقصَّة يوسف عليه السلام : أن النسوة اللاتى رأين يوسف عليه السلام قطَّعن أيديهن لما ورد عليهن من شهود يوسف عليها السلام على وجه الفجأة . وامرأة

---

(١) مكان الرحيل .

(٢) محل الربيع .

العزيز كانت أتمَّ فى بلاء[1] يوسف منهن ، ثم لم تتغير عليها شعرة ذلك اليوم ، لأنها كانت صاحبة تمكين فى حديث يوسف عليه السلام .

قال الأستاذ :

واعلم ان التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين :

إمَّا لقوة الوارد ، أو لضعف صاحبه .

والسكون من صاحبه لأحد أمرين :

إمَّا لقوته ، أو لضعف الوارد عليه .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

أصول القوم فى جواز دوام التمكين تتخرج على وجهين :

أحدهما : مالا سبيل إليه ، لأنه قال ﷺ : « لو بقيتم على ما كنتم عليه عندى لصافحتكم الملائكة »[2] ولأنه ﷺ قال : « لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى عزَّ وجل » أخبر عن وقت مخصوص .

والوجه الثانى : أنه يصح دوام الأحوال ، لأن أهل الحقائق ارتقوا عن وصف التأثر بالطوارق ، والذى فى الخبر أنه قال : « لصافحتكم الملائكة » فلم يعلق الأمر فيه على أمر مستحيل ، ومصافحة الملائكة دون ما أثبت لأهل البداية من قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع »[3] .

---

(١) حب .

(٢) الحديث بأكمله : عن أبى ربعى : حنظلة بن الربيع الأسيدى : الكاتب أحد كتاب رسول الله ﷺ ، قال : « لقينى أبو بكر ، رضى الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة ! قال سبحان الله ! ما تقول ؟ فقلت : نكون عند رسول الله ، ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً ، قال أبو بكر رضى الله عنه ، « فوالله إننا لنلقى مثل هذا : فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، نافق حنظلة ، فقالى رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟ قال : نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنها رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات : نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ، أن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة ثلاث مرات » رواه مسلم . عافسنا : داعبنا ؛ الضيعات : المعايش .

(٣) الحديث بتمامه فيما رواه أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد : كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وما قال : « لى وقت .. » فإنما قال على حسب فهم السامع . وفى جميع أحواله كان قائما بالحقيقة .

والأولى أن يقال : إن العبد ما دام فى الترقىّ فصاحب تلوين يصحُّ فى نعته الزيادة فى الأحوال ، والنقصانُ منها ، فإذا وصل إلى الحق بانخناس أحكام البشرية مكنّه الحق سبحانه ، بأن لا يرده إلى معلولات النفس ، فهو متمكن فى حاله ، على حسب محله واستحقاقه .

ثم يُتْحِفُه - الحقُّ سبحانه ، فى كل نفس ، فلا حدَّ لمقدوراته ، فهو فى الزيادات متلون ، بل ملوَّن . وفى أصل حاله متمكن ؛ فأبداً يتمكن فى حالة أعلى مما كان فيها قبله ، ثم يرتقى عنها إلى ما فوق ذلك إذ لا غاية لمقدورات الحق سبحانه فى كل جنس .

فأما المصطلم[1] عن شاهده ، المستوفى إحساسه بالكلية ، فللبشرية لا محالة حد وإذا بطل عن جملته ونفسه وحسه ، وكذلك عن المكونات بأسرها ، ثم دامت به هذه الغيبة ، فهو محو ، فلا تمكين له إذاً ، ولا تلوين ، ولا مقام ، ولا حال .

وما دام بهذا الوصف : فلا تشريف ، ولا تكليف اللهّم إلا أن يردّ بما يجرى عليه من غير شىء منه ، فذلك[2] متصرف فى ظنون الخلق ، مصرَّف فى التحقيق .

قال الله تعالى ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمين وَذَاتَ الشِّمال ﴾[3] وبالله التوفيق .

---

(١) الغائب .
(٢) أى العبد .
(٣) آية ١٨ من سورة الكهف .

ومن ذلك :

القرب والبعد

أوَّل رتبة فى القرب : القربُ من طاعته ، والاتصاف فى دوام الأوقات بعبادته .

وأمَّا البعد ، فهو التدنس بمخالفته ، والتجافى عن طاعته .

فأوَّل البعد بعد عن التوفيق ، ثم بعد عن التحقيق ، بل البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق ، قال ﷺ ، مخبراً عن الحق سبحانه : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل . حتى يحبنى وأحبه فإذا أحببته ، كنت له سمعاً وبصراً ، فبى يبصر ، وبى يسمع .. الخبر[١] ... » .

فقُرْب العبد أولا قرب بإيمانه وتصديقه ، ثم قرب بإحسانه وتحقيقه .

وقرب الحق سبحانه ، ما يخصه اليوم به من العرفان ، وفى الآخرة ما يكرِّمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك من وجوه اللطف والامتنان .

ولا يكونُ تقرُب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق ، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون .

وقرب الحق سبحانه ، بالعلم ، والقدرة عام للكافه . وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين ، ثم بخصائص التأنيس[٢] مختص بالأولياء . قال الله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[٣] ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ[٤] ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ[٥] ﴾ وقال الله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نجوى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ[٦] ﴾ .

ومن تحقق بقرب الحق ، سبحانه وتعالى ، فأدْونه[٧] دوام مراقبته إيَّاه ، لأنَّ عليه رقيبَ التقوى ، ثم رقيب الحفظ والوفاء ثم رقيب الحياء . .

---

(١) الحديث بتمامه : قال تعالى فى الحديث القدسى الصحيح الذى رواه البخارى « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال يتقرب إلى عبدى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

(٢) أى الأنس بالله .

(٣) آية ١٩ من سورة : ق .

(٤) آية ٨٥ من سورة الواقعة .

(٥) آية ٤ من سورة الحديد .

(٦) آية ٧ من سورة المجادلة .

(٧) فأقله .

وأنشدوا :

كأن رقيباً منك يرعى خواطرى   وآخرَ يرعى ناظرى ولسانى
فما رمقت عيناى بعدك منظراً   يسوؤك إلا قلت قد رفعانى
ولا بدرت من فى دونك لفظة   لغيرك إلا قلت قد سمعانى
ولا خطرت فى السر بعدك خطرة   لغيرك إلا عرَّجا بعنانى
وإخوان صدق قد سئمت حديثهم   وأمسكت عنهم ناظرى ولسانى
وما الزهد أسلى عنهم غير أننى   وجدتك مشهوداً بكل مكان

وكان بعض المشايخ يخص واحداً من تلامذته بإقباله عليه ، فقال أصحابه له فى ذلك ، فدفع إلى كل واحد منهم طيراً ، وقال اذبحوه بحيث لا يراه أحد .

فمضى كل واحد وذبح الطير بمكان خال .. وجاء هذا الإنسان والطير معه غير مذبوح ؛ فسأله الشيخ ، فقال : أمرتنى أن أذبحه بحيث لا يراه أحد ، ولم يكن موضع إلا والحق سبحانه يراه ، فقال الشيخ ، لهذا أقدِّم هذا عليكم ؛ إذ الغالب عليكم حديثُ الخلق ، وهذا غير غافل عن الحق .

ورؤية القرب حجاب عن القرب ، فمن شاهد لنفسه محلا ، أو نَفساً ، فهو ممكور به[1] .

ولهذا قالوا : أوحشك الله من قربه : أى من شهودك لقربه ، فإن الاستئناس بقربه من سمات العزة به ، إذ الحق سبحانه وراء[2] كل أنس .

وإن مواضع الحقيقة توجب الدهش والمحو[3] .

وفى قريب من هذا قالوا :

محنتى فيك أننى   ما أبالى بمحنتى
قربكم مثلُ بعدكم   فمتى وقت راحتى

وكان الأستاذ أبو علىٍّ الدقاق ، رحمه الله ، كثيراً ما ينشد :

ودادكم هجر ، وحبكم قلى[4]   وقربكم بعد وسلمكم حرب

---

(١) ممكور به : مغرور به :
(٢) أى أمام .
(٣) وفى نسخة و « المحق » .
(٤) بغض .

ورأى أبو الحسين النورى بعض أصحاب أبى حمزة ، فقال :

أنت من أصحاب أبى حمزة الذى يشير إلى القرب ؟ إذا لقيته ، فقل له : إن أبا الحسين النورى يقرئك السلام ، ويقول لك : قرب القرب فيما نحن فيه بعد البعد .

فأما القرب بالذات ، فتعالى الله الملك الحق عنه ، فإنه متقدس عن الحدود ؛ والأقطار ، والنهاية ، والمقدار ، وما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت صمديته عن قبول الوصل والفصل .

فقرب هو فى نعته محال : وهو تدانى الذوات .

وقرب هو واجب فى نعته : وهو قرب بالعلم والرؤية .

وقرب هو جائز فى وصفه ، يخص به من يشاء من عباده ، هو قرب الفضل[1] باللطف .

---

(١) وفى نسخة أخرى « الفعل » .

ومن ذلك :

الشريعة والحقيقة

الشريعة : أمر بالتزام العبودية .

والحقيقة : مشاهدة الربوبية .

فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول .

وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول .

فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق .

فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده .

والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ حفظ للشريعة ﴿ وإياك نستعين ﴾ إقرار بالحقيقة .

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره .

والحقيقة - أيضاً - شريعة ، من حيث إن المعارف به ، سبحانه ، أيضاً ، وجبت بأمره .

ومن ذلك :

النفَس[1]

النفَس : ترويح القلوب بلطائف الغيوب ، وصاحب الأنفاس أرق وأصفى من صاحب الأحوال ، فكان الوقت مبتدئاً ، وصاحب الأنفاس منتهياً ، وصاحب الأحوال بينهما .

فالأحوال وسائط ، والأنفاس نهاية الترقيّ .

فالأوقات لأصحاب القلوب ، والأحوال لأرباب الأرواح ، والأنفاس لأهل السَّرائر :

وقالوا : أفضل العبادات عد الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى .

وقالوا : خلق الله القلوب وجعلها معادن المعرفة ، وخلق الأسرار وراءها[2] . وجعلها محلاًّ للتوحيد فكل نَفس حصل من غير دلالة المعرفة وإشارةِ التوحيد على بساط الأضطرار فهو ميت ، وصاحبه مسئول عنه .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

العارف لا يسلم له النفس ، لأنه لا مسامحة تجرى معه ، والمحب لا بدله من نفس ، إذ لولا أن يكون له نفس لتلاشى ، لعدم طاقته .

---

(١) بفتح الفاء .

(٢) أى بعدها .

ومن ذلك :

الخـواطر

والخواطر خطاب يَرد على الضمائر ، وهو قد يكون بإلقاء ملك ، وقد يكون بإلقاء شيطان ، ويكون أحاديث النفس ، ويكون من قبل الحق سبحانه .

فإذا كان من الملك فهو الإلهام .

وإذا كان من قبل النفس ، قيل له : الهواجس .

وإذا كان من قبل الشيطان فهو : الوسواس .

وإذا كان من قبل الله سبحانه ، وإلقائه فى القلب ، فهو : خاطر حق .

وجملة ذلك من قبيل الكلام[١] .

فإذا كان من قبل الملك ، فإنما يعلم صدقهُ بموافقة العلم[٢]، ولهذا قالوا : كل خاطر لا يشهد له ظاهر فهو باطل .

وإذا كان من قبل الشيطان فأكثره يدعو إلى المعاصى .

وإذا كان من قبل النفس فأكثره ، يدعو إلى اتباع شهوة أو استشعار كبر ، أو ما هو من خصائص أوصاف النفس .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لم يفرق بين الإلهام والوسواس[٣] .

وسمعت الشيخ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

من كان قوته معلومًا[٤] لم يفرق بين الإلهام والوسواس ، وأن من سكنت عنه هواجس نفسه بصدق مجاهدته نطق بيان[٥] قلبه بحكم مكابدته .

وأجمع الشيوخ على أن النفس لا تصدق ، وأن القلب لا يكذب .

---

(١) أى جميع ما تقدم فى معنى الخاطر هو من قبيل الكلام النفسى الملقى فى الضمائر .

(٢) بالكتاب والسنة .

(٣) لأن التمييز بينهما إنما يقع بدقيق النظر فى الأحكام وكمال العلم بالحلال والحرام .

(٤) أى معينا من جهه ما إذا اطمأن له واعتمد عليه .

(٥) وفى نسخة : بيان .

وقال بعض المشايخ : إن نفسك لا تصدق وقلبك لا يكذب ، ولو اجتهدت كل الجهد أن تخاطبك روحك لم تخاطبك .

وفرق الجنيد بين هواجس النفس ووساوس الشيطان بأن النفس إذا طالبتك بشيء ألحت .. فلا تزال تعاودك ، ولو بعد حين ، حتى تصل إلى مرادها ، ويحصل مقصودها ، اللهم إلا أن يدوم المجاهدة ، ثم إنها تعاودك وتعاودك .

وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة ، فخالفته بترك ذلك ، يوسوس بزلة أخرى ، لأن جميع المخالفات له سواء ، وإنما يريد أن يكون داعيًا أبدًا إلى زلة ما ، ولا غرض له فى تخصيص واحد دون واحد .

وقد قيل : كل خاطر يكون من الملك فربما يوافقه صاحبه ، وربما يخالفه .

فأما خاطر يكون من الحق سبحانه ، فلا يحصل خلاف من العبد له .

وتكلم الشيوخ فى الخاطر الثانى ، إذا كان الخاطران من الحق سبحانه ، هل هو أقوى من الأول ؟ .

فقال الجنيد : الخاطر الأول أقوى ، لأنه إذا بقى رجع صاحبه إلى التأمل . وهذا بشرط العلم ، فترك الأول يضعف الثانى .

وقال ابن عطاء الله : الثانى أقوى ، لأنه ازداد قوة بالأول .

وقال أبو عبدالله بن خفيف ، من المتأخرين :

هما سواء ، لأن كليهما من الحق ، فلا مزية لأحدهما على الآخر .

والأول لا يبقى فى حال وجود الثانى ، لأن الآثار لا يجوز عليها البقاء .

ومن ذلك :

علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين

هذه عبارات عن علوم جلية .

فاليقين : هو العلم الذى لا يتداخل[١] صاحبه ريب على مطلق العرف .

ولا يطلق فى وصف الحق سبحانه ؛ لعدم التوقيف .

فعلم اليقين : هو اليقين ، وكذلك عين اليقين : نفس اليقين ، وحق اليقين : نفس اليقين[٢] .

فعلم اليقين ، على موجب اصطلاحهم[٣] ما كان بشرط البرهان .

وعين اليقين ما كان بحكم البيان[٤] .

وحق اليقين ما كان بنعت العيان[٥] .

فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم[٦]. وحق اليقين لأصحاب المعارف[٧] .

والكلام فى الإفصاح عن هذا بحال تحقيقه[٨] يعود إلى ما ذكرناه .

فاقتصرنا على هذا القدر ، على جهة التنبيه .

---

(١) فى نسخة : يداخل ، وهى الأظهر .

(٢) فالثلاثة فى اللغة بمعنى واحد واختلاف العبارات بينها إشارة إلى تفاوت القوة فيها .

(٣) أى الصوفية .

(٤) أى بطريق الكشف .

(٥) أى بطريق المشاهدة .

(٦) أى الذين ثبتت علومهم وتوالت على قلوبهم حتى استغنوا عن البرهان .

(٧) الذين غلب على قلوبهم ما شغلهم عن ذكر غير الله .

(٨) وفى نسخة أخرى « وللكلام فى الإفصاح عن هذا مجال وتحقيقه .. » .

ومن ذلك :

الـوارد

ويجرى فى كلامهم ذكر الواردات كثيرًا .

والوارد :

ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة ، مما لايكون بتعمد العبد ، وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر ، فهو أيضًا : وارد .

ثم قد يكون وارد من الحق ، ووارد من العلم .

فالواردات أعم من الخواطر ؛ لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب ، أو ما يتضمن معناه .

والواردات تكون : وارد سرور ، ووارد حزن ، ووارد قبض ؛ ووارد بسط ، إلى غير ذلك من المعانى[1] .

---

(١) يقول الشيخ العروسى : ذلك باعتبار حال السالك أما العارف : فهو دائما فى حال جمع الحقيقة لا إحساس له بشىء من سرور أو حزن فحينئذ يكون وارد السرور وضده من واردات العلم لا من وارد الحق .

ومن ذلك لفظ :

الشاهد

كثيرًا ما يجرى فى كلامهم لفظ : الشاهد :

فلان بشاهد[1] العلم ، وفلان بشاهد الوجد ، وفلان بشاهد الحال .

ويريدون بلفظ الشاهد : ما يكون حاضر قلب الإنسان ، وهو ما كان الغالب عليه ذكره ، حتى كأنه يراه ويبصره ، وإن كان غائبًا عنه . فكل ما يستولى على قلب صاحبه ذكره فهو شاهده فإن كان الغالب عليه العلم ، فهو بشاهد العلم .

وإن كان الغالب عليه الوجد ، فهو بشاهد الوجد .

ومعنى الشاهد : الحاضر ، فكل ما هو حاضر قلبك فهو شاهدك . وسئل الشبلى عن المشاهدة ، فقال :

ومن أين لنا مشاهدة الحق ؟ الحق لنا شاهد[2] .

أشار بشاهد الحق إلى المستولى على قلبه ؛ والغالب عليه من ذكر الحق والحاضر فى قلبه دائمًا من ذكر الحق .

ومن حصل له مع مخلوق تعلق بالقلب ، يقال : إنه شاهده ، يعنى : أنه حاضر قلبه ، فإن المحبة توجب دوام ذكر المحبوب ، واستيلائه عليه .

وبعضهم تكلف فى مراعاة هذا الاشتقاق فقال :

إنما سمى الشاهد من الشهادة[3] ، فكأنه إذا طالع شخصًا بوصف الجمال : فإن كانت بشريته ساقطة عنه ، ولم يشغله شهود ذلك الشخص عما هو به من الحال ، ولا أثرت فيه صحبته بوجه ، فهو شاهد له على فناء نفسه .

ومن أثر فيه ذلك ، فهو شاهد عليه فى بقاء نفسه .

---

(١) أى متلبس .

(٢) وفى نسخة « لنا شاهد الحق » .

(٣) بمعنى المعاينة .

وقيامه بأحكام بشريته إما شاهد له ، أو شاهد عليه .

وعلى هذا حمل قوله ﷺ : « رأيت ربى ليلة المعراج فى أحسن صورة » أى أحسن صورة رأيتهاتلك الليلة لم تشغلنى عن رؤيته تعالى ، بل رأيت المصور فى الصورة ، والمنشىء فى الإنشاء ويريد بذلك رؤية العلم ، لا إدراك البصر[1] :

(١) قال الأنصارى : أن صح الخبر فمحله أن رؤيته صل الله عليه وسلم لربه كانت فى أحسن صورة هو عليها لأنه تعالى خلق له من الإدراك الذى رأى به ربه المنزه عن الأجسام والصور والهيآت مالم يخلقه له قبل ، فتلك الصورة راجعة إلى حاله ﷺ التى حصه بها ربه من الإدراك السريف الذى نخلقه لأوليائه فى الدار الآخرة ويخصهم به ، وتكون الصورة معنوية لا حسبة .

ومن ذلك :

النفْس[١]

نفْس الشيء في اللغة : وجودُه .

وعند القوم : ليس المراد من إطلاق لفظ النفْس الوجودَ ، ولا القالب الموضوع[٢]. إنما أرادوا بالنفس : ما كان معلولا[٣] من أوصاف العبد ومذمومًا من أخلاقه وأفعاله .

ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين :

أحدهما : ما يكون كسبًا له ؛ كمعاصيه ومخالفاته .

والثاني : أخلاقه الدنيئة ، فهي في أنفسها مذمومة ، فإذا عالجها العبد ونازلها ، تنتفي عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على مستمر المادة .

والقسم الأوَّل من أحكام النفس : مانهى عنه نهى تحريم ، أونهىْ تنزيه .

وأما القسم الثاني ، من قسمي النفس : فسفساف الأخلاق ، والدنيء منها .

هذا حدُّه على الجملة . ثم تفصيلها[٤]: فالكبر ، والغضب ، والحقد ، والحسد ، وسوء الخلق ، وقلَّة الاحتمال ، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة .

وأشد أحكام النفس وأصعبها : توهمها أن شيئًا منها حسن ، أو أن لها استحقاق قدر ، ولهذا عُدَّ ذلك من الشرك الخفيّ .

ومعالجة الأخلاق في ترك النفس ، وكسرها ، أتم[٥] من مقاساة الجوع والعطش والسهر ، وغير ذلك من المجاهدات التي تتضمن سقوط القوة ، وإن كان ذلك أيضًا من جملة ترك النفس ، ويحتمل أن تكون النفس : لطيفة مودعة في هذا القالب ، هي محل الأخلاق المعلومة[٦] .

---

(١) بسكون الفاء .
(٢) أي الجسم .
(٣) أي ذا علة وصفة ذميمة .
(٤) أي الجملة .
(٥) أي : في طريق الوصول إلى المقصود حيث الخير كله في مخالفة النفس .
(٦) وفي نسخة المعلولة أي : المذمومة .

كما أن الروح : لطيفة ، مودعة فى هذا القالب هى محل الأخلاق المحمودة .

وتكون الجملة مسخرًا بعضها لبعض ، والجميع إنسان واحد .

وكون الروح ، والنفس ، من الأجسام اللطيفة فى الصورة ، ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة ، وكما يصح أن يكون البصر محلَّ الرؤية ، والأذن محلَّ السمع ، والأنف محلَّ الشم ، والفم محلَّ الذوْق ، والسميع ، والبصير والشامُّ ، والذائق إنما هى الجملة ، التى هى الإنسان فكذلك محل الأوصاف الحميدة : القلب والروح ، ومحل الأوصاف المذمومة : النفس ..

والنفس جزء من هذه الجملة ، والقلب جزء من هذه الجملة ، والحكم الاسم راجع إلى الجملة .

ومن ذلك :

الـروح

الأرواح مختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة :

فمنهم من يقول : إنها الحياة .

ومنهم من يقول : إنها أعيان مودعة فى هذه القوالب .

لطيفة :

أجرى الله العادة بخلق الحياة فى القالب ، مادامت الأرواح فى الأبدان ، فالإنسان حى بالحياة ، ولكن الأرواح مودعة فى القوالب ؛ ولها ترق[1] فى حال النوم ، ومفارقة للبدن ، ثم رجوع إليه .

وأن الإنسان : هو الروح ، والجسد ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ؛ سخر هذه الجملة بعضها لبعض ، والحشر يكون للجملة ، والمثاب والمعاقب الجملة .

والأرواح مخلوقة ، ومن قال بقدمها فهو مخطىء خطأً عظيمًا .

والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة .

---

(١) أى صعود عن البدن .

ومن ذلك :

السـرُّ

يحتمل أنها[١] لطيفة مودعة فى القالب ، كالأرواح .

وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة ، كما أن الأرواح محل للمحبة ، والقلوبَ محل للمعارف[٢] .

وقالوا : السر : مالك عليه إشراف ، وسر السرِّ : ما لا اطلاع عليه لغير الحق .

وعند القوم : على موجب مواضعاتهم[٣] ومقتضى أصولهم : السر ألطف من الروح ، والروح أشرف من القلب .

ويقولون : الأسرارُ معتْقة عن رقّ الأغيار من الآثار والأطلال .

ويطلق لفظ « السرِّ » على ما يكون مصونًا مكتومًا بين العبد والحق سبحانه ، فى الأحوال[٤]. وعليه يحمل قول من قال .

أسرارنا بكر لم يفتضَّها وهم واهم .

ويقولون :

صدور الأحرار قبورُ الأسرار .

وقالوا :

لو عرف زرِىّ سِرّى لطرحته .

فهذا طرف من تفسير إطلاقاتهم ، وبيان عباراتهم فيما انفردوا به من ألفاظ ذكرناها على شروط الإيجاز .

* * *

ونذكر الآن أبوابًا فى شرح المقامات التى هى مدارج[٥] أرباب السلوك ثمَّ بعدها أبوابًا[٦] فى تفضيل الأحوال على الجد الذى يسهله الله تعالى ، بفضله إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفى نسخة « أنه » .

(٢) قال العلامة علاء الدين القونوى : والظاهر أنها أسماء لحقيقة واحدة وهى اللطيفة الإنسانية ، لكنها تختلف باعتبارات مختلفة .. قال العروسى : وهو المتعين إذ لا دليل على هذا التقسيم .

(٣) اصطلاحاتهم .

(٤) أى الواردات على العبد .

(٥) عظيم تحت القلب .

(٦) طرق ؟

باب التوبة

قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيهَ المؤمنونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ ﴾[1] .

أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك ، رحمه الله ، قال : أخبرنا أحمد بن محمود بن خرَّاز قال : حدثنا محمد بن فضل بن جابر ، قال حدثنا سعيد بن عبدالله قال : حدثنا أحمد بن زكريا ، سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

« التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا أحبَّ الله عبدًا لم يضرّه ذنب ، ثم تلا : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾[2] ، قيل : يارسول الله ، وما علامة التوبة ؟ قال الندامةَ »[3] .

أخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان الأهوازى ، قال : أخبرنا أبو الحسين أحمد بن عبيد الصفار ، قال : أخبرنا محمد بن الفضل بن جابر قال : أخبرنا الحكم بن موسى ، قال : حدَّثنا غسَّان بن عبيد عن أبى عاتكة طريف بن سليمان ، عن أنس بن مالك . أن النبى ﷺ ، قال : « ما من شىء أحب إلى الله من شاب تائب »[4] .

فالتوبة أوَّل منزل من منازل السالكين .

وأوَّلُ مقام من مقامات الطالبين .

وحقيقة التوبة فى لغة العرب : الرجوع ، يقال : تاب أى رجع .

فالتوبة الرجوع عما كان مذمومًا فى الشرع إلى ما هو محمود فيه .

وقال النبى ﷺ : « الندم توبة » .

فأرباب الأصول من أهل السنَّة قالوا :

شرط التوبة ، حتى تصح ، ثلاثة أشياء :

---

(١) آية ٣١ من سورة النور .

(٢) آية ٢٢٢ من سورة آل عمران .

(٣) قال السيوطى : رواه أيضاً ابن النجار وحسنه وقد روى أوله ابن ما جه .

(٤) ذكره السيوطى فى جامعة من حديث طويل وقال : رواه أبو المظفر السمعانى فى أماليه عن سلمان وضعفه ، وله شواهد من الأحاديث الصحيحة .

النـدم على ما عمِل من المخالفات .

وترك الزَّلة فى الحال .

والعزمُ على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى .

فهذه الأركان لابد منها ، حتى تصحَّ توبته .

قال هؤلاء : وما فى الخبر أن « الندم توبة »[1] إنما نصَّ على معظمه كما قال ﷺ : « الحج عرفة » ، أى معظم أركانه عرفه ، أى الوقوف بها ، لا أنه لا ركن فى الحج سوى الوقوف بعرفات ، ولكن معظم أركانه الوقوف بها .

كذلك قوله « الندم توبة » أى معظم أركانها الندم .

ومن أهل التحقيق من قال : يكفى الندم فى تحقيق ذلك ؛ لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين فإنه يستحيل تقدير أن يكون نادمًا على ما هو مصر على مثله ؛ أو عازم على الإتيان بمثله .

وهذا معنى التوبة على جهة التحديد والإجمال .

فأما على جهة الشرح والإبانة ، فإن للتوبة أسبابًا وترتيبًا وأقسامًا .

فأول ذلك : انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة .

ويصل إلى هذه الجملة يالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق ، سبحانه ، يسمع قلبه ، فإنه جاء فى الخبر « واعظُ الله فى قلب كل امرئ مسلم » .

وفى الخبر : « إن فى البدن لمضغة إذا صلحَت صلح جميع البدن وإذا فسدت فسد جميع البدن ، ألا وهى : القلب »[2] .

فإذا فكر بقلبه فى سوء ما يصنعه ، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال ، سنح[3] فى قلبه إرادة التوبة ، والإقلاعُ عن قبيح المعاملات فيمدُّه الحق ، سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ فى جميل الرجعى ، والتأهب لأسباب التوبة :

فأوَّل ذلك :

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقى فى الشعب .

(٢) رواه الشيخان وأصحاب السنن .

(٣) خطر .

هجران إخوان السوء ؛ فإنهم هم الذين يحملونه على ردّ هذا القصد ويشوشون عليه صحة هذا العزم .

ولا يتم ذلك : إلا بالمواظبة على المشاهدة[1] التى تزيد رغبته فى التوبة وتوفّر دواعيه على إتمام ما عزم عليه ، مما يقوِّى خوفه ورجاءه : فعند ذلك تنحل من قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الأفعال ، فيقف عن تعاطى المحظورات ، ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات فيفارق الزلةَ فى الحال ، ويبرم العزيمة على أن لا يعود إلى مثلها فى الاستقبال .

فإن مضى على موجب قصده ، ونفذ بمقتضى عزمه فهو الموفق صدقا .

وإن نقض التوبة مرَّة أو مرات ، وتحمله إرادته على تجديدها فقد يكون مثل هذا أيضًا كثيرًا ، فلا ينبغى قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإن لكل أجل كتابًا .

حكى عن أبى سليمان الدارانى ، أنه قال :

اختلفت إلى مجلس قاض ، فأثر كلامه فى قلبى ، فلما قمت لم يبق فى قلبى منه شىء . فعدت ثانيًا ؛ فبقى أثر كلامه فى قلبى ، حتى رجعت إلى منزلى فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق .

فحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال :

عصفورًا اصطاد كركيًّا !! .

أراد بالعصفور ، ذلك القاص ، وبالكركىّ ، أبا سليمان الدارانى .

ويحكى عن أبى حفص الحدَّاد أنه قال :

تركت العمل كذا ، وكذا مرة ، فعدت إليه ، ثم تركنى العمل ، فلم أعد بعد إليه .

وقيل : إن أبا عمرو بن نجيد ، فى ابتداء أمره ، اختلفت إلى مجلس أبى عثمان[2] ، فأثرت فى قلبه كلامه ، فتاب .

ثم إنه وقعت له فترة ، فكان يهرب من أبى عثمان إذا رآه ، ويتأخر عن مجلسه فاستقبله أبو عثمان يومًا فحاد أبو عمرو عن طريقه ، وسلك طريقًا أخرى ، فتبعه أبو عثمان ، فمازال به يقفو أثره ، حتى لحقه ، فقال له :

---

(١) وفى نسخة المتاهد .

(٢) سعيد بن سلام الحرانى .

يابُنى ، لا تصحب من لا يحبك إلا معصومًا ، إنما ينفعك أبو عثمان فى مثل هذه الحالة ، قال : فتاب أبو عمرو بن نجيد ، وعاد إلى الإرادة[١]، ونفذ فيها .

سمعت الشيخ أبا علىٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

تاب بعض المريدين ، ثم وقعت له فترة[٢]، فكان يفكر وقتًا : لو عاد إلى توبته[٣] كيف حكمه ؟ فهتف به هاتف : يا فلان ، أطعتنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا قبلناك .

فعاد الفتى إلى الإرادة ، ونفذ فيها .

فإذا ترك المعاصى ، وحل عن قلبه عقدة الإصرار ، وعزم أن لا يعود إلى مثله ، فعند ذلك يخلص إلى قلبه صادق الندم ، فيتأسف على ما عمله ، ويأخذ فى التحسر على ما صنعه[٤] من أحواله ، وارتكبه من قبيح أعماله ، فتتم توبته ، وتصدق مجاهدته ، واستبدل[٥] بمخالطته العزلة ، وبصحبته مع إخوان السوء التوحش عنهم ، والخلوة دونهم ويصل ليله بنهاره فى التلهف[٦] ، ويعتنق فى عموم أحواله بصدق التأسف ، يمحو بصوب عبرته آثار عثرته ، ويأسو[٧] بحسن توبته كلوم[٨] حوبته[٩] ويعرف من بين أمثاله بذبوله ، ويستدل بصحة حاله بنحو له .

ولن يتم له شىء من ذلك إلا بعد فراغه من إرضاء خصومه ، والخروج عما لزمه من مظالمه ، فإن أول منزلة من[١٠] التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه ، فإن اتسع ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم ، أو سمحت أنفسهم بإحلاله والبراءة عنه[١١] ، وإلا فالعزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان والرجوعُ إلى الله سبحانه بصدق الابتهال والدعاء لهم .

وللتائبين صفات وأحوال :

هى من خصالهم ، يعدُّ ذلك[١٢] من جملة التوبة ، لكونها من صفاتهم ، لا لأنها من شرط صحتها ، وإلى ذلك تشير أقاويل الشيوخ فى معنى التوبة :

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول :

التوبة على ثلاثة أقسام :

---

(١) الحالة التى فتر عنها .
(٢) عودة إلى ما كان عليه قبل التوبة .
(٣) وفى نسخة « التوبة » .
(٤) وفى نسخة ضيعه » .
(٥) وفى نسخة « ويستبدل » .
(٦) أى التحسر .
(٧) يداوى .
(٨) جروح .
(٩) إثمه .
(١٠) وفى نسخة فى .
(١١) والأولى أن يقول عنها .
(١٢) أى مجموعها .

أوَّلها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة .

فجعل التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطتها .

فكلٌ من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة .

ومن تاب طمعًا فى الثواب ، فهو صاحب إنابة .

ومن تاب مراعاة للأمر[1] لا للرغبة فى الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة .

ويقال أيضًا : التوبة صفة المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

والإنابة : صفة الأولياء والمقرَّبين ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾[3] .

والأوبة : صفة الأنبياء والمرسلين ، قال الله تعالى ، ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[4] .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول :

التوبة على ثلاثة معان :

أولها : الندم ، والثانى العزم على ترك المعاوده إلى ما نهى الله عنه ، والثالث السعى فى أداء المظالم .

وقال سهل بن عبدالله : التوبة : ترك التسويف .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى ، يقول : سمعت أبا عبدالله القرشى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت الحارث يقول :

ما قلت قط ، اللهم إنأ أسألك التوبة ، ولكنى أقول : أسألك شهوة التوبة .

أخبرنا أبو عبدالله الشيرازى ، رحمه الله قال : سمعت أبا عبدالله بن مصلح ، بالأهواز يقول . سمعت ابن زيرى يقول : سمعت الجنيد يقول :

دخلت على السرّى يومًا فرأيته متغيرًا ، فقلت له : مالك ؟ .

---

(١) أى لامتثاله .

(٢) آية ٣١ من سورة النور .

(٣) آية ٣٣ من سورة ق .

(٤) آية ٣٠ من سورة ص و ٤٤ من سورة ص أيضًا .

فقال : دخل عليَّ شاب فسألني عن التوبة ، فقلت له : أن لا تنسى ذنبك !! . فعارضني ، وقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك .

فقلت : إن الأمر عندى ما قاله الشاب .

فقال : لِمَ ؟ قلت : لأنى إذا كنت فى حال الجفاء فنقلنى إلى حال الوفاء ؛ فذكر الجفاء فى حال الصفاء جفاء . فسكت .

سمعت أبا حاتم السجستانى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا نصر السراج الصوفى يقول سئل سهل ابن عبدالله عن التوبة ، فقال : أن لاتنسى ذنبك .

وسئل الجنيد عن التوبة فقال : أن لا تنسى ذنبك .

قال أبو نصر السراج : أشار سهل إلى أحوال المريدين والمتعرضين ، تارة لهم ، وتارة عليهم ، فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ، ودوام ذكره .

قال : وهو مثل ما سئل رويم عن التوبة ، فقال :

هى التوبة من التوبة .

وسئل ذو النُّون المصرى عن التوبة فقال :

توبة العوامِّ من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة .

وقال أبو الحسين النورى : التوبة أن تتوب من كل شىء سوى الله عز وجل .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفى يقول : سمعت عبدالله بن على بن محمد التميمى يقول : شتان ما بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات .

وقال الواسطى :

التوبة النصوح[1] لا تبقى على صاحبها أثرًا من المعصية سرا ولا جهرًا ومن كانت توبته نصوحًا لا يبالى كيف أمسى أو أصبح .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن إبراهيم بن الفضل الهاشمى يقول : سمعت محمد بن الرومى يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول :

---

(١) أى الخالصة .

إلهى ، لا أقول تبت ، ولا أعود لما أعرف من خلقى ، ولا أضمن ترك الذنوب لما أعرف من ضعفى ، ثم إنِّى أقول : لا أعود لعَلى أن أموت قبل أن أعود .

وقال ذو النون : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت النصر اباذى يقول : سمعت ابن يزدانيار يقول : وقد سئل عن العبد إذا خرج إلى الله على أىّ أصل يخرج ؟

فقال : على أن لا يعود إلى ما منه خرج ، ولا يراعى غير[1] من إليه خرج ، ويحفظ سرَّه عن ملاحظة ماتبرأ منه .

فقيل له : هذا حكم من خرج عن وجود ، فكيف حكم من خرج عن عدم ؟ .

فقال : وجودُ الحلاوة فى المستأنف[2] عوضًا عن المرارة فى السالف .

وسئل البوشنجى عن التوبة فقال :

إذا ذكرتَ الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فهو التوبة .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى لايكون لك قرار .. ثم تضيق عليك نفسك ، كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِم أَنْفُسُهمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلَّا إِلَيهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾[3] .

وقال ابن عطاء :

التوبة : توبتان : توبة الإنابة ، وتوبة الاستجابة .

فتوبة الإنابة : أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته .

وتوبة الاستجابة : أن يتوب حياءً من كرمه :

وقيل لأبى حفص : لم يبغض التائب الدنيا ؟ .

قال : لأنها دار باشر فيها الذنوب .

فقيل له : فهى أيضًا دار أكرمه الله فيها بالتوبة ؟ .

فقال : إنه من الذنب على يقين ، ومن قبول توبته على خطر[4] .

---

(١) وفى نسخة إلا .

(٢) أى المستقبل .

(٣) آية ١١٧ من سورة التوبه .

(٤) وفى نسخة « التوبة » .

وقال الواسطى : طرب داود عليه السلام ، وما هو فيه من حلاوة الطاعة أوقعه فى أنفاس متصاعدة[١]، وهو فى الحالة الثانية[٢] أتم منه فى وقت ما ستر عليه من أمره .

وقال بعضهم : توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم يعنى قول « أستغفر الله » .

وسئل أبو حفص عن التوبة ، فقال :

ليس للعبد فى التوبة شىء !! لأن التوبة إليه ، لا منه .

وقيل : أوحى الله سبحانه ،إلى آدم : يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة ، من دعانى منهم بدعوتك لبيّته كتلبيتك ، يا آدم أحشر التائبين ، من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب .

وقال رجل لرابعة : إنى أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت هل يتوب على ؟ فقالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

وأعلم[٣] أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٤] .

ومن قارف الزلة فهو من خطئه على يقين ، فإذا تاب ، فإنه من القبول على شك ، لا سيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقًا لمحبة الحق وإلى[٥] أن يبلغ العاصى محلًا يجد فى أوصافه أمارة محبة الله إياه مسافة بعيدة ، فالواجب إذن على العبد إذا علم أنه ارتكب ما تجب منه التوبة دوام الإنكسار ، وملازمة التنصل والاستغفار ، كما قالوا : « استشعار الوجل إلى الأجل » ، وقال عزَّ من قائل : ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[٦] .

وكان من سنته ﷺ : دوام الاستغفار ، وقال : ﷺ : « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » .

سمعت أبا عبدالله الصوفى يقول : سمعت الحسين بن على يقول : سمعت محمد بن أحمد يقول : سمعت عبدالله بن سهل يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول :

زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها :

---

(١) أى حزن طويل .

(٢) وفى نسخة ، وهو على حالته الثانية : وهى حالة حزنه .

(٣) وفى نسخة قال الأستاذ رضى الله عنه : واعلم .

(٤) آية ٢٢٢ من سورة البقرة .

(٥) أى والمسافة من حين التلبس بالمعصية إلى أن يبلغ المحل .

(٦) آية ٣١ سورة آل عمران .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا عبدالله الرازى يقول : سمعت أبا عثمان يقول فى قوله عزوجل ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾[١] قال : رجوعهم ، وإن تمادى بهم الجولان فى المخالفات .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : ركب على بن عيسى الوزير فى موكب عظيم فجعل الغرباء يقولون : من هذا ؟ من هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق :

إلى متى تقولون من هذا ؟ من هذا ؟! هذا عبد سقط من عين الله[٢] فابتلاه الله بما ترون . فسمع على بن عيسى ذلك ، فرجع إلى منزله واستعفى عن الوزارة ، وذهب إلى مكة وجاور بها .

---

(١) آية ٢٥ من سورة الغاشية .
(٢) أى من حفظه.

باب المجاهدة

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١] .

أخبرنا أبو الحسين على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال : أخبرنا العباس بن الفضل الإسقاطى ، قال : أخبرنا ابن كاسب قال أخبرنا ابن عيينة ، عن على بن زيد ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « سئل رسول الله ﷺ ، عن أفضل الجهاد ، قال : « كلمة عدل عند سلطان جائر »[٢] فدمعت عينا أبى سعيد .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٣] .

واعلم أن من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من ظن أن يفتح له شىء من هذه الطريقة ، أو يكشف له عن شىء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو فى غلط .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

من لم يكن له فى بدايته قومة ، لم يكن له فى نهايته جلسة .

وسمعته أيضًا يقول :

قولهم الحركة بركة : حركات الظواهر توجب بركات السرائر .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت الحسين بن علويه يقول : قال أبو يزيد البسطامى :

كنت ثنتى عشرة سنة حدّاد نفسى[٤] وخمس سنين كنت مرآة قلبى ، وسنة أنظر فيما بينهما ،

---

(١) آية ٦٩ من سورة العنكبوت :

(٢) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد ، وأحمد والطبرانى والنسائى عن غيره بلفظ كلمة حق .

(٣) آية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٤) يقصد أنه فى بدء أمره كان يجاهد نفسه كما يجاهد الحداد فى طرق الحديد وتشكيله وفق ما يريد .

فإذا فى وسطى زَنَّار[1] ظاهر ، فعملت فى قطعه ثنتى عشرة سنة .

ثم نظرت ، فإذا فى باطنى زُنار[2] فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه فكشف لى ، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفرًا يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول :

يا معشر الشباب ، جدوا قبل أن تبلغوا مبلغى فتضعفوا وتقصروا كما ضعفت وقصرت : وكان فى ذلك الوقت[3] لا يلحقه الشباب العبادة .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت عبدالعزيز النجرانى يقول : سمعت الحسن القزاز يقول :

بنى هذا الأمر[4] على ثلاثة أشياء :

أن لا تأكل إلا عند الفاقة ، ولا تنام إلا عند الغلبة ، ولا تتكلم إلا عند الضرورة .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : سمعت أحمد بن خضرويه يقول : سمعت إبرهيم بن أدهم يقول :

لن ينال الرجل درجة الصالحين ، حتى يجوز ست عقبات :

أولها : أن يغلق باب النعمة ، ويفتح باب الشدة .

والثانى : أن يغلق باب العز ، ويفتح باب الذلِّ .

والثالث : أن يغلق باب الراحة ؛ ويفتح باب الجهد .

والرابع : أن يغلق باب النوم ، ويفتح باب السهر .

والخامس : أن يغلق باب الغنى ، ويفتح باب الفقر .

والسادس : أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول سمعت جدى أبا عمرو بن نجيد يقول : من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه !! .

---

(١) خيط غليظ يشد به الذمى وسطه ويتمنطق به تمييزا له من المسلم .

(٢) يقصد ما وجده فى نفسه من استحسانه لأعماله وإعجابه بها فكان ذلك الإعجاب علامة الباطل كالزنار علامة الذمى .

(٣) وفى نسخة « السن » .

(٤) أى علم التصوف .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : إذا قال الصوفى بعد خمسة أيام أنا جائع ، فألزموه السوق ، وأمروه بالكسب .

واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها[١] : فطم النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها فى عموم الأوقات .

وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير : انهماك فى الشهوات ، وامتناع عن الطاعات فإذا جمحت عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى ، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى ، وإذا ثارت عند غضبها ، فمن الواجب مراعاة حالها ، فما من منازلة[٢] أحسن عاقبة من غضب يكسر سلطانه بخلق حسن ، وتخمد نيرانه برفق ، فإذا استحلت شراب الرعونة فضاقت ، إلا عن إظهار مناقبها والتزين لمن ينظر إليها ويلاحظها ، فمن الواجب كسر ذلك عليها ، وإحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها من حقارة قدرها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها .

وجهد العوام فى توفية الأعمال وقصد الخواص إلى تصفية الأحوال فإن مقاساة الجوع والسهر سهل يسير ، ومعالجة الأخلاق والتنقى[٣] من سفسافها[٤] صعب شديد .

ومن غوامض آفات النفس : ركونها إلى استحلاء[٥] المدح ، فإن من تحسى منه جرعة حمل السموات والأرضين على شفرة من أشفاره[٦] .

وأمارة ذلك : أنه إذا انقطع عنه ذلك الشرب[٧] آل حاله إلى الكسل والفشل .

وكان بعض المشايخ يصلى فى مسجده فى الصف الأول سنين كثيرة ، فعاقه يوما عن الابتكار إلى المسجد عائق ، فصلى فى الصف الأخير ، فلم ير بعد ذلك مدة ، فسئل عن السبب ، فقال : كنت أقضى صلاة كذا ، وكذا سنة صليتها وعندى أنى مخلص فيها لله ، فداخلنى يوم تأخرى عن المسجد من شهود الناس إياى فى الصف الأخير نوع خجل ، فعلمت أن نشاطى طول عمرى إنما كان رؤيتهم فقضيت صلواتى .

---

(١) ملاك الأمر بالكسر : قوامه .
(٢) نزول فى مرتبة .
(٣) وفى نسخة والترقى .
(٤) سفسافها : أى دنيئها .
(٥) وفى نسخة استجلاء .
(٦) أى أطراف أجفانه .
(٧) أى نصيبه من المدح .

ويحكى عن أبى محمد المرتعش ، أنه قال :

حججت كذا ، وكذا حجة على التجريد[١] ، فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبًا بحظى ؛وذلك : أن والدتى سألتنى يومًا أن أستقى لها جرَّة ماء فثقل ذلك على نفسى ، فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات كانت لحظ ، وشوب لنفسى ، إذ لو كانت نفسى فانية[٢] لم يصعب عليها ما هو حق فى الشرع .

وكانت امرأة قد طعنت فى السن ، فسئلت عن حالها ، فقالت :

كنت فى حال الشباب أجد من نفسى نشاطًا وأحوالاً ؛ أظنها قوة الحال ، فلما كبرت زالت عنى ، فعلمت أن ذلك كان قوة الشباب ، فتوهمتها أحوالا .

سمعت الشيخ أبا علىٍّ الدقاق يقول :

ما سمع هذه الحكاية أحد من الشيوخ إلا رقَّ لهذه العجوز ، وقال : إنها كانت منصفه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبدالله بن شاذان يقول : سمعت يوسف ابن الحسين يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه ، وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبدالله الرازى يقول : سمعت إبراهيم الخواص يقول : ما هالنى شىء إلا ركبته[٣] .

وسمعته يقول : سمعت عبدالله الرازىَّ يقول : سمعت محمد بن الفضل يقول ، الراحة : هو الخلاص من أمانى النفس .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : دخلت الآفة على الخلق من ثلاثة :

سقم الطبيعة ، وملازمة العادة ، وفساد الصحبة .

فسألته : ما سقم الطبيعة ؟

فقال : أكل الحرام .

---

(١) أى لا آخذ زادًا ولا راحلة مقياسا فيها الجوع والتعب .

(٢) أى عن حظها .

(٣) أى ما أفزعنى شىء يجوزه الشرع من سهر أو جوع أو نحو ذلك من ألوان المجاهدة إلا فعلته ومارسته .

فقلت : ما ملازمة العادة ؟

فقال : النظر ، والاستمتاع بالحرام ، والغيبة .

قلت : فما فساد الصحبة ؟

قال : كلما هاجت فى النفس الشهوة تبعتها .

وسمعته يقول : سمعت النَّصراباذى يقول :

سجنك نفسك . فإذا خرجت منها وقعت فى راحة أبدية[١] .

وسمعته يقول : سمعت محمد الفراء يقول : سمعت أبا الحسين الورّاق يقول :

كان أجل أحكامنا فى مبادئ أمرنا فى مسجد أبى عثمان الحيرى الإيثارُ بما يفتح علينا ، وأن لا نبيت على معلوم ، ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم لأنفسنا ، بل نعتذر إليه ، ونتواضع له ، وإذا وقع فى قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته والإحسان إليه حتى يزول .

وقال أبو حفص : النفس ظُلْمة كلها ، وسراجها سرها ، ونور سراجها التوفيقُ ، فمن لم يصحبه فى سرِّه[٢] توفيق من ربه كان ظلمة كلّه .

قال الأستاذ الإمام القشيرى :

معنى قوله « سراجها سرها » يريد : سرَّ العبد الذى بينه وبين الله تعالى ، وهو محل إخلاصه ، وبه يعترف العبد أن الحادثات بالله لا بنفسه ولا من نفسه ؛ ليكون متبرئا من حوْله وقوته على استدامة أوقاته ، ثم بالتوفيق يعتصم من شرور نفسه ، فإن من لم يدركه التوفيق لم ينفعه علمه بنفسه ، ولا بربه ، ولهذا قال الشيوخ : من لم يكن له سر فهو مُصر[٣] .

وقال أبو عثمان : لا يرى أحد عيب نفسه وهو مستحسن من نفسه شيئًا ، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها فى جميع الأحوال .

وقال أبو حفص : ما أسرع هلاك من لايعرف عيبه ، فإن المعاصى بريد[٤] الكفر .

وقال أبو سليمان : ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبت[٥] به .

وقال السرى : إياكم وجيران الأغنياء ، وقرّاء الأسواق ، وعلماء الأمراء :

وقال ذو النون المصرى : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء :

---

(١) وفى نسخة إلى الابد .
(٢) أى معاملته لربه .
(٣) أى على المخالفات .
(٤) طريق .
(٥) فاعتددت .

الأول : ضعف النية بعمل الآخرة .

والثانى : صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم .

والثالث : غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل .

والرابع : آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق .

والخامس : اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ ، وراء ظهورهم .

والسادس : جعلوا قليل زلَّات السلف حجة لأنفسهم ، ودفنوا كثير مناقبهم .

باب الخلوة والعزلة

أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدَّثنا عبدالعزيز بن معاوية قال : حدَّثنا القعنبى قال : حدثنا عبدالعزيز بن أبى حازم عن أبيه ، عن بعجة بن عبدالله بن بدر الجهنى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من خير معايش الناس كلِّهم رجلًا آخذًا بعنان فرسه فى سبيل الله ، إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن[1] فرسه يبتغى الموت أو القتل فى مظانه ، أو رجلًا فى غنيمة له فى رأس شعفة[2] من هذه الشعاف ، أو فى بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويعبُد ربَّه حتى يأتيه اليقين[3] ، ليس من الناس إلا فى خير »[4] .

قال الأستاذ :

الخلوة : صفة أهل الصفوة والعزلة : من أمارات الوصلة .

ولابد للمريد - فى ابتداء حاله - من العزلة عن أبناء جنسه ، ثم فى نهايته - من الخلوة ؛ لتحققه بأنسه .

ومن حَقِّ العبد - إذا آثر العزلة - أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شر الخلق ، فإن الأول من القسمين : نتيجة استصغار نفسه ، والثانى . شهود مزيته على الخلق ، ومن استصغر نفسه فهو متواضع ، ومن رأى لنفسه مزية على أحد ، فهو متكبر .

ورؤى بعض الرهبان ، فقيل له : إنك راهب .

فقال . لا ، بل أنا حارس كلب[5] ؛ إن نفسى كلب يعقر الخلق أخرجتها من بينهم ، ليسلموا منها .

ومرّ إنسان ببعض الصالحين ؛ فجمع ذلك الشيخ ثيابه منه ، فقال له الرجل : لم تجمع عنى ثيابك ، ليست ثيابى نجسة ؟

---

(١) ظهر .
(٢) رأس الجبل .
(٣) الموت .
(٤) رواه مسلم بنحوه .
(٥) يقصد نفسه .

فقال الشيخ : وهمتَ فى ظنك ، ثيابى هى النجسة . جمعتها عنك ؛ لئلا تنجس ثيابك ، لا لكى لا تنجس ثيابى .

ومن آداب العزلة :

أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده ، لكى لا يستهويه الشيطان بوساوسه ، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدى به فرضه ، ليكون بناء أمره على أساس محكم ، والعزلة فى الحقيقة : اعتزال الخصال المذمومة فالتأثير[1] لتبديل الصفات ، لا للتنائى عن الأوطان ، ولهذا قيل : من العارفُ ؟ قالوا : كائن بائن ، يعنى : كائن مع الخلق ، بائن عنهم بالسرّ .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقّاق ، رحمه الله ، يقول :

البس مع الناس ما يلبسون ، وتناول مما يأكلون ، وانفرد عنهم بالسر[2] .

وسمعته يقول : جاءنى إنسان ، وقال : جئتك من مسافة بعيدة فقلت : ليس هذا الحديث[3] من حيث قطع المسافة[4] ومقاساة الأسفار فارقْ نفسك ولو بخطوة ، فقد حصل مقصودك .

ويحكى عن أبى يزيد قال : رأيت ربى عزوجلَّ فى المنام ، فقلت : كيف أجدك ؟ فقال : فارقْ نفسك وتعال .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من اختار الخلوة على الصحبة ينبغى أن يكون خاليًا من جميع الأذكار إلا ذكر ربه ، وخاليًا من جميع الإرادات إلا رضا ربَّه ، وخاليًا من مطالبة النفس من جميع الأسباب ، فإن لم يكن بهذه الصفة ، فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية .

وقيل : الانفراد فى الخلوة أجمع لدواعى السلوة .

وقال يحيى بن معاذ : انظر : أنسك بالخلوة ، أو أنسك معه فى الخلوة ،

فإن كان أنسك بالخلوة ذهب أنسك إذا خرجت منها ، وإن كان أنسك به فى الخلوة استوت لك الأماكن فى الصحارى والبرارى .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الورّاق ، فلما أراد أن يرجع ، قال له : أوصنى ، فقال وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة ، وشرَّهما فى الكثرة والاختلاط .

---

(١) أى تأثير العزلة .

(٢) أى فيما بينك وبين الله .

(٣) أى حصول علم الصوفية .

(٤) وفى نسخة المسافات .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت الجريرى وقد سئل عن العزلة ، فقال : هى الدخول بين الزحام وتمنع[١] سرك أن لا يزاحموك ، وتعزل نفسك عن الآثام ، ويكون شرك مربوطا بالحق .

وقيل ؛ من آثر العزلة[٢] حصل العزلة[٣] .

وقال سهل : لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله .

وقال ذو النون المصرى : لم أر شيئًا أبعث على الإخلاص من الخلوة .

وقال أبو عبدالله الرملى :

ليكن خدنك[٤] الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة فإما أن تموت ؛ وإما أن تتصل بالله سبحانه .

وقال ذو النون : ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة ، كمن احتجب عنهم بالله .

سمعت أبا عبدالرحمن السلمى يقول سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول :

مكابدة العزلة أيسرُ من مداراة الخلطة .

وقال مكحول : إن كان فى مخالطة الناس خير فإن فى العزلة السلامة .

وقال يحيى بن معاذ : الوحدة جليس الصديقين .

سمعت الشيخ أبا على الدقاق[٥] يقول : سمعت الشبلى يقول :

الإفلاس .. الإفلاس يا ناس .

فقيل له : يا أبا بكر ، ما علامة الإفلاس ؟

قال : من علامة الإفلاس الاستئناس بالناس .

وقال يحيى بن أبى كثير : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راياهم[٦] .

---

(١) وفى نسخة « وتحفظ » .

(٢) أى فراغ القلب عن الشواغل ولو مع الاختلاط .

(٣) أى فراغ القلب من الناس لامتلائه بالله .

(٤) أى رفيقك .

(٥) فى نسخة سمعت أبا عبدالرحمن يقول : سمع أبو بكر الشبلى يقول :

(٦) من المراءاة وهى المداهنة .

وقال شعيب بن حرب . دخلت على مالك بن مسعود بالكوفة ، وهو فى داره وحده ، فقلت له : أما تستوحش وحدك ؟

فقال : ما كنت أرى[1] أن أحدًا يستوحش مع الله .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول :

من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح بدنه وقلبه ، فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : قال أبو يعقوب السوسى :

الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء ، ولأمثالنا : الاجتماع أوفر وأنفع ، يعمل بعضهم على رؤية بعض[2] .

وسمعته يقول : سمعت أبا عثمان سعيد بن أبى سعيد يقول : سمعت أبا العباس الدامغانى يقول : أوصانى الشبلى ، فقال :

الزم الوحدة ، وامح اسمك عن القوم ، واستقبل الجدار[3] حتى تموت .

وجاء رجل إلى شعيب بن حرب ، فقال له : ما جاء بك ؟

فقال أكون معك .

قال : يا أخى ، إن العبادة لا تكون بالشركة ، ومن لم يستأنس بالله لم يستأنس بشىء ، حكى أن بعضهم قيل له : ما أعجب ما لقيت فى سياحتك ؟

فقال لهم : لقيتى الخضر ، فطلب منى الصحبة : فخشيت أن يفسد على توكلى .

وقيل لبعضهم : هل هنا أحد تستأنس به ؟

فقال : نعم ومد يده إلى مصحفه ووضعه فى حجره ، وقال : هذا .

وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى لا تفارق مضجعى
وفيها شفاء للذى أنا كاتم

---

(١) أى أظن .
(٢) فتدفعهم الرؤية للعمل .
(٣) القبلة .

وقال رجل لذى النون المصرى .

متى تصح لى العزلة ؟

فقال : إذا قويت على عزلة نفسك[1] .

وقيل لابن المبارك : ما دواء القلب ؟

فقال : قلة الملاقاة للناس .

وقيل : إذا أراد الله أن يَنقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصره بعيوب نفسه ، فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة .

---

(١) وعزلتها بمفارقة أخلاقها الذميمة .

باب التقـوى

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[١] .

وأخبرنا أبو الحسين على بن أحمد بن عبدان ، قال أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال : أخبرنا محمد بن الفضل بن جابر قال : حدثنا ابن عبدالأعلى القرشي ، قال : حدثنا يعقوب العمى ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبى سعيد الخدرى قال :

جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال :

يانبىَّ الله ، أوصنى .

فقال : عليك بتقوى الله ؛ فإنه جِماع[٢] كلِّ خير ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية[٣] المسلم ، وعليك بذكر الله ، فإنه نور لك »[٤] .

وأخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، قال أخبرنا أحمد بن عبيد ، قال : أخبرنا عباس بن المفضَّل الإسقاطى ؛ قال : حدثنا أحمد بن يونس قال :

حدثنا أبو هرمز نافع بن هرمز ، قال : سمعت أنسا رضى الله عنه ؛ يقول : « قيل يانبى الله من آل محمد ؟ قال : كل تقى »[٥] .

فالتقوى جماع الخيرات .

وحقيقة الاتقاء[٦] التحرز بطاعة الله عن عقوبته ؛ يقال : اتقى فلان بترسه .

وأصل التقوى : اتقاء الشرك ؛ ثم بعده : اتقاء المعاصى والسيئات ، ثم اتقاء الشبهات ؛ ثم يدع بعده الفضلات[٧] .

كذلك سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ؛ يقول ، سمعته يقول :

---

(١) آية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) أى يجمع خيرى الدنيا والآخرة .

(٣) أى شعاره وانقطاعه للعبادة .

(٤) رواه أبو يعلى فى مسنده بسند ضعيف .

(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف .

(٦) وفى نسخة التقوى .

(٧) أى : الفضول ؛ وفى نسخة تدع .

ولكلٍّ قسم من ذلك باب ، وجاء فى تفسير قوله عزَّ وجل : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[١] إن معناه : أن يطاع فلا يعصى ؛ ويُذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت أحمد بن عاصم يقول : سمعت سهل بن عبدالله يقول :

لا معين إلاالله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه[٢] .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الكتانى يقول :

قسمت الدنيا على البلوى وقسمت الآخرة على التقوى :

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازىَّ يقول : سمعت الجريرى يقول :

من لم يُحْكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

وقال النصراباذى :

التقوى : أن يتقى العبد ما سوى الله عزَّ وجلَّ .

وقال سهل :

من أراد أن تصحَّ[٣] له التقوى فليترك الذنوب كلّها .

وقال النصراباذى :

من لزِم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله سبحانه يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٤] .

وقال بعضهم : من تحقق فى التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا .

وقال أبو عبدالله الروذبارى :

التقوى : مجانبة ما يبعدك عن الله .

---

(١) آية ١٠٢ من سورة آل عمران .
(٢) أى على العمل .
(٣) وفى نسخة يفتح .
(٤) آية ٣٢ من سورة الأنعام .

وقال ذو النون المصرى :

التقى : من لايدنس ظاهره بالمعارضات ، ولا باطنه بالعلالات[1] ويكون واقفًا مع الله موقف الاتفاق .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : سمعت ابن عطاء يقول :

للتقوى ظاهر وباطن ، فظاهره : محافظة الحدود . وباطنه النية والإخلاص .

وقال ذو النون :

ولا عيش[2] إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وقيل : يستدل على تقوى الرجل بثلاث :

حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر على ما قد فات .

وقال طلق بن حبيب :

التقوى : عمل بطاعة الله على نور من الله ، مخافة عقاب الله .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، يقول : سمعت محمدًا الفراء يحكى عن أبى حفص[3] : أنه قال : التقوى بالحلال المحض ، لا غير .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا الحسين الزنجانى يقول : من كان رأس ماله التقوى كلَّت الألسنُ عن وصف ربحه .

وقال الواسطى :

التقوى : أن يتقى من تقواه ، يعنى : من رؤية تقواه . والمتقى مثل ابن سيرين ؛ اشترى أربعين حبا[4] سمنا ، فأخرج غلامه فأرة من حب فسأله : من أى حب أخرجتها ؟ فقال لا أدرى !! فصبها كلها على الأرض .

ومثل ابن يزيد[5] :

اشترى بهمذان حب القرطم ، ففضل منه شىء ، فلما رجع إلى « بسطام » رأى فيه نملتين ، فرجع إلى همذان فوضع النملتين .

---

(١) وهى ما تعللت به .
(٢) المراد بالعيش الهنيىء .
(٣) وفى نسخة جعفر .
(٤) بضم أوله : أى خابية .
(٥) البسطامى .

ويحكى أن أبا حنيفة كان لا يجلس فى ظل شجرة غريمة . ويقول : قد جاء فى الخبر : « كلُّ قرض جر نفعًا فهو ربا » .

وقيل : إن أبا يزيد غسل ثوبه فى الصحراء مع صاحب له .

فقال له صاحبه : تعلق الثوب فى جدار[1] الكرم .

فقال لا ، لا تغرز الوتد فى جدار الناس .

فقال : نعلقه فى الشجر .

فقال : لا ، إنه يكسر الأغصان .

فقال : نبسطه على الأذْخِر[2] .

فقال : لا ؛ إنه علف الدواب ، لا نستره عنها .

فولى ظهره إلى الشمس والقميص على ظهره ، حتى جف جانب ، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر .

وقيل : إن أبا يزيد دخل يوما الجامع ، فغرز عصاه فى الأرض فسقطت ، ووقعت على عصا شيخ بجنبه ركز عصاه فى الأرض ، فألقتها ، فانحنى الشيخ وأخذ عصاه ، فمضى أبو يزيد إلى بيت الشيخ واستحله[3] ، وقال :

كان السبب فى انحنائك تفريطى فى غرز عصاى ، حيث احتجت إلى أن تنحنى .

ورؤى عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقا فى الشتاء ، فقيل له فى ذلك .

فقال : إنه مكان عصيت فيه ربى !! .

فسئل عنه فقال :

كشطت من هذا الجدار قطعة طين ، غسل بها ضيف لى يده ، ولم أستحل من صاحبه .

وقال إبراهيم بن أدهم :

بت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس ؛ فلما كان بعض الليل نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه : من ها هنا ؟

---

(١) وفى نسخة جدران .

(٢) نبت تأكله السائمة .

(٣) رجاه أن يسامحه .

فقال الآخر : إبراهيم بن أدهم .

فقال : ذاك الذى حط الله سبحانه درجة من درجاته .

فقال : لم ؟

قال : لأنه اشترى بالبصرة تمرًا ، فوقعت تمرة على تمرة من تمر البقال ، فلم يردها على صاحبها .

قال إبراهيم : فمضيت إلى البصرة ، واشتريت التمر من ذلك الرجل ، وأوقعت تمرة على تمرة ، ورجعت إلى بيت المقدس ، وبت فى الصخرة .

فلما كان بعض الليل ، إذ أنا بملكين[1] نزلا من السماء .

فقال أحدهما لصاحبه : من ها هنا ؟

فقال الآخر : إبراهيم بن أدهم : فقال : ذلك الذى رد الله مكانه ، ورفُعت درجته .

وقيل : التقوى على وجوه :

للعامة : تقوى الشرك ، وللخاصة[2] : تقوى المعاصى ، وللأولياء : تقوى التوسل بالأفعال ، وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال ؛ إذ تقواهم منه إليه .

وعن أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه ، قال

سادة الناس فى الدنيا الأسخياء ، وسادة الناس فى الآخرة الأتقياء .

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أبو الحسن البصرى قال : أخبرنا بشر بن موسى ، قال : حدثنا محمد بن عبدالله بن المبارك ، عن يحيى بن أيوب ، عن عبيدالله بن رحو ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ عن النبى ﷺ أنه قال :

« من نظر إلى محاسن امرأة فغض بصره فى أول مرة ، أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه »[3] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس محمد بن الحسين ، يقول : سمعت محمد ابن عبدالله الفرغانى يقول : كان الجنيد جالسًا مع رويم ، والجريرى ، وابن عطاء ، فقال الجنيد :

---

(١) وفى نسخة : بالملكين .

(٢) وفى نسخة للخواص .

(٣) رواه أحمد .

مانجا من نجا إلا لصدق اللجا[1] ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الذينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾[2] .. الآية .

وقال رويم ، رحمه الله : ما نجا من نجا إلا بصدق التقى ، قال تعالى : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الذينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ .. ﴾[3] .

وقال الجريرى : ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفاء[4] ، قال الله تعالى : ﴿ وَالذينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾[5] .

وقال ابن عطاء : ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء من الله قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى ﴾[6] .

وقال الأستاذ الإمام[7] : ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضاء ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾[8] الآية .

وقال أيضًا : ما نجا من نجا إلا بما سبق له من الاجتباء ، قال الله تعالى : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[9] .

---

(١) أى الالتجاء .
(٢) آية ١١٨ من سورة التوبة .
(٣) آية ٦١ سورة الزمر .
(٤) أى بالعهود .
(٥) آية ٢٠ من سورة الرعد .
(٦) آية ١٤ من سورة العلق .
(٧) أبو القاسم القشيرى .
(٨) آية ١٠١ من سورة الأنبياء .
(٩) آية ٨٧ من سورة الأنعام .

باب الورع

أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى ، قال : حدثنا محمد ابن داود بن سليمان الزاهد قال أخبرنا محمد بن الحسين بن قتيبة ، قال : حدثنا أحمد بن أبي طاهر الخراساني . قال : حدثنا يحيى بن العيزار قال : حدثنا محمد بن يوسف الفريابيّ ، عن سفيان ، عن الأجلح ، عن عبد الله بن بريده ، عن أبي الأسود الدؤلي ، عن أبي ذرٍّ قال : قال رسول الله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] .

قال الأستاذ الإمام رضى الله عنه : أما الورع ، فإنه : ترك الشبهات .

كذلك قال إبراهيم بن أدهم : الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعنيك[2] هو ترك الفضلات .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام » . وقال ﷺ لأبي هريرة : « كن ورعًا تكن أعبد الناس »[3] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي ، يقول سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول :

كان أهل الورع فى أوقاتهم أربعة :

حذيفة المرتعش[4] ، ويوسف بن أسباط ، وإبراهيم بن أدهم ، وسليمان الخواص ، فنظروا فى الورع ، فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل[5] .

وسمعته يقول : سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سمعت الشبلى يقول : الورع أن تتورَّع عن كل ما سوى الله تعالى .

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما بسند صحيح .

(٢) أى والمراد بترك ما لايعنى فى الحديث السابق لرسول الله ﷺ هو ترك الفضلات أى ما لاتدعو إليه حاجة دينية وترك المحرم والمكروه ما فيه شبهة .

(٣) البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

(٤) فى نسخة . المرعشى .

(٥) أى فلما بالغوا فى تقصى الحلال من كسبهم ، ولم يقدروا على صفاته لجئوا حسب إمكانهم إلى القليل الصافى من ذلك الكسب .

وسمعته يقول : أخبرنا أبو جعفر الرازى قال : حدثّنا العباس بن حمزة قال : حدثنا أحمد ابن أبى الحوارى قال : حدثنا إسحق بن خلف ؛ قال :

الورع ، المنطق : أشد منه فى الذهب والفضة ، وَالزهد فى الرياسة : أشد منه فى الذهب والفضة ، لأنك تبدلها فى طلب الرئاسة .

وقال أبو سليمان الدارانى : الورع : أول الزهد ، كما أن القناعة : طرف من الرضا .

وقال أبو عثمان : ثواب الورع خفّة الحساب .

وقال يحيى بن معاذ : الورع : الوقوف على حدّ العلم من غير تأويل .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن داود الدينورى يقول . سمعت عبد الله بن الجّلاء يقول :

أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركَوته[1] ، ورشائه[2] ، ولم يتناول من طعام جلب من مصر[3] .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت على بن موسى التاهرنى يقول : وقع من عبد الله بن مروان فلس فى بئر قذرة ، فاكترى عليه بثلاثة عشر دينارًا حتى أخرجه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كان عليه اسم الله تعالى .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : سمعت بن علوية يقول : سمعت يحيى ابن معاذ يقول : الورع على وجهين :

ورع فى الظاهر ؛ وهو : أن لا يتحرك إلا لله تعالى .

وورع فى الباطن ، وهو : أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ :

من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء .

وقيل : من دق فى الدين نظره جل فى القيامة خطره[4] .

وقال ابن الجلاء : من لم يصحبه التقى فى فقره أكل الحرام النص[5] .

---

(١) بدلوه .
(٢) حبله .
(٣) أى من المدن .
(٤) قدره ومكانته .
(٥) الصرف .

وقال يونس بن عبيد : الورع : الخروج عن كل شبهة ، ومحاسبة النفس فى كل طرفة[١] .

وقال سفيان الثورى : ما رأيت أسهل من الورع : ماحاك[٢] فى نفسك[٣] تركته ، وقال معروف الكرخى : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذمّ .

وقال بشر بن الحارث : أشد الأعمال ثلاثة :

الجود فى القلّة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحقّ عند من يخاف منه ويرجى .

وقيل : جاءت أخت بشر الحافى إلى أحمد بن حنبل وقالت :

إنا نغزل على سطوحنا ، فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا ، أفيجوز لنا الغزل فى شعاعها ؟.

فقال أحمد : من أنت ؟ عافاك الله تعالى .

فقالت : أخت بشر الحافى .

فبكى أحمد وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلى فى شعاعها .

وقال على العطار : مررت بالبصرة فى بعض الشوارع ، فإذا مشايخ قعود وصبيان يلعبون ، فقلت : أما تستحون من هؤلاء المشايخ ؟!

فقال صبى من بينهم : هؤلاء المشايخ قل ورعهم فقلت هيبتهم .

وقيل : إن مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، فلم يصح له أن يأكل شيئًا من تمر البصرة ، ولا من رطبها ، حتى مات ولم يذقه ، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال :

يا أهل البصرة ، هذا بطنى ما نقص منه شىء ولا زاد فيكم .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : ألا تشرب من ماء زمزم ؟

فقال : لو كان لى دلو لشربت منه .

سمعت الأستاذ أبا الدقّاق يقول :

كان الحارث المحاسبى إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة ضربَ على رأس إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال .

---

(١) لحظة .

(٢) تحرك .

(٣) مما تكره أن يطلع عليه الناس .

وقال : إن بشرًا الحافىَّ دعى إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه ، فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه :

إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ ؟!

أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى الصوفى ، قال : سمعت عبد الله بن على بن يحيى التميمى قال سمعت أحمد بن محمد بن سالم بالبصرة يقول : سئل سهل بن عبد الله عن الحلال الصافى ، فقال : هو الذى لا يعصى الله تعالى فيه .

وقال سهل : الحلال الصافى : الذى لا ينسى الله تعالى فيه .

ودخل الحسن البصرى مكة ، فرأى غلامًا من أولاد على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه الحسن وقال له :

ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع . فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع !. فتعجب الحسن منه .

وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع السالم[1] خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .

وأوحى الله سبحانه ، إلى موسى ، عليه الصلاة والسلام : لم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع والزهد .

وقال : أبو هريرة : جلساء الله تعالى غدًا : أهل الورع والزهد .

وقال : سهل بن عبد الله : من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع !!

وقيل : حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم ، فقبض على مشامه[2] .

وقال : إنما ينتفع من هذا بريحه ، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين .

وسئل أبو عثمان الحيرى عن الورع ، فقال :

كان أبو صالح حمدون عند صديق له ، وهو فى النزع ، فمات الرجل ، فنفث أبو صالح فى السراج ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

إلى الآن كان الدهن له فى المسرجة ، ومن الآن صار للورثة . اطلبوا دهنا غيره .

---

(١) أى الخالص من الرياء والكبر .
(٢) أنفه .

وقال كهمس :

أذنبتُ ذنبًا أبكى عليه منذ أربعين سنة ؛ وذلك : أنه زارنى أخ لى ؛ فاشتريت لأجله بدانق سمكة مشوية ، فلما فرغ أخذت قطعة طين من جدار[1] جار لى حتى غسل بها يده ولم أستحله .

وقيل : كان رجل يكتب رقعة ، وهو فى بيت بكراء ، فأراد أن يُترب الكتاب من جدار البيت ، فخطر بباله أن البيت بالكراء .. ثم إنه خطر بباله أنه لا خطر لهذا ، فترب الكتاب ، فسمع هاتفًا يقول : سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غدًا من طول الحساب !!

ورهن أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى ، سِطلا له عند بقال بمكة .

حرسها الله تعالى ، فلما أراد فكاكه أخرج البقال إليه سطلين ، وقال : خذ أيهما هو لك .

فقال أحمد أشكل علىَّ سطلى ، فهو لك ، والدراهم لك .

فقال البقال : سطلك هذا ، وأنا أردت أن أجربك .

فقال : لا آخذه . ومضى . وترك السطل عنده .

وقيل : سيب ابن المبارك دابة قيمتها كثيرة ، وصلى صلاة الظهر ، فرتعت الدابة فى زرع قرية سلطانية[2] ، فترك ابن المبارك الدابة ولم يركبها .

وقيل : رجع ابن المبارك من « مرو » إلى « الشام » فى قلم[3] استعاره فلم يرده على صاحبه .

واستأجر النخعى دابة ، فسقط سوطه من يده ، فنزل ، وربط الدابة ، ورجع فأخذ السوط ، فقيل له : لو حولت الدابة إلى الموضع الذى سقط فيه السوط فأخذته كان أسهل لك فقال : إنما استأجرتها لأمضى هكذا .. لا هكذا !.

وقال أبو بكر الدقاق :

تهت فى تيه بنى إسرائيل خمسة عشر يومًا .. فلما وافيت الطريق ، استقبلنى جندى فسقانى شربة من ماء ، فعادت قسوتها على قلبى وتألمت ثلاثين سنة .

وقيل : خاطت رابعة العدوية شقا فى قميصها فى ضوء مشعلة سلطان ، ففقدت قلبها[4] زمانًا ، حتى تذكرت ، فشقت قميصها ، فوجدت قلبها .

---

(١) وفى نسخة من دار .
(٢) أى زرعت بأموال السلطان .
(٣) أى بسبب .
(٤) أى حضوره .

ورؤى سفيان الثورى فى المنام ، وله جناحان يطير بهما فى الجنة من شجرة إلى شجرة .

فقيل له : بم نلت هذا ؟ : فقال : بالورع .

ووقف حسان بن أبى سنان على أصحاب الحسن ، فقال : أى شىء أشد عليكم ؟

فقالوا : الورع .

فقال : ولا شىء أخف على منه .

فقالوا : فكيف ؟

فقال : لم أرو من نهركم منذ أربعين سنة .

وكان حسان بن أبى سنان لا ينام مضطجعًا ، ولا يأكل سمينا ، ولا يشرب ماء باردًا ستين سنة ، فرؤى فى المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟. فقال : خيرًا ، إلا أنى محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها .

وكان لعبد الواحد بن زيد غلام خدمه سنين ، وتعبَّد أربعين سنة : وكان فى ابتداءِ أمره كيالاً ، فلما مات رؤى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟.

فقال : خيرًا ، غير أنى محبوس عن الجنة ، وقد أخرج[1] على من غبار القفيز الذى اكتلته أربعين قفيزًا[2] .

ومر عيسى ابن مريم ؛ عليهما السلام بمقبرة ، فنادى رجلًا منها ، فأحياه الله تعالى :

فقال : من أنت ؟

فقال كنت حمالاً أنقل للناس ، فنقلت لإنسان يومًا حطبًا ، فكسرت منه خلالاً تخللت به فأنا مطالب به منذ مت .

وتكلم أبو سعيد الخراز فى الورع .. فمر به عباس بن المهتدى ، فقال :

يا أبا سعيد ، أما تستحى ، تجلس تحت سقف أبى الدوانيق ، وتشرب من بركة زبيدة ، وتتعامل بالدراهم المزيفة ، وتتكلم فى الورع ؟!.

---

(١) أى أظهر الله .

(٢) القفيز : مكيال وذلك لأن الكيال إذا اكتال ما فيه تراب حصل التراب فى أسفل الكيل ، فإن لم ينفضه فى الحال واكتال به مرة أخرى تزايد التراب وحصل بواسطته فى المدة الطويلة نقص كثير فيما يكال فحبس عنه الجنة بسبب ذلك .

باب الزهد

أخبرنا حمزة بن يوسف السهمى الجرجانى ، قال : أخبرنا أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن يعقوب المقرى ببغداد ، قال : حدثنا جعفر بن مجاشع قال : حدثنا زيد بن إسماعيل قال : حدثنا كثير بن هشام قال : حدثنا الحكم بن هشام ، عن يحيى بن سعيد ، عن أفروة ، عن أبى خلاد - وكانت له صحبة - قال : قال النبى ﷺ :

« إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدًا فى الدنيا ، ومنطقا ، فاقتربوا منه ، فإنه يلقن الحكمة »[1] .

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم ، رحمه الله :

اختلف الناس فى الزهد[2] ، فمنهم من قال .

الزهد فى الحرام ، لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى ، فإذا أنعم الله على عبده بمال من حلال ، وتعبده بالشكر عليه ، فتركه له باختياره . لا يقدم[3] على إمساكه له بحق إذنه[4] .

ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب ، وفى الحلال فضيلة ، فإن إقلال المال - والعبد صابر فى حاله ، راض بما قسم الله تعالى له ، قانع بما يعطيه - أتم من توسعه وتبسطه فى الدنيا فإن الله تعالى زهد الخلق فى الدنيا بقوله : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَن اتَّقى ﴾[5] وغير ذلك من الآيات الواردة فى ذم الدنيا والتزهيد فيها .

ومنهم من قال : إذا أنفق العبد ماله فى الطاعة وعلم من حاله الصبر ، وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه فى حال العسر ، فحينئذ يكون زهده فى المال الحلال أتم .

ومنهم من قال : ينبغى للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه ، ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعى القسمة ، فإن رزقه الله ، سبحانه وتعالى مالاً من حلال شكره ، وإن وقفه الله

---

(١) رواه ابن ماجه بنحوه وفيه ضعف .

(٢) لا من حيث معناه ، بل من متعلق حكمه .

(٣) أى فالأمر إلى سواء لا أولوية لأحدهما على الآخرفتركه مثل إمساكه فى الفضيلة (العروسى) .

(٤) فلا يكون تركه زهدًا .

(٥) آية ٧٧ من سورة النساء .

تعالى ، على حد الكفاف لم يتكلف فى طلب ما هو فضول المال ، فالصبر أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال الحلال .

وتكلموا فى معنى الزهد :

فكل نطق عن وقته ، وأشار إلى حدِّه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : حدثنا أحمد بن إسماعيل الأزدى قال : حدثنا عمران بن موسى الإسفنجى قال : حدثنا الدروقى قال : حدثنا وكيع قال : قال سفيان الثورى :

الزهد فى الدنيا : قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباء .

وسمعته يقول : سمعت سعيد بن أحمد يقول : سمعت عباس بن عصام يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى السقطى يقول :

إن الله سبحانه ، سلب الدنيا عن أوليائه ، وحماها[1] عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده ، لأنه لم يرضها لهم .

وقيل : الزهد من قوله[2] سبحانه وتعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم[3] ﴾ .

فالزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا ، ولا يتأسف على مفقود منها .

وقال أبو عثمان : الزهد : أن تترك الدنيا ثم لا تبالى بمن أخذها[4] .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق يقول :

الزهد : أن تترك الدنيا كما هى ، لا تقول أبنى بها رباطًا أو أعمر مسجدًا .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد : يورث السخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالروح ، وقال ابن الجلاء : الزهد : هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال ، لتصغر فى عينك فيسهل عليك الإعراض عنها .

وقال ابن خفيف : علامة الزهد : وجود الراحة فى الخروج عن الملك .

---

(١) أمسكها .

(٢) أى مأخوذ

(٣) آية ٢٣ من سورة الحديد .

(٤) وفى نسخة : الزاهد : الذى يترك الدنيا ثم لا يبالى من أخذها .

وقال أيضًا : الزهد : سلو القلب عن الأسباب ، ونفض الأيدى من الأملاك .

وقيل الزهد : عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت النصر أباذى يقول :

الزاهد : غريب فى الدنيا ، والعارف غريب فى الآخرة .

وقيل : من صدق فى زهده أتته الدنيا راغمة .

ولهذا قيل : لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدها .

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عمًّا خلت منه اليد .

وقال أبو سليمان الدارنى : الصوف علم من أعلام الزهد ، فلا ينبغى للزاهد أن يلبس صوفًا بثلاثة دراهم ، وفى قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقد اختلف السلف فى الزهد[1] :

فقال سفيان الثورى ، وأحمد بن حنبل ، وعيسى بن يونس ، وغيرهم : الزهد فى الدنيا : إنما هو قصر الأمل .

وهذا الذى قالوه يحمل[2] على أنه من أمارات الزهد ، والأسباب الباعثة عليه والمعانى الموجبة له .

وقال عبد الله بن المبارك : الزهد : هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر .

وبه قال شقيق البلخى ، ويوسف بن أسباط وهذا أيضًا من أمارات الزهد ، فإنه لا يقوى العبد على الزهد ، إلا بالثقة بالله تعالى .

وقال عبد الواحد بن زيد : الزهد : ترك الدينار والدرهم[3] .

وقال أبو سليمان الدارنى : الزهد : ترك ما يشغل عن الله سبحانه وتعالى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على يقول : سمعت إبراهيم ابن فاتك يقول : سمعت الجنيد يقول ، وقد سأله رويم عن الزهد ، فقال :

هو استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب .

---

(١) أى : فى حقيقته وأسبابه .

(٢) أى فى العرف .

(٣) وفى نسخة « ونحوهما بقلبه » .

وقال سرى : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه[١] ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه[٢] .

وسئل الجنيد عن الزهد ، فقال : خلوُّ اليد من الملك ، والقلب من التتبع .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : أن تزهد فيما سوى الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ :

لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاثُ خصال :

عمل بلا علاقة[٣] ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة .

وقال أبو حفص : الزهد لا يكون إلا فى الحلال ، ولا حلال في الدنيا ، فلا زهد .

وقال أبو عثمان : إن الله تعالى يعطى الزاهد فوق ما يريد ، ويعطى الراغب دون ما يريد ، ويعطى المستقيم موافقة ما يريد .

وقال يحيى بن معاذ : الزاهد يسعطك[٤] الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر .

وقال الحسن البصرى : الزهد فى الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها .

وقيل لبعضهم : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : ترك ما فيها على من فيها .

وقال رجل لذى النون المصرى : متى أزهد فى الدنيا ؟ .

فقال : إذا زهدت فى نفسك .

وقال محمد بن الفضل : إيثار الزهاد عند الاستغناء ، وإيثار الفتيان عند الحاجة ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَو كان بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٥] .

وقال الكتانى : الشيء الذى لم يخالف فيه كوفى ولا مدنى ولا عراقى ، ولا شامى : الزهد فى الدنيا ، وسخاوة النفس ، والنصيحة للخلق ، يعنى أن هذه الأشياء لا يقول أحد إنها غير محمودة .

وقال رجل ليحيى بن معاذ : متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزاهدين ؟ .

---

(١) أى بغيرها من شهوات الدنيا .
(٢) أى عن مولاه .
(٣) أى خالصًا لله تعالى لا لعلة دنيوية .
(٤) أى : أدخل فى أنفك .
(٥) آية ٩ من سورة الحشر .

فقال : إذا صرت من رياضتك فى السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك .

فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح بينهم !!.

وقال بشر الحافى : الزهد : ملك لا يسكن إلا فى قلب مخلى[١] .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت بن محمد بن الأشعث البيكندى يقول :

من تكلم فى الزهد ، ووعظ الناس ، ثم رغب فى مالهم ، رفع الله تعالى حب الآخرة من قلبه .

وقيل : إذا زهد العبد فى الدنيا وكل الله تعالى به ملكا يغرس الحكمة فى قلبه .

وقيل : لبعضهم : لم زهدت فى الدنيا ؟ فقال : لزهدها فىّ .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه :

ترك الحرام ، وهو : زهد العوام :

والثانى : ترك الفضول من الحلال ، وهو : زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى ، وهو : زهد العارفين .

سمعت الأستاذ أبا على الدّقاق ، يقول :

قيل لبعضهم : لم زهدت فى الدنيا ؟ .

قال : لما زهدت فى أكثرها أنفت من الرغبة فى أقلها .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس المجلوة ، ومن يطلبها ما شطتها والزاهد فيها يسخم وجهها ، وينتف شعرها ، ويحرق[٢] ثوبها ، والعارف مشتغل بالله تعالى ، لا يلتفت إليها .

سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول : سمعت : أبا الطيب السامرى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول :

---

(١) أى ألا يتحقق إلا فى قلب انقطع طمعه عن الدنيا وتخلى عنها .

(٢) وفى نسخة : ويخرق .

ملوست كل شيء من أمر الزهد ، فنلت منه ما أريد ، إلا الزهد فى الناس ، فإنى لم أبلغه ، ولم أطقه .

وقيل . ما خرج الزاهدون إلا إلى أنفسهم ، لأنهم تركوا النعيم الفانى للنعيم الباقى .

وقال النصراباذى : الزاهد حقن دماء الزاهدين ، وسفك دماء العارفين .

وقال حاتم الأصم . الزاهد يذيب كيسه قبل نفسه ، والمتزاهد يذيب نفسه قبل كيسه .

سمعت محمد بن عبد الله يقول : حدثنا على بن الحسين الموصلى قال : حدثنا أحمد بن الحسين قال : حدثنا محمد بن الحسن قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

جعل الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد .

باب الصمت

أخبرنا عبد الله بن يوسف الاصبهانى قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان قال : حدثنا أحمد بن يوسف السلمى قال : حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت »[1] .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا بشر بن موسى الأسدى قال : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى ، عن ابن المبارك ، عن يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن عقبة بن عامر قال : قلت :

« يارسول الله ، ما النجاة ؟

قال : احفظ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك »[2]

قال الأستاذ رحمه الله : الصمت سلامة ، وهو[3] الأصل . وعليه ندامة إذا ورد عنه الزجر[4] فالواجب : أن يعتبر فيه الشرع ، والأمر والنهى .

والسكوت فى وقته : صفة الرجال ، كما أن النطق فى موضعه من أشرف الخصال .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس .

والصمت : من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى - خبرًا عن الجن بحضرة الرسول ﷺ - : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا .. ﴾[6] .

---

(١) رواه أحمد والشيخان وغيرهما .

(٢) رواه الترمذى وقال حسن .

(٣) وفى نسخة (وهى) أى السلامة .

(٤) لكون النطق مطلوبا .

(٥) آية ٢٠٤ من سورة الأعراف .

(٦) آية ٢٩ من سورة الأحقاف .

وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسا ﴾[١] .

وكم بين عبد يسكت تصاونًا عن الكذب والغيبة ، وبين عبد يسكت لاستيلاء سلطان الهيبة عليه ، وفى معناه أنشدوا :

أفكر ما أقول إذا افترقنا   وأحكم[٢] دائبًا حجج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا   فأنطق ، حين أنطق ، بالمحال[٣]

وأنشدوا :

فياليل[٤] كم من حاجة لى مهمة   إذا جئتكم لم أدر ياليل ما هيا

وأنشدوا :

وكم حديث لك حتى إذا   مكنت من لقياك أنسيته

وأنشدوا :

رأيت الكلام يزين الفتى   والصمتُ خير لمن قد صمت
فكم من حروف تجر الحتوف   ومن ناطق ود أن لو سكت

والسكوت على قسمين : سكوت بالظاهر ، وسكوت بالقلب والضمائر .

فالمتوكل : يسكت قلبه عن تقاضى الأرزاق .

والعارف : يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق .

فهذا بجميل صنعه واثق ، وهذا بجميع حكمه قانع .

وفى معناه قالوا :

تجرى عليك صروفه   وهموم سرك مطرقه[٥]

وربما يكون سبب السكوت حيرة البديهة ، فإنه إذا ورد كشف عن وصف البغتة خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ، ولا نطق . وطمست الشواهد هنالك ، فلا علم ، ولاحس .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا[٦] ﴾ .

---

(١) آية ١٠٨ من سورة طه .
(٢) أتقن .
(٣) ما لايفيد الغرض .
(٤) اسم محبوبته « ليلى » .
(٥) راضية .
(٦) آية ١٠٩ من سورة المائدة .

فأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت : فلما علموا ما فى الكلام من الآفات ، ثم ما فيه من حظ النفس ، وإظهار صفات المدح ، والميل إلى أن يتميز بين أشكاله[1] بحسن النطق ، وغير هذا من آفات فى الخلق ، وذلك نعت أرباب الرياضات ، وهو أحد أركانهم فى حكم المنازلة وتهذيب الخلق .

وقيل : إن داود الطائى ، لما أراد أن يعقد فى بيته اعتقد[2] أن يحضر مجالس أبى حنيفة ، رحمه الله ، إذ كان تلميذًا له ، ويقعد بين أقرانه من العلماء ، ولا يتكلم فى مسألة ، فلما قوَّى نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة ، قعد فى بيته عند ذلك وآثر العزلة .

وكان عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله ، إذا كتب كتابًا واستحسن لفظه مزق الكتاب وغيره .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : أخبرنا عبد الله بن محمد الرازى ، قال : حدثنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج قال : سمعت أحمد بن الفتح يقول : سمعت بشر بن الحارث يقول :

إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم .

وقال سهل بن عبد الله : لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .

وقال أبو بكر الفارسى : من لم يكن الصمت وطنه فهو فى الفضول وإن كان صامتًا ، والصمت ليس بمخصوص على اللسان ، لكنه على القلب والجوارح كلها .

وقال بعضهم : من لم يستغتم[3] السكوت فإذا نطق نطق بلغو .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبدالله بن شاذان يقول : سمعت ممشاد الدينورى يقول : الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكر .

وسئل أبو بكر الفارسى عن صمت السر فقال : ترك الاشتغال بالماضى والمستقبل .

وقال أبو بكر الفارسى : إذا كان العبد ناطقًا فيما يعنيه ، وفيما لابد منه ، فهو فى حد الصمت .

---

(١) أقرانه .
(٢) عزم .
(٣) أى يعرف فضيلته ويعده غنيمة .

روى عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، أنه قال :

كلم الناس قليلاً ، وكلم ربك كثيرًا ، لعل قلبك يرى الله تعالى .

وقيل لذى النون المصرى : من أصون الناس لقلبه[١] ؟ . قال : أملكهم للسانه .

وقال ابن مسعود : ما من شىء بطول السجن أحق من اللسان .

وقال على بن بكار : جعل الله تعالى لكل شىء بابين ، وجعل للسان أربعة أبواب : فالشفتان مصراعان ، الأسنان مصراعان .

وقيل : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، كان يمسك فى فيه حجرًا كذا كذا سنة ، ليقل كلامه .

وقيل : إن أبا حمزة البغدادى ، رحمة الله ، كان حسن الكلام ، فهتف به هاتف ، فقال له : تكلمت فأحسنت ، بقى أن تسكت فتحسن ؟ فما تكلم بعد ذلك حتى مات قريبا من هذه الحالة على رأس أسبوع ، أو أقلّ أو أكثر .

وربما يكون السكوت يقع على المتكلم[٢] تأديبًا له ، لأنه أساء أدبه فى شىء .

كان الشبلى إذا قعد فى حلقته ، ولا يسألونه ، يقول : ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ[٣] ﴾ .

وربمًا يقع السكوت على المتكلم ، لأن فى القوم من هو أولى منه بالكلام .

سمعت ابن السماك يقول : كان بين شاه الكرمانى ، ويحيى بن معاذ صداقة ، فجمعمها بلد ، فكان شاه لا يحضر مجلسه ، فقيل له فى ذلك : فقال : الصواب هذا . فمازالو به حتى حضر يومًا مجلسه ، وقعد ناحية لا يشعر به يحيى بن معاذ ، فلما أخذ يحيى فى الكلام سكت ، ثم قال : هاهنا من هو أولى بالكلام منى ، وأرتج[٤] عليه . فقال شاة : قلت لكم الصواب أن لا أحضُر مجلسه .

وربّما يقع السكوت على المتكلم لمعنى فى الحاضرين ، وهو أنه يكون هناك من ليس بأهل لسماع ذلك الكلام فيصون الله تعالى لسانَ المتكلم غيرة وصيانة لذلك الكلام عن غير أهله .

وربما كان سبب السكوت الذى يقع على المتكلم : أن بعض الحاضرين كان معلومُ الله تعالى

---

(١) فى نسخة لنفسه .

(٢) أى يطلب منه .

(٣) آية ٨٥ من سورة النمل .

(٤) تعذر عليه الكلام .

من حاله أنه يسمع ذلك الكلام ، فيكون فتنة له ، إما لتوهمه أنه وقته ولا يكون[١] ، أو لأنه يحمل نفسه ما لا يطيق فيرحمه الله ، عزَّ وجل ، بأن يحفظ سمعه عن ذلك الكلام ، إما صيانة له ، أو عصمة عن غلطه .

وقال مشايخ هذه الطريقة .

ربما يكون السبب فيه حضور من ليس بأهل لسماعه من الجن ، إذ لا تخلو مجالس القوم من حضور جماعة من الجن .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

اعتللت مرة « بمرو » فاشتقت أن أرجع إلى « نيسابور » .. فرأيت فى المنام . كأن قائلاً يقول لى : لا يمكنك أن تخرج من هذا البلد ، فإن جماعة من الجن قد استحلوا[٢] كلامك ، ويحضرون مجلسك ، فلأجلهم تجلس هاهنا .

وقال بعض الحكماء : إنما خلق للإنسان لسان واحد ، وعينان . وأذنان ، ليسمع ويبصر أكثر مما يقول :

ودعى إبراهيم بن أدهم إلى دعوة ، فلما جلس أخذوا فى الغيبة ، فقال : عندنا يؤكل اللحم بعد الخبز ، وأنتم ابتدأتم بأكل اللحم ؟ أشار إلى قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يأكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ، فَكَرِهْتُموه ﴾[٣] .

وقال بعضهم : الصمت ، لسان الحِلْم .

وقال بعضهم : تعلَّم الصمت ، كما تتعلم الكلام ، فإن كان الكلام يهديك فإن الصمت يقيك .

وقيل : عفة اللسان صمته .

وقيل : مثل اللسان مثل السبع إن لم تُوثقه عدا عليك :

وسئل أبو حفص : أى الحالين للولىِّ أفضل ؟ الصمت ، أو النطق ؟

فقال : لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع عمرَ نوح .

ولو علم الصامت ما آفة الصمت لسأل الله تعالى ، ضعفى عمر نوح حتى ينطق[١] .

---

(١) يتوهم أن هذا الكلام حاله أى المطلوب له ولا يكون الأمر كذلك .

(٢) انتفعوا به .

(٣) آية ١٢ من سورة الحجرات .

وقيل : صمت العوامِّ بألسنتهم ، وصمت العارفين بقلوبهم ، وصمت المحبين بالتحفظ من خواطر أسرارهم .

وقيل لبعضهم : تكلَّم فقال : ليس لى لسان فأتكلم .

فقيل له : اسمع ، فقال : ليس فىَّ مكان فأسمع .

وقال بعضهم : مكثت ثلاثين سنة لا يسمع لسانى إلا من قلبى ، ثم مكثت ثلاثين سنة لا يسمع قلبى إلا من لسانى .

وقال بعضهم : لو أسكت لسانك لم تنج من كلام قلبك ، ولو صرت رميا لم تتخلص من حديث نفسك ، ولو جهدت كلَّ الجهد لم تكلمك روحك ، لأنها كاتمة للسر .

وقيل : لسان الجاهل مفتاح حتفه .

وقيل : المحب : إذا سكت هلك ، والعارف إذا سكت مَلك .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول : سمعت محمد بن نصر الصائغ يقول : سمعت مردوية الصائغ يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه .

(١) أى فلكل من النطق والصمت ضرر ؛ فعلى المكلف العمل فيهما بالهدى المحمدى ليغنم أو يسلم .

باب الخوف

قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُون رَبَّهم خَوفا وطَمَعا ﴾[١] .

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد عبدوس الحيرى العدل ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن دلوية الدقاق قال : حدثنا محمد بن يزيد قال : حدثنا عامر بن أبى الفرات قال : حدثنا المسعودى ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن عيسى بن طلحة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى ، حتى يلج[٢] اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى عَبْدٍ أبدًا » .

حدثنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن ابراهيم المهرجانى قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن الشرقى ، قال : حدثنا عبدالله بن هاشم قال : حدثنا يحيى بن سعيد القطان قال : حدثنا شعبة قال : حدثنا قتادة ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرًا »[٣] .

قلت الخوف : معنى متعلقه فى المستقبل ، لأنه إنما يخاف أن يحلَّ به مكروه أو يفوته محبوب . ولا يكون هذا إلا لشىء يحصل فى المستقبل .

فأما ما يكون فى الحال موجودًا ، فالخوف لا يتعلق به .

والخوف من الله تعالى ، هو : أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إمّا فى الدنيا ، وإما فى الآخرة . وقد فرض الله ، سبحانه ، على العباد أن يخافوه ، فقال تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾[٤] .

---

(١) آية ١٦ من سورة السجدة .
(٢) يدخل والحديث رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .
(٣) رواه أحمد والشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٤) آية ١٧٥ من سورة آل عمران .

وقال : ﴿ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ[١] ﴾ ، ومدح المؤمنين بالخوف ، فقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[٢] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

الخوف على مراتب : الخوف ، والخشية ، والهيبة .

فالخوف من شرط الإيمان وقضيته . قال الله تعالى : ﴿ وَخَافُون إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين[٣] ﴾ .

والخشية من شرط العلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِه الْعُلَماءُ ﴾[٤] والهيبة من شرط المعرفة ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ ﴾[٥] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن على الحيرى يقول : سمعت محفوظاً يقول : سمعت أبا حفص يقول : الخوف سوط الله يقوّم به الشاردين عن بابه .

وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رهبة ، وخشية .

فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف ، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الرب .

قال رحمه الله : ورهب ، وهرب ، يصح أن يقال : أنهما واحد معنى ، مثل :[٦] جذب وجبذ .

فإذا هرب انجذب فى مقتضى هواه ، كالرهبان الذين اتبعوا أهواءهم فإذا كبحهم لجام العلم وقاموا بحق الشرع ، فهو الخشية .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول : سمعت أبا عثمان يقول : سمعت أبا حفص يقول :

الخوف ، سراج القلب ، به يبصر ما فيه من الخير والشر .

سمعت الأستاذ أبا على الدقّاق ، رحمه الله . يقول :

الخوف ألاَّ تعلل نفسك بعسى وسوف .

سمعت محمد بن الحسين . يقول : سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سمعت أبا عمر الدمشقى يقول : الخائف ، من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

---

(١) آية ٥١ من سورة النحل .

(٢) آية ٥٠ من سورة النحل .

(٣) آية ١٧٥ من سورة آل عمران .

(٤) آية ٢٨ من سورة فاطر .

(٥) آية ٢٨ من سورة آل عمران .

(٦) فى نسخة : هما واحد أى معناهما واحد وهو الرجوع إلى الطاعة .

وقال ابن الجلاء : الخائف ، من تؤمنه المخوفات[1] .

وقيل : ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه ، إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه .

وقيل للفضيل[2] ، ما لنا لا نرى خائفًا ؟ .

فقال : لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين ، إن الخائف لا يراه إلا الخائفون ، وإن الثكلى[3] ، هى التى تحب أن ترى الثكلى .

وقال يحيى بن معاذ : مسكين ابن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة

وقال شاه الكرمانى : علامة الخوف : الحزن الدائم .

وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شىء هرب منه ، ومن خاف من الله عزَّ وجل هرب إليه .

وسئل ذو النون المصرى ، رحمه الله ، متى يتيسر على العبد سبيل الخوف ؟ .

فقال : إذا أنزل نفسه منزلة السقيم ، يحتمى من كل شىء ، مخافة طول السقام .

وقال معاذ بن جبل ، رضى الله عنه : إن المؤمن لا يطمئن قلبه ، ولا تسكن روعته حتى يخلِّف[4] جسر جهنم وراءه .

وقال بشر الحافى : الخوف من الله ملك لا يسكن إلا فى قلب متق .

وقال أبو عثمان الحيرى : عيب الخائف فى خوفه السكون إلى خوفه لأنه أمر خفًّى .

وقال الواسطى : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد .

وهذا اللفظ فيه إشكال[5] ومعناه : أن الخائف متطلع لوقت ثان . وأبناء الوقت[6] لا تطلع لهم فى المستقبل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن النهاوندى يقول : سمعت ابن فاتك يقول : سمعت النورى يقول : « الخائف يهرب من ربه إلى ربه » .

وقال بعضهم : علامة الخوف ، التحير[7] والوقوف على باب الغيب :

---

(١) أى تجعله فى أمان ، بأن يأمن منها فى حال طروقها عليه فلا تؤثر فيه لغيبته عنها بخوف الله .

(٢) هو ابن عياض .

(٣) التى فقدت ولدها .

(٤) يجاوز ويترك .

(٥) لأن الخوف مطلوب ، فكيف يكون حجابًا بين الخائف وربه ؟

(٦) وهم الصوفية .

(٧) أى القلق فى أسباب النجاة والخلاص مما يوجب العقاب .

سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول : سمعت على بن إبراهيم العكبرى يقول : سمعت الجنيد وقد سئل عن الخوف ، فقال :

هو توقع العقوبة مع مجارى الأنفاس .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن أحمد الصفار يقول : سمعت محمد بن المسيب يقول : سمعت هاشم بن خالد يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول :

ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن يقول : سمعت أبا عثمان يقول :

صدق الخوف ، هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنا .

وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق .

وقال حاتم الأصم : لكل شىء زينة ، وزينة العبادة الخوف ، وعلامة الخوف قصر الأمل .

وقال رجل لبشر الحافى : أراك تخاف الموت !!

فقال : القدوم على الله ، عزَّ وجلَّ شديد .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، يقول : دخلت على الإمام أبى بكر بن فورك عائدًا ، فلما رآنى دمعت عيناه ، فقلت له : إن شاء[1] الله تعالى يعافيك ويشفيك .

فقال لى : ترانى أخاف من الموت ؟ إنما أخاف مما وراء الموت !!

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا محمد بن عثمان قال : حدثنا القاسم بن محمد قال : حدثنا يحيى بن يمان ، عن مالك بن مغول ، عن عبد الرحمن بن سعيد بن موهب ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قلت :

يا رسول الله : الذين يؤتون ما آتوا : وقلوبهم وجلة ، أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ؟ .

قال : لا : ولكن الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه[2] .

---

(١) وفى نسخة إن الله سبحانه .

(٢) رواه أحمد والترمذى .

وقال ابن المبارك : رحمه الله : الذي يهيج الخوف حتى يسكن فى القلب دوامُ المراقبة فى السر والعلانية .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن الحسن يقول سمعت أبا القاسم بن أبي موسى يقول : سمعت محمد بن أحمد : قال : حدثنا على الرازى قال سمعت أبن المبارك : رحمه الله يقول ذلك .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول :

إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه ، وطرد رغبة الدنيا عنه .

وقيل ، الخوف ، قوّة العلم بمجارى الأحكام .

وقيل ، الخوف ، حركة القلب من جلال الربِّ .

وقال أبو سليمان الدارانى ، ينبغى للقلب أن لا يكون الغالب عليه إلا الخوف ، فإنه إذا غلب الرجاء على القلب فسد القلب .

ثم قال : يا أحمد ، بالخوف ارتفعوا ، فإن ضيعوه نزلوا .

وقال الواسطى : الخوف ، والرجاء ، زمامان على النفوس ، لئلا ، تخرج إلى رعوناتها .

وقال الواسطى : إذا ظهر[1] الحق على السرائر ، لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف .

قال الأستاذ أبو القاسم : وهذا فيه إشكال . ومعناه : إذا اصطلمت[2] شواهد الحق ، تعالى ، الأسرار ملكتها ، فلا يبقى فيها مساغ لذكر حدثان[3] ، والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية .

وقال الحسين بن منصور : من خاف من شيء سوى الله عزَّ وجلَّ أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء ، وسلط عليه المخافة ، وحجبه[4] بسبعين حجابًا أيسرها الشك ، وإن مما أوجب شدة خوفهم ، فكرهم فى العواقب ، وخشية تغير أحوالهم . قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[5] وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أَنَّهُم يُحْسِنُون صُنْعاً ﴾[6] .

---

(١) غلب .
(٢) استأصلت .
(٣) أى حديث أو حادثة .
(٤) وفى نسخة « وحجب قلبه » .
(٥) آية ٤٧ من سورة الزمر .
(٦) آية ١٠٣ وآية ١٠٤ من سورة الكهف .

فكم من مغبوط[١] فى أحواله انعكست عليه الحال ، ومنى بمقارنة[٢] قبيح الأفعال ، فبدل بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمة الله ، ينشد كثيرا :

أحسنت ظنك بالأيام إذا حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

سمعت منصور بن خلف المغربى يقول :

كان رجلان اصطحبا فى الإرادة[٣] برهة من الزمان .. ثم إن أحدهما سافر ، وفارق صاحبه .. وأتى عليه مدة من الزمان ولم يسمع منه[٤] خبراً .. فبينا هذا الآخر كان فى غزاة يقاتل عسكر الروم إذ خرج على المسلمين رجل مقنع فى السلاح ، يطلب المبارزة .. فخرج إليه من أبطال المسلمين واحد ، فقتله الرومى .. ثم خرج آخر فقتله .. ثم ثالث فقتله ، فخرج إليه هذا الصوفى .. وتطاردا[٥] ، فحسر الرومى عن وجهه ، فإذا هو صاحبه الذى صحبه فى الإرادة والعبادة سنين .

فقال هذا له : إيش الخبر ؟ .

فقال : إنه أرتد .. وخالط القوم .. وولد له أولاد .. واجتمع له مال فقال له : كنت تقرأ القرآن بقراءات كثيرة ؟!.

فقال : لا أذكر منه حرفًا .

فقال له هذا الصوفى : لا تفعل ، وارجع ، فقال : لا أفعل ، فلى فيهم جاه ومال ، فانصرف أنت عنى ، وإلا لأفعلن بكل ما فعلت بأولئك .

فقال له الصوفى : أعلم أنك قتلت ثلاثة من المسلمين ، وليس عليك أنفة فى الانصراف ، فانصرف أنت وأنا أمهلك .

فرجع الرجل موليا : فتبعه هذا الصوفى ، وطعنه ، فقتله .

فبعد تلك المجاهدات ، ومقاساة تلك الرياضات ، قتل على النصرانية

---

(١) المغبوط : هو من يتمنى غيره مثل ما ثبت له من الخير مع عدم ميل ذلك الغير إلى زوال نعمته عنه .

(٢) مخالطة .

(٣) إرادة العبادة والخير .

(٤) أى عنه .

(٥) تضاربا .

وقيل : لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل ، عليهما السلام يبكيان زماناً طويلاً ، فأوحى الله ، تعالى ، إليهما : مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : ياربنا ، لا نأمن مكرك .

فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى .

ويحكى عن السرى السقطى أنه قال :

إنى لأنظر إلى أنفى فى اليوم كذا مرة ، مخافة أن يكون قد اسود ، لما أخافه من العقوبة !!.

وقال أبو حفص : منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى ، أن الله ، تعالى ، ينظر إلى نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك .

وقال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة ، فلقى آدم ، عليه السلام فيها ما لقى !! ولا تغتر بكثرة العبادة ، فإن إبليس بعد طول تعبده لقى ما لقى !! ولا نغتر بكثرة العلم ، فإن « بلعام[1] » كان يحسن اسم الله الأعظم ، فانظر ماذا لقى !! ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر قدرًا من المصطفى ، ﷺ ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه .

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال :

إنى قد اجترأت البارحة على الله عز وجل : سألته الجنة .

وقيل : خرج عيسى عليه السلام ، ومعه صالح من صالحى بنى إسرائيل فتبعهما رجل خاطئ مشهور بالفسق فيهم ، فقعد منتبذًا عنهما منكسرا ، فدعا الله سبحانه وقال اللهم اغفر لى .

ودعا هذا الصالح وقال : اللهم لا تجمع غدا بينى وبين ذلك العاصى .

فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : أنى قد استجبت دعاءهما جميعا ، رددت ذلك الصالح ، وغفرت لذلك المجرم .

وقال ذو النون المصرى : قلت لعليم . لم سميت مجنونا ؟ .

قال : لما طال حبسى عنه صرت مجنونًا لخوف فراقه فى الآخرة .

وفى معناه أنشدوا :

لو أن مابى على صخر لأنحله فكيف يحمله خلق من الطين ؟

---

(١) ويقال له : « بلعم بن باعورا » من علماء « بنى إسرائيل » .

وقال بعضهم ، ما رأيت رجلاً أعظم رجاء لهذه الأمة ، ولا أشد خوفًا على نفسه ، من « ابن سيرين » .

وقيل ، مرض سفيان الثورى ، فعرض دليله[١] على الطبيب ، فقال : هذا رجل قطع الخوف كبده .

ثم جاء وجسَّ عِرقه[٢] ، ثم قال : ما علمت أنَّ فى الحنيفية مثله .

وسئل الشبلى : لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ .

فقال : لأنها عُزلت عن مكان التمام : فاصفرت لخوف المقام .

وكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه ، لأنه يخاف المقام ، فإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة : كذلك المؤمن إذا بعث من قبره خرج ووجه يشرق .

ويحكى عن أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى ، أنه قال :

سألت ربى ، عز وجلَّ أن يفتح على بابا من الخوف ، ففتح ، فخفت على عقلى ، فقلت ، يارَبّ ، أعطنى على قدر ما أطيق ، فسكن ذلك عنى .

---

(١) أى ما يستدل به على مرضه .

(٢) نبضه .

باب الرجـاء

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لقاءَ لله ، فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ[١] ﴾ .

أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال : حدثنا عمرو بن مسلم الثقفى قال : حدثنا الحسن بن خالد قال : حدثنا العلاء بن زيد ، قال :

دخلت على مالك بن دينار ، فرأيت عنده شهر بن حوشب فلما خرجنا من عنده ، قلت لشهر : يرحمك الله تعالى ، زوِّدنى ، زودك الله تعالى .

فقال : نعم ، حدثتنى عمتى أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، عن نبى الله ، ﷺ ، عن جبريل عليه السلام ، قال : « قال ربكم عز وجل : عبدى ، ما عبدتنى ورجوتنى ولم تشرك بى شيئاً غفرت لك على ما كان منك ، ولو استقبلتنى بملء الأرض خطايا وذنوبا ، استقبلتك بمثلها[٢] مغفرة ، فأغفر لك ولا أبالى»[٣] .

أخبرنا على بن أحمد قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا بشر بن موسى ، قال : حدثنا خلف بن الوليد ، قال : حدثنا مروان بن معاوية الفزارى قال : حدثنا أبو سفيان طريف ، عن عبد الله بن الحارث ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى ، يوم القيامة : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة شعير من إيمان ثم يقول : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ثم يقول : وعزتى وجلالى لا أجعل من آمن بى ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بى »[٤] .

الرَّجاء : تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل .

وكما أن الخوف يقع فى مستقبل الزمان ، فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل فى الاستقبال وبالرجاء عيش القلوب ، واستقلالها[٥] .

---

(١) آية ٥ من سورة العنكبوت .

(٢) وفى رواية بمثلهن .

(٣) رواه الطبرانى عن أبى الدرداء بسند حسن والترمذى بنحوه وقال حسن .

(٤) أوله فى الصحيحين .

(٥) أى : بالأجر الأخروى .

والفرق بين الرجاء ، وبين التمنى ، أن التمنى : يورث صاحبه الكسل[1] ، ولا يسلك طريق الجهد والجد ، وبعكسه صاحب الرجاء ، فالرجاء محمود ، والتمنى معلول[2] .

وتكلموا فى الرجاء ، فقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء : حسن الطاعة .

وقال ابن خبيق : الرجاء ثلاثة :

رجل عمل حسنة : فهو يرجو قبولها .

ورجل عمل سيئة : ثم تاب : فهو يرجو المغفرة .

والثالث الرجل الكاذب : يتمادى فى الذنوب : ويقول أرجو المغفرة .

ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغى أن يكون خوفه غالبًا على رجائه .

وقيل الرجاء : ثقة الجود من الكريم الودود .

وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال .

وقيل : هو قرب القلب من ملاطفة الرب .

وقيل : سرور الفؤاد بحسن المعاد .

وقيل : هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى : رحمه الله : يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : الخوف ، والرجاء ، هما كجناحى الطائر ، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقض أحدهما وقع فيه النقص : وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت .

وسمعته يقول : سمعت النصر اباذى يقول : سمعت ابن أبى حاتم يقول : سمعت على بن شهمر ذان يقول : قال أحمد بن عاصم الأنطاكى ، وسئل ما علامة الرجاء فى العبد ؟ قال :

أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر ، راجيا لتمام النعمة من الله تعالى فى الدنيا ، وتمام عفوه فى الآخرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء : استبشار بوجود فضله .

وقال ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب .

---

(١) وفى نسخة « يصاحبه الكسل » .

(٢) مذموم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من حمل نفسه على الرجاء تعطل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ولكن من هذه مرة ، ومن هذه مرة .

وسمعته يقول : حدثنا أبو العباس البغدادى قال : حدثنا الحسن بن صفوان قال : حدثنا ابن أبى الدنيا ، قال : حدثت عن بكر بن سليم الصواف ، قال : دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها ، فقلنا ، يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ .

فقال : ما أدرى ما أقول لكم ، غير أنكم ستعاينون من عفو الله تعالى ، ما لم يكن لكم فى حساب ، ثم ما برحنا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى لك مع الأعمال ، لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الاخلاص ، وكيف أحرزها[1] وأنا بالآفة معروف !! وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف .

وكلموا ذا النون المصرى ، وهو فى النزع ، فقال لا تشغلونى ؟ فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالى معى .

وقال يحيى بن معاذ : إلهى ، أحلى العطايا فى قلبى رجاؤك ، وأعذب الكلام على لسانى ثناؤك ، وأحبُّ الساعات إلى ساعة يكون فيها لقاؤك .

وفى بعض التفاسير « أن رسول الله ﷺ دخل على أصحابه ، من باب بنى شيبة ، فرآهم يضحكون فقال : أتضحكون ؟ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا » ثم مرَّ ، ثم رجع القهقرى ، وقال : نزل علىَّ جبريل ، عليه السلام ، وأتى بقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عبادى أَنِّى أَنَا الغفُورُ الرَّحِيمُ[2] ﴾ .

أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد الأهوازى قال : حدثنا أبو الحسن الصفار قال : حدثنا عباس بن تميم قال : حدثنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا مسلم بن سالم قال : حدثنا خارجة بن مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عائشة ، قالت :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى ليضحك من يأس العباد وقنوطهم وقرب الرحمة منهم ، فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ، أويضحك ربنا عز وجل ؟ .

---

(١) أى أحفظها من الآفة .

(٢) آية ٤٩ من سورة الحجر والحديث رواه ابن أبى حاتم وابن جرير بنحوه .

فقال : والذى نفسى بيده ، إنه ليضحك ، فقالت : لا يعدمنا خيرًا إذا ضحك » .

وأعلم أن الضحك فى وصفه من صفات فعله ، وهو إظهار فضله ، كما يقال : ضحكت الأرض بالنبات[1] وضحكه من قنوطهم إظهار تحقيق فضله الذى هو ضعف انتظارهم له .

وقيل : إن مجوسيا استضاف[2] إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، فقال له : إن أسلمت أضفتك فقال المجوسى : إذا أسلمت فأى مِنَّةٍ تكون لك علىَّ ؟ فمرَّ المجوسى ، فأوحى الله تعالى إلى ابراهيم ، عليه السلام : يا إبراهيم ، لم تطعمه إلا بتغييره دينه ؟! ونحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا عليك ؟ .

فمرَّ ابراهيم ، عليه السلام ، خلف المجوسى ، وأضافه ، فقال له المجوسى : أى شىء كان السبب فى الذى بدا لك ؟ فذكر له ذلك ، فقال له المجوسى : أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال : أعْرض علىَّ الإسلام فأسلم :

سمعت الشيخ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : رأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى ، رحمه الله ، أبا سهل الزَّجاج فى النوم[3] ، وكان يقول بوعيد الأبد[4] ، فقال له : كيف حالك ؟ .

فقال وجدنا الأمر أسهل مما توهمنا .

سمعت أبا بكر بن أشكيب يقول : رأيت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقلت له . يا أستاذ ، بم نلت هذا ؟ ، فقال : بحسن ظنىَّ بربى .

ورؤى مالك بن دينار فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك .

قال : قدمت على ربى ، عزَّ وجلَّ ، بذنوب كثيرة محاها عنى حسن ظنى به تعالى :

وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « يقول الله عز وجل ، أنا عند ظنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ هو خير منه ، وإن اقترب إلىَّ شبرا اقتربت إليه ذراعًا ، وإن اقترب إلىَّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة »[5] .

---

(١) أى أخرجته منها .

(٢) طلب منه أن يضيفه .

(٣) وفى نسخة : فى « المنام » .

(٤) أى أن الله إذا توعد على معصية بعقاب « فلابد من وقوعه » .

(٥) رواه الشيخان بنحوه وابن ماجه كما هنا .

أخبرنا بذلك أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الاسفراينى قال : اخبرنا يعقوب بن إسحق قال : حدثنا على بن حرب قال : حدثنا أبو معاوية ومحمد بن عبيد ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، يقول ذلك .

وقيل : كان ابن المبارك يقاتل « علْجا »[1] مرة فدخل وقت صلاة العلج ، فاستمهله ، فأمهله .

فلما سجد للشمس : أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه ، فسمع من الهواء قائلا يقول : ﴿ وَأَوْفُوا بِالعهدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مسئُولاً ﴾[2] فأمسك . فلما سلم المجوسى ، قال له : لم أمسكت عما هممت به ؟ فذكر له ما سمع ، فقال له المجوسى :

نعم الرب رب يعاتب وليه فى عدوِّه . فأسلم . وحسن إسلامه .

وقيل : إنما أوقعهم فى الذنب حين سمى نفسه عفوًّا .

وقيل : لو قال لا أغفر الذنوب ، لم يذنب مسلم قط ، - كما أنه لما قال : « إن الله لا يغفر أن يشرك به[3] » لم يُشرك مسلم قط ، ولكن لما قال : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ طمعوا فى مغفرته .

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه قال : كنت أنتظر مدة من الزمن أن يخلو المطاف لى ، فكانت ليلة ظلماء ، فيها مطر شديد ، فخلا المطاف ، فدخلت الطواف ، وكنت أقول فيه : اللهم اعصمنى . اللهم اعصمنى ، فسمعت هاتفا يقول لى :

يا ابن أدهم ، أنت تسألنى العصمة ، وكل الناس يسألونى العصمة ، فإذا عصمتكم فمن أرحم .

وقيل : رأى أبو العباس بن شريح ، فى منامه فى مرض موته ، كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار ، سبحانه ، يقول : أين العلماء ؟ . قال : فجاءوا . ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا : يارب ، قصرنا ، وأسأنا .

قال : فأعاد السؤال ، كأنه لم يرض به ، وأراد جوابًا آخر .

فقلت : أما أنا ، فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دون ذلك فقال : اذهبوا فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

---

(١) الكافر الشديد .

(٢) آية ٣٤ من سورة الإسراء .

(٣) آية ٤٨ من سورة النساء .

وقيل : كان رجل شرِّيب[١] ، جمع قومًا من ندمائه ، ودفع إلى غلام له أربعة دراهم ، وأمره أن يشترى بها شيئا من الفواكه للمجلس ، فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمَّار وهو يسأل لفقير شيئا ، ويقول : من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات .

قال : فدفع له الغلام الدراهم ، فقال منصور : ما الذى تريد أن أدعو لك به ؟ .

فقال : لى سيد أريد أن أتخلص منه ! .

فدعا لى منصور بذلك ، وقال : ما الأخرى ، فقال : أن يخلف الله ، تعالى ، علىَّ دراهمى .

فدعا لى بذلك . ثم قال : وما الأخرى : فقال : أن يتوب الله على سيدى فدعا قال : وما الأخرى ؟ فقال : أن يغفر الله لى ولسيدى ، ولك ، وللقوم . فدعا ، منصور بذلك .

فرجع الغلام إلى سيده ، فقال له : لم أبطأت ؟ فقصَّ عليه القصة فقال له . وبم دعا ؟ فقال : سألت لنفسى العتق فقال : اذهب ، فأنت حر وما الثانى ؟ فقال : أن يخلف الله علىَّ الدراهم ، فقال : لك أربعة آلاف درهم . فقال : وما الثالث ؟ فقال : أن يتوب الله عليك ، فقال : تبت إلى الله تعالى ، فقال : وما الرابع ؟ فقال : أن يغفر الله تعالى لك ولى وللقوم وللمذكر ، فقال : هذا الواحد ليس إلى ، فلما بات ، رأى فى المنام كأن قائلا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك[٢] ترانى لا أفعل ما إلى !! قد غفرت لك ، وللغلام ، ولمنصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين .

وقيل : حج رباح القيسى حجات كثيرة ، فقال يومًا – وقد وقف تحت الميزاب .

إلهى وهبت من حجاتى كذا وكذا للرسول ﷺ وعشرة منها لأصحابه العشرة ، وثنتين لوالدى ، والباقى للمسلمين .

ولم يحبس منها شيئا لنفسه : فسمع هاتفًا يقول :

هو ذا يتسخى علينا ، لأغفرن لك ، ولأبويك ، ولمن شهد شهادة الحق .

وروى عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى أنه قال :

رأيت جنازة يحملها ثلاثة من الرجال وامرأة . قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة . فصلينا عليها ، ودفناها ، فقلت للمرأة ، ومن كان هذا منك ؟ فقالت : ابنى قلت : أو لم يكن لك جيران ؟ قالت : نعم ، ولكنهم صغروا أمره .

---

(١) كثير الشرب للخمر .

(٢) ما كان فى وسعك أن تفعله .

فقلت : وإيش كان هذا ؟ فقالت : مخنثا ! قال : فرحمتها : وذهبت بها إلى منزلى ، وأعطيتها دراهم ، وحنطة ، وثيابا .

ونمت تلك الليلة ، فرأيت كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر ، وعليه ثياب بيض فجعل يتشكر لى ، فقلت من أنت ؟ فقال : المخنث ، الذى دفنتمونى اليوم ، رحمنى ربى باحتقار الناس إياى .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمة الله ، يقول :

مر أبو عمر البيكندى يومًا بسكة ، فرأى قومًا أرادوا إخراج شاب من المحلة ، لفساده ، وامرأة تبكى ، قيل إنها أمه ، فرحمها أبو عمرو فتشفع له إليهم وقال : هبوه منى هذه المرة ، فإن عاد إلى فساده فشأنكم فوهبوه منه ، فمضى أبو عمرو ، فلما كان بعد أيام ، اجتاز بتلك السكة ، فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب ، فقال فى نفسه : لعل الشاب عاد إلى فساده ، فنفى من المحلة .

فدق عليها الباب ، وسألها عن حال الشباب ، فخرجت العجوز وقالت له : إنه مات .

فسألها عن حاله ، فقالت ، لما قرب أجله ، قال : لا تخبرى الجيران بموتى ، فلقد آذيتهم ، وإنهم يشتمون بى ، ولا يحضرون جنازتى ، وإذا دفنتينى ، فهذا خاتم لى مكتوب عليه « بسم الله » فادفنيه . معى ، فإذا فرغت من دفنى فتشفعى لى إلى ربى عزَّ وجل .

قالت : ففعلت وصيته . فلما انصرفت عن رأس قبره ، سمعت صوته يقول :

انصرفى يا أماه ، قدمت على رب كريم .

وقيل : أوحى الله ، تعالى ، إلى داود ، عليه السلام :

قل لهم : إنى لم أخلقهم لأربح عليهم ، وإنما خلقتهم ، ليربحوا على .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا بكر الحربى يقول : سمعت إبراهيم الأطروش يقول :

كنا قعودًا ببغداد ، مع معروف الكرخى ، على الدجلة ، إذ مر بنا قوم أحداث فى زورق ، يضربون بالدف ويشربون ، ويلعبون ، فقلنا لمعروف :

أما تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين ؟ ادع الله عليهم :

فرفع يده وقال : إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة .

فقالوا : إنما سألناك أن تدعو عليهم !!

فقال : إذا فرحهم فى الآخرة فقد تاب عليهم .

سمعت أبا الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد المزكى ، قال : حدثنا أبو زكريا يحيى ابن محمد[1] الأديب ، قال : حدثنا الفضل بن صدقة قال : حدثنا أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد ، قال :

كان يحيى بن أكثم القاضى صديقا لى ، وكان يودنى وأوده ، فمات يحيى ، فكنت أشتهى أن أراه فى المنام ، فأقول له : ما فعل الله تعالى بك ، فرأيته ليلة فى المنام فقلت ما فعل الله تعالى بك ؟ .

قال : غفر لى ، إلا أنه وبخنى ، ثم قال لى : يايحيى ، خلطت على فى دار الدنيا .

فقلت : أى ربى ، اتكلت على حديث حدثنيه أبو معاوية الضرير ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ، إنك قلت ، « إنى لأستحيى أن أعذب ذا شيبة بالنار » فقال : قد عفوت عنك يايحيى وصدق نبيى ، إلا أنك خلطت على فى دار الدنيا .

---

(١) وفى نسخة « ابن يحيى » .

باب الحزن

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالوا الحَمدُ لله الَّذى أذْهب عَنَّا الحَزَنَ[١] ﴾ .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ، قال : أخبرنا على بن حبيش قال : حدثنا أحمد بن عيسى قال : حدثنا ابن وهب قال : حدثنا أسامة بن زيد الليثى ، عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سمعت عطاء بن يسار قال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من شىء يصيب العبد المؤمن ، من وصب[٢] ، أو نصب[٣] ، أو حزن ، أو ألم يهمه[٤] إلا كفر الله تعالى عنه من سيئاته »[٥] .

الحزن : حال يقبض القلب عن التفرق فى أودية الغفلة .

والحزن من أوصاف أهل السلوك .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمة الله تعالى ، يقول :

صاحب الحزن يقطع من طريق الله فى شهر مالا يقطعه من فقد حزنه سنين ، وفى الخبر : « إن الله يحبُّ كل قلب حزين » .

وفى التوراة :

« إذا أحب الله عبدًا جعل فى قلبه نائحة ، وإذا بغض عبدًا جعل فى قلبه مزمارا » .

وروى أن رسول الله ﷺ كان متواصل الأحزان دائم الفكر .

وقال بشر بن الحارث .

الحزن ملك ، فإذا سكن فى موضع لم يرض أن يساكنه أحد .

وقيل :

القلب إذا لم يكن فيه حُزن خرب ، كما أنَّ الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب .

---

(١) آية ٣٤ من سورة فاطر .
(٢) مرض .
(٣) تعب .
(٤) يقلقه .
(٥) رواه الترمذى .

وقال أبو سعيد القرشي :

بكاء الحزن يعمى ، وبكاء الشوق يغشى البصر ولا يعمى : قال الله تعالى : ﴿ وابيضت عيناه من الحزنِ فَهُوَ كَظِيمٌ[1] ﴾ .

وقال ابن خفيف :

الحزن : حصر النفس عن النهوض فى الطرب

وسمعت رابعة العدوية رجلًا يقول : واحزناه ! فقالت : قل : واقلة حزناه ، لو كنت محزونًا لم يتهيأ لك أن تتنفس .

وقال سفيان بن عيينه : لو أن محزونًا بكى فى أمةٍ لرحم الله تعالى تلك الأمة ببكائه .

وكان داود الطائى الغالب عليه الحزن ، وكان يقول بالليل : إلهى ، همك عطل على الهموم ، وحال بينى وبين الرقاد .

وكان يقول : « كيف يتسلى من الحزن من تتجدد عليه المصائب فى كل وقت ؟ » .

وقيل : الحزن : يمنع من الطعام ، والخوف : يمنع من الذنوب .

وسئل بعضهم : بم يستدل على حزن الرجل ؟ فقال : بكثرة أنينه .

وقال سرى السقطى : وددت أن حزن كل الناس ألقى على .

وتكلم الناس فى الحزن ، فكلهم قالوا : إنما يحمد حزن الآخرة ، وأما حزن الدنيا فغير محمود ، إلا أبا عثمان الحيرى ، فإنه قال :

الحزن بكل وجه فضيلة ، وزيادة للمؤمن ، مالم يكن بسبب معصية ، لأنه إن لم يوجب تخصيصا فإنه يوجب تمحيصًا .

وعن بعض المشايخ أنه كان إذا سافر واحد من أصحابه يقول له :

إن رأيت محزونا ، فأقرئه منى السلام .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق يقول : كان بعضهم يقول للشمس عند غروبها ، هل طلعت اليوم على محزون ؟ .

وكان الحسن البصرى لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة .

---

(١) آية ٨٤ من سورة يوسف

وقال وكيع لما مات الفضيل ، ذهب الحزن اليوم من الأرض .

وقال بعض السلف ، أكثر ما يجده المؤمن فى صحيفته من الحسنات الهم ، والحزن .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول : سمعت على بن بكران يقول : سمعت محمد بن على المروزى يقول ، سمعت أحمد بن أبى روح يقول : سمعت أبى يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : كان السلف يقولون : إن على كل شىء زكاة وزكاة العقل[1] طول الحزن .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن أحمد الفراء يقول : سمعت أبا الحسين الوراق يقول ، سألت أبا عثمان الحيرى يومًا عن الحزن فقال : الحزين لا يتفرغ إلى سؤال الحزن ، فاجتهد فى طلب الحزن ، ثم سل .

---

(١) القلب .

باب الجوع وترك الشهوة

قال الله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىءٍ مِنَ الخَوْف وَالجُوُع ﴾[١]

ثم قال فى آخر الآية : ﴿ وَبَشِّر الصَّابِرِينَ ﴾ فبشرهم بجميل الثواب على الصبر على مقاساة الجوع .

وقال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة ﴾[٢].

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفَّار قال : حدثنا عبد الله ابن أيوب قال : حدثنا أبو الوليد الطيالسى قال : حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفرانى قال : حدثنا محمد بن عبد الله عن أنس بن مالك أنه حدثه قال « جاءت فاطمة ، رضى الله عنها ، بكسرة خبز لرسول الله ﷺ فقال : ما هذه الكسرة يافاطمة » ؟ .

قالت : قرص خبزته ، ولم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة .

فقال : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام .

وفى بعض الروايات : جاءت فاطمة ، رضى الله عنها ، بقرص شعير .

ولهذا كان الجوع من صفات القوم[٤] ، وهو أحد أركان المجاهدة ، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل ، ووجدوا ينابيع الحكمة فى الجوع ، وكثرت الحكايات عنهم فى ذلك .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفىَّ يقول : سمعت عبدالله بن على التميمى يقول : سمعت ابن سالم يقول : أدب الجوع أن لا ينقص[٥] من عادته إلا مثل أذن السنور .

وقيل : كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا فى كل خمسة عشر يومًا ، فإذا دخل شهر رمضان كان لا يأكل حتى يرى الهلال ، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح[٦] .

وقال يحيى بن معاذ : لو أن الجوع يباع فى السوق لما كان ينبغى لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

---

(١) آية ١٥٥ من سورة البقرة .
(٢) خصاصة : فقر وحاجة .
(٣) آية ٩ من سورة الحشر .
(٤) أى الصوفية .
(٥) أى العبد .
(٦) الخالص .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبيد الله قال : حدثنا على بن الحسين الأرجانى قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الأصطخرى بمكة - حرسها الله تعالى - قال : قال سهل بن عبد الله :

لما خلق الله تعالى الدنيا جعل فى الشبع : المعصية والجهل ، وجعل فى الجوع : العلم والحكمة .

وقال يحيى بن معاذ :

الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين مكرمة .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول :

دخل بعضهم على بعض الشيوخ ، فرآه يبكى ، فقال له : مالك تبكى ؟

فقال : إنى جائع .

فقال : ومثلك يبكى من الجوع ؟! .

فقال : اسكت ، أما علمت أن مراده من جوعى أن أبكى .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : حدثنا محمد بن بشر قال : حدَّثنا الحسين بن منصور قال : حدثنا داود بن معاذ قال : سمعت مخلدًا[1] يقول :

كان الحجاج بن فرافصة معنا بالشام ، فمكث خمسين ليلة لا يشرب الماء ، ولا يشبع من شىء يأكله .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الغزالى يقول : سمعت محمد بن على يقول : سمعت أبا عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء يقول : دخل أبو تراب النخشبى من بادية البصرة مكة - حرسها الله تعالى - فسألناه عن أكله ، فقال : خرجت من البصرة .. وأكلت بنباج[2] . ثم بذات عرق .. ومن ذات عرق إليكم . فقطع البادية بأكلتين .

وسمعته يقول : حدثنا على بن النحاس المصرى قال : حدثنا هارون بن محمد الدقاق قال : حدثنا أبو عبد الرحمن بن الدرقش قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال : سمعت عبد العزيز بن عمير يقول : تجوَّع صنف من الطير أربعين صباحا ، ثم طاروا فى الهواء ، فرجعوا بعد أيام ، فكان يفوح منهم رائحة المسك .

---

(١) وفى نسخة مجالدا .

(٢) قرية بالبادية .

وكان سهل بن عبد الله إذا جاع قوى ، وإذا أكل شيئا ضعف .

وقال أبو عثمان المغربى : الرَّبانى لا يأكل فى أربعين يومًا ، والصمدانى فى ثمانين يومًا .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت محمد بن العلوى يقول :

سمعت على بن إبراهيم القاضى بدمشق ، يقول سمعت محمد بن علىٰ بن خلف يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع .

سمعت محمد بن عبد الله بن عبيد الله يقول : سمعت على بن الحسين الأرجانى يقول : سمعت أبا محمد الإصطخري يقول : سمعت سهل بن عبد الله ، وقيل له : الرجل يأكل فى اليوم أكلة ، فقال أكل الصدِّيقين . قال : فأكلتين قال : أكل المؤمنين . قال : فثلاثة قال : قل لأهلك يبنون لك معلفًا .

وسمعته يقول : حدثنا عبد العزيز بن الفضل قال : حدثنا أبو بكر السائح قال : سمعت يحيى بن معاذ يقول : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق ، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج الطوسى يقول : دخل يومًا رجل من الصوفية على شيخ ، فقدم إليه طعامًا .. ثم قال له : منذ كم يوم لم تأكل ؟ .

فقال : منذ خمسة أيام . فقال جوعك جوع بخل !! عليك ثياب وأنت تجوع ؟ ! ليس هذا جوع فقر !.

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سعيد الرازى يقول : سمعت العباس بن حمزة يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : قال أبو سليمان الدارانى :

لأن أترك من عشائى لقمة أحب إلى من أن أقوم الليل إلى آخره .

وسمعته يقول سمعت أبا القاسم جعفر بن أحمد الرازى يقول :

اشتهى أبو الخير العسقلانى السمك سنين ، ثم ظهر له ذلك من موضع حلال ، فلما مد يده إليه ليأكل أخذت شوكة من عظامه أصبعه ، فذهبت فى ذلك يده ، فقال : يارب ، هذا لمن مد يده بشهوة إلى حلال ، فكيف بمن مد يده بشهوة إلى حرام ؟ .

سمعت الأستاذ أبو بكر بن فورك يقول :

شغل العيال[1] نتيجة متابعة الشهوة بالحلال ، فما ظنك بقضية شهوة الحرام ؟ .

سمعت رستم الشيرازى الصوفى يقول : كان أبو عبد الله بن خفيف فى دعوة فمدَّ واحد من أصحابه يده إلى الطعام قبل الشيخ ، لما كان به من الفاقة ، فأراد بعض أصحاب الشيخ أن ينكروا عليه لسوء أدبه ، حيث مدَّ يده إلى الطعام قبل الشيخ ، فوضع شيئاً بين يدى هذا الفقير ، فعلم الفقير أنه أنكر عليه لسوء أدبه ، فاعتقد[2] أن لا يأكل خمسة عشر يوما ، عقوبة لنفسه ، وتأديبًا لها ، وإظهارًا لتوبته من سوء أدبه ، وكان قد أصابته فاقة قبل ذلك .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : حدثنا أبو الفرج الورثانى قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، قال : حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث ، قال : حدثنا سليمان بن داود قال : حدثنا جعفر بن سليمان قال : سمعت مالك بن دينار يقول :

من غلب شهوات الدنيا فذلك الذى يفرق[3] الشيطان من ظله .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبد الله الاصبهانى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول :

إذا قال الصوفى بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ، وأمروه بالكسب .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، حاكيًا عن بعض المشايخ أنه قال : إن أهل النار غلبت شهْوتهم حميتهم ، فلذلك افتضحوا .

وسمعته يقول : قيل لبعضهم : ألا تشتهى ؟ فقال : أشتهى ولكن أحتمى .

قال : وقيل لبعضهم : ألا تشتهى ؟ فقال : اشتهى أن لا أشتهى وهذا أتم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : أخبرنا أحمد بن منصور قال : أخبرنا ابن مخلد قال : حدثنا أبو الحسين الحسن بن عمرو بن الجهم قال : سمعت أبا نصر التمار ، يقول :

أتانى بشر ليلة ، فقلت : الحمد لله الذى جاء بك ، جاءنا قطن من خراسان فغزلته البنت ، وباعته ، واشترت لنا لحمًا ، فتفطر عندنا .

---

(١) أى الاشتغال بهم .

(٢) عزم .

(٣) يفرق : يخاف ، وفى نسخة « يفر » .

فقال : لو أكلت عند أحد أكلت عندكم ثم قال : إنى لأشتهى الباذنجان منذ سنين ، ولم يتفق لى أكله !! فقلت : إن فيها الباذنجان من الحلال . فقال : حتى يصفو لى حب الباذنجان .

سمعت عبد الله بن باكويه الصوفى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا أحمد الصغير يقول :

أمرنى أبو عبد الله بن خفيف أن أقدم إليه كل ليلة عشر حبات زبيب ، لإفطاره ، فليلة أشفقت عليه ، فحملت إليه خمس عشرة حبة ، فنظر إلى وقال :

من أمرك بهذا ؟ وأكل عشر حبات ، وترك الباقى .

سمعت محمد بن عبد الله بن عبيد الله يقول : سمعت أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن الفرغانى يقول : سمعت أبا الحسين الرازى يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت أبا تراب النخشبى يقول :

ما تمنت نفسى من الشهوات ، إلا مرة واحدة ، تمنت خبزًا وبيضا وأنا فى سفر ، فعدلتُ إلى قرية ، فقام واحد وتعلق بى وقال : هذا كان مع اللصوص . فضربونى سبعين درة . ثم عرفنى رجل منهم ، فقال : هذا أبو تراب النخشبى !! فاعتذروا إلى ، فحملنى رجل إلى منزله ، إكرامًا لى ، وشفقة على .. وقدم لى خبزا وبيضًا ، فقلت لنفسى : كلى بعد سبعين درة !.

باب الخشوع والتواضع

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمنون الَّذِينَ هُمْ فى صَلاتِهِم خَاشِعُونَ ﴾[1] .

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى ، قال : أخبرنا أبو الفضل سفيان بن محمد الجوهرى ، قال حدثنا على بن الحسين قال : حدثنا يحيى بن حماد قال : حدثنا شعبة ، عن أبان بن ثعلب ، عن فضل الفقيمى ، عن إبراهيم النخعى ، عن علقمة بن قيس ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرَّة من إيمان ، فقال رجل : يارسول الله ، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا . فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر من بطر الحق[2] ، وغمص[3] الناس » .

وأخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثنا محمد ابن الفضل بن جابر قال حدثنا أبو إبراهيم قال : حدثنا على ابن مسهر ، عن مسلم الأعور ، عن أنس بن مالك ، قال : « كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويشيع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ، وكان يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف ، عليه إكاف[4] من ليف » .

الخشوع : الانقياد للحق .

والتواضع : هو الاستسلام للحق ، وترك الاعتراض على الحكم .

وقال حذيفة : أول ما تفقدون من دينكم : الخشوع

وسئل بعضهم عن الخشوع ، فقال :

الخشوع : قيام القلب بين يدى الحق ، سبحانه ، بهم[5] مجموع .

---

(١) آية ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .

(٢) أى : رده وابطاله .

(٣) غمص احتقار والحديث رواه مسلم .

(٤) برذعة .

(٥) أى بهمة عظيمة .

وقال : من علامات الخشوع للعبد : أنه إذا أغضب أو خولف ، أورد عليه أن يستقبل ذلك بالقبول .

وقال بعضهم : خشوع القلب : قيد العيون عن النظر .

وقال محمد بن على الترمذى : الخاشع : من خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم فى قلبه ، فماتت شهوته ، وحيى قلبه ، فخشعت جوارحه .

وقال الحسن البصرى : الخشوع : الخوف الدائم اللازم للقلب .

وسئل الجنيد عن الخشوع ، فقال : تذلل القلوب لعلام الغيوب .

قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[1] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول ما معناه : متواضعين ، متخاشعين .

وسمعته يقول : هم الذين لايستحسنون شِسع نعالهم إذا مشوا .

واتفقوا على أن الخشوع محله القلب .

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر ، منكسر الشاهد[2] ، قد زوى[3] منكبيه ، فقال له : يا فلان ، الخشوع هاهنا ، وأشار إلى صدره لاهاهنا وأشار إلى منكبيه .

وروى أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يعبث فى صلاته بلحيته ، فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »[4] .

وقيل ، شرط الخشوع ، فى الصلاة أن لا يعرف من على يمينه ومن على شماله .

قال الاستاذ الإمام : ويحتمل أن يقال :

الخشوع ، إطراق السريرة بشرط الأدب بمشهد الحق سبحانه وتعالى .

ويقال : الخشوع ، ذبول يرد على القلب عند اطلاع الرب .

ويقال : الخشوع ، ذوبان القلب وانخناسه عند سلطان الحقيقة .

ويقال : الخشوع ، مقدمات غلبات الهيبة .

ويقال : الخشوع : قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

---

(١) آية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٢) أى غاض البصر .

(٣) جمع .

(٤) رواه الحكيم عن أبى هريرة بسند ضعيف .

وقال الفضيل بن عياض : كان يكره أن يرى على الرجل من الخشوع أكثر مما فى قلبه .

وقال أبو سليمان الدارانى : لو اجتمع الناس على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى لما قدروا عليه .

وقيل : من لم يتضع عند نفسه لم يتضع عند غيره .

وكان عمر بن عبد العزيز لا يسجد إلَّا على التراب .

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : حدثًنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثًنا إبراهيم ابن عبد الله ، قال : حدثنا أبو الحسن على بن يزيد الفرائضى ، قال : حدثنا محمد بن كثير ، وهو المصيصى ، عن هارون بن حيان ، عن حصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر[1] » .

وقال مجاهد ، رحمة الله : لما أغرق الله سبحانه ، قوم نوح شمخت الجبال ، وتواضع الجودى[2] ، فجعله الله سبحانه ، قرارا لسفينة نوح عليه السلام .

وكان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يسرع فى المشى ، ويقول : إنه أسرع للحاجة ، وأبعد من الزهو .

وكان عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، يكتب ليلة شيئا ، وعنده ضيف ، فكاد السراج . ينطفئ ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ، فقال :

لا : ليس من الكرم استخدام[3] الضيف .

قال : فأنبِّه الغلام .

قال : لا ، هى أول نومة نامها .

فقام إلى البطة[4] ، وجعل الدهن فى المصباح ، فقال الضيف :

قمت بنفسك يا أمير المؤمنين !! .

فقال له عمر : ذهبتُ وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر .

وروى أبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ : كان يعلف البعير ، ويقم[5]

---

(١) رواه مسلم .
(٢) جبل .
(٣) وفى نسخة « استعمال » .
(٤) التى فيها الدهن .
(٥) يكنسه .

البيت ، ويخصف[١] النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه إذا أعيا[٢] ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئًا ، ولا يحتقر ما دعى إليه ، ولو إلى حشف[٣] التمر ، وكان هين المؤنة[٤] ، لين الخلق ، كريم الطبيعة[٥] جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بسامًا من غير ضحك ، محزونًا من غير عبوسة ، متواضعا من غير مذلة ، جوادًا من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيما بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولم يمد يده إلى طمع » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول : سمعت محمد بن نصر الصائغ يقول : سمعت مردويه الصائغ يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : قراء الرحمن ، عز وجل ، أصحاب خشوع وتواضع ، وقراء القضاة[٦] أصحاب عجب وتكبر .

وقال الفضيل بن عياض : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

وسئل الفضيل عن التواضع ، فقال : تخضع للحق ، وتنقاد له وتقبله ممن قاله .

وقال الفضيل : أوحى الله ، سبحانه وتعالى ، إلى الجبال : أنى مكلم على واحد منكم نبيا . فتطاولت الجبال ، وتواضع « طور سينا » ، فكلم الله سبحانه عليه موسى ، عليه السلام ، لتواضعه .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر ، يقول : سمعت ابراهيم بن فاتك ، يقول : سئل الجنيد عن التواضع ، فقال :

خفض الجناح للخلق ، ولين الجانب لهم .

وقال وهب : مكتوب فى بعض ما أنزل الله تعالى من الكتب : « إنى أخرجت الذر[٧] من صلب آدم ، فلم أجد قلبًا أشدَّ تواضعاً من قلب موسى ، عليه السلام ، فلذلك اصطفيته وكلَّمته » .

---

(١) يخرز .
(٢) تعب .
(٣) أردأ التمر : وهو الذى يجف من غير نضج ولا إدراك .
(٤) أى يرضى بما تيسر منها ولا يتكلف الزيادة .
(٥) أى كرمًا جبليًا بدون تكلف .
(٦) الولاة .
(٧) أى بنى آدم .

وقال ابن المبارك : التكبر على الأغنياء ، والتواضع للفقراء من التواضع .

وقيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ .

فقال : إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً ، ولا يرى أن فى الخلق من هو شر منه .

وقيل : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والكبر محنة لا يرحم عليها . والعزُّ فى التواضع فمن طلبه فى الكبر لم يجده .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول : للشرف فى التواضع ، والعزُّ فى التقوى ، والحرية فى القناعة .

وسمعته أيضا يقول : سمعت الحسن الساوى يقول : سمعت ابن الأعرابى يقول : بلغنى أنَّ سفيان الثورى قال : أعز الخلق خمسة أنفس :

عالم زاهد ، وفقيه صوفى ، وغنى متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سُنى .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع حسن فى كلٍّ أحد لكنه فى الأغنياء أحسن ، والتكبر سمج فى كل أحد لكنه فى الفقراء أسمجَ !!.

وقال ابن عطاء : التواضع : قبول الحق ممن كان .

وقيل : ركب زيد بن ثابت ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال له :

مه[1] يا ابن عمِّ رسول الله . فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا .

فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبلها ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل رسول الله ﷺ .

وقال عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وعلى عاتقه قربة ماء ، فقلت :

يا أمير المؤمنين ، لا ينبغى لك هذا !! .

فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت فى نفسى نخوة[2] فأحببتُ أن أكسرها .. ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها فى إنائها .

---

(١) اكفف وامتنع .

(٢) كبر وعظمة .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج الطوسى يقول : رؤى أبو هريرة ، وهو أمير المدينة ، وعلى ظهره حزمة حطب ، وهو يقول : طرقوا[١] للأمير .

وقال عبد الله الرازى : التواضع ترك التمييز فى الخدمة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن أحمد بن هارون يقول : سمعت محمد بن العباس الدمشقى يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول :

من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة .

وقال يحيى بن معاذ : التكبر[٢] على من تكبر عليك بماله تواضع .

وقال الشبلى رحمه الله : ذلى عطَّل ذل اليهود[٣] .

وجاءه رجل ، فقال له الشبلى : ما أنت ؟ .

فقال : ياسيدى النقطة التى تحت الباء[٤] .

فقال له : أنت شاهدى[٥] ، ما لم نجعل لنفسك مقامًا .

وقال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر[٦] أخيه .

وقال بشر : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم .

وقال شعيب بن حرب : بينا أنا فى الطواف إذ لكزنى إنسان بمرفقه ، فالتفت إليه ، فإذا هو الفضيل بن عياض ، فقال : يا أبا صالح ، إن كنت تظن أنه شهد الموسم شر منى ومنك فبئس ما ظننت !! .

وقال بعضهم رأيت فى الطواف إنسانًا بين يديه « شاكريه[٧] » يمنعون الناس لأجله عن الطواف .. ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل الناس شيئا ..

---

(١) أوسعوا الطريق .

(٢) المقصود به الإعراض .

(٣) ذل اليهود المذكور فى قوله تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ﴾ .

والمعنى : أن ذلى فى نفسى أعظم من ذل اليهود فى أنفسهم ، لأن ذلهم قهرى ، وذلى عن علم بما عليه نفسى من النقص .

(٤) فتميز الباء عن غيرها من الحروف كذلك حاله متميزا عن غيره من المخلوقات .

(٥) حاضرى يعنى : حالك مستقيم .

(٦) بقية مشروب .

(٧) أى : يشكرونه ويمدحونه .

فتعجبت منه ، فقال لى :

أنا تكبرت فى موضع يتواضع الناس هناك ، فابتلانى الله ، سبحانه ، بالتذلل فى موضع يترفع فيه الناس .

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى فصا بألف درهم ، فكتب إليه عمر :

« بلغنى أنك اشتريت فصا بألف درهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم ، وأشبع ألف بطن واتخذ خاتما من درهمين ، واجعل فصه حديداً صينيا ، واكتب عليه « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » .

وقيل : عرض على بعض الأمراء مملوك بألف درهم ، فلما أحضر الثمن استكثره فبدا له فى شرائه ، فردَّ الثمن إلى الخزانة ! فقال العبد :

يا مولاى ، اشترنى ، فإن فىَّ بكل درهم من هذه الدراهم خصلة تساوى أكثر من ألف درهم ، فقال : وما هى ؟ فقال : أقلها وأدناها مالو اشتريتنى وقدمتنى على جمع مماليكك لآ أغلظ فى نفسى ، وأعلم أنى أنا عبدك فاشتراه .

وحكى عن رجاء بن حيوة أنه قال : قوَّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب باثنى عشر درهمًا ، وكانت : قباء ، وعمامة ، وقميصا ، وسراويل ، وخفين ، وقلنسوة .

وقيل : مشى عبد الله بن محمد بن واسع مشيًا لا يحمد[1] فقال له أبوه :

وتدرى بكم اشتريتُ أمك . بثلاثمائة درهم ، وأبوك لا أكثر الله فى المسلمين مثله أبًا ، وأنت تمشى هذه المشية !!

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن الفراء يقول : سمعت عبد الله بن منازل يقول : سمعت حمدون القصار يقول :

التواضع : أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة ، لا فى الدين ، ولا فى الدنيا .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما سررت فى إسلامى إلا ثلاث مرات :

مرة كنت فى سفينة ، وفيها رجل مضحاك[2] كان يقول : كنا نأخذ العلج[3] فى بلاد الترك هكذا (وكان يأخذ بشعر رأسى ، ويهزنى) ، فيسرنى ذلك ، لأنه لم يكن فى السفينة أحدٌ أحقر فى عينه منى .

---

(١) متبخترا .
(٢) كثير الضحك .
(٣) الرجل من الكفار .

والأخرى : كنت عليلاً فى مسجد ، فدخل المؤذن ، وقال اخرج ، فلم أطق ، فأخذ برجلى وجرنى إلى خارج المسجد .

والثالثة : كنت بالشام ، وعلىَّ فرو ، فنظرت فيه فلم أميز بين شعره وبين القمل ، لكثرته ، فسرنى ذلك .

وفى حكاية أخرى عنه قال : ما سررت بشىء كسرورى أنى كنت يومًا جالساً فجاء إنسان وبال على .

وقيل : تشاجر أبو ذر وبلال ، رضى الله عنهما ، فعير أبو ذر بلالاً بالسواد . فشكاه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا ذر ، إنه بقى فى قلبك من كبر الجاهلية شىء .

فألقى أبو ذر نفسه .. وحلف أن لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه .. فلم يرفع حتى فعل بلال ذلك .

ومر الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، بصبيان معهم كسر خبز ، فاستضافوه ، فنزل ، وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، وأطعمهم ، وكساهم ، وقال :

اليد[1] لهم ، لأنهم لم يجدوا غير ما أطعمونى ، ونحن نجد أكثر منه .

وقيل : قسم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الحلل بين الصحابة من غنيمة ، فبعث إلى معاذ حلة يمانية ، فباعها واشترى ستة أعبد ، وأعتقهم ، فبلغ عمر ذلك ، فكان يقسم الحلل بعده ، فبعث إليه حلة دون تلك ، فعاتبه معاذ ، فقال له عمر :

لا معاتبة ، لأنك بعت الأولى .

فقال معاذ : وما عليك ، ادفع إلى نصيبى ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك[2] .

فقال عمر : هذا رأسى بين يديك ، وقد يرفُق الشيخ بالشيخ .

---

(١) النعمة .

(٢) أى لأضربن رأسك بهذه الحلة .

باب مخالفة النفس وذكر عيوبها

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى[١] ﴾ .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن عبيد قال : أخبرنا تمام قال : حدثنا محمد بن معاوية النيسابورى قال : حدثنا على بن أبى على بن عتبة بن أبى لهب ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « أخوف ما أخاف على أمتى : اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة »[٢] .

ثم اعلم أن مخالفة النفس رأس العبادة ، وقد سئل المشايخ عن الإسلام ، فقالوا : ذبح النفس بسيوف المخالفة .

واعلم أن من نجمت طوارق نفسه[٣] أفلت[٤] شوارق أنسه .

وقال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة : مخالفة النفس والهوى ، ومخالفتها ترك شهواتها .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها معها فى فسادها .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمر الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول : النفس الأمارة بالسوء : هى الداعية إلى المهالك ، المعينة للأعداء المتبعة للهوى ، المتهمة بأصناف الأسواء .

وقال أبو حفص : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم

---

(١) آية ٤٠ من سورة النازعات .

(٢) رواه ابن عدى عن جابر بسند ضعيف .

(٣) طلعت آثار خواطره .

(٤) غربت من قلبه .

يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه كان مغروراً ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها .

وكيف يصح لعاقل : الرضا عن نفسه ، والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، يقول : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[١] .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت إبراهيم بن مقسم ببغداد يقول : سمعت ابن عطاء يقول : قال الجنيد : أرقت ليلة ، فقمت إلى وردى[٢] ، فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة والتلذذ بمناجاتى لربى ، فتحيرت ، فأردت أن أنام ، فلم أقدر عليه ، فقعدت ، فلم أطق القعود ، ففتحت الباب ، وخرجت ، فإذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى ، رفع رأسه ، وقال : يا أبا القاسم ، إلى الساعة[٣] فقلت : ياسيدى من غير موعد ؟ فقال : بلى قد سألت محرك القلوب أن يحرك إلى قلبك[٤] .

فقلت : فقد فعل فما حاجتك ؟

فقال : متى يصير داء النفس دواؤها .

فقلت : إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواؤها .

فأقبل على نفسه ، وقال : اسمعى ، قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ، فقد سمعت ، وانصرف عنى ولم أعرفه . ولم أقف عليه بعد .

وقال أبو بكر الطمستانى : النعمة العظمى الخروج من النفس ، لأنه أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله ما عبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت أبا عمر الأنماطى يقول : سمعت ابن عطاء ، وقد سئل عن أقرب شىء إلى مقت الله تعالى ، فقال :

---

(١) آية ٥٣ من سورة يوسف .

(٢) من الصلاة .

(٣) أى تأخرت عنى .

(٤) أى فالوقت الذى طلبتك فيه منه هو أول ما حركك ، فهو الموعد .

رؤية النفس وأحوالها ، وأشدُّ من ذلك مطالعة الأعواض على أفعالها[١] .

وسمعته يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت إبراهيم الخوَّاص يقول كنت فى جبل « اللكام[٢] » فرأيت رمانًا فاشتهيته .. فدنوت منه ، فأخذت منه واحدة ، فشققتها ، فوجدتها حامضة ، فمضيت ، وتركت الرمان ، فرأيت رجلًا مطروحا ، قد اجتمع عليه الزنابير ، فقلت : السلام عليك . فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت له : وكيف عرفتنى ؟ فقال : من عرف الله تعالى لا يخفى عليه شىء فقلت : أرى لك حالاً مع الله تعالى ، فلو سألته أن يحميك ويقيك الأذى من هذه الزنابير ؟ فقال : وأنا أرى لك حالاً مع الله تعالى ، فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان !! فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة ، ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا . فتركته ومضيت .

وحكى عن إبراهيم بين شيبان أنه قال : مابت تحت سقف ، ولا فى موضع عليه غَلق أربعين سنة ، وكنت أشتهى فى أوقات أن أتناول شبعة عدس ، فلم ، يتفق .. فكنت وقتا بالشام ، فحمل إلى غضارة[٣] فيها عدس ، فتناولت منه ، وخرجت .. فرأيت قوارير[٤] معلقة فيها شىء شبه « نموذجات »[٥] .. فظننته خلا .. فقال لى بعض الناس : إيش تنظر هذه نموذجات الخمر ، وهذه الدنان خمر .

فقلت فى نفسى : لزمنى فرض .. فدخلت حانوت الخمار ، ولم أزل أصب تلك الدنان وهو يتوهم أنى أصبها بأمر السلطان .. فلما علم ، حملنى إلى ابن طولون .. فأمر بضربى مائتى خشبة .. وطرحنى فى السجن .. فبقيت فيه مدّة ، حتى دخل أبو عبد الله المغربى استاذى ذلك البلد ، فشفع لى ، فلما وقع بصره على ، قال :

إيش فعلت ؟ فقلت : شبعة عدس ومائتى خشبة فقال لى : نجوت مجاناً[٦] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى السقطى يقول :

---

(١) أى تطلع العبد إلى الجزاء على أعماله وفى نسخة : ومطالعة الأعراض .
(٢) بلدة بالشام .
(٣) آنية من طين .
(٤) آنية من زجاج .
(٥) قطرات من مائع .
(٦) أى بلا عقوبة فى الآخرة بعد هذه العقوبة الدنيوية .

إن نفسى تطالبنى ، منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة ، أن أغمس جزرة فى دبس[١] فما أطعتها[٢] .

وسمعته يقول : سمعت جدى يقول : آفة العبد : رضاه من نفسه بما هو فيه .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت الحسين بن على القرمسينى يقول : وجه عصام بن يوسف البلخى شيئا إلى حاتم الأصمّ ، فقبله منه .

فقيل له : لم قبلته ؟ .

فقال : وجدت فى أخذه ذلىّ وعزه ، وفى رده عزى وذله ، فاخترت عزه على عزى وذلى على ذله .

وقيل لبعضهم : إنى أريد أن أحج على التجريد .

فقال له : جرد أولا قلبك عن السهو ، ونفسك عن اللهو ، ولسانك عن اللغو ، ثم اسلك حيث شئت .

وقال أبو سليمان الدارانى :

من أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله ، ومن صدق فى ترك شهوة كفى مؤنتها ، والله أكرم من أن يعذب قلبًا ترك شهوة لأجله .

وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام .

يا داود ، حذر ، وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة .

ورؤى رجل جالساً[٣] فى الهواء ، فقيل له : بم نلت هذا ؟

فقال : تركت الهوى فسخر لى الهواء .

وقيل : لو عرض للمؤمن ألف شهوة لأخرجها بالخوف ، ولو عرض للفاجر شهوة واحدة لأخرجته من الخوف .

وقيل : لا تضع زمامك فى يد الهوى ، فإنه يقودك إلى الظلمة .

---

(١) الدبس : عسل التمر وعسل النحل .

(٢) وفى نسخة « فما أطعمتها » .

(٣) وفى نسخة « جالس » .

وقال يوسف بن أسباط : لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج[١] أو شوق مقلق[٢] .

وقال الخواص : من ترك شهوة ، فلم يجد عوضها فى قلبه ، فهو كاذب فى تركها .

وقال جعفر بن نصير : دفع إلى الجنيد درهمًا ، وقال : اشتر لى به التين الوزيرى ، فاشترَيته له ، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها فى فمه ، ثم ألقاها ، وبكى ، وقال : احمله .

فقلت له فى ذلك ، فقال : هتف فى قلبى أما تستحى ؟ شهوة تركتها من أجلى[٣] ثم تعود إليها .

وأنشدوا :

نون الهوان من الهـوى مسروقـة وصريع كل هوى صـريع هـوان

وأعلم أن للنفس أخلاقا ذميمة ، فمن ذلك : الحسد

---

(١) كامل .

(٢) قوى .

(٣) فى نسخة من أجله .

باب الحسد

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلَقِ ، مِنْ شَر مَا خَلَقَ ﴾

ثم قال : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

فختم السورة التى جعلها عوذة[١] بذكر الحسد .

أخبرنا أبو الحسين الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال : حدثنا إسماعيل ابن الفضل قال : حدثنا يحيى بن مخلد ، قال : حدثنا معا فى ابن عمران ، عن الحارث بن شهاب ، عن معبد ، عن أبي قلابة ، عن ابن مسعود قال : إن النبى ﷺ قال : ثلاث هنَّ أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن :

إياكم والكبر ، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم .

وإياكم والحرص ، فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة .

وإياكم والحسد ، فإن ابنى آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسدا[٢] .

وقال بعضهم : الحاسد جاحد ، لأنه لا يرضى بقضاء الواحد .

وقيل : الحسود لا يسود .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ[٣] ﴾ ، قيل ما بطن : الحسد ، وفى بعض الكتب : الحاسد عدو نعمتى .

وقيل : أثر الحسد يتبين فيك قبل أن يتبين فى عدوك .

وقال الأصمعى : رأيت أعرابيًّا أتى عليه مائة وعشرون سنة ، فقلت له : ما أطول عمرك .

فقال : تركتُ الحسد فبقيت .

وقال ابن المبارك : الحمد لله الذى لم يجعل فى قلب أميرى ما جعله فى قلب حاسدى .

---

(١) عوذة بفتح العين وضمها ؛ أى : تعويذًا .
(٢) رواه ابن عساكر عن ابن مسعود .
(٣) آية ٣٣ سورة الأعراف .

وفى بعض الآثار[1] إن فى السماء الخامسة ملكا يمر به عمل عبد ، له ضوء كضوء الشمس ، فيقول له الملك : قف فأنا ملك الحسد ، اضرب به وجه صاحبه ، فإنه حاسد .

وقال معاوية : كل إنسان أقدر على أن أرضيه ، إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة .

ويقال : الحاسد ظالم غشوم ، لا يبقى ولا يذر .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحاسد : غم دائم ونفس متتابع .

وقيل : من علامات الحاسد أن يتملق إذا شهد ، ويغتاب إذا غاب ، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت .

وقال معاوية : ليس فى خلال[2] الشر خلة أعدل من الحسد ، تقتل الحاسد قبل المسحود[3] .

وقيل : أوحى الله ، سبحانه ، إلى سليمان بن داود ، عليهما السلام : أوصيك بسبعة أشياء : لا تغتابن صالح عبادى ، ولا تحسدن أحدا من عبادى .

فقال سليمان :

يارب ، حسبى .

وقيل : رأى موسى عليه السلام ، رجلًا عند العرش فغبطه[4] ، فقال : ما صفته ؟ فقيل : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وقيل : الحاسد إذا رأى نعمة بهت ، وإذا رأى عثرة شمت .

وقيل : إذا أردتَ أن تسلم من الحاسد ، فلبس عليه أمرك[5] .

وقيل : الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه .

وقيل : إياك أن تتعنى[6] فى مودة من يحسدك ، فإنه لا يقبل إحسانك .

---

(١) وفى نسخة « الأخبار » .
(٢) خصال .
(٣) وفى « نسخة يقتل الحاسد » أى : همًا وغمًا ، « كما قتل المحسود » أى : بزوال نعمه أن زالت .
(٤) أى تمنى أن ينال مثل ما ناله .
(٥) أى استر نعم الله عليك .
(٦) تتعب نفسك .

وقيل : إذا أراد الله تعالى أن يسلط على عبد عدوا لا يرحمه سلط عليه حاسده :

وأنشدوا :

وحسبك من حادث بامرئٍ ترى حاسديه له راحمينا

وأنشدوا :

كلُّ العداوة قد ترجى إماتتها[1] إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال ابن المعتز :

قل للحسود إذا تنفس : طعنة[2] يا ظالمًا وكأنه مظلوم

وأنشدوا :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حسود

ومن الأخلاق المذمومة للنفس : اعتياد الغيبة .

---

(١) وفى نسخة « مودتها » .

(٢) أى : رزقك الله بطعنه .

باب الغيبة

قال الله سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعضُكُمْ بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يأْكُلَ لَحْمَ أَخِيه مَيْتًا[١] ﴾ الآية .

أخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم الإسماعيلى ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن الحسن بن الخليل ، قال : حدثنا على بن الحسن قال : حدثنا إسحق بن عيسى ابن بنت داود ابن أبى هند ، قال حدثنا محمد بن أبى حميد ، عن موسى بن وردان ، عن أبى هريرة : أن رجلًا قام ، وهو مع رسول الله ﷺ قبل ذلك جالس ، فقال بعض القوم : ما أعجز فلانًا ، فقال ﷺ :

أكلتم أخاكم واغتبتموه[٢]

وأوحى الله ، سبحانه إلى موسى عليه السلام :

« من مات تائبًا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار » .

وقال عوف : دخلت على ابن سيرين ، فتناولت الحجاج[٣] ، فقال ابن سيرين : إن الله تعالى ، حكم عدل ، فكما يأخذ من الحجاج يأخذ للحجاج ، وإنك إذا لقيت الله عز وجلّ غدا كان أصغر ذنب أصبته أشدَّ عليك من أعظم ذنب أصابه الحجَّاج .

وقيل : دعى إبراهيم بن أدهم إلى دعوة ، فحضر ، فذكروا رجلًا لم يأتهم ، فقالوا : إنه ثقيل ! فقال إبراهيم : إنما فعل بى هذا نفسى ، حيث حضرت موضعًا يغتاب فيه الناس ، فخرج ، ولم يأكل ثلاثة أيام .

وقيل : مثل الذى يغتاب الناس ، كمثل من نصب « منجنيقًا » يرمى به حسناتِه شرقًا وغربًا ، يغتاب واحداً خراسانيًا ، وآخر تركيا ، فيفرق حسناته ، ويقوم لا شىء معه ! .

---

(١) آية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) رواه أبو يعلى والطبرانى .

(٣) اغتبته .

وقيل : يؤتى العبد يوم القيامة كتابه ، فلا يرى فيه حسنة ، فيقول : أين صلاتى ، وصيامى ، وطاعتى ؟؟؟ فيقال :

ذهب عملك كله .

وقيل : من اغتيب بغيبة غفر الله له نصف ذنوبه .

وقال سفيان بن الحسين : كنت جالسا عند إياس بن معاوية ، فنلت من إنسان .

فقال لى : هل غزوت فى هذا العام الترك والروم ؟ . فقلت : لا .

فقال : سلم منك الترك والروم ، وما سلم منك أخوك المسلم ؟ .

وقيل : يعطى الرجل كتابه . فيرى فيه حسنات لم يعملها . فيقال له :

هذا بما اغتابك الناس وأنت لم تشعر .

وسئل سفيان الثورى عن قوله ﷺ : « إن الله يبغض أهل البيت اللحميين » . فقال : هم الذين يغتابون الناس : يأكلون لحومهم .

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك ، فقال :

لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والدى ، لأنهما أحق بحسناتى :

وقال يحيى بن معاذ : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال :

إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسره فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه :

وقيل للحسن البصرى : إن فلانا اغتابك : فبعث إليه طبق حلواء وقال : بلغنى أنك أهديت إلى حسناتك ، فكافأتك :

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال : أخبرنا أحمد بن عمرو القطوانى قال : حدثنا سهل بن عثمان العسكرى قال : حدثنا الربيع بن بدر ، عن أبان ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »[1] .

سمعت حمزة بن يوسف السهمى يقول ، سمعت أبا طاهر محمد بن أسيد الرقى يقول ، سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول ، قال الجنيد :

كنت جالسا فى مسجد « الشونزية » أنتظر جنازة أصلى عليها ، وأهل بغداد ، على

---

(١) رواه البيهقى عن أنس بسند ضعيف .

طبقاتهم[١] ، جلوس ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيرًا عليه أثر النسك[٢] يسأل الناس ، فقلت فى نفسى ، لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل به .

فلما انصرفت إلى منزلى ، وكان لى شىء من الورد بالليل ، حتى البكاء والصلاة وغير ذلك ، فثقل على جميع أورادى ، فسهرت وأنا قاعد ، فغلبتنى عيناى .. فرأيت ذلك الفقير .. جاءوا به على خوان ممدود . وقالوا لى : كل لحمه ، فقد اغتبته !. وكشف لى عن الحال ، فقلت :

ما اغتبته ! إنما قلت فى نفسى شيئا ، فقيل لى :

ما أنت ممن يرضى منك بمثله ، اذهب فاستحله ،

فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته فى موضع يلتقط من الماء ، عند تزايد[٣] الماء ، أوراقًا من البقل مما تساقط من غسل البقل ، فسلمت عليه ، فقال يا أبا القاسم ، تعود ؟

فقلت : لا .

فقال : غفر الله لنا ولك .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا طاهر الإسفراينى يقول : سمعت أبا جعفر البلخى يقول : كان عندنا شاب من أهل بلخ ، وكان يجتهد ، ويتعبَّد ، إلا أنه كان أبدًا يغتاب الناس ويقول : فلان كذا ، وفلان كذا ، وفلان كذا ، .. فرأيته يوما عند المخنثين[٤] الغسالين ، خرج من عندهم .

فقلت : يا فلان ، ما حالك ؟ .

فقال : تلك الوقيعة فى الناس[٥] أوقعتنى إلى هذا ، ابتليتُ بمخنث من هؤلاء ، وأنا هوذا أخدمهم من أجله ، وتلك الأحوال كلها قد ذهبت ، فادع الله أن يرحمنى .

---

(١) مراتبهم .
(٢) العبادة .
(٣) وفى نسخة تراد .
(٤) المتشبهين بالنساء فى أفعالهم .
(٥) أى : اغتيابى لهم .

باب القناعة

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالحا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً[١] ﴾ .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : حدَّثنا أبو عمرو محمد بن جعفر بن مطر ، قال : حدثنا محمد بن موسى الحلوانى ، قال : حدثنا عبد الله بن ابراهيم الغفارى ، عن المنكدر بن محمد ، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « القناعة كنز لايفنى[٢] » .

أخبرنا أبو الحسن الأهوازى ، قال : حدثنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثنا عبد الله ابن أيوب المقرى قال : حدثنا أبو الربيع الزهرانى ، قال : حدثنا اسماعيل بن زكريا ، عن أبى رجاء ، عن برد بن سنان ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كن ورعا تكن أعبد الناس ، وكن قنعًا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفس تكن مؤمنًا وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، وأقل الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب[٣]» .

وقيل : الفقراء أموات ، إلا من أحياه الله تعالى بعز القناعة .

وقال بشر الحافى : القناعة : ملك لا يسكن إلا فى قلب مؤمن .

سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبدالله بن محمد الشعرانى يقول : سمعت إسحق بن إبراهيم بن أبى حسان الأنماطى يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : القناعة[٤] من الرضا بمنزلة الورع من الزهد ، هذا[٥] أول الرضا وهذا[٦] أول الزُّهد .

وقيل القناعة : السكون عند عدم المألوفات .

وقال أبو بكر المراغى : العاقل من دبَّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل ، وأمر الدين بالعلم والاجتهاد .

---

(١) آية ٩٧ من سورة النحل .
(٢) القضاعى عن أنس بنحوه بسند ضعيف .
(٣) رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .
(٤) أى منزلة القناعة .
(٥) أى القناعة .
(٦) أى الورع .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : القناعة : ترك التشوف إلى المفقود ، والاستغناء بالموجود .

وقيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقًا حَسَنًا ﴾[١] يعنى : القناعة .

وقال محمد بن على الترمذى : القناعةُ : رضا النفس بما قسم لها من الرزق .

ويقال : القناعة : الاكتفاء بالموجود ، وزوال الطمع فيما ليس بحاصل .

وقال وهب : إن العزَّ والغنى خرجا يجولان ، يطلبان رفيقا ، فلقيا القناعة ، فاستقرا .

وقيل : من كانت قناعته سمينة[٢] طابت له كل مَرقه[٣] ومن رجع إلى الله تعالى على كل حال رزقه الله القناعة[٤] .

وقيل : مر أبو حازم بقصاب معه لحم سمين ، فقال : خذ يا أبا حازم فإنه سمين . فقال : ليس معى درهم .

فقال : أنا أنظرك . فقال : نفسى أحسن نظرة[٥] لى منك .

وقيل لبعضهم : من أقنع الناس ؟ .

فقال : أكثرهم للناس معونة ، وأقلهم عليهم مؤونة .

وفى الزبور : القانع غنى وإن كان جائعًا .

وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع :

العز فى الطاعة ، والذل فى المعصية ، والهيبة فى قيام الليل ، والحكمة فى البطن الخالى ، والغنى فى القناعة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت نصر بن محمد يقول : سمعت سليمان بن أبى سليمان يقول : سمعت أبا القاسم بن أبى نزار يقول : سمعت إبراهيم المارستانى يقول :

انتقم من حرصْك بالقناعة ، كما تنتقم من عدوك بالقصاص .

وقال ذو النون المصرى : من قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .

---

(١) آية ٥٨ من سورة الحج .
(٢) أى غزيرة كثيرة .
(٣) أى رضى بالقليل المتيسر .
(٤) وهذه العبارة من قوله : ومن رجع . ساقطة فى بعض النسخ .
(٥) أى تأخيرًا وصبرًا .

وقيل : من قنع استراح من الشغل ، واستطال على الكل .

وقال الكتانى : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالعزِّ والمروءة .

وقيل : من تبعت عيناه ما فى أيدى الناس طال حزنه .

وأنشدوا :

وأحسنُ بالفتى من يوم عار ينال به الغنى كرم وجوع

وقيل : رأى رجل حكيمًا يأكل ما تساقط من البقل على رأس ماء فقال : لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا .

فقال الحكيم : وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان .

وقيل : « العقاب[1] عزيز فى مطاره ، لا يسمو إليه طرف[2] صياد . ولا طعمه ، فإذا طمع فى جيفة علقت على حباله[3] ، نزل من مطاره ، فتعلق فى حباله[4] .

وقيل : لما نطق موسى عليه السلام ، بذكر الطمع ، فقال : ﴿ لو شئت لتخذتَ عليه أجرًا ﴾[5] .

قال الخضر له : ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ .

وقيل : لما قال ذلك موسى عليه السلام وقف بين يدى موسى والخضر ، عليهما السلام ظبى وكانا جائعين ، الجانب الذى يلى موسى عليه السلام غير مشوى ، والجانب الذى يلى الخضر مشوى .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعيمٍ ﴾[6] هو القناعة فى الدنيا ، ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحيمٍ ﴾[7] هو : الحرص فى الدنيا .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ فَك رَقَبَةٍ ﴾[8] أى : فكها من ذل الطمع .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيت ﴾[9] يعنى : البخل ، والطمع . ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ يعنى : بالسخاء والإيثار .

---

(١) النسر .

(٢) نظر .

(٣) شبكة يصاد بها .

(٤) شباكه .

(٥) آية ٧٧ من سورة الكهف .

(٦) آية ١٣ من سورة الانفطار .

(٧) آية ١٤ من سورة الانفطار .

(٨) آية ١٣ من سورة البلد .

(٩) آية ٣٣ من سورة الأحزاب .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾[1] أى : مقامًا فى القناعة أنفرد به من أشكالى ، وأكون راضيًا فيه بقضائك .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾[2] يعنى : لأسلبنه القناعة ، ولأبتلينه بالطمع ، يعنى : أسأل الله تعالى ، أن يفعل به ذلك .

وقيل لأبى يزيد : بم وصلت إلى ما وصلت ؟ .

فقال : جمعت أسباب الدنيا ، فربطتها بحبل القناعة ، ووضعتها فى « منجنيق » الصدق ، ورميت بها فى بحر اليأس فاسترحت .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن فرحان « بسامرة » يقول : سمعت خالى عبد الوهاب يقول : كنت جالسًا عند الجنيد ، أيام الموسم ، وحوله جماعة كثيرون من العجم والمولدين .

فجاءه إنسان بخمسمائة دينار ، ووضعها بين يديه ، وقال :

تفرِّقها على هؤلاء الفقراء .

فقال : ألك غيرها ؟ فقال نعم ، لى دنانير كثيرة ، فقال : أتريد غير ما تملك ؟ فقال : نعم : فقال له الجنيد ، خذها ، فإنك أحوج إليها منّا ولم يقبلها .

---

(١) آية ٣٥ من سورة ص .
(٢) آية ٢١ من سورة النمل .

باب التوكل

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَوكَّلْ عَلَى الله فَهُو حَسْبُه ﴾[١] .

وقال : ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُون ﴾[٢] .

وقال : ﴿ وَعَلَى الله فَتَوَكَّلوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٣] .

أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، قال : أخبرنا عبد الله بن جعفر بن أحمد الأصبهانى قال : حدثنا يونس بن حبيب بن عبد القاهر قال : حدثنا أبو داود الطيالسى ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« أريت الأمم بالموسم[٤] ، فرأيت أمتى قد ملئوا السهل والجبل ، فأعجبنى كثرتهم وهيئهتم ، فقيل لى : أرضيت ؟ فقلت : نعم . قال : ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ، لا يكتوون ، ولا يتطيرون ، ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة بن محصن الأسدى ، فقال :

يارسول الله ، ادع أن يجعلنى منهم .

فقال رسول الله ﷺ : اللهمَّ اجعله منهم .

فقام آخر ، فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال ﷺ : « سبقك بها عكاشة »[٥] .

سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت أبا بكر الوجيهى يقول : قال أبو على الروذبارى قلت : لعمرو بن سنان : احك لى عن سهل بن عبد الله حكاية ، فقال إنه قال : علامة المتوكل ثلاث لا يسأل ، ولا يرد ، ولا يحبس .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول : سمعت أبا موسى الديبلى يقول : قيل لابى يزيد ، ما التوكل ؟ .

---

(١) آية ٣ من سورة الطلاق .
(٢) آية ١١ من سورة إبراهيم .
(٣) آية ٢٣ من سورة المائدة .
(٤) أى موسم الحج .
(٥) متفق عليه .

فقال لى : ما تقول أنت ؟ فقلت : إن أصحابنا يقولون :

لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك .

فقال أبو يزيد : نعم ، هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون : ثم وقع لك تمييز عليهما[1] خرجت من جملة التوكل .

وقال سهل بن عبد الله : أول مقام فى التوكل : أن يكون العبد بين يدى الله عزَّ وجل كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

وقال حمدون : التوكل : هو الاعتصام[2] بالله تعالى .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد البلخى يقول : سمعت محمد ابن حامد يقول : سمعت أحمد خضرويه يقول : قال رجل لحاتم الأصمَّ : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[3] .

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن اتفق شىء فبتيسيره .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن عبيد البصرى قال : حدثنا غيلان بن عبد الصمد قال : حدثنا إسماعيل بن مسعود الجحدرى قال : حدثنا خالد بن يحيى قال : حدثنى عمى المغيرة بن أبى قرة ، عن أنس بن مالك قال : « جاء رجل على ناقة له ، فقال : يارسول الله ، أَدَعها[4] وأتوكل ؟ . فقال : اعقلها وتوكل » .

وقال إبراهيم الخواص : من صحَّ توكله فى نفسه ، صحَّ توكله فى غيره .

وقال بشر الحافى : يقول أحدهم : توكلت على الله ، ويكذب على الله تعالى ، لو توكل على الله لرضى بما يفعله الله به .

وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلًا ؟

فقال : إذا رضى بالله تعالى وكيلًا .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن على بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن محمد بن الصامت يقول : سمعت ابراهيم الخواص يقول :

---

(١) أى ميزت أحدهما على الآخر .
(٢) الاعتماد عليه .
(٣) آية ٧ من سورة المنافقون .
(٤) اتركها .

بينما أنا أسير فى البادية ، وإذا بهاتف يهتف ، فالتفت إليه ، فإذا أعرابى يسير فقال لى : يا إبراهيم : التوكل عندنا : أقم عندنا حتى يصح توكلك ، ألم تعلم أن رجاءك لدخول بلد فيه أطعمة يحملك ؟[1] ، اقطع رجاءك عن البلدان وتوكل .

وسمعته يقول سمعت محمد بن أحمد الفلاسى يقول : سمعت ابن عطاء ، وقد سئل عن حقيقة التوكل ، فقال : أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج يقول : شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشبى ، وهو : طرح البدن فى العبودية ، وتعلّق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر وإن منع صبر .

وكما قال ذو النون : التوكل : ترك تدبير النفس ، والانخلاع[2] من الحول والقوة ، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الله سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الفرج الورثانى يقول : سمعت أحمد بن محمد القرمسينى يقول : سمعت الكتانىَّ يقول : سمعت أبا جعفر بن أبى الفرج يقول : رأيت رجلًا يعرف بـ « جمل عائشة » مع الشطار يضرب بالسياط ، فقلت له :

أىّ وقت يكون ألم الضرب عليكم أسهل ؟ فقال :

إذا كان من ضربنا لأجله يرانا .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد يقول : قال الحسين بن منصور لإبراهيم الخواص : ماذا صنعت فى هذه الاسفار ، وقطع هذه المفاوز ؟

قال بقيت فى التوكل أصحح نفسى عليه .

فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عَمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج يقول : التوكل : ما قاله أبو بكر الدقاق ، وهو : رد العيش[3] إلى يوم واحد ، واسقاط همِّ غد .

قال : وهو ، كما قال سهل بن عبد الله ، التوكل : الاسترسال مع الله ، تعالى ، على ما يريد .

---

(١) أى على الإقامة فيه .
(٢) أى التبرى .
(٣) أى : هم العيش .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن جعفر بن محمد يقول سمعت أبا بكر البرذعي يقول ، سمعت أبا يعقوب النهر جوري يقول :

التوكل على الله تعالى بكمال الحقيقة(١) ، ما وقع لإبراهيم ، عليه السلام ، في الوقت الذي قال لجبريل ، عليه السلام : أما إليك فلا ، لأنه غابت نفسه بالله تعالى ، فلم يرمع الله غير الله عزَّ وجلَّ .

وسمعتهُ يقول ، سمعت سعيد بن أحمد بن محمد يقول سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول ، سمعت سعيد بن عثمان الخياط يقول ، سمعت ذا النون المصرى ، وسأل رجل فقال ، ما التوكل . فقال : خلع الأرباب(٢) وقطع الأسباب .

فقال السائل : زدني .

فقال : إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد المعلم يقول . سمعت عبد الله بن المبارك يقول : سمعت حمدون القصار ، وسئل عن التوكل ، فقال :

إن كان لك عشرة آلاف درهم ، وعليك دانق(٣) دين ، لم تأمن أن تموت ويبقى ذلك في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين ، من غير أن تترك لها وفاء ، لاتيأس من الله تعالى أن يقضيه عنك .

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال .

فقال السائل : زدني . فقال : ترك كل سبب يوصّل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولّى لذلك .

وقال سهل بن عبد لله التوكل حال(٤) النبى ﷺ ، والكسبُ سنته ، فمن بقى على حاله ، فلا يتركن سنتهً :

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل : اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب(٥) .

وقيل : التوكل : أن يستوى عندك الإكثار والتقلل .

---

(١) أي : على الحقيقة الكاملة .

(٢) ترك الاعتماد على ما سوى الله .

(٣) الدانق : سدس الدرهم .

(٤) أي صفته وخلقه ومقامه .

(٥) أي جرى وراء الأسباب بلا سكون إليها وسكون إلى الله بلا اضطراب .

وقال ابن مسروق : التوكُّل : الاستسلام لجريان القضاء والأحكام .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا عثمان الحيرى يقول : التوكل : الاكتفاء بالله ، تعالى ، مع الاعتماد عليه .

وسمعته : يقول : سمعت محمد بن غالب يحكى عن الحسين بن منصور قال :

توكل المحق لا يأكل شيئا وفى البلد من هو أحق به منه .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت منصور بن أحمد الحربى يقول حكى لنا ابن أبى شيخ قال : سمعت عمر بن سنان يقول :

اجتاز بنا إبراهيم الخواص ، فقلنا له : حدثنا بأعجب ما رأيته فى أسفارك ، فقال : لقينى الخضر عليه السلام ، فسألنى الصحبة ، فخشيت أن يفسد علىَّ توكلى بسكونى إليهِ . ففارقته .

وسئل سهل بن عبد الله عن التوكل ، فقال : هو قلب عاش مع الله تعالى بلا علاقة[١] .

سمعت الاستاذ أبا على الدقّاق ، رحمه الله ، يقول : للمتوكل ثلاث درجات :

التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض .

فالمتوكل يسكن إلى وعده[٢] ، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه .

وسمعته يقول : التوكل : بداية ، والتسليم : واسطة ، والتفويض نهاية

وسئل الدقاق عن التوكل ، فقال : الأكل بلا طمع .

وقال يحيى بن معاذ :

لبس الصوف[٣] حانوت[٤] ، والكلام فى الزهد حرفة ، وصحبة القوافل تعرض ، وهذه كلها علاقات[٥] .

وجاء رجل إلى الشبلى يشكو إليه كثرة العيال ، فقال :

أرجع إلى بيتك ، فمن ليس رزقه على الله ، تعالى ، فاطرده عنك .

---

(١) أى بلا تعلق بغيره .
(٢) إلى وعده تعالى فى قوله ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ آية ٦ من سورة هود.
(٣) أى : زى الصالحين .
(٤) بسبب .
(٥) أى تعلقات بالأسباب .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول : قرأت على محمد بن الحسين ، قال سهل بن عبد الله :

من طعن فى الحركة[١] فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان .

وسمعته يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت جعفرًا الخلدى يقول : قال إبراهيم الخواص : كنت فى طريق مكة ، فرأيت شخصا وحشيًا .. فقلت : جنى أم إنسى ؟ فقال : جنى . فقلت . إلى أين ؟ فقال : إلى مكة . فقلت : بلا زاد ؟ فقال : فينا أيضًا من يسافر على التوكل فقلت : إيش التوكل ؟ فقال : الأخذ من الله تعالى .

وسمعته يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت الفرغانى يقول : كان إبراهيم الخواص مجردا فى التوكل ، يدقق فيه ، وكان لا يفارقه إبرة وخيوط وركوة[٢] . ومقراض[٣] فقيل له : يا أبا اسحاق ، لم تحمل هذا وأنت تمتنع من كل شىء ؟

فقال : مثل هذا لا ينقض[٤] التوكل ، لأن لله ، سبحانه ، علينا فرائض ، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد ، فربّما يتخرق[٥] ثوبه ، فإن لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه ركوة تفسد عليه طهارته ، فإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ، ولا خيوط ، فاتهمه فى صلاته .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

التوكل : صفة المؤمنين ، والتسليم : صفة الأولياء ، والتفويض : صفة الموحِّدين ، فالتوكل : صفة العوامِّ ، والتسليم : صفة الخواص : والتفويض صفة خواص الخواص .

وسمعته يقول ، التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام ، والتفويض : صفة نبينا محمد ﷺ .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول سمعت محمد بن عبد الله الفرغانى يقول : سمعت أبا جعفر الحدَّاد يقول : مكثت بضع عشرة سنة أعتقد التوكل[٦] وأنا أعمل فى السوق ، وآخذ كل يوم أجرتى ، ولا أنتفع منها بشربة ماء ، لا بدخلة حمام ولكن كنت أجىء بأجرتى إلى الفقراء فى « الشونزية » وأكون مستمرا على حالى .

---

(١) أى الكسب .
(٢) دلو صغيرة .
(٣) مقص .
(٤) أى لا ينافض .
(٥) وفى نسخة : « يتمزق »
(٦) أى عقدته على نفسى .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت الخواص يقول : سمعت الحسين أخاسنان يقول :

حججت أربع عشرة حجة ، حافيًا ، على التوكل ، فكان يدخل فى رجلى شوكة فأذكر أنى قد اعتقدت على نفسى التوكل ، فأحكها فى الأرض وأمشى .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله الواعظ يقول : سمعت خيرا النساج يقول : سمعت أبا حمزة يقول : إنى لأستحى من الله تعالى أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت[1] التوكل ، لئلا يكون سعيى على الشبع زاداً أتزود به .. وسئل حمدون التوكل ، فقال :

تلك درجة لم أبلغها بعد ، وكيف يتكلم فى التوكل من لم يصح له حال الإيمان ؟ .

وقيل : المتوكل كالطفل ، لا يعرف شيئا يأوى إليه إلا ثدى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى إلا إلى ربه تعالى .

وعن بعضهم قال ؟ كنت فى البادية فتقدمت القافلة فرأيت قدامى واحدا .

فتسارعت حتى أدركته ، فإذا هى امرأة بيدها عكاز ، تمشى على التؤدة .. فظننت أنها أعيت ، فأدخلت يدى فى جيبى ، فأخرجت عشرين درهما ، فقلت : خذيها وامكثى حتى تلحقك القافلة فتكترى بها . ثم ائتينى الليلة حتى أصلح أمرك .

فقالت : بيدها هكذا فى الهواء ، فإذا فى كفها دنانير ، فقالت : أنت أخذت الدراهم من الجيب ، وأنا أخذت الدنانير من الغيب .

ورأى أبو سليمان الدارانى رجلًا بمكة ، لا يتناول شيئا إلا شربة من ماء زمزم . فمضى عليه أيام ، فقال له سليمان يوما :

أرأيت لو غارت زمزم إيش كنت تشرب ؟.

فقام ، وقبل رأسه ، وقال : جزاك الله خيرًا ، حيث أرشدتنى ، فأنى كنت أعبد[2] زمزم منذ أيام . ومضى

وقال إبراهيم الخواص : رأيت فى طريق الشام شابًّا حدثًا ، حسن المراعاة ، فقال لى : هل لك فى الصحبة ؟ فقلت : إنى أجوع . فقال : إن جعت جعت معك .

---

(١) أى : عزمت عليه .

(٢) أى متعلقًا بها ساكنًا إلى غير الله .

فبقينا أربعة أيام ، ففتح علينا بشيء ، فقلت : هلم .. فقال : اعتقدت[١] أنى لا آخذ بواسطة فقلت : ياغلام دققت[٢] . فقال : يا إبراهيم ، لا تتبهرج[٣] ، فأن الناقد بصير ، مالك والتوكل ؟ ثم قال : أقل التوكل : أن ترد عليك موارد الفاقات[٤] فلا تسمو نفسك إلا إلى من إليه الكفايات .

وقيل : التوكل : نفى الشكوك ، والتفويض إلى ملك الملوك .

وقيل : دخل جماعة على الجنيد رحمه الله ، فقالوا : أين نطلب الرزق ؟

فقال : إن علمتم فى أى موضع هو ، فاطلبوه منه ، قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك .

فقال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه . فقالوا : ندخل البيت فنتوكل ؟ فقال : التجربة شك[٥] .

قالوا : فما الحيلة ؟ فقال : ترك الحيلة .

وقال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن الحوارى :

يا أحمد ، إن طرق الآخرة كثيرة ، وشيخك عارف بكثير منها إلا هذا التوكل المبارك ، فإنى ما شممت منه رائحة .

وقيل : التوكل : الثقة بما فى يد الله تعالى ، واليأس عما فى أيدى الناس .

وقيل التوكل : فراغ السر عن التفكر فى التقاضى فى طلب الرزق .

وسئل الحارث المحاسبى ، رحمه الله ، عن المتوكل : هل يلحقه طمع ؟

فقال : يلحقه من طريق الطباع خطرات ، ولا تضره شيئًا ، ويقويه على إسقاط الطمع اليأس مما فى أيدى الناس .

وقيل : جاع النورى فى البادية ، فهتف به هاتف : أيما أحبُّ إليك سبب أو كفاية[٦]

فقال : الكفاية ليس فوقها نهاية ، فبقى سبعة عشر يومًا لم يأكل .

---

(١) عزمت .

(٢) أى فى الكلام على التوكل .

(٣) لا تمدحنى .

(٤) جمع فاقة . وهى الحاجة .

(٥) أى إن فعلتم ذلك مجربين هل يرزقكم الله أم لا ، يكون ذلك بمثابة الشك فى أن الله ضامن الأرزاق .

(٦) أى قوة تغنيه عن الطعام والشراب .

وقال أبو على الروذبارى : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أنا جائع ، فالزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب .

وقيل : نظر أبو تراب النخشبى إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام .

فقال له : لا يصلح لك التصوف الزم السوق .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى :

جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفًا . فحدثتنى نفسى . فخرجت إلى الوادى ، لعلى أجد شيئًا يسكن ضعفى .. فرأيت « سلجمة[١] » مطروحة .. فأخذتها .. فوجدت فى قلبى منها وحشة .. وكأن قائلًا يقول لى : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ، فرميت بها ودخلت المسجد فقعدت ، فإذا أنا برجل أعجمى ، جلس بين يدى ووضع « قمطرة »[٢] ، وقال : هذه لك .

فقلت : كيف خصصتنى بها ؟ . فقال : أعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام . وأشرفت السفينة على الغرق .. فنذر كل واحد منا : إن خلصنا الله ، تعالى ، أن يتصدق بشىء ، ونذرت أنا : إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع بصرى عليه من المجاورين[٣] وأنت أول من لقيته .

فقلت : افتحها . ففتحها ، فإذا فيها : كعك سميد[٤] مصرى ، ولوز مقشور ، وسكر كعاب[٥] فقبضت قبضة من ذا ، وقبضة من ذا ، وقبضة من ذا .

وقلت ردَّ الباقى إلى صبيانك ، هو هدية منى لكم ، وقد قبلتها[٦] .

ثم قلت فى نفسى : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى ..

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : كنت عند ممشاد الدينورى ، فجرى حديث الدَّين ، فقال :

كان على دين فاشتغل قلبى . فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول :

يابخيل ، أخذت علينا هذا المقدار ، خذ ، عليك الأخذ ، وعلينا العطاء

فماحاسبت بعد ذلك بقالا ، ولا قصابا ، ولا غيرهم .

---

(١) وهو النبات المعروف بـ « اللفت » .

(٢) القمطرة ، والقمطرة : ما يحفظ فيه الكتب .

(٣) أى المجاورين للحرم .

(٤) الدقيق الجيد .

(٥) معقود .

(٦) أى القمطرة بما فيها ، فاقبل هديتى للباقى .

ويحكى عن بنان الحمال ، قال : كنت فى طريق مكة حرسها الله أجيء من مصر ، ومعى زاد ، فجاءتنى امرأة ، وقالت لى : يابنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد ، وتتوهم أنه لا يرزقك ؟؟ . قال فرميت بزادى . ثم أتى على ثلاث « لم آكل » فوجدت خلخالاً فى الطريق .. فقلت فى نفسى : أحمله حتى يجيء صاحبه ، فربما يعطينى شيئًا فأرده عليه فإذا أنا بتلك المرأة ، فقالت لى : أنت تاجر ؟؟ تقول : حتى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئًا ؟ ثم رمت إليه شيئًا من الدراهم ، وقالت: أنفقها فاكتفيت بها إلى قريب من مكة[1] .

ويحكى عن بنان أنه احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها ، وقالوا : هو ذا ، يجيء النفر فتشترى ما يوافقك .

فلما ورد النفر ، اجتمع رأيهم على واحدة ، وقالوا : إنها تصلح له .

فقالوا لصاحبها : بكم هذه ؟ فقال : إنها ليست للبيع : فألحوا عليه ، فقال : إنها لبنان الحمال ، أهدتها إليه امرأة من « سمرقند » فحملت إلى بنان ، وذكرت له القصة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن الحسين المخزومى يقول : حدثنا أحمد بن محمد بن صالح قال : حدثنا محمد بن عبدون ، قال : حدثنا الحسن الخياط قال :

كنت عند بشر الحافى ، فجاء نفر فسلموا عليه ، فقال : من أين أنتم .

قالوا : نحن من الشام جئنا لنسلم عليك ، ونريد الحج .

فقال : شكر الله تعالى لكم فقالوا : تخرج معنا . فقال : بثلاثة شرائط لا نحمل معنا شيئا ، ولا نسأل أحدًا شيئًا ، وإن أعطانا أحد شيئًا لا نقبله ؟ قالوا : أما أن لا نحمل ، فنعم . وأما أن لا نسأل ، فنعم ، وأما أن لا نقبل إن أعطينا ، فهذا لا نستطيعه .

فقال : خرجتم متوكلين على زاد الحجيج : ثم قال : ياحسن ، الفقراء ثلاثة :

فقير لا يسأل ، وإن أعطى لا يأخذ ، فذاك من جملة الروحانيين .

وفقير لا يسأل ، وإن أعطى قبل ، فذاك مما يوضع له موائد فى حظائر القدس[2] .

وفقير يسأل ، وإن أعطى قبل قدر الكفاية ، فكفارته صدقة .

وقيل لحبيب العجمى : لم تركت التجارة ؟ فقال : وجدت الكفيل ثقة .

وقيل : كان فى الزمن الأول رجل فى سفر ومعه قرص ، فقال : إن أكلت مت .

---

(١) وفى نسخة « من مصر » .

(٢) أى الطهر .

فوكل الله تعالى به ملكا ، وقال : إن أكله فارزقه ، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره .. فلم يزل القرص معه حتى مات ، ولم يأكل ، وبقى عنده القرص .

وقيل : من وقع فى ميدان التفويض يزف إليه المراد كما نزف العروس إلى أهلها ، والفرق بين التضييع والتفويض : أن التضييع فى حق الله تعالى ، وذلك مذموم ، والتفويض فى حقك ، وهو محمود .

وقال عبد الله بن المبارك : من أخذ فلساً من حرام فليس بمتوكل .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى ، رحمه الله ، يقول سمعت نصر بن أبى نصر العطار يقول : سمعت عليا بن محمد المصرى يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : دخلت البادية مرة بغير زاد ، فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة[١] من بعيد ، فسررت بأنى وصلت ، ثم فكرت فى نفسى : أنى سكنت واتكلت على غيره ، فآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة ، وداريت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعوا صوتًا فى نصف الليل عاليًا ، يقول :

يا أهل المرحلة ، إن لله تعالى وليًا ، حبس نفسه فى هذا الرمل ، فألحقوه .

فجاءنى جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن الحسين المخزومى يقول : سمعت أبن المالكى يقول : قال أبوحمزة الخراسانى :

حججت سنة من السنين ، فبينما أنا أمشى فى الطريق ، إذ وقعت فى بئر فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، فقلت : لا والله ، لا أستغيث فما استتمت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان : فقال أحدهما للآخر : تعالى حتى نسد رأس هذه البئر ، لئلا يقع فيها أحد .. فأتوا : بقصب وبارية[٢] ، وطمو[٣] رأس البئر ، فهممت أن أصيح ثم قلت فى نفسى : أصيح[٤] إلى من هو أقرب منهما !! وسكنت ، فبينما أنا بعد ساعة ، إذ أنا بشىء جاء .. وكشف عن رأس البئر ، وأدلى رجله ، وكأنه يقول لى : تعلق بى ، فى همهمة[٥] له كنت أعرف ذلك منه ، فتعلقت به ..

---

(١) أى نهاية المرحلة أى القرية .

(٢) بارية حصير خشن .

(٣) طم البئر بالتراب أى : ملأها حتى استوت مع الأرض .

(٤) وفى نسخة أشكو .

(٥) وفى نسخة بهمهمة .

فأخرجنى ، فإذا هو سبع ، فمر(١) وهتف بى هاتف : يا أبا حمزة ، أليس هذا أحسن !! نجيناك من التلف بالتلف(٢) فمشيت وأنا أقول :

أهابك أن أبدى إليك الذى أخفى
وسرى يبدى ما يقول له طرفى(٣)
نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى
وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى . فأبديت شاهدى(٤)
إلى غائبى(٥) واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب ، حتى كأنما
تبشرنى فى الغيب أنك فى الكف
أراك وبى من هيبتى لك وحشة
فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف
وتحيى محبا أنت فى الحب حتفه
وذا عجب كون الحياة مع الحتف(٦)

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا سعدان التاهرتى يقول : سمعت حذيفة المرعشى يقول ، وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم ، وصحبه ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال :

بقينا فى طريق مكة أيامًا لم نجد طعامًا ، ثم دخلنا الكوفة ، فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم بن أدهم ، وقال : ياحذيفة ، أرى بك أثر الجوع !! فقلت : هو ما رأى الشيخ فقال علىَّ بدواة ، وقرطاس .

فجئت به ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى :

---

(١) وأى جاوزنى .
(٢) وفى نسخة « نجيناك بالتلف من التلف » أى خلصناك بسبب التلف من سبب التلف أى خلصناك بالسبع من تغطية البئر .
(٣) وبعض النسخ سقط فيها هذا البيت الأول .
(٤) حاضر الحاضر .
(٥) حالى الغائب عنى .
(٦) الموت .

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ‏ أنا جائع أنا نائع[١] أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها ‏ فكن الضمين لنصفها يا بارى[٢]
مدحى لغيرك لهب[٣] نار خضتها ‏ فأجر عبيدك من دخول النار[٤]
والنار عندى كالسؤال فهل ترى ‏ أن لا تكلفنى دخول النار[٥]

ثم دفع إلى الرقعة : قال :

اخرج ، ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك .

قال : فخرجت .. فأول من لقينى رجل كان على بغلة ، فدفعتها إليه ، فأخذها وبكى ، وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو فى المسجد الفلانى .

فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار .

ثم لقيت رجلا آخر ، فقلت له : من صاحب هذه البغلة ؟ فقال لى : هو نصرانى فجئت إلى ابراهيم بن أدهم ، وأخبرته بالقصة ، فقال :

لا تمسها[٦] ، فإنه يجىء الساعة .

فلما كان بعد ساعة ، وافى النصرانى ، وأكب على رأس إبراهيم بن أدهم وأسلم :

---

(١) عطشان .
(٢) وفى نسخة يا جارى أى يا قريبًا .
(٣) وفى نسخة وهج .
(٤) أى : من مدح غيرك .
(٥) وسقط هذا البيت الأخير فى بعض النسخ .
(٦) أى الصرة .

باب الشكر

قال الله عز وجل : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1]

وحدثنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان الأهوازى قال : أخبرنا أبو الحسن الصفار ، قال حدثنا الإسقاطى قال : حدثنا منجاب قال : حدثنا يحيى بن يعلى ، عن أبى خباب ، عن عطاء ، قال :

دخلت على عائشة ، رضى الله عنها ، مع عبيد بن عمير ، فقلت :

أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ .

فبكت ، وقالت :

وأى شأنه لم يكن عجبًا ؟ .. إنه أتانى فى ليلة .. فدخل معى فى فراشى ، أو قالت : فى لحافى : حتى مس جلدى ، ثم قال : يابنت أبى بكر ، ذرينى أتعبد لربى .

قالت : قلت : إنى أحب قربك[2] فأذنت له فقام إلى قربة من ماء . فتوضأ . وأكثر صب الماء .. ثم قام يصلى . فبكى ، حتى سالت دموعه على صدره .. ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى .. فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه[3] بالصلاة .

فقلت له : يارسول الله ، ما يبكيك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟!

فقال : أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ ولم لا أفعل : وقد أنزل الله على : ﴿ إِنَّ فى خَلْقِ السَّموات وَالْأَرْضِ ... الآية ﴾ .

قال الأستاذ :

حقيقة الشكر عند أهل التحقيق : الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وعلى هذا القول : يوصف الحق سبحانه ، بأنه : شكور ، توسعًا[4] ، ومعناه : أنه يجازى العباد على

---

(١) آية ٧ من سورة إبراهيم .

(٢) فى ابن كثير : إنى أحب قربك وأحب أن تعبد ربك والحديث رواه ابن مردويه وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه وابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر والاعتبار ..

(٣) أعلمه .

(٤) وفى نسخة « فوصف الحق بأنه شكور توسع » .

الشكر ، فسمى جزاء الشكر شكرًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[١].

وقيل : شكره تعالى : إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير ، من قولهم : دابة شكور : إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف .

ويحتمل أن يقال : حقيقة الشكر : الثناء على المحسن بذكر إحسانه فشكر العبد لله تعالى : ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه ، وشكر الحق ، سبحانه ، للعبد : ثناؤه عليه بذكر إحسانه[٢] له ، ثم إن إحسان العبد : طاعته لله تعالى ، وإحسان الحق : إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له ، وشكر العبد على الحقيقة ، إنما هو : نطق اللسان ، وإقرار القلب بإنعام الرب . والشكر ينقسم إلى :

شكر باللسان : وهو اعترافه بالنعم بنعت الاستكانة .

وشكر بالبدن والأركان : وهو اتصاف بالوفاء والخدمة .

وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة .

ويقال : شكر هو شكر العالمين ، يكون من جملة أقوالهم .

وشكر : هو نعت العابدين ، يكون نوعًا من أفعالهم .

وشكر : هو شكر العارفين ، يكون باستقامتهم له فى عموم أحوالهم .

وقال أبو بكر الوراق : شكر النعمة مشاهدة[٣] المنة ، وحفظ الحرمة[٤] .

قال حمدون القصار شكر النعمة : أن ترى نفسك فيه طفيليا .

وقال الجنيد : الشكر فيه علة ، لأنه[٥] طالب لنفسه المزيد ، فهو واقف مع الله ، سبحانه ، على حظ نفسه .

وقال أبو عثمان : الشكر : معرفة العجز عن الشكر .

ويقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر ، وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه ، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك ، فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر ، إلا ما لا يتناهى .

وقيل : الشكر : إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة .

---

(١) آية ٤٠ من سورة الشورى .
(٢) طاعته .
(٣) أى معرفة .
(٤) أى معرفة قدرها .
(٥) أى الشاكر .

وقال الجنيد : الشكر : أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة .

وقال رويم : الشكر : استفراغ الطاقة[١] .

وقيل : الشاكر : الذى يشكر على الموجود ، والشكور : الذى يشكر على المفقود .

ويقال : الشاكر : الذى يشكر على الرفد[٢] ، والشكور : الذى يشكر على الرد .

ويقال الشاكر : الذى يشكر على النفع ، والشكور : الذى يشكر على المنع .

ويقال : الشاكر : الذى يشكر على العطاء ، والشكور : الذى يشكر على البلاء .

ويقال : الشاكر : الذى يشكر عند البذل ، والشكور : الذى يشكرْ عند المطل .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمة الله ، يقول : سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى يقول : سمعت المرتعش يقول : سمعت الجنيد يقول :

كنت بين يدى السريِّ ألعب ، وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ، ما الشكر ؟ فقلت : ألا تعصى الله بنعمه .

فقال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك .

قال الجنيد ، رحمه الله ، فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى .

وقال الشبلى : الشكر : رؤية المنعم ، لا رؤية النعمة .

وقيل الشكر : قيد[٣] الموجود ، وصيد المفقود .

وقال أبو عثمان : شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى .

وقيل : قال داود ، عليه السلام ، إلهى ، كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة من عندك ؟ .

فأوحى الله إليه : الآن قد شكرتنى .

وقيل : قال موسى عليه السلام فى مناجاته :

إلهى ، خلقت آدم بيدك ، وفعلت .. وفعلت . فكيف شكرك ؟ .

فقال : علم أن ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكره لى .

وقيل . كان لبعضهم صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه ، فقال له صاحبه :

---

(١) استفراغ الطاقة فى الشكر .

(٢) العطاء .

(٣) أى حفظ .

اشكر الله تعالى ، فضرب الرجل ، فكتب إليه ، فقال :

اشكر الله تعالى ، فجيء بمجوسى مبطون ، وقيد ، وجعلت حلقة من قيده على[1] رجل هذا وحلقة على رجل المجوسى ، فكان يقوم المجوسى بالليل مرات وهذا يحتاج أن يقوم على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إلى صاحبه ، فقال :

اشكر الله تعالى فقال : إلى متى تقول ، وأى بلاء فوق هذا ؟ .

فقال له صاحبه : لو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك ، كما وُضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ، ماذا كنت تصنع ؟ .

وقيل : دخل رجل على سهل بن عبد الله ، فقال له : إن اللص دخل دارى ، وأخذ متاعى !! فقال له اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - وأفسد التوحيد ، ماذا كنت تصنع !.

وقيل : شكر العينين : أن تستر عيبا تراه بصاحبك . وشكر الأذنين : أن تستر عيبًا تسمعه فيه .

وقيل : الشكر : التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه عن عطائه .

سمعت السلمى يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسن بن يحيى يقول : سمعت جعفرًا يقول سمعت الجنيد يقول : كان السرى إذا أراد أن ينفعنى يسألنى ، فقال لى يوماً : يا أبا القاسم ، ما الشكر ! فقلت له : أن لا يستعان بشىء من نعم الله ، تعالى ، على معاصيه .

فقال : من أين لك هذا ! فقلت : من مجالستك .

وقيل : التزم الحسن بن على الركن وقال : إلهى . نعمتنى فلم تجدنى شاكرًا !.

وابتليتنى فلم تجدنى صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة بتركى الشكر ولا أدمت الشدة بتركى الصبر ، إلهى ما يكون من الكريم إلا الكرم .

وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر .

وقيل : أربعة لا ثمرة لأعمالهم :

---

(١) أى فى .

مسارة الأصم ، وواضع النعمة عند من لا يشكر ، والباذر فى السبخة ، والمسرج فى الشمس .

وقيل : لما بُشر إدريس ، عليه السلام ، بالمغفرة سأل الحياة[1] ، فقيل له فيه ، فقال لأشكره فإنى كنت أعمل قبله للمغفرة ، فبسط الملك جناحه وحمله عليه إلى السماء .

وقيل ، مر بعض الأنبياء عليهم السلام بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير ، فتعجب منه ، فأنطقه الله معه ، فقال : مذ سمعت الله ، تعالى يقول : ﴿ نَارا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[2] وأنا أبكى من خوفه قال ، فدعا ذلك النبى أن يجير الله ذلك الحجر ، فأوحى الله تعالى إليه أنى قد أجرته من النار ، فمر ذلك النبى ، فلما عاد وجد الماء يتفجر منه مثل ذلك ، فعجب منه فأنطق الله ذلك الحجر معه ، فقال له لم تبكى ، وقد غفر الله لك ؟ فقال : ذلك كان بكاء الحزن والخوف ، وهذا بكاء الشكر والسرور .

عقيل : الشاكر مع[3] المزيد ، لأنه فى شهود النعمة[4] ، قال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[5] والصابر مع الله تعالى ، لأنه بشهود المبتلى[6] ، قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ :

وقيل : قدم وفد على عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، وكان فيهم شاب .. فأخذ يخطب ، فقال عمر : الكبر . الكبر . فقال له الشاب : يا أمير المؤمنين ، لو كان الأمر بالسنِّ ، لكان فى المسلمين من هو أسنُّ منك !! فقال : تكلم فقال :

لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة . أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك وأما الرهبة فقد أمننا منها عدلك . فقال له : فمن أنتم ؟ فقال : وفد الشكر ، جئناك نشكرك وننصرف . وأنشدوا :

ومن الرزية أن شكرى صامت   عما فعلت وأن برك ناطق
أرى الصنيعة منك ثم أسرها[7]   إنى إذن ليد[8] الكريم لسارق

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ارحم عبادى : المبتلى ، والمعافى . فقال : ما بال المعافى ؟ فقال : لقلة شكرهم على عافيتى إياهم .

---

(١) أى إطالتها .
(٢) من آية ٦ سورة التحريم .
(٣) أى كائن .
(٤) أى حضورها .
(٥) آية ٧ من سورة إبراهيم .
(٦) وفى نسخة « المبلى له » .
(٧) أخفيها .
(٨) لنعمته .

وقيل : الحمد على الأنفاس ، والشكر على نعم الحواس .

وقيل الحمد : ابتداء منه ، والشكر : اقتداء منك .

وفى الخبر الصحيح : « أول من يدعى إلى الجنة الحامدون لله على كل حال » :

وقيل : الحمد .. على ما دفع ، والشكر : على ما صنع .

وحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت فى بعض الأسفار شيخًا كبيرًا قد طعن فى السن ، فسألته عن حاله ، فقال : إنى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى ، وهى كذلك كانت تهوانى ، فاتفق أنها زوجت منى ، فليلة زفافها قلنا : تعال : حتى نحيى هذه الليلة شكرًا لله تعالى على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا لصاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فمنذ سبعين ، أو ثمانين سنة ، نحن على تلك الصفة كل ليلة : أليس كذلك يا فلانة ، فقالت العجوز : كما يقول الشيخ .

باب اليقين

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[1] .

حدثنا الاستاذ الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، قال : حدثنا أبو بكر أحمد بن محمود بن خرزاذ الأهوازى بها قال : حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب قال : حدثنا خالد ، يعنى « ابن زيد » قال . حدثنا سفيان الثورى ، وشريك بن عبد الله وسفيان بن عيينة ، عن سليمان التيمى ، عن خيثمة ، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ أنه قال :

« لا ترضين أحدًا بسخط الله تعالى ، ولا تحمدن أحدًا على فضل الله عز وجل ، ولا تذمن أحدًا على ما لم يؤتك الله تعالى ، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهة كاره ، وإن الله تعالى - بعدله وقسطه - ، جعل الرَّوْح[2] والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط »[3] .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال : أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازى قال : حدثنا عياش بن حمزة قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال : قال أبو عبد الله الأنطاكى :

إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب يملأ القلب نورا ، وينفى عنه كل ريب ، ويمتلئ القلب به شكرًا ، ومن الله تعالى خوفًا .

ويحكى عن أبى جعفر الحداد قال : رآنى أبو تراب النخشبى ، وأنا فى البادية جالس على بركة ماء ، ولى ستة عشر يوما لم آكل ولم أشرب فقال لى : ما جلوسك ؟ فقلت : أنا بين العلم واليقين أنتظر ما يغلب فأكون معه ، يعنى « إن غلب على العلم شربت ، وإن غلب اليقين مررت » فقال لى : سيكون لك شأن .

وقال أبو عثمان الحيرى اليقين : قلة الاهتمام لغد .

---

(١) آية ٤ من سورة البقرة .

(٢) أى الراحة .

(٣) رواه القضاعى فى المسند بسند ضعيف .

وقال سهل بن عبد الله : اليقين : من زيادة الإيمان ، ومن تحقيقه .

وقال سهل أيضا : اليقين : شعبة من الإيمان ، وهو دون التصديق .

وقال بعضهم : اليقين : هو العلم المستودع فى القلوب ، يشير هذا القائل إلى أنه غير مكتسب .

وقال سهل : ابتداء اليقين : المكاشفة ، ولذلك قال بعض السلف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، ثم المعاينة والمشاهدة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : اليقين تحقق الأسرار بأحكام المغيبات .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم : بمعارضة الشكوك ، واليقين : لاشك فيه ، أشار إلى العلم الكسبى وما يجرى مجرى البديهى ، وكذلك علوم القوم فى الابتداء كسبى ، وفى الانتهاء بديهى .

سمعت محمد بن الحسين يقول : قال بعضهم : أول المقامات[١] . المعرفة ، ثم اليقين ، ثم التصديق ، ثم الإخلاص ، ثم الشهادة[٢] ، ثم الطاعة ، والإيمان اسم يجمع هذا كله ، أشار هذا القائل إلى أن أول الواجبات ، هو المعرفة بالله سبحانه ، والمعرفة لا تحصل إلا بتقديم شرائطها ، وهو النظر الصائب ، ثم إذا توالت الأدلة ، وحصل البيان ، صار بتوالى الأنوار ، وحصول الإستبصار، كالمستغنى عن تأمل البرهان وهو حال اليقين ، ثم تصديق الحق ، سبحانه ، فيما أخبر عند إصغائه إلى إجابة الداعى فيما يخبر من أفعاله ، سبحانه فى المستأنف[٣] ، لأن التصديق إنما يكون فى الإخبار ثم الإخلاص فيما يتعقبه من أداء الأوامر ، ثم بعد ذلك إظهار الإجابة بجميل الشهادة ، ثم أداء الطاعات بالتوحيد فيما أمر به ، والتجرد عما زجر عنه .

وإلى هذا المعنى أشار الإمام أبو بكر محمد بن فورك ، فيما سمعته ، يقول ذكر اللسان فضيلة يفيض بها[٤] القلب .

وقال سهل بن عبد الله : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى :

وقال ذو النون المصرى : اليقين داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر فى العواقب .

---

(١) درجات الإيمان .
(٢) أى الإقرار باللسان مع الشكر .
(٣) المستقبل .
(٤) فى نسخة . عليها .

وسمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

ثلاثة من أعلام اليقين :

قلة مخالطة الناس فى العشرة ، وترك المدح لهم فى العطية ، والتنزه عن ذمهم عند المنع :

وثلاثة من أعلام يقين اليقين .

النظر إلى الله تعالى فى كلِّ شىء ، والرجوع إليه فى كلِّ أمر ، والاستعانة به فى كل حال .

وقال الجنيد ، رحمه الله اليقين : هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولايحول ولا يتغير فى القلب .

وقال ابن عطاء : على قدر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين .

وأصل التقوى : مباينة النهى ، ومباينة النهى مباينة النفس ، فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين .

وقال بعضهم : اليقين : هو المكاشفة ، والمكاشفة على ثلاثة أوجه :

مكاشفة بالإخبار ، ومكاشفة بإظهار القدرة ، ومكاشفة بحقائق الإيمان .

واعلم أن المكاشفة فى كلامهم ، عبارة ، عن ظهور الشىء للقلب باستيلاء ذكره من غير بقاء للريب ، وربما أرادوا بالمكاشفة ما يقرب مما يراه الرائى بين اليقظة والنوم ، وكثيرًا ما يعبر هؤلاء عن هذه الحالة بـ « الثبات » .

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يقول : سألت أبا عثمان المغربى ، فقلت : ما هذا الذى تقول ؟ .

قال الأشخاص أراهم كذا .. وكذا ، فقلت : تراهم معاينة أو مكاشفة فقال : مكاشفة .

وقال عامر بن عبد قيس : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا .

وقيل : اليقين : رؤية العيان بقوة الإيمان .

وقيل : اليقين : زوال المعارضات .

وقال الجنيد ، رحمه الله ، اليقين : ارتفاع الريب فى مشهد الغيب .

سمعت الاستاذ أبا علي الدقاق ، يقول ، فى قول النبى ﷺ ، فى عيسى ابن مريم عليه السلام : « لو ازداد يقينًا لمشى فى الهواء كما مشيت فيه » .

قال رحمه الله : أنه أشار بهذا إلى حال نفسه ، ﷺ ، ليلة المعراج ، لأن فى لطائف المعراج أنه ، ﷺ قال : « رأيت البراق قد بقى ومشيت » .

سمعت محمد الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرىَّ يقول ، وقد سئل عن اليقين ، فقال :

اليقين : سكونك عند جولان الموارد فى صدرك ، لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت أبا جعفر الأصبهانى يقول : سمعت على بن سهل يقول : الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات[1] ، واليقين خطرات .

كأنه جعل اليقين ابتداء الحضور ، والحضور دوام ذلك . فكأنه جوَّز حصول اليقين خاليًا من الحضور ، وأحال جواز الحضور بلا يقين ، ولهذا قال النورى : اليقين : المشاهدة . يعنى أن فى المشاهدة يقينًا لاشك فيه ، لأنه لا يشاهده ، تعالى من لا يثق بما منه .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين : ملاك القلب ، وبه كمال الإيمان ، وباليقين عرف الله تعالى ، وبالعقل عقل عن الله تعالى .

وقال الجنيد : قد مشى رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش أفضل منهم يقينًا .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفرًا يقول : قال إبراهيم الخواص :

لقيت غلامًا فى التيه[2] ، كأنه سبيكة فضة ، فقلت : إلى أين يا غلام ؟ فقال : إلى مكة : فقلت : بلا زاد ، ولا راحلة ، ولا نفقة ! فقال لى : ياضعيف اليقين ، الذى يقدر على حفظ السموات والأرضين لا يقدر أن يوصلنى إلى مكة بلا علاقة[3] قال : فلما دخلت مكة إذا أنا به فى الطواف وهو يقول :

يا عين سحى أبدا ... يا نفس موتى كمدا
ولا تحبى أحدًا ... إلا الجليل الصمدا

فلما رآنى قال لى : ياشيخ ، أنت بعد على ذلك الضعف من اليقين ؟!.

وسمعته يقول سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت النهر جورى يقول : إذا استكمل

---

(١) من توطن : أى أقام واستوطن .

(٢) التيه : الصحراء التى يتاه فيها .

(٣) العلاقة : ما يتبلغ به العيش ، قال ذلك لقوة يقينه ، ولطف ربه ، وإن كانت السنة حمل الزاد فى السفر ، ولا يدل حمله على ضعف اليقين مطلقًا ، فإن الانبياء والأئمة حملوه فى السفر ، لكنهم لم يعتمدوا عليه وإنما اعتمدوا على ربهم .

العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة ، والرخاء مصيبة .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين على ثلاثة أوجه :

يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة .

وقال أبو تراب النخشبي : رأيت غلامًا في البادية يمشى بلا زاد ، فقلت : إن لم يكن معه يقين فقد هلك ، فقلت : يا غلام ، في مثل هذا الموضع بلا زاد ؟ فقال : ياشيخ ارفع رأسك هل ترى غير الله عزَّ وجلَّ ؟ فقلت :الآن اذهب حيث شئت .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا نصر الاصبهانى يقول سمعت محمد بن عيسى يقول : قال أبو سعيد الخراز : العلم ما استعملك[1] واليقين : ما حملك[2] .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عثمان الآدمى يقول : سمعت إبراهيم الخواص يقول : طلبت المعاش لأكل الحلال فاصطدت السمك ، فيومًا وقعت فى الشبكة سمكة ، فأخرجتها ، وطرحت الشبكة فى الماء فوقعت أخرى فيها ، فرميت بها ثم عدت ، فهتف بى هاتف لم تجد معاشًا إلا أن تأتى من يذكرنا فتقتلهم ..!

قال : فكسرتُ القبصة ، وتركت الاصطياد[3] .

---

(١) أى ما قادك إلى العمل .

(٢) أى بعثك على الجد فى طاعة الله والرضا بقضائه .

(٣) يقول الشيخ زكريا الأنصارى : « ليس ذلك إنكارًا للاصطياد ، ولا لطلب الحلال ، بل عادة الله تعالى أن يؤدب أولياءه بخواطر ينبههم بها على أنهم لا يسكنون إلى غيره تعالى ، فمتى علم تعالى من أحدهم سكونا إلى غيره نبهه ليرجع إليه ويعتمد عليه دون الأسباب » .

باب الصبر

قال الله ، عزَّ وجلَّ : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَاصَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ ﴾[١] .

وأخبرنا عليُّ بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثنا أحمد ابن على الخراز قال : حدثنا أسيد بن زيد قال : حدثنا مسعود بن سعد ، عن الزيات ، عن أبى هريرة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، رفعته[٢] ، قال رسول الله ﷺ : « إن الصبر عند الصدمة الأولى »[٣] .

وأخبرنا على بن أحمد قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا أحمد بن عمر ، قال : حدثنا محمد بن مرداس قال : حدثنا يوسف بن عطية ، عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الصبر عند الصدمة الأولى »[٤] .

ثم الصبر على أقسام :

صبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب له .

فالصبر على المكتسب ، على قسمين :

صبر على ما أمر الله تعالى به ، وصبر على ما نهى عنه .

وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد : فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما يناله فيه مشقة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفر ابن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، وهجران الخلق فى جنب[٥] الله تعالى شديد ، والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد .

وسئل الجنيد عن الصبر ، فقال : هو تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

---

(١) آية ١٢٧ من سورة النحل .

(٢) أى إلى النبى ﷺ .

(٣ ، ٤) متفق عليه .

(٥) أى فى طاعته .

وقال أبو القاسم الحكيم : قوله تعالى : « واصبر » أمر بالعبادة ، وقوله « وما صبرك إلا بالله » عبودية ، فمن ترقى من درجة « لك »[1] إلى درجة « بك » ، فقد انتقل من درجة العبادة إلى درجة العبودية .

قال ﷺ : « بك أحيا وبك أموت » .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت أبا جعفر الرازى يقول : سمعت عياشًا يقول : سمعت أحمد يقول : سألت أبا سليمان عن الصبر ، فقال :

والله ما نصبر على ما نحب ، فكيف على ما نكره ؟ .

وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المخالفات ، والسكونُ عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء : الصبر : الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو الفناء فى البلوى بلا ظهور شكوى .

وقال أبو عثمان : الصبار : الذى عَوَّدَ نفسه الهجوم على المكاره .

وقيل : الصبر : المقام مع البلاء بحسن الصحبة ، كالمقام مع العافية .

وقال أبو عثمان : أحسن الجزاء على عبادة : الجزاء على الصبر ،ولاجزاء فوقه ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وقال عمرو بن عثمان : الصبر . هو الثبات مع الله سبحانه وتعالى ، وتلقى بلائه بالرحب والدعة .

وقال الخوَّاص : هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشدُّ من صبر الزاهدين ، واعجبًا ، كيف يصبرون ؟ وأنشدوا :

الصبر يحمد فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

وقال رويم . الصبر : ترك الشكوى .

---

(١) أشار إلى التفرقة بين الصبر لله ، والصبر بالله . فالصبر لله تشعر بالاستقلال بالفعل ، والصبر بالله تؤذن بالتبرى من الحول والقوة .

(٢) آية ٩٦ من سورة النحل .

وقال ذو النون : الصبر : هو الاستعانة بالله تعالى .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : الصبر كاسمه .

وانشدنى الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : أنشدنى أبو بكر الرازى قال : أنشدنى ابن عطاء لنفسه :

سأصبر ، كى ترضى ، وأتلف حسرة
وحسبى أن ترضى ويتلفنى صبرى

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام ، متصبر ، وصابر ، وصبار .

وقال عليٌّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه : الصبر مطية لا تكبو .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت على بن عبد الله البصرى يقول : وقف رجل على الشبليِّ فقال : أى صبر أشد على الصابرين ؟.

فقال : الصبر فى الله عزَّ وجلَّ ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، قال : لا . قال : الصبر مع الله ، قال : لا . قال : فأى شىء ؟ قال : الصبر عن الله .

قال : فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه أن تتلف .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ، يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول :

الصبر : أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة ، مع سكون الخاطر فيهما ، والتصبر : هو السكون ، مع البلاء ، مع وجدان أثقال المحنة .

وأنشد بعضهم :

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى
وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميرى صبابتى
إلى دمعتى سرًّا فتجرى ولا أدرى

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

فاز الصابرون بعزِّ الدارين ، لأنهم نالوا من الله تعالى معيته : قال الله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(١) .

وقيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾(٢) الصبر : دون المصابرة ، والمصابرة : دون المرابطة .

وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالى ، وصابروا بقلوبكم على البلوى فى الله ، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله .

وقيل : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى ، وإنَّ من أخلاقى أنى أنا الصبور .

وقيل : تجرَّع الصبر ، فإن قتلك قتلك شهيدًا ، وإن أحياك أحياك عزيزا .

وقيل : الصبر لله : عناء ، والصبر بالله : بقاء ، والصبر فى الله : بلاء والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله : جفاء .

وأنشدوا:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وأنشدوا :

وكيف الصبر عمن حل منى ... بمنزلة اليمين من الشمال
إذا لعب الرجال بكلِّ شىء ... رأيت الحب يلعب بالرجال

وقيل : الصبر على الطلب عنوان الظفر ، والصبر فى المحن علامة الفرج .

سمعت منصور بن خلف المغربى ، رحمه الله ، يقول : جُرِّد واحد للسياط ، فلما ردَّ إلى السجن دعا ببعض أصحابه فتفل على يده ، وألقى من فمه دقاق الفضة على يده فسئل ، فقال : كان فى فمى درهمان ، وكان على حاشية الحلقة لى عين ، فلم أرد أن أصيح لرؤيته إياى .. فكنت أعض على الدرهمين .. فتكسرا فى فمى .

---

(١) آية ٤٦ من سورة الأنفال .
(٢) آية ٢٠٠ من سورة آل عمران .

وقيل : حالك التى أنت فيها رباطك ، وما دون الله تعالى أعداؤك ، فأحسن المرابطة فى رباط حالك .

وقيل : المصابرة هى الصبر على الصبر ، حتى يستغرق الصبر فى الصبر فيعجز الصبر عن الصبر ، كما قيل :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر　　فصاح المحب بالصبر صبرًا

وقيل : حبس الشبلى وقتًا فى المارستان ، فدخل عليه جماعة ، فقال : من أنتم ؟ .

فقالوا . أحباؤك جاءوك زائرين .

فأخذ يرميهم بالحجر ، وأخذوا يهربون .

فقال : ياكذابون ، لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى .

وفى بعض الأخبار . بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[١] .

وقال بعضهم : كنت بمكة .. فرأيت فقيرًا طاف بالبيت ، وأخرج من جيبه رقعة ، ونظر فيها ، ومر ، فلما كان بالغد ، فعل مثل ذلك ، فترقبته أيامًا وهو يفعل مثل ذلك ، فيومًا من الأيام طاف ونظر فى الرقعة ، وتباعد قليلًا . وسقط ميتًا ، فأخرجت الرقعة من جيبه ، فإذا فيها :

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[٢] .

وقيل : رؤى حدَث يضرب وجه شيخ بنعله ، فقيل له . ألا تستحى !! تضرب حروجه شيخ بمثل هذا ؟ : فقال : جرمه عظيم . فقيل : وماذاك ؟

فقال : هذا الشيخ يدَّعى أنه يهوانى ، ومنذ ثلاث ما رآنى .

وقال بعضهم : دخلت بلاد الهند ، فرأيت رجلًا بفرد عين « يسمى فلانا الصبور » فسألت عن حاله ، فقيل : هذا فى عنفوان شبابه سافر صديق له ، فخرج فى وداعه ، فدمعت إحدى عينيه ولم تبك الأخرى ، فقال لعينه التى لم تدمع : لِمَ لَمْ تدمعى على فراق صاحبى ؟ لأحرمنك النظر إلى الدنيا وغمض عينه ، فمنذ ستين سنة لم يفتح عينه .

---

(١) آية ٤٨ من سورة الطور .

(٢) آية ٤٨ من سورة الطور .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[١] : الصبر الجميل : أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى من هو .

وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لو كان الصبر والشكر بعيرين ، لم أبال أيهما ركبت .

وكان ابن شبرمة ، رحمه الله ، إذا نزل به بلاء قال : سحابة ثم تنقشع .

وفى الخبر ، أن النبى ﷺ ، سئل عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة »[٢]

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال أخبرنا محمد بن أحمد بن طاهر الصوفى قال : حدثنا محمد بن على التيجانى قال : حدثنا محمد بن اسماعيل البخارى قال : حدثنا موسى بن أسماعيل قال : حدثنا سويد بن حاتم قال : حدثنا عبد الله بن عبيد ، عن عمير ، عن أبيه ، عن جده ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان ، فقال : « الصبر والسماحة »[٣] .

وسئل السرِّى عن الصبر ، فجعل يتكلم فيه ، فدب على رجله عقرب وهى تضربه بإبرتها ضربات كثيرة ، وهو ساكن : فقيل له : لِمَ لَمْ تنحها ؟ .

فقال : استحييت من الله تعالى أن أتكلم فى الصبر ، ولم أصبر .

وفى بعض الأخبار : الفقراء الصبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة .

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أنزلت بعبدى بلائى ، فدعانى ، فماطلته بالإجابة ، فشكانى ، فقلت : ياعبدى ، كيف أرحمك من شىء به أرحمك .

وقال ابن عيينة فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَةً يهدُون بأمْرِنَا لَمَّا صَبَروا ﴾[٤] ، قال :

لما أخذوا برأس الأمر[٥] جعلناهم رؤساء[٦] .

سمعت الأستاذ أبا علىٍّ الدقاق يقول : إن الصبر حده أن لا تعترض على التقدير ، فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر ، قال الله تعالى فى قصة أيوب : ﴿ إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ ﴾[٧] مع ما أخبر عنه تعالى أنه قال ﴿ مَسَّنِى الضُّرُّ ﴾[٨] .

---

(١) آية ٥ من سورة المعارج .
(٢) رواه أبو يعلى والطبرانى .
(٣) رواه أبو يعلى والطبرانى .
(٤) السجدة : ٢٤ .
(٥) أى الصبر .
(٦) أى أئمة .
(٧) آية ٤٤ من سورة ص .
(٨) آية ٨٣ من سورة الأنبياء .

وسمعته يقول : استخرج الله منه هذه المقالة : يعنى قوله : ﴿ مسنى الضر ﴾ لتكون متنفسا لضعفاء هذه الأمة .

وقال بعضهم : إنا وجدناه صابرًا ، ولم يقل « صبورا » لأنه لم يكن جميع أحواله الصبر ، بل كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ، ويستعذبه ، فلم يكن فى حال الاستلذاذ صابرًا ، فلذلك لم يقل : « صبورًا » .

سمعت الأستاذ أبا على ، رحمه الله ، يقول : حقيقة الصبر : الخروج من البلاء على حسب الدخول فيه ، مثل أيوب عليه السلام فإنه قال فى آخر بلائه : ﴿ مَسَّنِى الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فحفظ أدب الخطاب حيث عرض بقوله : ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ولم يصرح بقوله « ارحمنى » .

واعلم أن الصبر على ضربين : صبر العابدين ، وصبر المحبين .

فصبر العابدين ، أحسنه : أن يكون محفوظًا[1] ، وصبر المحبين أحسنه : أن يكون مرفوضًا[2]. وفى معناه أنشدوا :

تبين يوم البين أن اعتزامه
على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وفى هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا على ، رحمه الله ، يقول : أصبح يعقوب ، عليه السلام ، وقد وعد الصبر من نفسه ، فقال : « فصبر جميل أى : فشأنى صبر جميل ، ثم لم يمس حتى قال : يا أسفا على يوسف » .

---

(١) أى دائمًا .
(٢) أى متروكًا .

باب المراقبة

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾[١] .

أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد ابن إسحق ، قال : حدثنا أبو عوانة يعقوب ابن إسحق ، قال : حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم ، قال : حدثنا خالد بن يزيد قال : حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبد الله البجلي ، قال : « جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل ، فقال : يامحمد ، ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقدر : خيره وشره ، وحلوه ومره . قال : صدقت .. قال : فتعجبنا من تصديقه النبي ﷺ وهو يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : صدقت . قال فأخبرني ما الإحسان ؟ قال : الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : صدقت ..» الحديث[٢] .

قال الشيخ : هذا الذى قاله ﷺ : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة ، علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه ، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير له ، ولا يكاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف له ، وأصلح حاله فى الوقت ، ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب ، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس ، وراقب الله تعالى فى عموم أحواله ، فيعلم أنه سبحانه ، عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الجريرى يقول : من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

---

(١) آية ٥٢ من سورة الأحزاب .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق . رحمه الله ، يقول :

كان لبعض الأمراء وزير ، وكان بين يديه يومًا ، فالتفت الى بعض الغلمان الذين كانوا وقوفًا ، لا لريبة ، ولكن لحركة أو صوت أحس به منهم ، فاتفق أن ذلك الأمير نظر إلى هذا الوزير فى تلك الحالة فخاف الوزير أن يتوهم الأمير أنه نظر إليهم ، فجعل ينظر إليه كذلك ، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على هذا الامير ، وهو أبدًا ينظر إلى جانب ، حتى توهم الأمير أن ذلك خلقه ، وحول فيه ، فهذه مراقبة مخلوق لمخلوق ، فكيف مراقبة العبد لسيده ؟.

سمعت بعض الفقراء يقول : كان أمير له غلام يقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من غلمانه ، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، فقالوا له فى ذلك ، فأراد الامير أن يبين لهم فضل الغلام فى الخدمة على غيره . فيومًا من الأيام كان راكبا ، ومعه الحشم ، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج ، فنظر الأمير إلى ذلك الثلج وأطرق رأسه ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم القوم لماذا ركض ! فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء ومعه شىء من الثلج . فقال له الامير : ما أدراك أنى أردت الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرت إليه ، ونظر السلطان إلى شىء لا يكون عن غير قصد صحيح فقال الامير : إنما أخصه بإكرامى وإقبالى ، لأن لكل أحد شغلًا ، وشغله مراعاة لحظاتى ، ومراقبة أحوالى .

وقال بعضهم : من راقب الله تعالى فى خواطره ، عصمه الله فى جوارحه .

وسئل أبو الحسين بن هند : متى يهش الراعى غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة ؟ فقال : إذا علم أن عليه رقيبًا .

وقيل : كان ابن عمر ، رضى الله عنه ، فى سفر ، فرأى غلاما يرعى غنمًا ، فقال له : تبيع من هذه الغنم واحدة ؟ .

فقال : إنها ليست لى فقال : قل لصاحبها إن الذئب أخذ منها واحدة ، فقال العبد : فأين الله !! فكان ابن عمر يقول بعد ذلك إلى مدة : قال ذلك العبد : فأين الله .

وقال الجنيد : من تحقق[1] فى المراقبة خاف فوت حظه من ربه عز وجل لا غير .

وكان بعض المشايخ له تلامذة .. فكان يخص واحدا منهم بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره ، فقالوا له فى ذلك ، فقال : أبين لكم ذلك .. فدفع إلى كل واحد من تلامذته طائرًا ،

---

(١) ثبت .

وقال له : إذبحه بحيث لا يراه أحد ، ودفع إلى هذا أيضا ، فمضوا ، ورجع كل واحد منهم وقد ذبح طائره ، وجاء هذا بالطائر حيا فقال : هلا ذبحته ؟ فقال : أمرتنى أن أذبحه بحيث لا يراه أحد ، فقال : لهذا أخصه بإقبالى عليه .

وقال ذو النون المصرى : علامة المراقبة : إيثار ما آثر الله تعالى ، وتعظيم ما عظم الله تعالى ، وتصغير ما صغر الله تعالى .

وقال النصراباذى : الرجاء : يحركك إلى الطاعات ، والخوف : يبعدك عن المعاصى ، والمراقبة : تؤديك إلى طرق[1] الحقائق .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سألت جعفر بن نصير عن المراقبة ، فقال : مراعاة السر ، لملاحظة نظر الحق سبحانه مع كل خطوة .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت الجريرى يقول : أمرنا هذا مبنى على فصلين وهو[2] أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون العلم على ظاهرك قائما .

وسمعته يقول : سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : سمعت المرتعش يقول : المراقبة : مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة .

وسئل ابن عطاء ما أفضل الطاعات ؟ فقال : مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال إبراهيم الخواص : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول سمعت أبا عثمان المغربى يقول :

أفضل ما يلزم به الإنسان نفسه فى هذه الطريقة : المحاسبة ، والمراقبة وسياسة عمله بالعلم .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول سمعت أبا عثمان : يقول : قال لى أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ولنفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت أبا جعفر الصيدلانى يقول :

---

(١) درجات .

(٢) الأولى أن يقول : « وهما » .

سمعت أبا سعيد الخراز يقول : قال لى بعض مشايخى : عليك ، بمراعاة سرك والمراقبة ، قال : فبينا أنا يوما أسير فى البادية ، إذ أنا بخشخشة خلفى ، فهالنى ذلك .. وأردت أن ألتفت فلم ألتفت .. فرأيت شيئا واقفًا على كتفى .. فانصرف ، وأنا مراع لسرى . ثم ألتفت ، فإذا أنا بسبع عظيم .

وقال الواسطى : أفضل الطاعات حفظ الأوقات . وهو : أن لا يطالع العبد غر حده ، ولا يراقب غير ربه ، ولا يقارن غير وقته .

* * *

انتهى الجزء الأول ويلية الجزء الثانى وأوله « باب الرضا »

فهرس محتويات الجزء الأول

رقم الإيداع	١٩٩٥/٧٧٤٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5015-5

١/٩٠/١٠٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

ذخائر العرب ٧٥

الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري

تحقيق

الإمام الدكتور عبد الحليم محمود   الدكتور محمود بن الشريف

الجزء الثانى

دار المعارف

الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري

تحقيق

الإمام الدكتور عبد الحليم محمود

الدكتور محمود بن الشريف

الجزء الثاني

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

باب الرضا

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ... الآية[١] .

أخبرنا عليّ بن أحمد الأهوازى ، رحمه الله ، قال : حدّثنا أحمد بن عبيد البصرىّ ، قال : حدثنا الكريمى ، قال : حدّثنا يعقوب بن إسماعيل السلالّ ، قال : حدثنا أبو عاصم العبادانى ، عن الفضل بن عيسى الرقاشيّ ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ . « بينا أهلُ الجنة فى مجلس لهم ، إذ سطع لهم نورٌ على باب الجنة ، فرفعوا رءوسهم ، فإذا الربُّ تعالى قد أشرف عليهم ، فقال : يا أهل الجنة ، سلونى . فقالوا : نسألك الرِّضا عنّا ، قال تعالى : رضاى قد أحلكم دارى ، وأنالكم كرامتى ، هذا أوانها ، فاسألونى . قالوا : نسألك الزيادة . قال : فيؤتَون بنجائب من ياقوت أحمر .. أزمتها زُمُرّدٌ أخضر ، وياقوت أحمر ، فجاءوا عليها ، تضع حوافرَها عند منتهى طَرْفها[٢] ، فيأمر الله ، سبحانه ، بأشجار عليها الثمار ، وتجيء جوار من الحور العين ، وهنّ يقلن : نحن الناعمات فلا نبؤس ، ونحن الخالدات فلا نموت ، أزواجِ قوم مؤمنين كرام ، ويأمر الله ، سبحانه ، بكُثْبانٍ[٣] من مسك أبيض أذفر ، فتثير عليهم ريحاً يُقال لها « المثيرة » حتى تنتهى بهم إلى جنّة عدن ، وهى « قصبةُ »[٤] الجنّة ، فتقول الملائكة : يا ربّنا ، قد جاء القوم . فيقول الله : مرحباً بالصّادقين .. مرحباً بالطّائعين .

قال : فيكْشَف لهم الحجاب .. فينظرون إلى الله ، عزّ وجلّ .. فيتمتعون بنور الرحمن ، حتى لا يُبصرَ بعضهم بعضاً ، ثم يقول : أرجعوهم إلى القصور بالتحف قال : فيرجعون ، وقد أبصر بعضهم بعضاً . فقال رسول الله ﷺ : فذلك قوله تعالى : ﴿ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[٥] .

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرِّضا : هل هو من الأحوال ، أو من المقامات .

فأهل خراسان قالوا : الرضا : من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل ، ومعناه : أنه يئول إلى أنه مما يتوَّصل إليه العبد باكتسابه .

---

(١) آية ٨ من سورة البينة .
(٢) أى بصرها .
(٣) أى تلال .
(٤) أى وسطها والمراد أحسنها .
(٥) آية ٣٢ من صورة فصلت .

وأمّا العراقيون ؛ فإنهم قالوا : الرضا : من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسباً للعبد ، بل هو نازلةٌ تحلّ بالقلب كسائر الأحوال .

ويمكن الجمع بين اللسانين[1] ؛ فيقال : بداية الرِّضا مكتسبة للعبد ، وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال ، وليست بمكتسبة .

وتكلّم الناس فى الرِّضا ؛ فكلٌ عبر عن حاله وشِرْبه[2] ، فهم فى العبارة عنه مختلفون ، كما أنهم فى الشِّرْب والنصيب من ذلك متفاوتون .

فأمّا شرط العلم ، والذى هو لابدّ منه : فالراضى بالله تعالى ، هو : الذى لا يعترض على تقديره .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : ليس الرِّضا أن لا تحسَّ بالبلاء ، إنما الرِّضا : أن لا تعترض على الحكم والقضاء .

واعلم أن الواجب على العبد : أن يرضى بالقضاء الذى أمِر بالرِّضا به ؛ إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ؛ كالمعاصى ، وفنون محن المسلمين .

وقال المشايخ : الرِّضا بابُ الله الأعظم ـ يعنون : أنّ من أكرم بالرضا فقد لقى بالترحيب الأوْفى ، وأكرم بالتقريب الأعلى .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : أخبرنا أبو جعفر الرازىّ قال : حدثنا العباس بن حمزة قال : حدثنا ابن أبى الحوارى قال : قال عبد الواحد بن زيد : الرضا بابُ الله الأعظم ، وجنةُ الدنيا .

واعلم : أن العبد لا يكاد يرضى عن الحقّ . سبحانه ، إلا بعد أن يرضى عنه الحقُّ سبحانه ؛ لأن الله عزّ وجلّ قال : ﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[3] .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : قال تلميذ لأستاذه : هل يعرف العبدُ أن الله تعالى راضٍ عنه ؟ فقال : لا ، كيف يعلم ذلك . ورضاه غَيب ؟ فقال التلميذ : بل يعلم ذلك ، فقال : كيف ؟! فقال : إذا وجدتُ قلبى راضياً عن الله تعالى . علمت أنه راضٍ عنى فقال الأستاذ : أحسنت يا غلام .

وقيل : قال موسى عليه السلام : إلهى ، دلنى على عمل إذا عملتهُ رضيتَ به عنى . فقال :

---

(١) أى القولين .

(٢) أى نصيبه .

(٣) آية ٨ من سورة البينة .

إنك لا تُطيق ذلك . فخرّ موسى عليه السلام ساجداً له ، متضرِّعاً ، فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن عمران ، إن رضاى فى رضاك بقضائى .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا أبو جعفر الرازىّ ، قال : حدثنا العباس بن حمزة قال : حدثنا ابن أبى الحوارى قال : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راضٍ .

وسمعته يقول : سمعت النصر اباذى يقول : من أراد أن يبلغ محل الرِّضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه .

وقال محمد بن خفيف : الرضا على قسمين : رضا به ، ورضا عنه ؛ فالرضا به أن يرضاه مدبراً ، والرضا عنه فيما يقْضى .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : طريق السالكين أطول ، وهو طريق الرياضة ، وطريق الخواصّ أقرب ، لكنه أشقُّ ، وهو أن يكون عملك بالرضا ، ورضاك بالقضاء .

وقال رويم : الرضا : أن لو جعل الله جهنم على يمينه ما سأل أن يحوّلها إلى يساره .

وقال أبو بكر بن طاهر : الرضا : إخراج الكراهية من القلب ، حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور .

وقال الواسطى : استعمل الرضا جهدك ، ولا تدع الرضا يستعملك ؛ فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع .

وأعلم أن هذا الكلام الذى قاله الواسطى شيء عظيم ، وفيه تنبيه على مُقطعة للقوم خفيه ، فإن السكون عندهم إلى الأحوال : حجاب عن محول الأحوال ، فإذا استلذّ رضاه ووجد بقلبه راحة الرضا حجب بحاله عن شهود حقه .

ولقد قال الواسطى أيضاً : إياكم واستحلاءَ الطاعات ، فإنها[1] سموم قاتلة .

وقال ابن خفيف : الرضا : سكون القلب إلى أحكامه ، وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره له .

وسئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرّته المصيبة كما سرَّته النعمة .

---

(١) الأولى أن يقال . فإنه . أى استحلاء الطاعات . أى التلذذ بنوع منها .

وقيل . قال الشبلى بين يدى الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال له الجنيد : قولك ذا ضِيقُ صدر ، وضِيقُ الصدر لترك الرضا بالقضاء ، فسكت الشبلى .

وقال أبو سليمان الدارانى : الرضا : أن لا تسأل الله تعالى الجنة ، ولا تستعيذ به من النار .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادىَّ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول : سمعت سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون المصرى ، رحمه الله ، يقول : ثلاثة من أعلام الرضا :

ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحبّ فى حشو البلاء .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن جعفر البغدادى يقول : سمعت إسماعيل بن محمد الصفار يقول : سمعت محمد بن يزيد المبرِّد يقول : قيل للحسين بن علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنهما : إنَّ أبا ذرّ يقول : الفقر أحب إلىَّ من الغنى ، والسقم أحبّ إلىّ من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرّ ، أما أنا فأقول : من اتّكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمنَّ غيرَ ما اختاره الله عز وجلّ له .

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافىّ : الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا ؛ لأن الراضى لا يتمنى فوق منزلته .

وسئل أبو عثمان عن قول النبى ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء » فقال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول : سمعت ابن أبى حسان الأنماطى يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان يقول : أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرضا : لو أنه أدخلنى النار لكنت بذلك راضياً .

وقال أبو عمر الدمشقى : الرِّضا : ارتفاع الجزع فى أىَّ حكم كان ، وقال الجنيد : الرضا : رفع الاختيار ، وقال ابن عطاء الرضا : نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، وهو ترك التّسَخط ، وقال رُويم الرضا : استقبال الأحكام[1] بالفرح ، وقال المحاسبى : الرضا : سكون القلب تحت مجارى الأحكام ، وقال النورى[2] : الرضا : سرور القلب بُمرِّ القضاء .

---

(١) أى البلايا .

(٢) وفى نسخة « ذو النون » .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسين الفارسي يقول : سمعت الجريرى يقول : من رضى بدون قَدْره رفعه الله تعالى فوق غايته .

وسمعته يقول : سمعت أحمد بن على يقول : سمعت الحسن بن عَلَوية يقول : قال أبو تراب النخشبى : ليس ينال الرضا من للدنيا فى قلبه مقدار .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : أخبرنا أبو عمرو بن حمدان قال : حدثنا عبد الله بن شترويه قال : حدثنا بشر بن الحكم قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن يزيد بن الهادى ، عن محمد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ :

« ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا » .

وقيل : كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنهما » : « أما بعد ، فإن الخير كله فى الرضا ، فإن استطعتَ أن ترضى ، وإلا ، فاصبر » .

وقيل : إنَّ عتبة الغلام بات ليلة يقول إلى الصباح : « إن تعذبنى فأنا لك محب ، وإن ترحمنى فأنا لك مُحب » .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، يقول : الإنسان خزف ، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحقِّ تعالى .

وقال أبو عثمان الحيرى : منذ أربعين سنة ما أقامنى الله ، عز وجل ، فى حال فكرهتهُ ، وما نقلنى إلى غيره فسخطته .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : غضب رجل على عبدٍ له ، فاستشفع العبد إلى سيده إنساناً ، فعفا عنه ، فأخذ العبد يبكى ، فقال له الشفيع : لمَ تبكى وقد عفا عنك سيدك ؟

فقال له السيدُ : إنما يطلب الرضا منى ولا سبيل له إليه ، فإنما يبكى لأجله[1] .

---

(١) فإن العفو غير الرضا .

باب العبودية

قال الله عزّ وجلّ . ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[1] .

وأخبرنا أبو الحسن الإهوازى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال حدّثنا عبيد بن شريك قال : حدثنا يحيى قال : حدثنا مالك ، عن حبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن عمر بن الخطاب ، عن أبى سعيد الخدرى ، وأبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظله : إمامٌ عادل ، وشاب نشأ فى عبادةِ الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه ، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : إنى أخاف الله ربّ العالمين ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول :

العبودية أتم من العبادة ، فأولاً : عبادة ، ثم عبودية ؛ ثم عبودة .

فالعبادة للعوامّ من المؤمنين ، والعبودية للخواصّ ، والعبودة لخاصّ الخاصّ .

وسمعته يقول : العبادة : لمن له علم اليقين ، والعبودية ؛ لمن له عين اليقين ، والعبودة : لمن له حق اليقين .

وسمعته يقول : العبادة : لأصحاب المجاهدات ، والعبودية : لأرباب المكابدات ، والعبودة : صفة أهل المشاهدات ، فمن لم يدّخر عنه نفسَه ، فهو صاحب عبادة ، ومن لم يضنَّ عليه بقلبه فهو صاحب عبودية : ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة .

ويقال : العبودية : القيام بحقّ الطاعات بشرط التوفير[2] والنظير إلى ما منك بعين التقصير ، وشهود ما يحصل من مناقبك من التقدير .

ويقال : العبودية : ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار .

---

(١) آية ٩٩ من سورة الحجر .

(٢) أى موفرة كاملة .

ويقال : العبودية : التبرؤ من الحول والقوة ، والإقرارُ بما يعطيك ويوليك من الطوْل[١] والمنة .

ويقال : العبودية : معانقة ما أمرت به ، ومفارقة ما زجرت عنه .

وسئل محمد بن خفيف : متى تصحّ العبودية ؟ فقال : إذا طرح كله[٢] على مولاه ، وصبر معه على بلواه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت ابن مسروق يقول : سمعت سهل بن عبد الله يقول : لا يصح[٣] التعبد لأحدٍ حتى لا يجزع من أربعة أشياء : من الجوع والعرى ، والفقر ، والذلّ .

وقيل : العبودية : أن تسلم إليه كلكَ ، وتحمل عليه كلك .

وقيل : من علامات العبودية : تركُ التدبير ، وشهودُ التقدير .

وقال ذو النون المصرىّ : العبودية : أن تكون أنت عبده فى كلّ حال ، كما أنه ربك فى كل حال .

وقال الجريرى : عبيدُ النعم كثير عديدهم ؛ وعبيدُ المنعم عزيزٌ وجودهم .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : أنت عبدُ من أنت فى رقه وأسره ، فإن كنت فى أسر نفسك فأنت عبدُ نفسك ، وإن كنت فى أسر دنياك فأنت عبدُ دنياك .

قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة »[٤] .

ورأى أبو رزين رجلًا فقال له : ما حِرفتك ؟ فقال : خر بندة »[٥] .

فقال : أمات الله تعالى حمارك ، لتكون عبد الله ، لا عبد الحمار .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن يقول : سمعت جدّى أبا عمرو بن نجيد يقول : لا تصفو لأحدٍ قدمٌ فى العبودية حتى يشاهد أعماله عنده رياء ، وأحواله دعاوى . وسمعته يقول : سمعت عبد الله المعلم يقول : سمعت عبد الله بن منازل يقول : العبد عبد مالم يطلب لنفسه خادماً ،

---

(١) الطول . الغنى .
(٢) أى ثقله .
(٣) أى لا يصلح .
(٤) الخميصة : كساء أسود مربع من خز أو صوف .
(٥) لفظة غير عربية معناها : خادم حمارى .

فإذا طلب لنفسه خادماً فقد سقط عن حدّ العبودية وترك آدابها .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت ابن مسروق يقول : سمعت سهل بن عبد الله يقول : لا يصلح للعبد التعبد حتى يكون بحيث لا يرى عليه أثر المسكنة فى العدم ، ولا أثر الغنى فى الوجود وقيل : العبودية شهود الربوبية .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : سمعت النصر اباذى يقول : قيمة العابد بمعبوده ، كما أنّ شرف العارف بمعروفه .

وقال أبو حفص : العبودية زينة العبد ، فمن تركها تعطل من الزينة .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا جعفر الرازى يقول سمعت عباس بن حمزة يقول : حدثنا أحمد بن الحوارى قال : سمعت النباجى يقول : أصل العبادة فى ثلاثة أشياء :

لا تردَّ من أحكامه شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً ، ولا يسمعك تسأل غيره حاجة .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : سمعت ابن عطاء يقول : العبودية فى أربع خصال : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر عن المفقود .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت الكتانى يقول : سمعت عمرو بن عثمان المكىَّ يقول : ما رأيت أحداً من المتعبدين ، فى كثرة من لقيت بمكة وغيرها ، ولا أحداً ممن قدم علينا فى المواسم أشدّ اجتهاداً ولا أدوم على العبادة من المزنى[١] ، رحمه الله تعالى ، ولا رأيت أحداً أشدّ تعظيماً لأوامر الله تعالى منه ، وما رأيت أحداً أشد تضييقاً على نفسه وتوسعة على الناس منه .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : ليس شىء أشرف من العبودية ، ولا اسم[٢] أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه فى وصف النبى ﷺ ليلة المعراج – وكان أشرف أوقاته فى الدنيا – ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾[٤] ، فلو كان اسمٌ أجلّ من العبودية لسماه به .

---

(١) من أصحاب الإمام الشافعى .

(٢) أى : وصف .

(٣) آية ١ من سورة الإسراء .

(٤) آية ١٠ من سورة النجم .

وفى معناه أنشدوا :

يا عمرو ثارى عند زهرائى يعرفُهُ السامعُ والرائى
لا تدعنى إلا بياعبدها فإنه أشرف أسمائى

وقال بعضهم : إنما هو شيئان : سكونك إلى اللذة ، واعتمادك على الحركة، فإذا أسقطت عنك هذين فقد أديتَ العبودية حقها .

كما قال الواسطى : احذروا لذة العطاء ؛ فإنها غطاء لأهل الصفاء .

وقال أبو على الجوزجانى : الرضا : دار العبودية ، والصبر بابه ، والتفويض بيته ، فالصوت على الباب والفراغة فى الدار والراحة فى البيت .

سمعت الأستاذ أبا علىَّ الدقاق يقول : كما أن الربوبية نعت للحقِّ سبحانه لا يزول عنه ، فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه مادام .

وأنشد بعضهم :

فإن تسألونى قلت : ها أنا عبدهُ وإن سألوه قال ها ذاك مولايا[1]

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت النصر اباذى يقول : العبادات إلى طلب الصفح والعفو عن تقصيرها أقربُ منها إلى طلب الإعواضِ والجزاء عليها .

وسمعته يقول : سمعت النصر أباذى يقول : العبودية اسقاط رؤية التعبّد فى مشاهدة المعبود .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت الجريرى يقول . سمعت الجنيد يقول : العبودية ، تركُ الأشغال ، والاشتغالُ بالشغل الذى هو أصل الفراغة[2] .

---

(١) أى عبدى ومملوكى .

(٢) الفراغة : الجزع . قال الشيخ زكريا : بأن يشتغل العبد بالطاعات ويرى الفضل لمجريها عليه فى عموم الأوقات فإذا وصل إلى هذه الحالة استراح قلبه من هم التقديرات ورضى وفوض أمره إلى خالق البريات ، وهذه هى الفراغة من كل ما يضر .

باب الإرادة

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ والْعشىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[١] .

وأخبرنا : على بن أحمد بن عبدان قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا هشام بن على قال : حدثنا الحكم بن أسلم قال : أخبرنا إسماعيل بن جعفر ، عن حميد ، عن أنس رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله . فقيل له : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت[٢] » .

والإرادةُ : بدء طريق السالكين ، وهى اسم لأوّل منزلة القاصدين إلى الله تعالى .

وإنما سميت هذه الصفة : إرادة : لأن الإرادة مقدِّمة كلِّ أمر ، فما لم يُرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا أوَّل الأمر لمن سلك طريق الله عز وجل سُمى : إرادة تشبيها بالقصد فى الامور الذى هو مقدمتها .

والمريد ، على موجب الاشتقاق : من له إرادة ، كما أن العالم : من له علم ؛ لأنه من الأسماء المشتقة .

ولكن المريد فى عُرف هذه الطائفة : من لا إرادة له ، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً ، كما أنَّ من لا إرادة له ، على موجب الاشتقاق ، لا يكون مريداً .

وتكلّم الناس فى معنى الإرادة ؛ فكلٌّ عبر على حسب ما لاح لقلبه ، فأكثر المشايخ قالوا :

الإرادة : ترك ما عليه العادة ، وعادة الناس - فى الغالب - التعريجُ[٣] فى أوطان الغفلة ، والركونُ إلى اتّباع الشهوة ، والإخلادُ إلى ما دعت إليه المُنْيَة[٤] .

والمريد منسلخ عن هذه الجملة ؛ فصار خروجه إمارة ودلالةً على صحة الإرادة ، فسميت تلك الحالة : إرادة ، وهى خروج عن العادة ؛ فإن[٥] ترك العادة أمارة الإرادة .

---

(١) آية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده والترمذى وابن حيان والحاكم عن أنس وتمامه (... ثم يقبضه عليه) وروى نحوه عمرو بن الحمق أن النبى ﷺ قال « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قيل وما استعمله ؟ قال يفتح له عملاً صالحاً بين يدى موته حتى يرضى عنه من حوله) رواه أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك .

(٣) أى الإقامة .

(٤) أى المبتغى والمقصود .

(٥) وفى نسخة « فإذن » .

فأما حقيقتها : فهى نهوض القلب فى طلب الحقّ ، سبحانه ، ولهذا يقال : إنّها لوعةٌ تهوِّن كلَّ روْعة[١] .

سمعت : الأستاذ أبا علىّ الدقائق ، رحمه الله ، يقول حاكياً عن ممشاد الدينورى ، أنه قال : مذْ علمتُ أن أحوال الفقراء جدٌّ كلها لم أمازح فقيراً ؛ وذلك أن فقيراً قدم علىّ فقال : أيها الشيخ أريد أن تتخذ لى عصيدة .. فجرى على لسانى إرادة وعصيدة فتأخّر الفقير ولم أشعر به ، فأمرتُ باتخاذ عصيدة .. وطلبت الفقير فلم أجده .. فتعرَّفت خبره .. فقيل لى : إنه انصرف من فوره ، وكان يقول فى نفسه : إرادة وعصيدة .. إرادة وعصيدة .. وهام على وجهه حتى دخل البادية ، ولم يزل يقول هذه الكلمات حتى مات .

وعن بعض المشايخ قال : كنت بالبادية وحدى ، فضاق صدرى ، فقلت : يا إنس ، كلّمونى .. يا جنّ كلّمونى ، فهتف بى هاتف : ما تريد ؟ فقلت : أريد الله تعالى ، فقال : متى تريد الله ؟ يعنى : أنّ من قال للجن والإنس : كلمونى ، متى يكون مريداً لله عزّ وجل ؟! والمريد لا يفتر آناء الليل والنهار ، فهو فى الظاهر بنعت المجاهدات ، وفى الباطن يوصف المكابدات .. فارق الفِراش ، ولازم الانكماش ، وتحمّل المصاعب ، وركب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاقّ ، وعانق الأهوال ، وفارق الأشكال ، كما قيل :

تم قطعت الليل فى مَهْمَةٍ[٢]   لا أسد أخشى ولا ذيبا
يغلبنى شوقى فأطوِى السُّرَى[٣]   ولم يزل ذو الشوق مغلوبا

سمعت : الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : الإرادة : لوعة فى الفؤاد .. لدغة فى القلب .. غرام فى الضمير .. انزعاج فى الباطن .. نيران تتأجج فى القلوب .

سمعت محمد بن ا لحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت أبا بكر السباك يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : كان بين أبى سليمان وأحمد بن أبى الحوارى عَقد : لا يخالفه أحمد فى شىء يأمره به .. فجاءه يوماً وهو يتكلم فى مجلسه ، فقال : إن التنُّور قد سُجر[٤] ، فما تأمر ؟ فلم يجبه ، فقال مرتين أو ثلاثة ، فقال أبو سليمان : اذهب فاقعد فيه !! كأنه ضاق به قلبه ، وتغافل عنه أبو سليمان ساعةً ، ثم ذكر[٥] فقال : أدركوا أحمد فإنه فى التنور ؛ لأنه آلى على نفسه أن لا يخالفنى ؛ فنظروا فإذا هو فى التنور لم تحترق منه شعرة .

---

(١) فزعة .
(٢) صحراء .
(٣) السير ليلاً .
(٤) حمى .
(٥) تذكر .

وسمعت الأستاذ أبا علىّ ، يقول : كنت فى ابتداء صباى محترقاً[١] فى الإرادة وكنت أقول فى نفسى : ليت شعرى !! ما معنى الإرادة .

وقيل : من صفات المريدين : التحببُ إليه بالنوافل ، والخلوصُ فى نصيحة الأمّة ، والأنسُ بالخلوة ، والصبرُ على مقاساة الأحكام ، والإيثارُ لأمره ، والحياءُ من نَظَره ، وبذل المجهود فى محبوبه ، والتعرّضُ لكلِّ سبب يوصل إليه ، والقناعة بالخمول[٢] ، وعدمُ القرار بالقلب إلى أن يصل إلى الربّ .

وقال أبو بكر الورّاق : آفة المريد ثلاثةُ أشياء : التزويج ، وكتابة[٣] الحديث ، والأسفار .

وقيل له : لِمَ تركت كتابة الحديث ؟ فقال : منعتنى عنها الإرادة .

وقال حاتم الأصمّ : إذا رأيت المريد يريد غيرَ مُراده ، فاعلم أنه قد أظهر بَذَالته[٤] .

سمعت : محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الكتانى . يقول : مِن حكم ا لمريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومه غلبة ، وأكله فاقة ، وكلامه ضرورة .

وسمعته يقول : سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول : إذا أراد الله تعالى بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ، ومنعه صحبة القُراء[٥] :

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت الرَّقِىَ يقول : سمعت الدقاق يقول : نهايةُ الإرادة أن تشير إلى الله تعالى فتجده مع الإشارة ، فقلت : فأى شىء يستوعب الإرادة ؟ فقال : أن تجد الله تعالى بلا إشارة .

سمعت : محمد بن عبد الله الصوفىَّ يقول : سمعت عباس بن أبى الصحو يقول : سمعت أبا بكر الدقاق يقول : لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحبُ الشمال عشرين سنة .

وقال أبو عثمان الحيرى : من لم تصحّ إرادته بِداراً[٦] لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدباراً .

وقال أبو عثمان : المريد إذا سمع شيئا من علوم القوم فعمل به صار حكمةً فى قلبه إلى آخر

---

(١) أى شديد الطلب .

(٢) أى الرضا بالخفاء ، ليسلم من شر الظهور والشهرة .

(٣) أى التفرغ والانقطاع لكتابة الحديث وقراءته ودرسه ، إذ يشغله ذلك الانقطاع عن القيام بإصلاح روحه .

(٤) وفى نسخة « نذالته » أى خبث باطنه .

(٥) أى المنتصرين على القراءة للتعبد فحسب . وفى نسخة « الفقراء » .

(٦) أى ابتداء .

عمره ، ينتفع به ، ولو تكلم به انتفع به من سمعه ، ومن سمع شيئا من علومهم ، ولم يعمل به ، كان حكايةً يحفظها أياما ثم ينساها .

وقال الواسطى : أوّل مقام المريد : إرادة الحقّ ، سبحانه ، بإسقاط إرادته .

وقال يحيى بن معاذ : أشد شىء على المريدين : معاشرة الأضداد .

سمعت : الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا القاسم الرازىّ يقول : قال يوسف بن الحسين : إذا رأيت المريد يشتغل بالرُّخَص والكسب ؛ فليس يجىء منه شىء .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت جعفرا الخلدى يقول : سئل الجنيد : ما للمريدين فى مجاراة الحكايات ؟ فقال : الحكاياتُ جند من جنود الله تعالى ، يقوِّى بها قلوب المريدين . فقيل له : فهل لك فى ذلك شاهد ؟ فقال : نعم ، قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنباءِ الرسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[1] .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن خالد يقول : سمعت جعفراً يقول : سمعت الجنيد يقول : المريد الصادق غنى عن علم العلماء .

فأمّا الفرق بين المريد والمراد : فكلُّ مريد على الحقيقة مراد . إذ لو لم يكن مراد الله تعالى بأن يريده لم يكن مريدا ؛ إذ لا يكون إلا ما أراده الله تعالى ، وكلّ مرادٍ مريد ؛ لأنه إذا أراده الحقُّ سبحانه بالخصوصية وفقه للإرادة . ولكن القوم فرّقوا بين المريد والمراد :

فالمريد عندهم هو المبتدئ ، والمراد : هو المنتهى ، والمريد : الذى نصب بعين التعب وألقى فى مقاساة المشاقّ ، والمراد : الذى كُفى بالأمر من غير مشقة ، فالمريد مُتَعَنٍّ ، والمرادُ : مرفوقٌ به مرفَّه .

وسنَّة الله تعالى مع القاصدين مختلفةٌ ؛ فأكثرهم يوفقّون للمجاهدات ، ثم يصلون ، بعد مقاساة اللتيّا والتى ، إلى سَنِىِّ المعانى . وكثير منهم يكاشفون فى الابتداء بجليل المعانى ، ويصلون إلى ما لم يصل إليه كثيرون من أصحاب الرياضات ، إلا أن أكثرهم يردّون إلى المجاهدات بعد هذه الأوفاق ؛ ليستوفى منهم ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : المريد : مُتحمِّل ، والمراد : محمول .

---

(١) آية ١٢٠ من سورة هود .

وسمعته يقول : كان موسى ، عليه السلام ، مريدا ، فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾[١] ، وكان نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، مرادًا ، فقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الذى أنقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[٢] ، وكذلك قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ ، أَرِنِى أَنْظُرْ إِليكَ ، قَالَ : لَنْ تَرَانِى ﴾[٣] .

وقال لنبينا ، ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾[٤] .

وكان أبو على يقول : إن المقصود قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ وقوله ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ : سترٌ للقصة وتحصينٌ للحالة .

وسئل الجنيد ، رحمه الله ، عن المريد والمراد ، فقال :

المريد : تتولاه سياسة العلم ، والمراد : تتولاه رعاية الحق ، سبحانه ، لأن المريد يسير ، والمراد يطير ، فمتى يلحق السائرُ الطائرَ ؟

وقيل : أرسل ذو النون إلى أبى يزيد رجلًا ، وَقال له : قل له إلى متى النوم والراحة ، وقد جازت القافلة ؟!

فقال أبو يزيد : قال لأخى ذى النون : الرجل من ينام الليل كله ، ثم يُصبح فى المنزل قبل القافلة .

فقال ذوى النون : هنيئاً له ؛ هذا كلام لا تبلغه أحوالنا .

---

(١) آية ٢٥ من سورة طه .
(٢) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الإنشراح .
(٣) آية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٤) آية ٤٥ من سورة الفرقان .

باب الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . ﴾[١] .

أخبرنا : الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك ، رحمه الله ، قال : حدثنا عبد الله بن جعفر بن أحمد الأصبهانى قال : أخبرنا أبو بشر يونس بن حبيب قال حدثنا أبو داود الطيالسى قال : حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن ثوبان مولى النبى ﷺ ، عن النبى ﷺ ، قال : استقيموا ولن تحصوا[٢] ، واعلموا أن خير دينكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[٣] .

والاستقامة : درجة بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن لم يكن مستقيما فى حالته ضاع سعيه وخاب جُهده ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْد قُوَّة أَنْكَاثا[٤] ﴾[٥] .

ومن لم يكن مستقيما فى صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره ، ولم يبن سلوكه على صحة ؛ فمن شرط المستأنف : الاستقامة فى أحكام البداية ، كما أن من حق العارف الاستقامة فى آداب النهاية .

فمن أمارات استقامة أهل البداية : أن لاتشوب معاملاتهم فترة[٦] .

ومن أمارات استقامة أهل الوسائط : أن لا يصحب منازلهم وقفة[٧] .

ومن أمارات استقامة أهل النهاية : أن لا تتداخل مواصلتهم حجبةٌ[٨] .

سمعت : الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها :

---

(١) آية ٣٠ من سورة فصلت .
(٢) لن تحصوا : أى لن تستطيعوا القيام بها كاملة فاستقيموا على قدر طاقتكم واستطاعتكم .
(٣) أخرجه أحمد فى مسنده وابن ماجه ، والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن .
(٤) أنكاثًا : طاقات .
(٥) آية ٩٢ من سورة النحل .
(٦) فترة أى : فتور .
(٧) وقفة : استحسان .
(٨) حجبة : حجاب .

التقويم ، ثم الإقامة ، ثم الاستقامة ؛ فالتقويم ، من حيثُ تأديبُ النفوس . والإقامةُ : من حيث تهذيبُ القلوب ، والاستقامة : من حيث تقريبُ الأسرار .

وقال أبو بكر ، رضى الله عنه ، فى معنى قوله : « ثم استقاموا » : لم يشركوا .

وقال عمر ، رضى الله عنه ، لم يزوغوا زوغان الثعالب .

فقول الصدّيق ، رضى الله عنه ، محمول على مراعاة الأصول فى التوحيد .

وقول عمر ، رضى الله عنه ، محمول على طلب التأويل والقيامٍ بشرط العهود .

وقال ابن عطاء : استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى .

وقال أبو على الجوزجانى : كن صاحب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ؛ فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة ، وربُّك ، عز وجلّ ، يطالبك بالاستقامة .

سمعت : الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا علّى الشَّبوى يقول : رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقلت له : روى عنك يا رسول الله أنك قلت : « شيبتنى هود[1] » فما الذى شيبك منها : قصص الأنبياء وهلاكُ الأمم ؟

فقال : لا ، ولكن قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾[2] .

وقيل : إن الاستقامة لا يطيقها إلاّ الأكابر ؛ لأنها الخروج عن المعهودات ، ومفارقةُ الرسوم والعادات والقيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق ؛ ولذلك قال ﷺ : « استقيموا ولن تحصوا » .

وقال الواسطى : « الخصلة التى بها كملت المحاسن ، وبفقدها قبحت المحاسن : الاستقامة .

وحكى عن الشبلى ، رحمه الله ، أنه قال : الاستقامة : أن تشهد الوقت قيامة .

ويقال : الاستقامة فى الأقوال : بترك الغيبة ، وفى الأفعال : بنفى البدعة ، وفى الأعمال بنفى الفترة[3] ، وفى الأحوال بنفى الحجبة .

سمعت : الأستاذ الإمام أبا بكر محمد بن الحسين بن فورك يقول :

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن عقبة بن عامر وعن أبى جحيفة وقال حديث صحيح . وله روايات عدة انظر الفيض القدير شرح الجامع الصغير .

(٢) آية ١١٢ من سورة هود .

(٣) أى الفتور .

السين فى الاستقامة : سين الطلب ، أى : طلبوا من الحقّ ، تعالى ، أن يقيمهم على توحيدهم ، ثم على استدامة عهودهم ، وحفظ حدودهم .

قال الأستاذ : وأعلم أن الاستقامة : توجب دوام الكرامات ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلى الطَّرِيقَة لَأَسْقَيناهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾[1] ولم يقل : سقيناهم ، بل قال : « أسقيناهم » يقال : أسقيته إذا جعلت له سقيا ؛ فهو يشير إلى الدوام .

سمعت : محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن أحمد يقول : سمعت أبا العباس الفرغانى يقول : قال الجنيد : لقيت شاباً من المريدين فى البادية تحت شجرة من شجر « أم غيلان » فقلت : ما أجلسك هاهنا ؟ فقال : مال افتقدته ، فمضيت وتركته . فلما انصرفت من الحج إذا أنا بالشاب قد انتقل إلى موضع قريب من الشجرة ، فقلت : ما جلوسك هنا ؟

فقال : وجدت ما كنت أطلبه فى هذا الموضع فلزمته .

قال : الجنيد : فلا أدرى أيُّهما كان أشرف : لزومه لافتقاد حاله ، أو لزومه للموضع الذى نال فيه مراده .

---

(١) آية ١٦ من سورة الجن .

باب الإخلاص

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[1] .

أخبرنا : على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصْرى ، قال : حدثنا جعفر بن محمد الغربانى قال : حدثنا أبو طالوت قال : حدثنى هانىء بن عبد الرحمن بن أبى عقبة ، عن إبراهيم بن أبى عبلة العقيلى قال : حدثنى عطية ابن وشاح ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يَغُلّ[2] عليهنّ قلبُ مسلم : إخلاصُ العمل لله ؛ ومناصحةُ ولاة الأمور ، ولزومُ جماعة المسلمين » .

وقال الأستاذ : الإخلاص ، إفراد الحق ، سبحانه ، فى الطاعة بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون أى شيء آخر ؛ من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو محبة مدح من الخلق ، أو معنى من المعانى سوى التقرّب به إلى الله تعالى .

ويصحّ أن يقال : الإخلاص : تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين .

ويصحّ أن يقال الإخلاص : التوقى عن ملاحظة الأشخاص .

وقد ورد خبر مسند : « أن النبى ﷺ أخبر عن جبريل ، عليه السلام ، عن الله سبحانه وتعالى ، أنه قال : الإخلاصُ سرٌّ من سرّى ، استودعتُه قلب من أحببته من عبادى » .

سمعت : الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : وقد سألته عن الإخلاص : ما هو ؟ فقال :

سمعت : على بن سعيد ، وأحمد بن محمد بن زكريا ، وقد سألتهما عن الإخلاص ، فقالا :

سمعنا علىّ بن إبراهيم الشقيقى ، وقد سألناه عن الإخلاص ، فقال :

سمعت : محمد بن جعفر الخصّاف ، وقد سألته عن الإخلاص ، فقال :

سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص : ما هو ؟ قال :

---

(١) آية ٣ من سورة الزمر .

(٢) يغل : بضم الوسط : يخون ، وبالكسر يحقد .

سألت أبا يعقوب الشريطيّ عن الإخلاص : ما هو ؟ قال :
سألت أحمد بن غسّان عن الإخلاص : ما هو ؟ قال :
سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص : ما هو ؟ قال :
سألت الحسن عن الإخلاص : ما هو قال :
سألت حُذّيفةَ عن الإخلاص : ماهو ؟ قال :
سألت النبى ﷺ عن الإخلاص : ما هو ؟ قال :
سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص : ما هو ؟ قال :
سألت ربَّ العزة عن الإخلاص : ماهو ؟ قال :
« سرّ من سرّى استودعته قلبَ من أحببته من عبادى » .

سمعت : الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : الإخلاص : التوقى عن ملاحظة الخلق ، والصِّدق : التنقى من مطالعة النفس فالمخلص ؛ لا رياء له ، والصادق : لا إعجاب له .

وقال ذو النون المصرى : الإخلاص : لا يتم إلا بالصدق فيه ، والصبر عليه ، والصدق لا يتمّ إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه .

وقال أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الخلاص احتاج إخلاصُهم إلى إخلاص .

وقال ذو النون : ثلاث من علامات الاخلاص : استواء المدح والذمّ من العامّة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

سمعت : الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول ؛ الاخلاص : مايكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام . وأما إخلاص الخواصّ : فهو مايجرى عليهم ، لابهم ، فتبدو منهم الطاعات ، وهم عنها بمعزل ، ولايقع لهم عليها لهم رؤية ، ولا بهم اعتداد ، فذلك : إخلاص الخواصّ .

وقال أبو بكر الدقاق : نقصان كلّ مخلص فى إخلاصه : رؤيةُ إخلاصه ؛ فإذا أراد الله تعالى أن يُخْلِصَ إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيتَه لإخلاصه ؛ فيكون مُخْلَصًا[1] لا مخلِصا[2] .

---

(١) وهو من خلصه الله من كل شائبة .
(٢) من أخلص فى عمله .

وقال سهل : لا يعرف الرياء[١] إلا مخلِص .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت الوجيهى يقول : سمعت أبا علىّ الروذبارى يقول : قال لى رويم : قال أبو سعيد الخرّاز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين .

وقال ذو النون : الإخلاص : ما حُفظ من العدوّ أن يفسده .

وقال أبو عثمان : الإخلاص : نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى فضل الخالق .

وقال حذيفة المرعشى : الإخلاص : أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن .

وقيل : الإخلاص : ما أريد به الحقُّ ، سبحانه ، وقصد به الصدق .

وقيل : الإغماضُ عن رؤية الأعمال .

سمعت : محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت علىَّ بن عبد الحميد يقول : سمعت السرى يقول : من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى .

وسمعته يقول : سمعت علىّ بن بندار الصوفى[٢] يقول : سمعت عبد الله بن محمود يقول : سمعت محمد بن عبد ربه يقول : سمعت الفضيل يقول : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما .

وقال الجنيد : الإخلاص سرٌّ بين الله تعالى وبين العبد ، لا يعلمه مَلكٌ فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله .

وقال رويم : الإخلاص من العمل[٣] هو : الذى لا يريد صاحبه عليهِ عوضاً من الدارين ، ولا حظًّا من الملكين .

وقيل لسهل بن عبد الله : أىُّ شىء أشدُّ على النفس ؟ فقال : الإخلاص ؛ لأنه ليس لها فيه نصيب .

وسئل بعضهم عن الإخلاص : فقال : أن لا تشهد على عملك غير الله عز وجل .

---

(١) أى فيتجنبه بعد معرفته .

(٢) وفى نسخة « الصيرفى » .

(٣) أى : فيه .

وقال بعضهم : دخلت على سهل بن عبد الله يوم جمعة قبل الصلاة بيتًا .. فرأيت فى البيت حيَّة . فجعلت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، فقال : ادخل ، لا يبلغ أحدٌ حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شىء يخافه ، ثم قال : هل لك فى صلاة الجمعة ؟ فقلت : بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة ، فأخذ بيدى ، فما كان إلا قليل حتى رأيت المسجد ، فدخلناه ؛ وصلينا الجمعة ، ثم خرجنا ؛ فوقف ينظر إلى الناس وهم يخرجون ، فقال : أهل لا إلهَ إلا الله كثير ، والمخلصون منهم قليل .

أخبرنا : حمزة بن يوسف الجرجانى قال : حدثنا محمد بن محمد بن عبد الرحيم قال : حدثنا أبو طالب محمد بن زكريا المقدسى قال : حدثنا أبو قرصافة محمد بن عبد الوهاب العسقلانى قال : حدثنا زكريا بن نافع قال : حدثنا محمد بن يزيد القراطيسى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن مكحول قال : ما أخلص عبدٌ قط أربعين يوماً ، إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت عبد الرازق يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : أعزُّ شىء فى الدنيا الإخلاصُ ، وكم أجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى ، فكأنه ينبت فيه على لون آخر .

وسمعته يقول : سمعت النصر أباذى يقول : سمعت أبا الجهم يقول : سمعت ابن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان يقول : إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء .

باب الصدق

قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ ﴾[١] .

أخبرنا : الإمام أبو بكر محمد بن فورك ، رحمهُ الله ، قال : أخبرنا عبد الله بن جعفر بن أحمد الأصبهانى قال : حدثنا أبو بشر يونس بن حبيب قال : حدثنا أبو داود الطيالسى قال : حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ ، أنه قال : « لا يزال العبد يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً ، ولا يزال يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[٢] » .

قال الأستاذ : والصدق : عماد الأمر ، وبه تمامه ، وفيه نظامه ، وهو تالى درجة النبوة ، قال الله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيين والصِّدِّيقينَ .. ﴾ الآية[٣] .

والصادق[٤] الاسم اللازم[٥] من الصدق ، والصِّدِّيق المبالغة منه : وهو الكثير الصدق ، الذى الصدق غالبه ، كالسِّكير والخمِّير .. وبابه .

وأقلّ الصدق : استواء السر والعلانية . والصادق : مَن صدق فى أقواله .

والصِّديق : مَن صدق فى جميع أقواله ، وأفعاله وأحواله .

وقال أحمد بن خضرويه ؛ من أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق ؛ فإن الله تعالى مَعَ الصَّادِقِينَ .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت الفرغانى يقول : سمعت الجنيد يقول : الصادق : ينقلب فى اليوم أربعين مرّة ، والمرائى يثبت على حالة واحدة أربعين سنة .

وقال أبو سليمان الدارانى : لو أراد الصادق أن يصف مافى قلبه ما نطق به لسانه .

وقيل الصّدق : القول بالحقِّ فى مواطن الهلكة .

---

(١) آية ١١٩ من سورة التوبة .

(٢) رواه البخارى ومسلم بنحوه .

(٣) آية ٦٩ من سورة النساء .

(٤) أى : لفظه .

(٥) أى : المشتق .

وقيل : الصدق : موافقةُ السرِّ النطق .

وقال القناد : الصدق : منع الحرام من الشِّدْق .

وقال عبد الواحد بن زيد : الصدق : الوفاء لله سبحانه بالعمل .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجريرى يقول : سمعت سهل بن عبد الله يقول : لا يشمُّ رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .

وقال أبو سعيد القرشي : الصادق الذى يتهيأ له أن يموت ولا يستحى من سرّه لو كشف ، قال الله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوا الْموتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه لله ، يقول : كان أبو علىّ الثقفى يتكلم يوما ، فقال له عبد الله بن منازل : يا أبا علىّ ، استعدَّ للموت فلابدّ منه . فقال أبو علىّ : وأنت يا عبد الله ، استعد للموت فلابد منه . فتوسّد عبد الله ذراعه ، ووضع رأسه ، وقال : قدمِتُ .

فانقطع أبو علىّ ؛ لأنه لم يمكنه أن يقابله بما فعل ، لأنه كان لأبى علىّ علاقات[2] وكان عبد الله مجرّداً لا شغل له .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : كان أبو العباس الدينورى يتكلم .. فصاحت عجوز فى المجلس صيحة ، فقال لها أبو العباس الدينورى : مُوتى .. فقامت وخطت خطوات .. ثم التفتت إليه ، وقالت : قد مِتُّ . ووقعت ميِّتة .

وقال الواسطى : الصَدق : صحَّة التوحيد مع القصد .

وقيل : نظر عبد الواحد بن زيد إلى غلام من أصحابه قد نحَل بدنه ، فقال : يا غلام ، أتديم الصوم ؟

فقال : ولا أديم الإفطار . فقال : أتديم القيام بالليل ؟ فقال : ولا أديم النوم .

فقال : فما الذى أنحلك ؟ فقال : هوى دائم .. وكتمان دائم عليه . فقال عبد الواحد : اسكت ؟ فما أجرأك !! فقام الغلام ، وخطا خطوتين ، وقال : إلهى ، إن كنت صادقا فخذنى ؛ فخرّ ميتا .

---

(١) آية ٩٤ من سورة البقرة .

(٢) أسباب وأمور دنيوية .

وحكى عن أبى عمرو الزجاجىّ أنه قال : ماتت أمى .. فورثت منها داراً ، فبعتها بخمسين ديناراً .. وخرجت إلى الحجّ ، فلما بلغت « بابل » استقبلنى من واحد « القناقنة »[1] وقال : ما معك ؟

فقلت فى نفسى : الصدق خير .. ثم قلت : خمسون ديناراً ، فقال : ناولنيها .

فناولته الصُّرَّة .. فعدَّها ؛ فإذا هى خمسون ديناراً . فقال : خذها ؛ فلقد أخذنى صدقك .

ثم نزل عن الدابة ، وقال : اركبها . فقلت : لا أريد !! فقال : لا بدّ . وألَّح علىّ .

فركبتها . فقال : وأنا على أثرك .

فلما كان العام المستقبل لحق بى ، ولا زمنى حتى مات .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت جعفرا الخوّاص يقول :

سمعت إبراهيم الخوّاص يقول : الصادق . لا نراه إلا فى فرض يؤدّيه ، أو فضل يعمل فيه .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسين بن مقسم يقول : سمعت جعفراً الخوّاص يقول : سمعت الجنيد يقول : حقيقة الصدق : أن تصدق فى موطن لا ينجيك منه إلا الكذب .

وقيل : ثلاثة لا تخطئ الصادق : الحلاوةُ ، والهيبة ، والملاحة .

وقيل : أوحى الله ، سبحانه ، الى داود عليه السلام ، يا داود من صدَّقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته .

وقيل : دخل « إبراهيم بن دوحة » مع « إبراهيم بنِ ستنبة » الباديةَ ، فقال إبراهيم بن ستنبة : اطرح ما معك من العلائق . قال : فطرحت كلَّ شىء إلا ديناراً فقال : يا إبرهيم ، لا تشغل سرىّ ، اطرح مامعك من العلائق !! قال : فطرحت الدينار ، ثم قال :

يا إبراهيم ، اطرح ما معك من العلائق !!.. فتذكرت أن معى شسوعاً[2] للنعل ، فطرحتُها ، فما احتجت فى الطريق إلى شِسع إلاَّ وجدته بين يدىّ .

فقال إبراهيم بن ستنبة : هكذا من عامل الله تعالى بالصِّدق .

وقال ذو النون المصرىّ ، رحمه الله : الصدق سيف الله ، ما وُضع على شىء إلا قطعه .

---

(١) القناقنة : جمع قنقن . وهو الدليل الهادى والبصير بالماء فى حفر القنى .

(٢) أربطة .

وقال سهل بن عبد الله : أوَّل خيانة الصِّديقين حديثُهم مع أنفسهم .

وسئل فتحُ الموصليُّ عن الصدق ، فأدخل يده فى كير الحدّاد .. وأخرج الحديدة المحماة .. ووضعها على كفه ، وقال : هذا هو الصدق .

وقال يوسف بن أسباط : لأن أبيت ليلة أعامل الله تعالى بالصّدق أحب إلى من أن أضرب بسيفى فى سبيل الله تعالى .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، يقول : الصدق أن تكون مع الناس كما تَرى من نفسك ، أو أن ترى من نفسك كما تكون[1] .

وسئل الحارث المحاسبى عن علامة الصدق ، فقال :

الصادق : هو الذى لا يبالى لو خرج كلُّ قدْر له فى قلوب الخلق من أجْل صلاح قلبه ، ولا يحبُّ إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره . أن يُطلع الناس على السيئ من عمله ؛ فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصِّديقين .

وقال بعضهم : من لم يؤدِّ الفرض الدائم لا يقبل منه الفرض المؤقت[2] .

قيل له : ما الفرض الدائم ؟ قال ؟ الصّدق .

وقيل : إذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تُبصر فيها كلَّ شىء من عجائب الدنيا والآخرة .

وقيل : عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرّك فإنه ينفعك ، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك ؛ فإنه يضرّك .

وقيل : كل شىءٍ شىءٌ ، ومصادقة الكذاب لا شىء .

وقيل : علامة الكذّاب جوده باليمين[3] بغير مستحلِف .

وقال ابن سيرين : الكلامُ أوسع من أن يكذب ظريف .

وقيل : ما أَمْلق[4] تاجرٌ صدوق .

---

(١) أى كما تكون معهم ، بأن يستوى عندك السر والعلانية .
(٢) أى المؤقت بوقت ؟ كالصلوات الخمس .
(٣) القسم .
(٤) ما افتقر .

باب الحياء

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يَرى ﴾[1] .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن عبدوس الحيرىّ المزكى قال : أخبرنا أبو سهل أحمد بن محمد بن زياد النحويُّ ببغداد قال : حدثنا إبراهيم بن محمد بن الهيثم قال : حدثنا موسى بن حيان قال : حدثنا المقدمىّ ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان » .

وأخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم الإسماعيلى قال : حدثنا أبو عثمان عمرو بن عبد الله البصرى قال : حدثنا أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب قال . حدثنا يعلى بن عبيد قال : حدثنا أبان بن إسحق ، عن الصباح بن محمد ، عن مُرَّة الهمذانى ، عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أن نبى الله ﷺ ، قال ذات يوم لأصحابه : « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا نستحى يا نبى الله ، والحمد لله .

قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وَعَى ، وليحفظ البطن وما حَوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[2] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : أخبرنا أبو نصر الوزيرى قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن محمد قال : حدثنا الغلابى قال : حدثنا محمد بن مخلد ، عن أبيه قال : قال بعض الحكماء : أحيوا الحياء بمجالسة من يُستْحا منه .

وسمعته يقول سمعت أبا بكر الرازى يقول سمعت ابن عطاء يقول : العلم الأكبر : الهيبة والحياء ؛ فإذا ذهبت الهيبة والحياء لم يبق فيه خير[3] .

وسمعته يقول : سمعت أبا الفرج الورثانى يقول : سمعت محمد بن أحمد بن يعقوب يقول : حدثنى محمد بن عبد الملك قال : سمعت ذا النون المصرى يقول : الحياء وجود الهيبة

---

(١) آية ١٤ من سورة العلق .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب .

(٣) أى فى القلب .

فى القلب ، مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى .

وقال ذو النون المصرى : الحبُّ يُنطق ، والحياء يسكب ، والخوف يقْلق .

وقال أبو عثمان : من تكلم فى الحياء ولا يستحى من الله عز وجل فيما يتكلم به ، فهو مسْتَدْرَج .

سمعت أبا بكر بن أشكيب ، يقول : دخل الحسن بن الحداد على عبد الله بن منازل ، فقال : من أين تجىء ؟ فقال : من مجلس أبى القاسم للذكر قال : فبماذا كان يتكلم ؟ فقال : فى الحياء . فقال عبد الله : واعجباه !! من لم يستح من الله تعالى كيف يتكلم فى الحياء ؟!

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا العباس البغدادىّ يقول : سمعت أحمد بن صالح يقول : سمعت محمد بن عبدون يقول : سمعت أبا العباس المؤدب يقول : قال السرىّ :

إنّ الحياء والأنس يطرقان القلب ؛ فإن وجدا فيه الزهدَ والورع حطا ، وإلاّ رحلا .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت الجريرى يقول : تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدِّين ، حتى رق الدِّين .. ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[١] : البرهان : أنها ألقت ثوباً على وجه صنم فى زاوية البيت ، فقال يوسف عليه السلام : ماذا تفعلين ؟ فقالت : أستحى منه ، قال يوسف عليه السلام : أنا أولى منك أن أستحى من الله تعالى .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾[٢] قيل : إنما استحيت منه ؛ لأنها كانت تدعوه إلى الضيافة ، فاستحيت أن لا يجيب موسى عليه السلام ، فصفة المضيف الاستحياء ، وذلك استحياء الكرم .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله . يقول : سمعت عبد الله بن الحسين يقول . سمعت أبا محمد البلاذرى يقول : سمعت أبا عبد الله العمرى يقول : سمعت أحمد بن أبى الحوارى يقول : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : قال الله تعالى :

---

(١) آية ٢٤ من سورة يوسف .

(٢) آية ٢٥ من سورة القصص .

« يا عبدى إنك ما استحييت منى ؛ أنسيتُ الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ، ومحوت من أمّ الكتاب زلّاتك ، ولا أناقشك فى الحساب يوم القيامة » .

وقيل : رؤى رجل يصلى خارج المسجد ، فقيل له : لم لا تدخل المسجد فتصلى فيه ؟ فقال : أستحى منه تعالى أن أدخل بيته ، وقد عصيته !!

وقيل : من علامات المستحى : أن لا يرى بموضع يستحيا منه .

وقال بعضهم : خرجنا ليلة فمررنا بأجمة[1] ، فإذا رجل نائم ، وفرس عند رأسه ترعى ، فحركناه ، وقلنا له : ألا تخاف أن تنام فى مثل هذا الموضع المخوف وهو مُسْبع[2] ؟

فرفع رأسه ، وقال : أنا أستحى منه تعالى ، أن أخاف غيره ، ووضع رأسه ونام .

وأوحى الله سبحانه إلى عيسى عليه السلام : عظ نفسك ؛ فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستح منى أن تعظ الناس .

وقيل : الحياء على وجوه :

حياء الجناية ؛ كآدم ، عليه السلام ، لما قيل له : أفراراً منا !! فقال : لا ، بل حياء منك .

وحياء التقصير ؛ كالملائكة يقولون : سبحانك ، ما عبدناك حق عبادتك .

وحياء الإجلال ؛ كإسرافيل ، عليه السلام ، تسربل بجانحه حياء من الله عزّ وجلّ .

وحياء الكرم ؛ كالنبى ﷺ ، كان يستحى من أمته أن يقول لهم : اخرجوا ، فقال الله عز وجلّ : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾[3] .

وحياء حشمة ؛ كعلىّ ، رضى الله عنه ، حين سأل المقداد بن الأسود حتى سأل رسول الله ﷺ عن « حكم خروج المذى » ، لمكان فاطمة رضى الله عنها .

وحياء الاستحقار ؛ كموسى عليه السلام ، قال : إنى لتعْرض لى الحاجة من الدنيا ، فأستحيى أن أسألك يارب ، فقال الله عزّ وجلّ له : سلنى حتى عن ملح عجينك ، وعلف شاتك .

وحياء الإنعام ، هو حياء الرب سبحانه ، يدفع إلى العبد كتابا مختوما بعد ما عبر الصراط ، وإذا فيه : فعلتَ ما فعلتَ ، وقد استحييت أن أظهره عليك ، فاذهب ، فإنى قد غفرت لك .

---

(١) الأجمة : الشجر الملتف .
(٢) كثير السباع .
(٣) آية ٥٣ من سورة الأحزاب .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول فى هذا الخبر : إن يحيى بن معاذ قال : سبحان من يذنب العبد فيستحى هو منه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت زنجوية اللباد يقول : سمعت علىّ بن الحسين الهلالى يقول : سمعت إبراهيم بن الأشعث يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : خمس من علامات الشقاء : القسوة فى القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل .

وفى بعض الكتب : ما أنصفنى عبدى ؛ يدعونى فأستحى أن أردّه ، ويعصينى فلا يستحى منى .

وقال يحيى بن معاذ : من استحيا من الله مطيعا استحيا الله تعالى منه وهو مذنب .

واعلم أن الحياء : يوجب التذويب ، فيقال : الحياء : ذوبان الحشا لاطلاع المولى .

ويقال : الحياء : انقباض القلب ، لتعظيم الربّ .

وقيل : إذا جلس الرجل ليعظ الناس ناداه ملكاه : عظ نفسك بما تعظ به أخاك ، وإلاّ فاتسحى من سيدك ؛ فإنه يراك .

وسئل الجنيد عن الحياء ، فقال : رؤية الآلاء ، ورؤية التقصير ، فيتولد من بينهما حالة تسمى « الحياء » .

وقال الواسطى : لم يذق لذعات الحياء من لابس خرق حدّ[1] أو نقض عهد .

وقال الواسطى أيضاً : المستحى يسيل منه العرق ، وهو الفضل الذى فيه ، وما دام فى النفس شىء فهو مصروف عن الحياء .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : الحياء : ترك الدعوى بين يدى الله عزّ وجلّ .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله الصوفى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا العباس بن الوليد الزوزنى يقول : سمعت محمد بن أحمد الجوزجانى يقول : سمعت أبا بكر الوراق يقول : ربما أصلى لله تعالى ركعتين ، فأنصرف عنهما ، وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء .

---

(١) أى أرتكب منهيا عنه واعتدى على حد من حدود الله .

باب الحرية

قال الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١] .

قال[٢] : إنما آثروا على أنفسهم لتجردهم[٣] عما خرجوا منه ، وآثروا به .

أخبرنا : على بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال : حدثنا ابن أبى قماش قال : حدثنا محمد بن صالح بن النطاح قال : حدثنا نعيم بن مورع بن توبه ، عن إسماعيل المكى ، عن عمرو بن دينار ، عن طاووس ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما يكفى أحدكم : ما قنعت به نفسه ، وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر[٤] ، وإنما يرجع الأمر إلى آخر »[٥] .

قال : الحرية : أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات ، ولا يجرى عليه سلطان المكونات ، وعلامة صحته : سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء ، فيتساوى عنده أخطار الأعراض[٦] .

قال حارثة رضى الله عنه لرسول الله ﷺ : عزفت نفسى عن الدنيا ؛ فاستوى عندى حجرها وذهبها .

سمعت الأستاذ أبا على الدَّقاق ، رحمه الله ، يقول : من دخل الدنيا وهو عنها حُرٌّ ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حُر .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا محمد المراغى يحكى عن الرقى ، عن الدَّقاق : يقول : من كان فى الدنيا حرا منها كان فى الآخرة حرا منها .

وأعلم أن حقيقة الحرية فى كمال العبودية ؛ فإذا صدقت لله تعالى عبوديته خلصت عن رقّ الأغيار حريته .

---

(١) آية ٩ من سورة الحشر .

(٢) الإمام المؤلف .

(٣) فى نسخة لتحررهم .

(٤) أى القبر .

(٥) وروى نحوه ما أخرجه الطبرانى والبيهقى عن خباب أن رسول الله ﷺ قال : (إنما يكفى أحدكم ما كان فى الدنيا مثل زاد الراكب) حديث حسن .

(٦) وفى نسخة « الأعواض » والمراد أن لا يفرق بين نفيس وخسيس فى خاطره .

فأما من توهم أن العبد يسلم له أن يخلع وقتاً عِذار العبودية ، ويحيد بلحظه عن حد الأمر والنهى وهى مميز ، فى دار التكليف ، فذلك انسلاخ من الدين .

قال الله سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[1] يعنى : الأجل ، وعليه أجمع المفسرون .

وأن الذى أشار إليه القوم من الحرية هو : أن لا يكون العبد تحت رق شىء من المخلوقات لا من أعراض الدنيا ، ولا من أعراض الآخرة ؛ فرداً لفرد[2] لم يسترقه عاجل دنيا ، ولا حاصل هوى ، ولا أجل مِنى ، ولا سؤال ، ولا قصد ولا أرب[3] ، ولا حظ .

وقيل للشبلى : ألم تعلم أنه تعالى رحمن ؟ فقال : بلى ولكن منذ عرفت رحمته ما سألته أن يرحمنى .

ومقام الحرية عزيز .

سمعت الشيخ أبا علىٍّ ، رحمه الله ، يقول . كان أبو العباس السيارى يقول : لو صحت صلاة بغير قرآن لصَّحت بهذا البيت :

أتمنى على الزمان محالا ... أن ترى مُقلتاى طلعةَ حُرّ

وأما أقاويل المشايخ فى الحرية ؛ فقال الحسين بن منصور : من أراد الحرية فليصل[4] العبودية .

وسئل الجنيد عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مصّ نواة ، فقال : المكاتب عبد ما بقى عليه درهم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول : إنك لا تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية .

وقال بشر الحافى : من أراد أن يذوق طعم الحرية ، ويستريح من العبودية[5] فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى .

وقال الحسن بن منصور : إذا استوفى العبد مقامات العبودية[6] كلها يصير حُرا من تعب

---

(١) آية ٩٩ من سورة الحجر .
(٢) أى لله .
(٣) أى حاجة .
(٤) بأن يواليها ويديم عليها .
(٥) لغير الله .
(٦) لله .

العبودية[١] ، فيترسم[٢] بالعبودية بلا عناء ولا كلفة ، وذلك مقام الأنبياء والصديقين ، يعنى يصير محمولا ، لا يلحقه بقلبه مشقة وإن كان متحليا بها شرعا ، أنشدنا الشيخ أبو عبد الرحمن قال : أنشدنا أبو بكر الرازى قال : أنشدنى منصور الفقية لنفسه :

مـــابـقـــى فى الإنس حـــرّ لا ، ولا فى الجـــنّ حـــرُّ
قـــد مضى حـــر الفـــريقـــين فـــحـــلو الـــعـــيش مـــرّ

وأعلم أن معظم الحرية فى خدمة الفقراء .

سمعت الشيخ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما .

وقال ﷺ : « سيد القوم خادمهم » .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت محمد بن إبراهيم بن الفضل يقول : سمعت محمد بن الرومى يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول : أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد ، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والأبرار .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن عثمان بن يحيى يقول : سمعت على بن محمد المصرى يقول : سمعت يوسف بن موسى يقول : سمعت بن خبيق يقول : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : إن الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يُخرج منها .

وقال إبراهيم بن أدهم : لا تصحب إلا حرا كريما ؛ يسمع ولا يتكلم .

---

(١) لغير الله .
(٢) وفى نسخة فيترسم أى يتصف ويتخلى .

باب الذكر

قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّها الَّذِين آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرا ﴾[١] .

أخبرنا أبو الحسين على بن محمد بن عبد الله بن بشر ببغداد ، قال أخبرنا أبو على الحسين بن صفوان البرذعى قال : حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا قال : حدّثنا هارون بن معروف قال : حدثنا أنس بن عياض قال : حدثنا عبد الله بن سعيد بن أبى هند ، عن زياد بن أبى زياد ، عن أبى بحرية ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : . « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والورِق ، وأن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟

قالوا : ماذاك يا رسول الله ؟

قال : ذكر الله تعالى » :

أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن قال : حدثنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قال : حدثنا الديرى ، عن عبد الرزاق ، عن معمر : عن الزهرى ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله .. الله » .

وأخبرنا على بن أحمد بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا معاذ قال : حدثنا أبى ، عن حميد ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تقوم الساعة حتى[٢] لا يقال فى الأرض : الله .. الله » .

قال الأستاذ : والذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر .

---

(١) آية ٤١ من سورة الأحزاب .

(٢) معنى حتى : إلى أن والحديث أخرجه أحمد فى مسنده والإمام مسلم فى صحيحه والترمذى عن أنس وقال صحيح الإسناد .

والذكر على ضربين :

ذكر اللسان ، وذكر القلب . فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب والتأثيرُ لذكر القلب ؛ فإذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : الذكر منشور[1] الولاية ؛ فمن وفِّق للذكر فقد أعطى المنشور ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وقيل : إن الشبلى كان فى ابتداء أمره ينزل كلّ يوم سرباً[2] ويحمل مع نفسه حزمة من القضبان[3] ، فكان إذا دخل قلبه غفلة ضرب نفسه بتلك الخشب حتى يكسرها على نفسه ، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يمسى ، فكان يضرب بيده ورجليه على الحائط .

وقيل : ذكر الله بالقلب سيف المريدين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم ، وإن البلاء إذا أظل العبد ؛ فإذا فزع بقلبه إلى الله تعالى يحيد عنه فى الحال كل ما يكرهه .

وسئل الواسطى عن الذكر فقال : الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف ، وشدّة الحبّ له .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الله بن الحسين يقول : سمعت أبا محمد البلاذرى يقول : سمعت عبد الرحمن بن بكر يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كلَّ شىء ، وحفظ الله تعالى عليه كلَّ شىء ، وكان له عِوضا عن كل شىء .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله المعلم يقول سمعت أحمد المسجدى يقول : سئل أبو عثمان ؛ فقيل له : نحن نذكر الله تعالى ، ولا نجد فى قلوبنا حلاوة ؟

فقال : أحمدوا الله تعالى ، على أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته .

وفى الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :

---

(١) المنشور ، هو ما يكتب لمن ولى ولاية على جهة من الجهات ، ليعلم أهل تلك الجهة تحقق ولايته عليهم ، والمراد أن الذكر يشهد للذاكر بالولاية كما يشهد المنشور للوالى بولايته على القوم .

(٢) طريقا .

(٣) الخشب .

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها . فقيل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : حلق الذكر »[١] .

أخبرنا أبو الحسن علىّ بن بشر ببغداد قال : حدثنا أبو على بن صفوان قال : حدثنا ابن أبى الدنيا قال : حدثنا الهيثم بن خارجة قال : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن عبد الله : أن خالد بن عبد الله بن صفوان أخبره عن جابر بن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أيها الناس ؛ ارتعوا فى رياض الجنة . قلنا يارسول الله ، مارياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر » اغدوا ، وروحوا ، واذكروا ، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلةُ الله عنده ؟ فإن الله سبحانه ، ينزل العبدَ منه حيث أنزله من نفسه[٢] .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمدا الفراء يقول : سمعت الشبلى يقول : أليس الله تعالى يقول : أنا جليس من ذكرنى ؟ ما الذى استفدتم من مجالسة الحقّ سبحانه ؟!

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن موسى السلامى يقول : سمعت الشبلى ينشد فى مجلسه :

ذكرتك ، لا أنى نسيتُك لمحةً ... وأيسر ما فى الذكر ذِكرُ لسانى
وكدتُ بلا وَجد أموت من الهـ ... ـوى وهام علىّ القلبُ بالخفقان
فلما رآنى الوجدَ أنك حاضرى ... شهدتُك موجودا بكلّ مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلّم ... ولا حظتُ معلوماً بغير عيان

ومن خصائص الذكر : أنه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله : إما فرضا ، وإما ندبا . والصلاة ، وإن كانت أشرف . العبادات ، فقد لا تجوز فى بعض الأوقات . والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاما وَقُعُودا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾[٣] .

---

(١) رواه أنس وأخرجه أحمد فى مسنده والترمذى والبيهقى وقال حديث صحيح وروى بنحوه فيما أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم . ورمز له السيوطى الضعف .

(٢) رواه أبى الدنيا وأبو يعلى ، والبزار ، والطبرانى والحاكم ، والبيهقى وقال الحاكم صحيح الإسناد ، وقال الحافظ المنذرى أسانيده ثقات مشهورون محتج بهم والحديث حسن . وروى بنحوه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ . إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قيل وما رياض الجنة ؟ قال المساجد قال : وما الرتع ؟ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أخرجه الترمذى .

(٣) آية ١٩١ من سورة آل عمران .

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك ، رحمه الله ، يقول : قياما : بحق الذكر ، وقعوداً : عن الدعوى فيه .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن يسأل الأستاذ أبا على الدقاق ، فقال :

الذكر أتم أم الفكر ؟ فقال الأستاذ أبو على : ما الذى يقول الشيخ فيه ؟

قال الشيخ أبو عبد الرحمن : عندى الذكر أتمّ من الفكر ؛ لأن الحق ، سبحانه ، يوصف بالذكر ، ولا يوصف بالفكر ، وماوصف به الحق سبحانه أتم مما اختصّ به الخلق . فاستحسنه الأستاذ أبو على ، رحمه الله .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله يقول : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت الكتانىّ يقول ، لولا أنّ ذكره فرض علىّ لما ذكرته إجلالاله ، مثلى يذكُره !! ولم يغسل فمه بألف توبة منقلبة عن ذكره .

وسمعت الأستاذ أبا علىّ ، رحمه الله ، ينشد لبعضهم :

ما إن ذكرْتك إلا همَّ يزجرنى قلبى وسرى وروحى عند ذِكْراكا
حتى كأن رقيبا منك يهتف بى إياك ، ويحك والتذكار إيَّاكا[1]

ومن خصائص الذكر : أنه جعل فى مقابلته الذكر[2] . قال الله تعالى : ﴿ فاذْكرُونِى أذْكركم ﴾[5] .

وفى خبر : « أن جبريل عيه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول : أعطيت أمتك مالم أعط أمة من الأمم ، فقال : وما ذاك يا جبريل ؟ فقال : قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ : لم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة » .

وقيل : إن الملك يستأمر الذاكرَ فى قبض روحه .

وفى بعض الكتب : أن موسى ، عليه السلام ، قال يارب : أين تسكن ؟ فأوحى الله تعالى إليه ، فى قلب عبدى المؤمن . ومعناه : سكون الذكر فى القلب فإن الحق سبحانه وتعالى منزه عن كل سكون وحلول ، وإنما هو[3] : إثبات ذكر وتحصيل .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت

---

(١) والمعنى ، كما ذكره الشيخ العروسى أى : إذا شرعت فى ذكرك يا إلهى قام زاجر بقلبى وسرى وروحى يبعدنى عن ذكرك . وكأن محذرًا يحذرنى بقوله : إياك أنْ تقرب الذكر إياك ، لكونى لست أهلاً له .

(٢) أى ذكر الله لمن يذكره . (٥) سورة البقرة الآية ١٥٢ .

(٣) أى السكون .

فارسًا يقول : سمعت الثورى يقول : سمعت ذا النون ، وقد سألته عن الذكر فقال : هو غيبة الذاكر عن الذكر ، ثم أنشأ يقول :

لا لأنى أنسـاك أكـثِرُ ذكـراً كَ ، ولكن بذاك يجرى لسانى

وقال سهل بن عبد الله : ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادى : يا عبدى ، ما أنصفتنى ؛ أذكرك وتنسانى ، وأدعوك إلىَّ وتذهب إلى غيرى ، وأذْهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا ، يا بن آدم ، ما تقول غدا إذا جئتنى ؟!

وقال أبو سليمان الدارانى : إن فى الجنة قيعاناً[1] ، فإذا أخذ الذاكر فى الذكر أخذت الملائكة فى غرس الأشجار فيها ، فربما يقف بعض الملائكة ، فيقال له : لم وقفت ؟ فيقول : فتَر صاحبى .

وقال الحسن[2] : تفقّدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء : فى الصلاة ، والذكر ، وقراءة القرآن ، فإن وجدتم ، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق .

وقال حامد الأسود . كنت مع إبراهيم الخواص فى سفر ، فجئنا إلى موضع فيه حيات كثيرة .. فوضع رِكوتَهُ[3] وجلس ، وجلست ، فلما كان برد الليل وبرد الهواء خرجت الحيات ، فصحت بالشيخ ، فقال : اذكر الله .. فذكرْت فرَجعت ، ثم عادت ، فصحت به ، فقال مثل ذلك . فلم أزل إلى الصباح فى مثل تلك الحالة .. فلما أصبحنا قام ، ومشى ، ومشيت معه ، فسقطت من وطائة[4] حية عظيمة وقد تطَوقت به ، فقلت : ما أحسست بها ؟

فقال : لا ، منذ زمان مابت ليلة أطيب من البارحة .

قال أبو عثمان : من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر .

سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبد الرحمن بن عبد الله الذبيانى يقول : سمعت الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول :

مكتوب فى بعض الكتب التى أنزلها الله تعالى : « إذا كان الغالب على عبدى ذكرى عشقنى وعشقته » .

وبإسناده : أنه أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : « بى فافرحوا » وبذكرى فتنعَّموا » .

---

(١) القيعان : الأمكنة المستوية من الأرض .
(٢) البصرى .
(٣) الركوة : الدلو الصغيرة .
(٤) الوطاء : المهاد الوطىء .

وقال الثورى : لكل شىء عقوبة ، وعقوبة العارف بالله انقطاعه عن الذكر .

وفى الإنجيل اذكرْنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ، وارض بنصرتى لك ؛ فإن نصرتى لك خير لك من نصرتك لنفسك .

وقيل لراهب : أأنت صائم ؟ فقال : صائم بذكره ، فإذا ذكرْت غيره أفطرت .

وقيل : إذا تمكّن الذكرُ من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صرع ، كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان ، فتجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسّه الإنس .

وقال سهل : ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب تعالى .

وقيل الذكر الخفى لا يرفعه الملَك ، لأنه لا اطلاع له عليه ، فهو سرٌّ بين العبد وبين الله عز وجل .

وقال بعضهم : وصف لى ذا كِرٌ فى أجمه ، فأتيته ، فبينما هو جالس إذا سبع عظيم ضربه ضربة ، واستلب منه قطعة ، فغشى عليه وعلى ، فلما أفاق ، قلت : ما هذا ؟ فقال : قيض الله هذا السبع علىَّ ، فكلما دخلتنى فترة عضنى عَضّة ، كما رأيت .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجريرى يقول : كان من بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول : الله الله .. فوقع يوماً على رأسه جذع فانشج رأسه وسقط الدم ، فاكتتب على الأرض : الله .. الله .

باب الفتوة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمنُوا بِربِّهِمْ وَزِدْنَاهُم هُدًى ﴾[١] .

قال الأستاذ : أصل الفتوة[٢] أن يكون العبد ساعياً أبداً فى أمر غيره .

قال ﷺ : (لا يزال الله تعالى فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة أخيه المسلم) .

أخبرنا به على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا به أحمد بن عبيد قال : حدثنا به إسماعيل بن الفضل قال : حدثنا به يعقوب بن حميد بن كاسب قال : حدثنا به ابن أبى حازم ، عن عبد الله بن عامر الأسلمى ، عن عبد الرحمن بن هومز الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن زيد بن ثابت رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال الله تعالى فى حاجة العبد مادام العبد فى حاجة أخيه المسلم » .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : هذا الخُلق[٣] ، لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ ؛ فإن كلّ أحد فى القيامة يقول : نفسى .. نفسى ، وهو ، ﷺ ، يقول : أُمَّتى .. أمتى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا جعفر الفرغانى يقول : سمعت الجنيد يقول : الفتوّة بالشام ، واللسان بالعراق ، والصدق بخراسان .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول : سمعت محمد بن نصر بن منصور الصائغ يقول : سمعت محمد بن مردويه الصائغ يقول : سمعت الفضيل يقول : الفتوّة : الصفح عن عثرات الإخوان .

وقيل : الفتوة : أن لا ترى لنفسك فضلا عن غيرك .

وقال أبو بكر الورّاق : الفتى من لا خَصْم له .

وقال محمد بن على الترمذى : الفتوة : أن تكون خصما لرِّبك على نفسك ويقال : الفتى : من لا يكون خصما لأحد .

---

(١) آية ١٣ من سورة الكهف .

(٢) والأولى أن يقال فى معناها ، هى : ملكة فى الشخص تحمل على البذل والجود ، بل تقتضى قوة الإيثار (العروسى) .

(٣) أى الفترة .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : سمعت النصر اباذى يقول : سُمى أصحاب الكهف « فتية » ؛ لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة .

وقيل : الفتى : من كسر الصنم ؛ قال الله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾[2] وصنمُ كلّ إنسان نفْسُه ؛ فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة .

وقال الحارث المحاسبى : الفتوة : أن تنْصِفَ ولا تنتصف .

وقال عمر بن عثمان المكىّ : الفتوة : حسن الخلق .

وسئل الجنيد عن الفتوة ، فقال : أن لا تنافر فقيرا ، ولا تعارض غنيا .

وقال النصر أباذى : المروءة شعبة من الفتوة ، وهو الإعراض عن الكونين ، والانفة منهما .

وقال محمد بن على الترمذى : الفتوة أن يستوى عندك المقيم والطارئ سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت على بن عمر الحافظ يقول : سمعت أبا سهل بن زياد يقول : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : سئل أبى : ما الفتوة ؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

وقيل لبعضهم : ما الفتوّة ؟ فقال : أن لا يُميز بين أن يأكل عنده ولى أو كافر .

سمعت بعض العلماء يقول : استضاف مجوسيًّا إبراهيمَ الخليل عليه السلام ، فقال : بشرط أن تُسلم ، فمرّ المجوسىّ ، فأوحى الله تعالى إليه : منذ خمسين سنة نطعمه على كفره ، فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه !؟! . فمضى إبراهيم عليه السلام ، على أثره ، حتى أدركه .. واعتذر إليه ، فسأله عن السبب ، فذكر له ذلك ؛ فأسلم المجوسى .

وقال الجنيد : الفتوة : كفّ الأذى ، وبذل الندى .

وقال سهل بن عبد الله : الفتوة : اتباع السنّة .

وقيل : الفتوة : الوفاء والحفاظ .

وقيل : الفتوة : فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها .

وقيل : الفتوة : أن لا تهرب إذا أقبل السائل .

---

(١) آية ٦٠ من سورة الأنبياء .

(٢) آية ٥٨ من سورة الأنبياء .

وقيل : أن لا تحتجب من القاصدين .

وقيل : أن لا تدَّخر ولا تعتذر .

وقيل : إظهار النعمة ، وإسرار المحنة .

وقيل : أن تدعو عشرة أنفس فلا تتغير ان جاء تسعة أو أحد عشر .

وقيل : الفتوة : ترك التمييز .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : قال أحمد بن خضوريه لامرأته أم علىّ : أريد أن أتخذ دعوة أدعو فيها « عيارا شاطرا » كان فى بلدهم « رأس الفتيان » .

فقالت : امرأته : إنك لا تهتدى إلى دعوة الفتيان . فقال : لا بدّ .

فقالت : إن فعلت فاذبح الأغنام والبقر والحُمُر ، وألقها من باب دار الرجل إلى باب دارك .

فقال : أما الأغنام والبقر فأعْلَمُ فما بال الحُمُر ؟

فقالت : تدعو فتى إلى دارك ، فلا أقلّ من أن يكون لكلاب المحلة خير .

وقيل : اتَخَذَ بعضهم دعوة ، وفيهم شيخ شيرازى ، فلما أكلوا وقع عليهم النوم فى حال السماع .

فقال الشيخ الشيرازى لصاحب الدعوة : ما السبب فى نومنا ؟ فقال : لا أدرى !! اجتهدت فى جميع ما أطعمتكم إلا الباذنجان ، فلم أسأل عليه .

فلما أصبحوا سألوا بائع الباذنجان ، فقال : لم يكن لى شىء ، فسرقت الباذنجان من الموضع الفلانى « وبعته » فحملوه إلى صاحب الأرض ليجعله فى حلّ ، فقال الرجل : تسألون منى ألف باذنجانة ؟ قد وهبته تلك الأرض . ووهبته ثورين ، وحماراً ، وآلة الحرث ؛ لئلا يعود إلى مثل ما فعل .

وقيل : تزوّج رجل بامرأة .. فقبل الدخول ظهر بالمرأة الجدرى ، فقال الرجل : اشتكتْ عينى ، ثم قال : عميت ، فزفَّت إليه المرأة .. ثم ماتت بعد عشرين سنة .. ففتح الرجل عينيه ، فقيل له فى ذلك فقال : لمْ أعم ، ولكن تعاميت حذار أن تحزن ، فقيل له : سبقتَ الفتيان .

وقال ذو النّون المصرى : من أراد الظَّرف فعليه بسقاة الماء ببغداد .

فقيل له : كيف هو[١] ؟ فقال : لما حُملت إلى الخليفة ، فيما نُسب إلىّ من الزندقة ، رأيت سَقاء عليه عمامة ، وهو مترد بمنديل مصرىّ ، وبيده كيزان خزف رقاق ، فقلت : هذا ساقى السلطان ، فقالوا : لا ، هذا ساقى العامة .

فأخذت الكوزَ وشربت . وقلت لمن معى : أعطه ديناراً . فلم يأخذه ، وقال : أنت أسير ، وليس من الفتوّة أن آخذ منك شيئا .

وقيل : ليس من الفتوّة أن تربح على صديقك . قاله بعض أصدقائنا ، رحمه الله تعالى .

وكان فتى يسمى « أحمد بن سهل » التاجر ، وقد اشتريت منه خرقة بياض فأخذ الثمنُ رأسَ ماله فقلت له : ألا تأخذ ربحاً ؟ فقال : أما الثمن فآخذه ، ولا أحملك مِنَّة ؛ لأنه ليس له من الخَطَر ما أتخلق به معك ، ولكن لا آخذ الربح ؛ إذ ليس من الفتوة أن تربح على صديقك .

وقيل : خرج إنسان يدّعى الفتوة من « نيسابور » إلى « نسا » فاستضافه رجل ، ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصبّ الماء على أيديهم ، فانقبض النيسابورى عن غسل اليد ، وقال : ليس من الفتوة أن تصبّ النسوان الماء على أيدى الرجال !!

فقال واحد منهم : أنا من سنين أدخل هذه الدار لم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أم رجلًا .

سمعت منصورا المغربى يقول : أراد واحد أن يمتحن نوحاً النيسابورى العيار[٢] .. فباع منه[٣] جارية فى زىّ غلام ، وشرط أنه غلام ، وكانت وضيئة الوجه ، فاشتراها نوح على أنها غلام ، ولبثت عنده شهوراً كثيرة ، فقيل للجارية : هل علم أنك جارية ؟ فقالت : لا ، إنه ما مسّنى ، وتوهّم أنى غلام .

وقيل : إن بعض الشطار طلب منه تسليم غلام كان يخدمه إلى السلطان ، فأبى . فضربه ألف سوط ، فلم يُسَلم ، فاتفق أنه احتلم تلك الليلةّ ، وكان برداً شديداً ، فلما أصبح اغتسل بالماء البارد ، فقيل له : خاطرت بروحك ، فقال : استحييت من الله تعالى أن أصبر على ضرب ألف سوط لأجل مخلوق ، ولا أصبر على مقاساة برد الاغتسال لأجله .

---

(١) أى حالهم .
(٢) العيار أى الشجاع .
(٣) أى باع له .

وقيل : قدم جماعة من الفتيان لزيارة واحد يدَّعي الفتوة ، فقال الرجال : يا غلام قدم السفرة . فلم يقدّم . فقال له الرجل ذلك ثانياً وثالثاً .. فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا . ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه فى تقديم السفرة كلَّ هذا !! فقال الرجل : لِمَ أبطأت بالسفرة ؟ فقال الغلام : كان عليها نملٌ ، فلم يكن من الأدب تقديمُ السفرة إلى الفتيان مع النمل ، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل من السفرة ، فلبثت حتى دب النمل ، فقالوا له : دقَّقت ياغلام ، مثلك مَن يخدم الفتيان .

وقيل : إن رَجلًا نام بالمدينة من الحاجِّ . فتوهم أن « هميانه »[1] سُرق ، فخرج ، فرأى جعفراً الصادق .. فتعلق به ، وقال له : أنت أخذت هميانى ؟ فقال له : ماذا كان فيه ؟ فقال : ألف دينار .

فأدخله داره .. ووزن له ألف دينار ، فرجع الرجل إلى منزله ، ودخل بيته ، فرأى هميانه فى بيته وقد كان توهم أنه سُرق ؛ فخرج إلى جعفر معتذراً ، ورد عليه الدنانير ، فأبى أن يقبلها ، وقال : شىء أخرجته من يدى لا أسترده .

فقال الرجل : من هذا ؟! فقيل : جعفر الصادق .

وقيل : سأل شقيق البلخىُّ جعفر بن محمد عن الفتوة ، فقال : ما تقول أنت ؟

فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا ، وإن منعنا صبرنا .

فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل !! .

فقال شقيق : يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ؟

فقال : إن أعطينا آثرنا ، وإن مُنعنا شكرنا .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الجريرى يقول : دعانا الشيخ أبو العباس بن مسروق ليلةً إلى بيته ، فاستقبلنا صديق لنا ، فقلنا له : ارجع معنا ، فنحن فى ضيافة الشيخ ، فقال : إنه لم يدعنى !! فقلنا : نحن نستثنى[2] ، كما استثنى رسولُ الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها .

---

(١) الهميان : بكسر الهاء : الدراهم أو كيس الدراهم .

(٢) أى نستأذن لك عند الدخول .

فرددناه[1] ، فلما بلغ باب الشيخ أخبرناه بما قال ، وقلنا . فقال :

جَعلتَ موضعى من قلبك أن تجىء إلى منزلى من غير دعوة ، على كذا وكذا إن[2] مشيتَ إلى الموضع الذى تقعد فيه منه إلا على خدّى ، وألح عليه .. ووضع خدَّه على الأرض ، وحُمل الرجل ، فوضع قدمه على خدّه من غير أن يوجعه ، وسحب الشيخ وجهه على الأرض إلى أن بلغ موضع جلوسه .

وأعلم أن من الفتوة السَّتر على عيوب الأصدقاء ، لا سيما إذا كان لهم فيه شماتة الأعداء .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول للنصر أباذى كثيرا : إنَّ عليا القوال يشرب الليل ويحضر مجلسك بالنهار ، وكان لا يسمع فيه ما يقال ، فانفق أنه كان يمشى يوما ومعه واحد ممن يذكر عليا بذلك عنده فوجد علياً مطروحاً فى موضع ، وقد ظهر عليه أثر السكر ، وصار بحيث يغسل فمه ، فقال الرجل : إلى كم تقول فيه للشيخ ولا يسمع ؟! هذا علىٌّ عَلى الوصف الذى نقول . فنظر إليه النصر أباذى وقال للعذول[3] : احمله على رقبتك ، وانقله إلى منزله . فلم يجد بدا من طاعته فيه .

وسمعته يقول : سمعت أبا علىّ الفارسى يقول : سمعت المرتعش يقول : دخلنا مع أبى حفص على مريض نعوده ، ونحن جماعة ، فقال للمريض : أتحبُّ أن تبرأ ؟ فقال : نعم فقال لأصحابه : تحملوا عنه .. فقام العليل .. وخرج معنا . وأصبحنا كلنا أصحاب فراش نعاد .

---

(١) وفى نسخة ، فأخذناه معنا .
(٢) أى : ما مشيت .
(٣) أى : اللائم له .

باب الفراسة

قال الله تعالى ﴿ إنَّ فِي ذلك لآياتٍ لِّلْمُتَوَسِمِين ﴾[١] . قيل : للمتفرِّسين .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله تعالى ، قال : أخبرنا أحمد بن على بن الحسين الرازى قال : أخبرنا محمد بن أحمد بن السَّكن قال : حدثنا موسى بن داود قال : حدثنا محمد بن كثير الكوفى قال : حدثنا عمرو بن قيس : عن عطية ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله عزّ وجلّ »[٢] .

والفراسة : خاطر على القلب فينفى ما يضادّه . وله على القلب حُكم اشتقاقاً من : فريسة السبع ، وليس فى مقابلة الفراسة مُجَوِّزات[٣] للنفس .

وهى على حسب قوّة الإيمان : فكلّ من كان أقوى إيماناً كان أحدّ فراسة .

وقال أبو سعيد الخرَّاز : من نظر ينور الفراسة نظر بنور الحقّ ، وتكون موادّ عِلمه من الحق بلا سهو ولا غفلة ، بل حُكم حقٍ جرى على لسان عبد .

وقوله : « نظر بنور الحقّ » يعنى : بنور خصّه به الحق سبحانه .

وقال الواسطى : إن الفراسة : سواطع أنوار لمعت فى القلوب ، وتمكين معرفة حملت السرائر فى الغيوب من غيْب إلى غَيب ، حتى يشهد الأشياء من حيثُ أشهده الحق ، سبحانه ، إياها ؛ فيتكلم على ضمير الخلق .

ويحكى عن أبى الحسن الديلمى أنه قال :

دخلت (أنطاكية) لأجل (أسود) قيل لى : إنه يتكلم على الأسرار . فأقمت فيها إلىَ أن خرج من جبل (لِكام)[٤] ومعه شيء من المباح يبيعه ، وكنت جائعا منذ يومين لم آكل شيئا فقلت له : بكم هذا ؟ وأوهمته أنى أشترى ما بين يديه فقال : اقعد ثَّم ؛ حتى إذا بعناه نعطيك

---

(١) آية ٧٥ من سورة الحجر .

(٢) أخرجه البخارى فى التاريخ والترمذى عن أبى سعيد الحكيم وسمويه والطبرانى فى المعجم الكبير ، وابن عدى فى الكامل عن أبى أمامة وابن جرير عن ابن عمر .

(٣) أى : احتمالات .

(٤) جبل بالشام .

ما تشترى به شيئاً .. فتركته وسرت إلى غيره ؛ أوهمه أنى أساومه . ثم رجعت إليه ، وقلت له :

إن كنتَ تبيع هذا فقل لى بكم ؟ فقال : إنما جعتَ يومين ، اقعد ثم ، حتى إذا بعناه نعطيك ما تشترى به شيئا .. فقعدتُ .. فلما باعه أعطانى شيئاً ومشى ، فتبعته .. فالتفتَ إلىَّ وقال لى : إذا عرضَتْ لك حاجة ، فأنزلها بالله تعالى ، إلا أن يكون لنفسك فيها حظ فتُحجب عن حاجتك .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن عبد الله يقول . سمعت الكتّانى يقول : الفراسة : مكاشفة اليقين ، ومعاينة الغيب ، وهو[1] من مقامات الإيمان .

وقيل : كان الشافعى ، ومحمد بن الحسن ، رحمهما الله تعالى ، فى المسجد الحرام فدخل رجل ، فقال محمد بن الحسن : أتفرّس أنه نجار ، وقال الشافعى : أتفرّس أنه حدّاد ، فسألاه ، فقال : كنت قبل هذا حدّادا ، والساعة أنجر .

وقال أبو سعيد الخرّاز :

المسْتنبط : مَن يلاحظ الغيب أبدا ، ولا يغيب عنه ، ولا يخفى عليه شىء ، وهو الذى دلّ عليه قوله تعالى :

﴿ لعلِمَهُ الذين يستنبطُونَهُ مِنهم ﴾[2].

والمتوسِّم : هو الذى يعرف الوَسْم[3] ، وهو العارف بما فى سويداء القلوب بالاستدلال والعلامات ، قال الله تعالى : ﴿ إنّ فى ذَلِكَ لآيات لِلْمُتَوَسِّمين ﴾[4] . أى : للعارفين بالعلامات التى يبديها على الفريقين من أوليائه وأعدائه .

والمتفرّس : ينظر بنور الله تعالى ، وذلك : سواطع أنوار لمعت فى قلبه فأدرك بها المعانى ، وهو[5] من خواص « الإيمان » ، والذين هم أكبر منه[6] حظاً « الرَّبانيون » قال الله تعالى : ﴿ كُونُوا رَبَّانيين ﴾[7] يعنى : علماء ، حكماء ، متخلقين بأخلاق الحقّ نظراً وخُلقًا ، وهم فارغون عن الإخبار عن الخلق ، والنظر إليهم ، والاشتغال بهم .

وقيل : كان أبو القاسم المنادى مريضًا ، وكان كبير الشأن ، من مشايخ (نيسابور) فعاده

---

(١) أى مقام الفراسة .
(٢) آية ٨٣ من سورة النساء .
(٣) أى العلامة .
(٤) آية ٧٥ من سورة الحجر .
(٥) أى نور الله .
(٦) أى من المتوسم .
(٧) آية ٧٩ من سورة آل عمران .

أبو الحسن البوشنجى ، والحسن الحداد ، واشتريا بنصف درهم تفاحا فى الطريق نسيئة ، وحملاه إليه ، فلما قعدا قال أبو القاسم : ما هذه الظلمة ؟ فخرجا . وقالا : ماذا فعلنا ؟. وتفكرا .. فقالا : لعلنا لم نؤد ثمن التفاح ، فأعطياه الثمن ، وعادا إليه ، فلما وقع بصره عليهما قال : هذا عجب ، أيمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة ؟! أخبرانى عن شأنكما .. فذكرا له هذه القصة ، فقال : نعم ، كان يعتمد كلّ واحد منكما على صاحبه فى إعطاء الثمن ، والرجل يستحى منكما فى التقاضى ، فكان تبقى التبعة ، وأنا السبب ، إنما رأيتُ ذلك فيكما وكان أبو القاسم المنادى هذا يدخل السوق كل يوم يُنادى ، فإذا وقع بيده ما فيه كفايته من دانق إلى نصف درهم خرج منه . وعاد إلى رأس وقته ، ومراعاة قلبه .

وقال الحسين بن منصور :

الحقّ إذا استولى على سرّ ملكة الأسرار ؛ فيعاينها ، ويخبر عنها .

وسئل بعضهم عن الفراسة ، فقال : أرواحٌ تتقَلب فى الملكوت ، فتشرف على معانى الغيوب ، فتنطق عن أسرار الخلق نطق مشاهدة ، لا نطق ظنّ وحسبان .

وقيل : كان بين زكريا النخشبى وبين امرأة سببٌ قبل توبته ، فكان يوماً واقفا على رأس أبى عثمان الحيرى ، بعدما صار من خواصّ تلاميذه ، فتفكر فى شأنها ، فرفع أبو عثمان رأسه إليه وقال : أما تستحى ؟! .

قال الأستاذ الإمام ، رحمه الله :

كنت فى ابتداء وصلتى بالأستاذ أبى على الدّقاق ، رضى الله عنه ، عقد لى المجلس فى مسجد « المطرز » فاستأذنته وقتاً للخروج إلى (نسا) فأذن لى فيه ، فكنت أمشى معه يوماً فى طريق مجلسه ، فخطر ببالى : ليته ينوب عنى فى مجالسى أيام غيبتى . فالتفت إلىَّ ، وقال لى : أنوبُ عنك أيام غيبتك فى عقد المجالس .

فمشيت قليلًا .. فخطر ببالى أنه عليل يشقُّ عليه أن ينوب عنى فى الأسبوع يومين ، فليته يقتصر على يوم واحد فى الأسبوع ؛ فالتفت إلىَّ وقال : إن لم يمكنى فى الأسبوع يومان أنوب عنك فى الأسبوع مرَّة واحدة ، فمشيت معه قليلًا ، فخطر ببالى شىء ثالث ، فالتفت إلىَّ وصرَّح بالإخبار عنه على القطع .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت جدّى أبا عمرو بن نجيد يقول :

كان شاه الكرمانىّ حادّ الفِراسة ، لا يُخطىء ، ويقول : من غضَّ بصره عن المحارم ،

أمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعوَّد أكل الحلال ، لم تخطئ فراسته .

وسئل أبو الحسن النورى : من أين تولدتْ فراسة المتفرّسين ؟

فقال : من قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيه مِنْ رُوحِي ﴾[١] ، فمن كان حظه من ذلك النور أتمَّ ، كانت مشاهدته أحْكم ، وحكمُه بالفراسة أصدق ، ألا ترى كيف أوجب نفخُ الرّوح فيه[٢] السجودَ له بقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيه مِن رُوحِي فَقَعوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[٥] .

وهذا الكلام من أبى الحسن النورى فيه أدنى غموض وإيهام ، بذكر نفخ الرُّوح[٣] ، لتصويب من يقول بقدم الأرواح ، ولا كما يلوح لقلوب المستضعفين ، فإن الذى يصحُّ عليه النفخ والاتصال والانفصال فهو قابل للتأثير والتغيير ، وذلك من سمات الحدوث ، وأن الله ، سبحانه وتعالى ، خصّ المؤمنين ببصائر وأنوار بها يتفرَّسون ، وهى فى الحقيقة معارف ، وعليه يُحمل قوله ﷺ : « فإنه ينظر بنور الله » أى بعلم وبصيرة يخصُّه الله تعالى به ويفرده به من دون أشكاله . وتسمية العلوم والبصائر أنوارا : غير مستبدع ، ولا يبعد وصف ذلك بالنفخ ، والمراد منه : الخلق .

وقال الحسين بن منصور :

المتفرِّس هو المصيب بأول مرماه إلى مقصده ، ولا يعرِّج على تأويل وظن وحُسبان .

وقيل : فراسة المريدين تكون ظنا يوجب تحقيقاً[٤] ، وفراسة العارفين تحقيق يوجب حقيقة .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى :

إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق : فإنهم جواسيس القلوب ؛ يدخلون فى قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تحسُّون .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت

---

(١) آية ٢٩ من سورة الحجر وآية ٧٢ من سورة ص .
(٢) أى فى آدم . (٥) سورة الحجر الآية ٢٩.
(٣) أى لجعل نفخ الروح هو السبب الموجب لسجود الملائكة .
(٤) أى يقيناً .

الخلدى يقول : سمعت أبا جعفر الحداد يقول : الفراسة أوّلُ خاطر بلا معارض ؛ فإن عارض مُعارضٌ من جنسه فهو خاطر وحديث نفس .

ويُحكى عن أبى عبد الله الرازى (نزيل نيسابور) قال :

كسانى (ابن الأنبارى) صوفًا ، ورأيت على رأس الشبلى قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف ، فتمنيت فى نفسى أن يكونا جميعًا لى .. فلما قام الشبلى من مجلسه التفت إلىّ .. فتبعته ، وكان عادته إذا أراد أن أتبعه يلتفت إلىّ ، فلما دخل داره دخلت ؛ فقال لى : انزع الصوف . فنزعته .. فلفّه وطرح القلنسوة عليه ، ودعا بنار فأحرقهما .

وقال أبو حفص النيسابورى :

ليس لأحد أن يدّعى الفراسة ، ولكن يتقى الفراسة من الغير ؛ لأن النبى ﷺ قال : (اتقوا فراسة المؤمن) ولم يقل : تفرسوا فكيف يصحُّ دعوى الفراسة لمن هو فى محل اتقاء الفراسة ؟!

وقال أبو العباس بن مسروق :

دخلت على شيخ من أصحابنا أعوده .. فوجدته على حال رثة ، فقلت فى نفسى : من أين يرتزق هذا الشيخ ؟ فقال لى : يا أبا العباس : دع عنك هذه الخواطر الدنيئة ؛ فإن لله ألطافًا خفية .

ويحكى عن الزبيدى قال :

كنت فى مسجد ببغداد مع جماعة من الفقراء ، فلم يفتح علينا بشىء أياما ، فأتيت الخوّاص لأسأله شيئًا ، فلما وقع بصره علىّ قال : الحاجة التى جئت لأجلها يعلمها الله أم لا ؟ فقلت : بلى ؛ فقال : اسكت ولا تبدها لمخلوق ، فرجعت ولم ألبث إلا قليلًا حتى فتح علينا بما فوق الكفاية . وقيل : كان سهل بن عبد الله يومًا فى الجامع ، فوقع حَمَام فى المسجد من شدَّة ما لحقه من الحرِّ والمشقة ، فقال سهل : إنَّ شاها الكرمانى مات الساعة ، إن شاء الله تعالى ، فكتبوا ذلك .. فكان كما قال :

وقيل : خرج أبو عبد الله التروغندى – وكان كبير الوقت – إلى « طوس » فلما بلغ « خرّ » وقال لصاحبه : اشتر الخبز . فاشترى ما يكفيهما ، فقال : اشتر أكثر من ذلك . فاشترى صاحبه ما يكفى عشرة أنفس تعمدًا ، فكأنه لم يجعل لقول ذلك الشيخ تحقيقًا قال : فلما صعدنا إلى الجبل إذا بجماعة قيَّدَتهم اللصوص ، لم يأكلوا منذ مدَّة ، فسألونا الطعام ، فقال : قدّم إليهم السفرة .

وقال الأستاذ الإمام : كُنت بين يدى الأستاذ الإمام أبى علىّ رحمه الله يومًا فجرى حديث الشيخ أبى عبد الرحمن السلمى رحمه الله ، وأنه يقوم فى السماع موافقة للفقراء ، فقال الأستاذ أبو علىّ : مثله فى حاله ؛ لعل السكون أولى به . ثم قال فى ذلك المجلس امض إليه فستجده وهو قاعد فى بيت كتبه ، وعلى وجه الكتُب مجلدة حمراء مربعة صغيرة فيها أشعار الحسين بن منصور . فاحمل تلك المجلدة ولا تقل له شيئًا وجئنى بها . وكان وقت الهاجرة .. فدخلت عليه فإذا هو فى بيت كتبه والمجلدة موضوعة بحيث ذكَرَ ، فلما قعدت أخذ الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى الحديث وقال : كان بعض الناس[١] ينكر على أحد من العلماء حركته فى السماع ، فرؤى ذلك الإنسان يومًا خاليًا فى بيت وهو يدور كالمتواجد ، فسئل عن حاله فقال : كانت مسألة مشكلةً علىّ ، فتبين لى معناها ، فلم أتمالك من السرور حتى قمت أدور ، فقيل له : مثل هذا يكون حالهم .

فلما رأيت ما أمرنى به الأستاذ أبو على ، وما وصف لى على الوجه الذى قال وجرى على لسان الشيخ أبى عبد الرحمن ما كان قد ذكره به ، تحيرت ، وقلت : كيف أفعل بينهما ؟.

ثم فكرت فى نفسى وقلت : لا وجه إلا الصدق ، فقلت : إن الأستاذ أبا على وصف لى هذه المجلدة وقال لى احملها من غير أن تستأذن الشيخ ، وأنا هو ذا أخافك ، وليس يمكننى مخالفته ، فأى شىء تأمرنى به ؟.. فأخرج[٢] « مسدسًا » من كلام الحسين ، وفيه تصنيف له سمّاه : كتاب « الصهيور فى نقض الدهور » وقال : احمل هذا إليه ، وقل له : إنى أطالع تلك المجلدة وأنقل منها أبياتًا إلى مصنفاتى .. فخرجت .

ويحكى عن الحسن الحدّاد ، رحمه الله ، أنه قال :

كنت عند أبى القاسم المنادى وعنده جماعة من الفقراء ، فقال لى : اخرج وأْتِهم بشىء ، فسررت : حيث أذن لى فى التكلف للفقراء وأن آتيهم بشىء بعد ما علم فقرى ، قال : فأخذت « مِكتلاً »[٣] وخرجت .. فلما أتيت سكة « سيار » رأيت شيخًا بهيا فسلمت عليه وقلت : جماعة من الفقراء فى موضع ، فهل لك أن تتخلق[٤] معهم بشىء ؟ فأمر .. حتى إذا أخرج إلىّ شيئًا من الخبز واللحم والعنب ، فلما بلغت الباب نادى أبو القاسم المنادى من وراء

---

(١) أى إنسان .
(٢) فأخرج مجلدًا آخر من كلام الحسين بن منصور .
(٣) زنبيلاً .
(٤) تتكرم وتعطى .

الباب : ردّه إلى الموضع الذى أخذته منه . فرجعت واعتذرت إلى الشيخ ، وقلت : لم أجدهم .. وعَرّضت بأنهم تفرّقوا ، ورددت السبب[1] عليه ثم جئت إلى السوق ففتح علىّ بشىء ، فحملته ، فقال : ادخل .

فقصصت عليه القصّة ، فقال : نعم ، ذاك (ابن سيّار) رجل سلطانى[2] ، إذا جئت للفقراء بشىء فأتهم بمثل هذا ، لا بمثل ذاك .

قال أبو الحسين القرافى : زرت أبا الخير التيناتى ، فلما ودّعته .. خرج معى إلى باب المسجد ، وقال لى : يا أبا الحسين ، أنا أعلم أنك لا تحمل معك معلومًا ، ولكن احمل معك هاتين التفاحتين .

فأخذتهما .. ووضعتهما فى جيبى ، وسرت ، فلم يفتح لى بشىء ثلاثة أيام ، فأخرجت واحدة منهما ، وأكلتها ، ثم أردت أن أخرج الثانية ، فإذا هما جميعًا فى جيبى ، فكنت آكل منهما ويعودان .. إلى[3] باب الموصل ، فقلت فى نفسى : إنهما يفسدان علىّ حال توكلى ؛ إذ صارتا معلومًا لى !!

فأخرجتهما من جيبى بمرّة . فنظرت فإذا فقير ملفوف فى عباءة يقول : أشتهى تفاحة !!

فناولتهما إياه .. فلما عبرتُ وقع لى : أن الشيخ إنما بعثهما إليه . وكنت فى رُفقة فى الطريق .. فانصرفت إلى الفقير ، فلم أجده .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت أبا عمر بن علوان يقول :

كان شاب يصحب الجنيد .. وكان يتكلم على خواطر الناس ، فذُكر للجنيد ، فقال له الجنيد : ما هذا الذى ذُكر عنك ؟ فقال للجنيد : اعتقدْ شيئًا . فقال : اعتقدتُ !! فقال الشاب : اعتقدتَ كذا وكذا ؟ فقال الجنيد : لا . فقال : اعتقدْ ثانيًا ، ففعل ، فقال : اعتقدتَ كذا وكذا . فقال : لا فقال : ثالثًا . فقال : مثله . فقال الشاب هذا عجب ، أنت صدوق ، وأنا أعرف قلبى ؟! فقال الجنيد : صدقتَ فى الأول والثانى والثالث ، ولكنى أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك !!

---

(١) أى الطعام .

(٢) أى منسوب إلى السلطان وطعامه ليس بصاف (العروسى) .

(٣) أى إلى أن وصلت فى سفرى .

وسمعته يقول : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : اعتلّ ابن الرقى ، فحُمل إليه دواء فى قدح ، فأخذه ، ثم قال : وقع اليوم فى المملكة حَدَث : لا آكل ، ولا أشرب حتى أعلم ما هو ؟ فورد الخبر بعدها بأيام : أن القرمطى دخل مكة فى ذلك اليوم ، وقتل بها تلك المقتلة العظيمة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول :

ذكر الكاتب هذه الحكاية ، فقال : هذا عجب !! فقلت له : هذا ليس بعجب ، فقال لى أبو على بن الكاتب : ما خبر مكة اليوم ؟ فقلت : هو ذا : تحاربَ الطلحيون وبنو الحسن ، ومقدّم الطلحيين أسودُ عليه عمامة حمراء ، وعلى مكة اليوم غيم على مقدار الحرم ، فكتب أبو على إلى مكة ، فكان كما ذكرت له .

ويروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال :

دخلت على عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكنت رأيت فى الطريق امرأة تأملتُ محاسنها ، فقال عثمان رضى الله عنه : يدخل علىّ أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينيه ، فقلت له : أَوَحيٌ بعد رسول الله ﷺ ؟!

فقال : لا ، ولكن تبصرةٌ ، وبرهان ، وفراسة صادقة .

وقال أبو سعيد الخرّاز : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيرًا عليه خرقتان يسأل الناس شيئًا ، فقلت فى نفسى : مثل هذا كلٌّ على الناس !! فنظر إلىّ وقال :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾[1] .

قال : فاستغفرت فى سرّى ، فنادانى ، وقال :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾[2] .

وحكى عن إبراهيم الخوّاص أنه قال :

كنت ببغداد فى جامع المدينة ، وهناك جماعة من الفقراء ، فأقبل علينا شاب ظريف ، طيِّب الرائحة ، حسن الحُرمة[3] ، حسن الوجه ، فقلت لأصحابنا : يقع لى أنه يهودى !! فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت ، وخرج الشابّ ، ثم رجع إليهم وقال : ماذا قال الشيخ فىّ ؟!

---

(١) آية ٢٣٥ من سورة البقرة .

(٢) آية ٢٥ من سورة الشورى .

(٣) وفى نسخة « الخدمة » ، وفى أخرى « الجملة » وهى مجتمع شعر الرأس ، وهى الأصوب .

فاحتشموه . فألحّ عليهم ، فقالوا : قال إنك يهودى . قال : فجاءنى وأكبّ على يدّى ، وأسلم . فقيل له : ما السبب ؟ قال :

نجد فى كتبنا أنّ الصدِّيق لا تخطىء فراسته . فقلت : أمتحن المسلمين ؛ فتأملتهم ، وقلت : إن كان فيهم صدّيق ففى هذه الطائفة[1] ؛ لأنهم يقولون[2] حديثه سبحانه ، فلبستُ عليكم .. فلما اطلع هذا الشيخ علىّ ، وتفرّس فىّ علمت أنه صدِّيق ، وصار الشاب من كبار الصوفية .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن إبراهيم بن العلاء ، يقول : سمعت محمد بن داود يقول :

كنا عند الجريرى ، فقال : هل فيكم من إذا أراد الحق ، سبحانه ، أن يحدث فى المملكة حدثا أعلمه قبل أن يُبديه ؟ قلنا : لا . فقال : ابكوا على قلوب لم تجد من الله تعالى شيئًا .

وقال أبو موسى الديلمى : سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل ، فقال : لو أدخلت يدك فى فم التنين[3] حتى تبلغ الرُّسغ لا تخاف مع الله تعالى شيئًا غيره . قال : فخرجت إلى أبى يزيد لأسأله عن التوكل ، فدققت عليه الباب ، فقال : أليس لك فى قول عبد الرحمن كفاية ؟! فقلت : افتح الباب . فقال : ما زرتنى ، أتاك الجواب من وراء الباب . ولم يفتح لى الباب ؛ فمضيت ، ولبثت سنة ، ثم قصدته ، فقال : مرحبًا ، جئتنى زائرًا . فكنت عنده شهرًا ، فكان لا يخطر بقلبى شىء إلا حدَّثنى عنه . فعند وداعه لى قلت :

أفدنى فائدة . فقال : حدثتنى أمى : أنها كانت حاملاً بى ، فكانت إذا قدّم لها طعام من حلال امتدت يدها إليه ، وإذا كان فيه شبهة انقبضت يدها عنه .

وقال إبراهيم الخوَّاص :

دخلت البادية ، فأصابتنى شدّة ، فلما بلغت مكة ، داخلنى شىء من الإعجاب ، فنادتنى عجوز : يا إبراهيم ، كنت معك فى البادية فلم أكلمك ؛ لأنى لم أرد أن أشغل سرّك أخرجْ عنك هذا الوسواس !!

وحكى أن الفرغانى كان يخرج كلّ سنة إلى الحج ، ويمر بـ « نيسابور » ، ولا يدخل على أبى عثمان الحيرى قال : فدخلت عليه مرّة ، وسلمت ، فلم يردّ علىّ السلام ، فقلت فى نفسى :

---

(١) أى الصوفية .

(٢) وفى نسخه « يتلون حديثه » أى كلامه .

(٣) نوع من الحيات الكبيرة .

مُسلم يدخل عليه ويسلم عليه فلا يردّ سلامه ؟ فقال أبو عثمان : مثل هذا يحجّ وَيَدع أمه لا يبرُّها ؟!

قال : فرجعت إلى « فرغانة » ولزمتها حتى ماتت . ثم قصدت أبا عثمان ، فلما دخلت استقبلنى ، وأجلسنى ، ثم إنَّ الفرغانى لازمه وسأله سياسة دابته[1] ، فولاه ذلك حتى مات أبو عثمان .

وقال خير النسّاج :

كنت جالسًا فى بيتى ، فوقع لى : أن الجنيد بالباب ، فنفيت عن قلبى ، فوقع لى ثانيًا ، وثالثًا ، فخرجت فإذا بالجنيد ، فقال : لِمَ لم تخرج مع الخاطر الأوّل ؟!

وقال محمد بن الحسين البسطامى :

دخلت على أبى عثمان المغربى ، فقلت فى نفسى : لعله يتشهى[2] علىَّ شيئًا ؟ فقال أبو عثمان : لا يكفى الناس أن آخذ منهم حتى يريدوا مسألتى إياهم .

وقال بعض الفقراء :

كنت ببغداد ، فوقع لى : أن المرتعش يأتينى بخمسة عشر درهمًا ؛ لأشترى بها الركوة[3] ، والحبل ، والنعل ، وأدخل البادية :

قال : فدق علىّ البابُ ، ففتحت ، فإذا أنا بالمرتعش معه خُريقة ، فقال : خذها . فقلت : ياسيدى ، لا أريدها !! فقال : فلم تؤذينا ؟! كم أردتَ ؟ فقلت : خمسة عشر درهمًا . فقال : هى خمسة عشرَ درهمًا .

وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾[4] أى : ميت الذهن فأحياه الله تعالى بنور الفراسة ، وجعل له نور التجلى والمشاهدة ، لا يكون كمن يمشى بين أهل الغفلة غافلاً .

وقيل : إذا صحت الفراسة ارتقى صاحبها إلى المشاهدة .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن الحسين البغدادى يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت أبا العباس بن مسروق يقول :

---

(١) أى خدمتها .
(٢) وفى نسخة : يشتهى أى يسألنى قضاء شىء .
(٣) الركوة : الدلو الصغيرة .
(٤) آية ١٢٢ من سورة الأنعام .

قدم علينا شيخ ، فكان يتكلم علينا فى هذا الشأن[١] بكلام حسن ، وكان عذب اللسان ، جيد الخاطر ، فقال لنا فى بعض كلامه : كلّ ما وقع لكم فى خاطركم فقولوه لى ، فوقع فى قلبى أنه يهوديّ ، وكان الخاطر يقوى ولا يزول . فذكرت ذلك للجريرى ، فكبر عليه ذلك ، فقلت : لابدّ لى أن أخبر الرجل بذلك ؛ فقلت له : تقول لنا ما وقع لكم فى خاطركم فقولوه لى ؛ إنه يقع : إنك يهوديّ !! فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : صدقت ، أشهد أن لا إلهَ إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله . وقال : قد مارست جميع المذاهب وكنت أقول : إن كان مع قوم[٢] منهم شىء فمع هؤلاء ؛ فداخلتكم لأختبركم ، فأنتم على الحقّ . وحَسُن إسلامه .

ويحكى عن الجنيد : أنه كان يقول له السريّ : تكلم على الناس[٣] .

فقال الجنيد : وكان فى قلبى حشمة[٤] من الكلام على الناس ؛ فإنى كنت أتهم نفسى فى استحقاق ذلك .. فرأيت ليلة النبى ﷺ فى المنام وكانت ليلة جمعة ، فقال لى : « تكلم على الناس » . فانتبهت .. وأتيت باب السرى قبل أن أصبح ؛ فدققت عليه الباب ، فقال : لم تصدّقنا حتى قيل لك ؟ فقعد للناس فى الجامع بالغد ، فانتشر فى الناس أن الجنيد قعد يتكلم على الناس ؛ فوقف عليه غلام نصرانى متنكرًا ، وقال له : أيها الشيخ ، ما معنى قول رسول الله ﷺ :

« اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنَّ المؤمن ينظر بنور الله تعالى»؟

قال : فأطرق الجنيد .. ثم رفع رأسه وقال :

أسلم ؛ فقد حان وقت إسلامك . فأسلم الغلام .

---

(١) أى فى الصوفية .
(٢) وفى نسخة « مع أحد » .
(٣) أى عظهم وذكرهم .
(٤) أى مهابة .

باب الخلق

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أبو الحسن الصفار البصرى : قال : حدَّثنا هشام[2] بن محمد بن غالب قال : حدثنا معلى بن مهدى قال : حدثنا بشار بن إبراهيم النميرى ، قال : حدثنا غيلان بن جرير عن أنس قال :

« قيل يارسول الله : أيُّ المؤمنين أفضل إيمانًا ؟ قال : أحسنهم خُلُقًا »[3] .

إذ الخُلق الحسن أفضل مناقب العبد ، وبه يظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخَلْقه مشهودٌ بخُلقه .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : إن الله تعالى ، خصَّ نبيه ﷺ بما خصّه به ، ثم لم يُثن عليه بشىء من خصاله بمثل ما أثنى بخلقه ؛ فقال عزّ من قائل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[4] .

وقال الواسطى : وَصفه بالخلق العظيم ؛ لأنه جاد بالكونين[5] ، واكتفى بالله تعالى .

وقال الواسطى أيضًا : الخلق العظيم : أن لا يُخاصِم ولا يُخاصَم ، من شدَّةِ معرفته بالله تعالى .

وقال الحسين بن منصور : معناه :

لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك الحق ..

وقال أبو سعيد الخراز : لم يكن لك همة غير الله تعالى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت الكتانى يقول :

التصوّف خُلق ، مَنْ زاد عليك بالخُلق ، فقد زاد عليك فى التصوف .

---

(١) آية ٤ من سورة القلم .

(٢) وفى نسخة : تمتام .

(٣) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه .

(٤) آية ٤ من سورة القلم .

(٥) بالدنيا والآخرة .

ويروى عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، أنه قال :

إذا سمعتمونى أقول لمملوك : أخزاه الله فاشهدوا أنه حُرّ .

وقال الفضيل :

لو أن العبد أحسن الإحسان كله ، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين .

وقيل : كان ابن عمر ، رضى الله عنهما ، إذا رأى واحدًا من عبيده يُحْسن الصلاة يعتقه . فعرفوا ذلك من خلقه ، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له ، وكان يعتقهم ، فقيل له فى ذلك . فقال : من خَدَعنا فى الله انخدعنا له .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت الحارث المحاسبى يقول : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول :

الخلق : استصغار ما منك إليه واستعظام ما منه إليك .

وقيل للأحنف : ممن تعلمت الخلق ؟ فقال : من قيس بن عاصم المنقرى . قيل : وما بلغ من خُلقه ؟ قال : بينا هو جالس فى داره إذ جاءت خادم له بِسَفود[1] عليه شواء ، فسقط من يدها ، فوقع على ابن له ، فمات ، فدهِشت الجارية ، فقال : لا رَوْعَة عليك ، أنت حُرَّة لوجه الله تعالى .

وقال شاه الكرمانى :

علامة حُسْن الخلق : كفُّ الأذى ، واحتمال المؤن .

وقال رسول الله ﷺ : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحُسْن الخلق »[2] .

وقيل لذى النون المصرى : من أكثر الناس هما ؟ قال : أسوأهم خُلقًا .

وقال وهب : ما تخلّق عبد بخلق أربعين صباحًا إلا جعله الله طبيعةً فيه .

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[3] أى : وخلقك فحسِّن ..

---

(١) حديد يشوى عليه اللحم .

(٢) رواه البزار ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب .

(٣) آية ٤ من سورة المدثر .

وقيل : كان لبعض النسَّاك شاة فرآها على ثلاث قوائم[١] . فقال : من فعل بها هذا ؟ فقال غلام له : أنا . فقال : لِمَ ؟ قال : لأغمك بها !! فقال : لا ، بل لأغمنَّ من أمرك بذلك . اذهب فأنت حرٌّ .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : هل فرحتَ فى الدنيا قط ؟. فقال : نعم ، مرتين إحداهما : كنت قاعدًا ذات يوم فجاء إنسان وبال علىَّ ؛ والثانية : كنت قاعدًا فجاء إنسان وصفعنى .

وقيل : كان أويس القرنى إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة ، فيقول : إن كان ولا بُدَّ فارمونى بالصِّغار[٢] : كيلا تدقوا ساقى فتمنعونى عن الصلاة .

وشتم رجل الأحنف بن قيس ... وكان يتبعه ... فلما قرب من الحىّ وقف ، وقال : يافتى ، إن بقى شىء فقله ؛ كيلا يسمعك بعض سفهاء الحىّ فيجيبوك[٣] .

وقيل لحاتم الأصم : أيحتمل الرجل من كلّ أحد ؟.. فقال : نعم ، إلا من نفسه .

وروى أنَ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب[٤] رضى الله عنه ، دعا غلامًا له ، فلم يجبه ، فدعاه ثانيًا وثالثًا فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعًا ، فقال : أما تسمع يا غلام ؟ فقال : نعم . قال : فما حملك على ترك جوابى ؟ فقال : أمِنتُ عقوبتك فتكاسلت . فقال : امض ؛ فأنت حرّ لوجه الله تعالى .

وقيل : نزل معروف الكرخى الدجلة ليتوضأ ، ووضع مصحفه وملحفته ، فجاءت امرأة وحملتهما، فتبعها معروف ، وقال : يا أختى ، أنا معروف ولا بأس عليك ، ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا . قال : فزوج ؟ قالت : لا ، قال : فهاتى المصحف وخذى الثوب .

ودخل اللصوص مرَّة دار الشيخ أبى عبد الرحمن السلمى بـ « المكابرة » ، وحملوا ما وجدوا ، فسمعت بعض أصحابنا يقول : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن يقول : اجتزت بالسوق ، فوجدت جُبَّتى على منْ يزيد[٥] ، فأعرضت ، ولم ألتفت إليه .

سمعت الشيخ أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج الطوسى يقول :

---

(١) والرابعة قطعت .

(٢) أى الصغار من الحجارة .

(٣) وفى نسخة فيؤذوك .

(٤) ابن عم رسول الله ﷺ وكرم الله وجهه ورضى عنه ، وقد آخى الرسول ﷺ بينه وبينه ، وقال له أنت منى بمنزلة هارون من موسى وله من المواقف المحمودة ما شهدت به السيرة انظر أسد الغابة ، والإصابة والسيرة النبوية .

(٥) أى تباع فى المزاد .

سمعت الوجيهى يقول : قال الجريرى : قدمت من مكة ، حرسها الله تعالى ، فبدأت بالجنيد ، لكيلا يتعنى إلىَّ ، فسلّمت عليه ، ثم مضيت إلى المنزل فلما صليت الصبح فى المسجد إذا أنا به خلفى فى الصفّ ، فقلت : إنما جئتك لئلا تتعنى ، فقال : ذاك فضلك ، وهذا حقك .

وسئل أبو حفص عن الخُلق . فقال : هو ما اختار الله - عزَّ وجلَّ - لنبيه ﷺ فى قوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ... ﴾[1] الآية .

وقيل : الخلق : أن تكون من الناس قريبًا ، وفيما بينهم غريبًا .

وقيل : الخلق قبول ما يَردُ عليك من جفاء الخلق ، وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق .

وقيل : كان أبو ذرّ على حوض يسقى إبلا له ، فأسرع بعض الناس إليه ، فانكسر الحوض ، فجلس ، ثم اضطجع ، فقيل له فى ذلك فقال : إن رسول الله ﷺ أمرنا إذا غضب الرجل أن يجلس فإن ذهب عنه . وإلا فليضطجع .

وقيل : مكتوب فى الإنجيل : عبدى .. اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب .

وقالت امرأة لمالك بن دينار : يا مرائى !! فقال : ياهذه ؛ وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة .

وقال لقمان لابنه : لا تُعرَف ثلاثة إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب والشجاع عند الحرب ، والأخ عند الحاجة إليه .

وقال موسى ، عليه السلام : إلهى ، أسألك أن لا يقال ما ليس فىَّ ؛ فأوحى الله سبحانه إليه : ما فعلت ذلك لنفسى ، فكيف أفعله لك ؟

وقيل ليحيى بن زياد الحارثى ، وكان له غلام سوء : لمَ تمسك هذا الغلام ؟ فقال : لأتعلم عليه الحلم .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً ﴾[2] : الظاهرة : تسوية الخلق ، والباطنة : تصفية الخُلق .

وقال الفضيل[3] : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحبّ إلىّ من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق .

وقيل : الخلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة .

---

(١) الأعراف آية : ١٩٩ .

(٢) سورة لقمان آية ٢٠ .

(٣) ابن عياض .

وحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج إلى بعض البرارى فاستقبله جندى ، فقال : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه وأوضحه ، فلما جاوزه ، قيل له : إنه إبراهيم بن أدهم زاهد « خراسان » فجاءه يعتذر إليه ، فقال : إنك لما ضربتنى سألت الله تعالى لك الجنة . فقال : لم ؟ فقال علمت أنى أؤجر عليه ، فلم أرد أن يكون نصيبى منك الخير ، ونصيبك منى الشر .

وحكى أن أبا عثمان الحيرى دعاه إنسان إلى ضيافة ، فلما وافى باب داره قال : يا أستاذ ، ليس الآن وقت دخولك ، وقد ندمت ، فانصرف ، فرجع أبو عثمان ، فلما وافى منزله عاد إليه الرجل ، وقال : يا أستاذ ، ندمت !! وأخذ يتعذر إليه ، وقال : احضر الساعة ... فقام أبو عثمان ومضى ، فلما وافى باب داره قال : مثل ما قال فى الأولى ، ثم كذلك فعل فى الثالثة والرابعة ، وأبو عثمان ينصرف ويحضر ، فلما كان بعد مرّات قال : يا أستاذ ، أردت اختبارك . وأخذ يعتذر ويمدحه ، فقال أبو عثمان :

لا تمدحنى على الخُلق تجد مثله مع[1] الكلاب : الكلب إذا دُعى حضر ، وإذا زُجر انزجر .

وقيل : إن أبا عثمان اجتاز بسكة وقت الهاجرة ، فألقى عليه من سطح طشت رماد ، فتغير أصحابه ، وبسطوا ألسنتهم فى الملقى ، فقال أبو عثمان :

لا تقولوا شيئًا ، من استحق أن يصبّ عليه النار ، فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب .

وقيل : نزل بعض الفقراء على جعفر بن حنظلة ، فكان جعفر يخدمه جدًا ، والفقير يقول : نعم الرجل أنت لو لم تكن يهوديًا !! فقال جعفر : عقيدتى لا تقدح فيما تحتاج إليه من الخدمة ؛ فسل لنفسك الشفاء ولى الهداية .

وقيل : كان لعبد الله الخياط حَرِّيف مجوسىّ ، يخيط له ثيابًا ، ويدفع إليه دراهم زيوفًا ، وكان عبد الله يأخذها .. فاتفق أنه قام من حانوته يومًا لشغل ، فجاء بالدراهم الزيوف ، فدفعها إلى تلميذه ، فلم يقبلها ، فدفع إليه الصحاح ، فلما رجع عبد الله قال لتلميذه :

أين قميص المجوسى ؟

فذكر له القصة .. فقال : بئسما عملت ؟ إنه منذ مدّة يعاملنى بمثلها ، وأنا أصبر عليه ، وألقيها فى بئر ، لئلا يَغُرّ بها غيرى .

---

(١) وفى نسخة « فى » .

وقيل : الخلق السيئ يضيق قلب صاحبه ؛ لأنه لا يسع فيه غير مراده ، كالمكان الضيق لا يسع فيه غير صاحبه .

وقيل : حسن الخلق : أن لا تتغير ممن يقف فى الصفّ بجنبك .

وقيل : من سوء خلقك : وقوع بصرك على سوء خلق غيرك .

وسئل رسول الله ، ﷺ ، عن الشؤم ، فقال :

« سوء الخلق »[1] .

أخبرنا أبو الحسن علىُّ بن أحمد الأهوازى ، قال : حدثنا أبو الحسن الصفار البصرى قال : حدَّثنا معاذ بن المثنى قال : حدَّثنا يحيى بن معين قال حدثنا مروان الفزارى قال : حدثنا يزيد بن كيسان ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال :

قيل : يارسول الله ، ادع الله تعالى على المشركين .

فقال : « إنما بعثت رحمة ، ولم أبعث عذابًا »[2] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ، والطبرانى فى المعجم الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية عن عائشة ، وأخرجه الدار قطنى فى الأفراد ، والطبرانى فى الأوسط عن جابر ، ورمز له السيوطى بالضعف .

(٢) أخرجه البخارى فى التاريخ عن أبى هريرة ورمز له السيوطى بالحسن .

باب الجود والسخاء

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ(١) ﴾(٢) .

أخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا الحسن بن العباس قال : حدثنا سهل قال : حدثنا سعيد بن مسلم ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ :

« السخيّ : قريب من الله تعالى ، قريبٌ من الناس . قريب من الجنة ، بعيد من النار .

والبخيل : بعيد من الله تعالى ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار .

والجاهل السخيّ أحب إلى الله تعالى من العابد البخيل »(٣) .

قال الأستاذ : ولا فرق – على لسان القوم – بين الجود والسخاء ، ولا يوصف الحق ، سبحانه ، بالسخاء والسماحة ، لعدم التوقيف .

وحقيقة الجود : أن لا يصعب عليه البذل .

وعند القوم ، السخاء : هو الرتبة الأولى ، ثم الجود بعده ، ثم الإيثار ، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذلك الأكثر ، وأبقى لنفسه شيئًا ، فهو صاحب جود ، والذى قاسى الضرر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، كذلك سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : قال أسماء بن خارجة : ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة طلبها منى ، لأنه إن كان كريما أصونُ عرضه ، وإن كان لئيما أصون عنه عرضى .

وقيل : كان مـ ـرّق العجلى يتلطف فى إدخال الرفق على إخوانه ، يضع عندهم ألف درهم ، فيقول : أمسكوها عندكم حتى أعود إليكم ، ثم يرسل إليهم : أنتم منها فى حِلّ .

---

(١) خصاصة : فقر وحاجة .

(٢) آية ٩ من سورة الحشر .

(٣) قال كشف الخفا : جـ ٢ ص ٥٤٥ ، رواه الترمذى والعقيلى فى الضعفاء وغيرهما عن أبى هريرة رفعه وقال الترمذى غريب ، وإنما يروى عن عائشة مرسلاً ورواه الطبرانى فى الأوسط بسند فيه سعيد بن محمد الوراق ضعيف عن عائشة ، وقال ابن الجوزى فى الموضوعات لما ذكر هذا الحديث عن الدار قطنى قال لهذا الحديث طرق لا يثبت منها شىء ، قال الحافظ ابن حجر : ولا يلزم من هذه العبارة أن يكون موضوعًا إذ تصدق بالضعيف ، فالحكم عليه بالوضع ليس بجيد ، وقال النجم وفيه زيادة عند الترمذى : والجاهل السخى أحب إلى الله من عابد بخيل ، وزاد الدارقطنى : وأدوأ الداء البخل » ا هـ .

وقيل : لقى رجل من أهل « منبج » رجلاً من أهل المدينة ، فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل المدينة ، فقال له : لقد أتانا رجل منكم يقال له « الحكم بن عبد المطلب » فأغنانا . فقال له المدنى : وكيف ؟ وما أتاكم إلا فى جبة صوف ! فقال ما أغنانا بمال ، ولكنه علمنا الكرم . فعاد بعضنا على بعض حتى استغنينا .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : لمَّا سعى غلام الخليل[1] بالصوفية إلى الخليفة أمر بضرب أعناقهم ، فأما الجنيد فإنه تستر بالفقة ، كان يفتى على مذهب « أبى ثور » ، وأما الشحام ، والرقام ، والنورى . وجماعة ، فقبض عليهم ، فبسط النِّطع لضرب أعناقهم .. فتقدم النورى فقال له السّياف : تدرى إلى ماذا تبادر ؟ . فقال : نعم قال وما يعجلك ؟ .

فقال أوثر علىَّ أصحابى بحياة ساعة .

فتحير السيَّاف ، وأنهى الخبر إلى الخليفة ، فردّهم إلى القاضى ، ليتعرف حالهم ، فألقى القاضى على أبى الحسين النورى مسائل فقهية ، فأجابه الكلّ ، ثم أخد يقول :

وبعد : فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله ، وإذا نطقوا نطقوا بالله ، وسرد ألفاظًا أبكى بها القاضى فأرسل القاضى إلى الخليفة ، وقال : إن كان هؤلاء زنادقة ، فما على وجه الأرض مسلم .

وقيل : كان علىّ بن الفضيل[2] يشترى من باعة المحلّة ، فقيل له : لو دخلت السوق فاسترخصت .

فقال : هؤلاء نزلوا بقربنا رجاء منفعتنا .

وقيل : بعث رجل إلى « جبلة[3] » بجارية ، وكان بين أصحابه ، فقال : قبيح أن أتخذها لنفسى وأنتم حضور ، وأكره أن أخصّ بها واحدًا وكلكم له حق وحرمة ، وهذه لا تحتمل القسمة ، وكانوا ثمانين : فأمر لكل واحد بجارية أو وصيف .

وقيل : عطش عبيد الله بن أبى بكرة يومًا فى طريقه ، فاستسقى من منزل امرأة ، فأخرجت له كوزا ، وقامت خلف الباب ، وقالت : تنحوا عن الباب ، وليأخذه بعض غلمانكم ، فإنى امرأة من العرب : مات خادمى منذ أيام ، فشرب عبيد الله الماء ، وقال لغلامه : احمل إليها عشرة آلاف درهم . فقالت : سبحان الله تسخر بى ؟ . فقال ؛ أحمل إليها عشرين ألف

---

(١) ابن أحمد .

(٢) ابن عياض .

(٣) ابن سحيم .

درهم . فقالت : اسأل الله تعالى العافية . فقال : يا غلام احمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فردّت الباب وقالت : أف لك ، فحمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فأخذتها فما أمست حتى كثر خطابها .

وقيل : الجود : إجابة الخاطر الأول :

سمعت بعض أصحاب أبي الحسن البوشنجى ، رحمه الله ، يقول : كان أبو الحسن البوشنجى فى الخلاء ، فدعا تلميذًا له ، وقال له : أنزع عنى هذا القميص ، وادفعه إلى فلان ، فقيل له : هلَّا صبرت حتى تخرج من الخلاء ؟ فقال : لم آمن على نفسى أن يتغير علىّ ما وقع لى من التخلف منه بذلك القميص .

وقيل لقيس بن سعد بن عبادة : هل رأيت أحدًا أسخى منك ؟ فقال له : نعم ، نزلنا بالبادية على امرأة ، فحضر زوجها ، فقالت له : إنه نزل بك ضيفان ، فجاء بناقة ونحرها ، وقال ؛ شأنكم بها ..

فلما كان بالغد جاء بأخرى ونحرها ، وقال : شأنكم بها ، فقلنا : ما أكلنا من التى نحرت لنا بالبارحة إلا اليسير ..

فقال : إنى لا أطعم أضيافى الغابّ[1] . فبقينا عنده يومين أو ثلاثة ، والسماء تمطر ، وهو يفعل كذلك ..

فلما أردنا الرحيل وضعنا له مائة دينار فى بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذرى لنا إليه .. ومضينا ، فلما متع[2] النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام : أعطيتمونى ثمن قراى .. ثم إنه لحقنا وقال : لتأخذنه ، وإلا طعنتكم برمحى هذا ، فأخذناه وانصرف ، فأنشأ يقول :

وإذا أخذت ثوابَ ما أعطيته   فكفى بذاك لنائلٍ تكديرا

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله يقول : دخل أبو عبد الله الروزبارى دار بعض أصحابه ، فوجده غائبًا ، وباب بيتٍ له مقفل ، فقال : صوفى وله باب بيت مقفل !! اكسروا القفل ، فكسروا القفل وأمر بجميع ما وجد فى الدار والبيت ، وأنقذه إلى السوق ، وباعوه ، وأصلحوا وقتاً من[3] الثمن ، وقعدوا فى الدار .. فدخل صاحب المنزل ولم يمكنه أن يقول شيئاً .

---

(١) البائت .

(٢) ارتفع وقوى .

(٣) أى واشتروا بعض حاجات لهم من الثمن الذى باعوا به .

فدخلت امرأته بعدهم الدار ، وعليها كساء ، فدخلت بيتًا ، ورمت الكساء ، وقالت : يا أصحابنا ، هذا أيضاً من جملة المتاع فبيعوه . فقال الزوج لها : لم تكلفت هذا باختيارك ؟ .

فقالت : له اسكت ، مثل هذا الشيخ يباسطنا ، ويحكم علينا ، ويبقى لنا شيء ندخره عنه ؟ .

وقال بشر بن الحارث : النظر إلى البخيل يقسى القلب

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه . فسأل عنهم ، فقيل له : إنهم يستحيون ممَّا لك عليهم من الدَّين ، فقال : أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة !! ، ثم أمر من ينادى[1] من كان لقيس عليه دين فهو منه فى حلّ ، فكسرت عتبته بالعشى ، لكثرة من عاده .

وقيل لعبد الله بن جعفر : إنك تبذل الكثير إذا سئلت ، وتضنُّ فى القليل إذا نُوجزتَ .

فقال : إنى أبذل مالى وأضِنُّ بعقلى .

وقيل : خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له .. فنزل على نخيل قوم ، وفيها غلام أسود يعمل فيها ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل كلب الحائط[2] ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص ، فأكله ، ثم رمى إليه الثانى ، والثالث ، فأكله ، وعبدالله بن جعفر ينظر إليه فقال له : يا غلام ، كم قُوتك كلَّ يوم ؟ قال : ما رأيت . قال : فلم آثرت هذا الكلب ؟ .

قال : ما هى بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً ، فكرهت رده .

قال : فما أنت صانع اليوم ؟ . قال له : أطوى يومى هذا . فقال عبد الله بن جعفر : أؤلام على السخاء ؟ ؟! إنَّ هذا لأسخى منى ، فاشترى الحائط والغلام وما فيها من آلات ، فأعتق الغلام ووهبها له .

وقيل : أتى رجلٌ صديقًا له ، ودقّ عليه الباب ، فلما خرج إليه قال : لماذا جئتنى ؟ .

قال لأربعمائة درهم دين ركبتنى ، فدخل الدار ، ووزن له أربعمائه درهم وأخرجها إليه ، ودخل الدار باكيًا ، فقالت له امرأته : هلّا تعللت حين شقَّ عليك الإجابة ؟!.

فقال : إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتى به .

---

(١) وفى نسخة « مناديا » .

(٢) الحديقة التى بها النخيل .

وقال مطرف بن الشخير : إذا أراد أحدكم منى حاجة فليرفعها فى رقعة ؟ فإنىِّ أكره أن أرى فى وجهه ذلّ الحاجة .

وقيل : أراد رجل أن يضارَّ عبدالله بن العباس ، فأتى وجوه البلد ، وقال لهم : يقول لكم ابن العباس تغدُّوا عندى اليوم ، فأتوه ، فملئوا الدار ، فقال : ما هذا ؟ فأخبر الخبر : فأمر بشراء الفواكه فى الوقت ، وأمر بالخبز ، والطبخ ، وأصلح أمراً ، فلما فرغوا قال لوكلائه : أموجود لنا كل يوم هذا ؟ فقالوا : نعم . فقال : فليتغد هؤلاء كلهم عندما كلَّ يوم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : كان الأستاذ أبو سهل الصعلوكى يتوضأ يومًا فى صحن داره ، فدخل إليه إنسان وسأله شيئاً من الدنيا ، ولم يحضره شىء . فقال : اصبر حتى أفرغ .

فصبر .. فلما فرغ قال له : خذ القمقمة واخرج ، فأخذها ، وخرج ، ثم صبر حتى علم أنه بعُد ، فصاح وقال : دخل إنسان وأخذ القمقمة . فمشوا خلفه ، فلم يدركوه .

وإنما فعل ذلك : لأن أهل المنزل كانوا يلومونه على كثرة البذل .

وسمعته يقول : وهَبَ الأستاذ أبو سهل جبّته من إنسان فى الشتاء ، وكان يلبس جبّة النساء حين يخرج إلى التدريس ، إذ لم تكن له جبة أخرى ، فقدم الوفد المعروفون من فارس ، فيهم من كلِّ نوع : إمام من الفقهاء ، والمتكلمين ، والنحويين ، فأرسل إليه صاحب الجيش أبو الحسن وأمره بأن يركب للاستقبال فلبس دُراعةً فوق تلك الجبة التى للنساء ، وركب ، فقال صاحب الجيش : إنه يستخفُّ بى أمام البلد : يركب فى جبة النساء !!.. ثم إنه ناظرهم أجمعين فظهر كلامه على كلام جميعهم فى كل فن .

وسمعته يقول : لم يناول الأستاذ أبو سهل أحدًا شيئا بيده ، وكان يطرحه على الأرض ليأخذه الآخذ من الأرض ، وكان يقول : الدنيا أقل خطرًا من أن أرى لأجلها يدى فوق يد أحد .

وقد قال ﷺ : « اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى »[١] .

وقيل : كان أبو مرثد ، رحمه الله ، أحد الكرام ، فمدحه بعض الشعراء ، فقال : ما عندى ما أعطيك ، ولكن قدمنى إلى القاضى ، وأدَّع علىّ عشرة آلاف درهم ، حتى أقرّ لك بها ، ثم

---

(١) حديث صحيح وتمامه وابدأ بمن تعول أخرجه أحمد فى مسنده والطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن عمر .

أحبسنى ، فإن أهلى لا يتركونى مسجونًا . ففعل ذلك ، فلم يُمس حتى دُفع إليه عشرة آلاف درهم ، وخرج من السجن .

وقيل : سأل رجل الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، شيئًا فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار ، وقال : أئت بحمال يحمله لك . فأتى بحمَّال فأعطاه « طيلسانه » وقال : يكون كِراءُ الحمّال من قِبلى .

وسألت امرأةٌ الليث بن سعد « سكرجة » عسل ، فأمر لها بزقٍ من عسل فقيل له فى ذلك ، فقال : إنها سألت على قدر حاجتها ، ونحن نعطيها على قدر نعمنا .

وقال بعضهم .. صليت فى مسجد الأشعث بالكوفة الصبح أطلب غريمًا لى ، فلما سلمت وُضِع بين يدى كلٍّ واحد حُلة ونعلين[1] . وكذلك وضع بين يدىّ فقلت : ما هذا ؟ .

فقالوا : إن الأشعث قدم من مكة ، فأمر بهذا لأهل جماعة مسجده .

فقلت : إنما جئت أطلب غريمًا لى ، ولست من جماعته .

فقالوا : هو لكلٍّ من حضر .

وقيل : لمَّا قربت وفاة الشافعى ، رضى الله تعالى عنه ، قال : مُروا فلانًا يغسلنى .

وكان الرجل غائبًا .. فلما قدم أخبر بذلك ، فدعا بتذكرته[2] فوجد عليه سبعين ألف درهم دينًا ، فقضاها ، وقال : هذا غسلى إياه .

وقيل : لما قدم الشافعى من « صنعاء » إلى مكة كان معه عشرة آلاف دينار ، فقيل له : تشترى بها « قنية »[3] فضرب خيمته خارج مكة ، وصبَّ الدنانير ، فكلّ من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة ، فلما جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب ولم يبق شىء .

وقيل : خرج السرىّ يوم عيد ، فاستقبله رجل كبير الشأن ، فسلم السرىّ عليه سلامًا ناقصاً . فقيل له : هذا رجل كبير الشأن . فقال : قد عرفته ، ولكن روى مسندًا : أنه إذا التقى المسلمان قُسمت بينهما مائة رحمة : تسعون لأبشِّهما ، فأردت أن يكون معه الأكثر .

وقيل : بكى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يومًا ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ، وأخاف أن يكون الله تعالى قد أهاننى .

---

(١) وفى نسخه « ونعلان » وهى الأصوب .

(٢) أى بدفتر الشافعى .

(٣) أى شيئًا يقتنى .

وروى عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أنه قال : زكاةُ[١] الدّار أن يتخذ فيها بيت للضيافة .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ .. ﴾[٢] قيل قيامه عليهم بنفسه ، وقيل : لأن ضيف الكريم كريم .

وقال إبراهيم بن الجنيد : كان يقال : أربعة لا ينبغى للشريف أن يأنف منهن ، وإن كان أميرًا : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته لعالم يتعلم منه ، والسؤال عما لم يعلم .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتاً ﴾[٣] : إنهم كانوا يتحرَّجون فى أن يأكل أحدهم وحده ، فرخص لهم فى ذلك .

وقيل : أضاف « عبد الله بن عامر بن كريز » رجلًا ، فأحسن قراه ، فلما أراد الرجل أن يرتحل عنه لم يُعنه غلمانه ، فقيل له فى ذلك . فقال عبد الله ، إنهم لا يعينون من يرتحل عنا .

أنشد عبد الله بن باكوية الصوفىّ قال : أنشدنا المتنبى فى معناه :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

وقال عبد الله بن المبارك : سخاء النفس عمّا فى أيدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل .

وقال بعضهم : دخلت على بشر بن الحارث فى يوم شديد البرد وقد تعرى من الثياب وهو ينتفض ، فقلت : يا أبا نَصْر ، الناس يزيدون فى الثياب فى مثل هذا اليوم وأنت قد نقصت ؟!!.

فقال : ذكرت الفقراء وما هم فيه ، ولم يكن لى ما أواسيهم به ، فأردت أن أرافقهم بنفسى فى مقاساة البرد .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الدقاق يقول : ليس السخاء أن يعطى الواجدُ المعدم ، إنما السخاء أن يُعطى المعدمُ الواجد .

---

(١) أى بركتها ونموها .
(٢) آية ٢٤ من سورة الذاريات .
(٣) آية ٦١ من سورة النور .

باب الغيرة

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّى الْفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ ﴾[١] .

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس المزكى قال : أخبرنا أبو أحمد حمزة بن العباس البزاز ببغداد قال : حدثنا محمد بن غالب بن حرب قال : حدثنا عبد الله بن مسلم ، قال : حدثنا محمد بن الفرات ، عن إبراهيم الهجرى ، عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحدٌ أغير من الله تعالى ، ومن غيرته حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[٢] .

أخبرنا علىُّ بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، قال : حدثنا على بن الحسن بن بنان قال : حدثنا عبد الله بن رجاء قال : أخبرنا حرب بن شداد قال : حدثنا يحيى ابن أبى كثير عن أبى سلمة : أن أبا هريرة ، رضى الله عنه ، حدَّثهم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله تعالى : أن يأتى العبد المؤمن ما حرَّم الله عليه »[٣] .

والغيرة : كراهية مشاركة الغير ، وإذا وُصف الله سبحانه بالغيرة ، فمعناه : أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له تعالى من طاعة عبده له .

حكى عن السرىّ السقطى : أنه قرئ بين يديه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[٤] فقال السرىّ لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟! هذا حجاب الغيرة ، ولا أحد أغيرُ من الله تعالى .

ومعنى قوله : « هذا حجاب الغيْرة » يعنى : أنه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين .

---

(١) آية ٣٣ من سورة الأعراف .

(٢) وروى بنحوه عن عائشة فيما أخرجه البخارى : عن النبى ﷺ قال : ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته تزنى ، يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا » :

(٣) والمراد بالغيرة هنا عدم الرضا والحديث أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم فى صحيحيهما ، والترمذى وقال حديث صحيح .

(٤) آية ٤٥ من سورة الإسراء .

وكان الأستاذ أبو على الدقاق ، رحمه الله : يقول : إن أصحاب الكسل عن عبادته تعالى هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان[1] ، فاختار لهم البعد عنه ، وأخرهم عن محل القرب؛ ولذلك تأخروا .

وأنشدوا :

أنـا صـبٌّ هَـويـتُ ولـكـن ما احتيالى لسوء رأى الموالى

وفى معناه أيضًا قالوا : سقيم ليس يُعادُ . ومريد ولا يُراد .

سمعت الأستاذ أبا على ، رحمه الله ، يقول : سمعت العباس الزوزنى يقول : كان لى بداية حسنة .. وكنت أعرف كم بقى بينى وبين الوصول إلى مقصودى من الظفر بمرادى ، فرأيت ليلة من الليالى فى المنام : كأنى أتدهده[2] من حالق جبل ، فأردت الوصول إلى ذروته ، قال : فحزنت ، فأخذنى النوم فرأيت قائلاً يقول : يا عباس ، الحقّ لم يُرد منك أن تصل إلى ما كنت تطلب ، ولكنه فتح على لسانك الحكمة ، قال : فأصبحت وقد ألهمت كلمات الحكمة .

وسمعت الأستاذ أبا علىّ ، رحمه الله ، يقول : كان شيخ من الشيوخ له حال ووقت مع الله ، فخفى مدَّة لم يُر بين الفقراء ، ثم إنه ظهر بعد ذلك لا على ما كان عليه من الوقت . فسئل عنه فقال : آه . وقع حجاب .

وكان الأستاذ أبو على ، رحمه الله تعالى ، إذا وقع شىء فى خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين يقول : هذا من غيرة الحق سبحانه ، يريد أن لا يجرى عليهم ما يجرى من صفاء هذا الوقت .

وأنشدوا فى معناه :

همتْ بـإتيـانـنـا حتى إذا نـظرَتْ إلى المـرآة نهاها وجهها الحسنُ

وقيل لبعضهم : تريد أن تراه ؟ فقال : لا ، فقيل : لِمَ ؟

فقال : أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلى .

وفى معناه أنشدوا :

إنى لأحْسـدُ نـاظـرَّى عليكـا حتى أغضُّ إذا نـظرتُ إليكـا

وأراك تخـطرُ فى شـمائـلك التى هى فتنتى فـأغـارُ منـك عليكـا

(١) والمعنى كما قاله الإمام العروسى يعنى ربط أقدامهم بمثقلات الخذلان عن العبادة بحيث يتمنونها ولا يجدون عليها عونًا

(٢) أتدحرج .

وسئل الشبلى : متى تستريح؟[1] فقال : إذا لم أر له ذاكرًا .

سمعت الأستاذ أبا على ، رحمه الله ، يقول فى قول النبى ﷺ فى مبايعته فرسًا من أعرابى ، وأنه استقاله فأقاله ، فقال الأعرابى : عمرُك الله تعالى ، ممن أنت ؟

فقال له النبى ﷺ : امرؤ من قريش .

فقال بعض أصحابه من الحاضرين للأعرابى : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك !

وكان رحمه الله يقول : إنما قال امرؤ من قريش غيرة ، وإلا كان واجبًا عليه التعرّف إلى كلّ أحد : أنه من هو ؟ .. ثم إن الله ؛ سبحانه ، أجرى على لسان ذلك الصحابى التعريف للأعرابى بقوله : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك ..!!

ومن الناس من قال : إن الغيرة من صفات أهل البداية ، وإنَّ الموحد لا يشهد الغيرة ، ولا يتصف بالاختيار ، وليس له فيما يجرى فى المملكة تحكم ، بل الحق سبحانه ، أولى بالأشياء فيما يقضى على ما يقضى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول سمعت أبا عثمان المغربى يقول : الغيرة عمل المريدين ، فأما أهل الحقائق فلا .

وسمعته يقول : سمعت أبا نصر الاصبهانى يقول : سمعت الشبلى يقول : الغيرة غيرتان : غيرة البشرية على النفوس ، وغيرة الإلهية على القلوب .

وقال الشبلى أيضًا : غير الإلهية على الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله تعالى ، والواجب أن يقال : الغيرة غيرتان :

غيرة الحق ، سبحانه ، على العبد : وهو أن لا يجعله للخلق ، فيضنَّ به عليهم وغيرة العبد للحق ، وهو أن لا يجعل شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الحق تعالى فلا يقال : أنا أغار على الله تعالى ، ولكن يقال : أنا أغار لله ، فإذن الغيرة على الله تعالى جهل ، وربما تؤدى إلى ترك الدين ، والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له .

واعلموا أنَّ من سنة الحق ، تعالى ، مع أوليائه : أنهم إذا ساكنوا غيرًا ، أو لاحظوا شيئا ، أو ضاجعوا بقلوبهم شيئاً ، شوش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه ، فارغة عما ساكنوه أو لاحظوه أو ضاجعوه ، كآدم ، عليه السلام ، لمَّا وطن نفسه على الخلود فى الجنة أخرجه منها .

---

(١) أى من الغيرة .

وإبراهيم ، عليه السلام ، لما أعجبه إسماعيل ، عليه السلام ، أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبة ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾(١) وصفا سره منه أمره بالفداء عنه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا زيد المروزى ، رحمه الله ، يقول : سمعت ابراهيم بن شيبان يقول . سمعت محمد بن حسان يقول : بينا أنا أدور فى جبل لبنان ، إذ خرج علينا رجل شاب قد أحرقته السموم(٢) والرياح ، فلما نظر إلىَّ وَلى هاربًا ، فتبعته ، وقلت له تعظنى بكلمة ؟

فقال لى : أحذر ، فأنه غيور ، لا يحب أن يرى فى قلب عبده سواه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن ، رحمه الله ، يقول : قال النصر اباذى : الحق تعالى غيور ، ومن غيرته : أنه لمْ يجعل إليه طريقًا سواه .

وقيل : أوحى الله ، سبحانه ، إلى بعض أنبيائه : أنَّ لفلان إلىَّ حاجة ، ولى أيضًا إليه حاجة ، فإن قضى حاجتى قضيت حاجته ؛ فقال ذلك النبى ، عليه السلام فى مناجاته : إلهى ؛ كيف يكون لك حاجة ؟ فقال : إنه ساكن بقلبه غيرى فليفرغ قلبه عنه أقض حاجته .

وقيل : إن أبا يزيد البسطامى رأى جماعة من الحور العين فى منامه .. فنظر إليهنَّ ، فسلب وقته أياما ، ثم إنه رأى فى منامه جماعة منهنَّ ، فلم يلتفت إليهن وقال : إنكنَّ شواغل .

وقيل : مرضت رابعة العدوية ، فقيلَ لها : ما سبب علتك ؟

فقالت : نظرت بقلبى إلى الجنة فأدّبنى ، فله العتبى ، لا أعود .

ويحكى عن السرى أنه قال : كنت أطلب رجلًا صديقًا لى مدة من الأوقات فمررت فى بعض الجبال ، فإذا أنا بجماعة زمنى وعميان ومرضى ، فسألت عن حالهم ، فقالوا : هاهنا رجل يخرج فى السنة مرة يدعو لهم فيجدون الشفاء ، فصبرت حتى خرج .. ودعا لهم فوجدوا الشفاء ، فقفوت أثره وتعلقت به ، وقلت له : بى علة باطنة !! فما دواؤها ؟ .

فقال : ياسرىّ ، خلّ عنى ، فإنه - تعالى - غيور لايراك تساكن غيره فتسقط من عينه .

قال الأستاذ : ومنهم من غيرته ، حين يرى الناس يذكرونه ، تعالى بالغفلة فلا يمكنه رؤية ذلك وتشقّ عليه .

---

(١) آية ١٠٣ من سورة الصافات .

(٢) الريح الحارة .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : لما دخل الأعرابى مسجد رسول الله ﷺ ، وبالَ فيه[١] ، وتبادر إليه الصحابة لإخراجه ، قال : رحمه الله ، إنما أساء الأعرابى الأدب ، ولكن الخجل وقع على أصحابه ، والمشقة حصلت لهم حين رأوا من وصع حشمته ، كذلك العبد إذا عرف جلال قدره ، سبحانه يشق عليه سماع ذكر من يذكره بالغفلة ، وطاعة من لايعبده بالحرمة .

حكى أن أبا بكر الشبلى مات له ابن كان اسمه « أبا الحسن » فجزعت أمه عليه ، وقطعت شعر رأسها ، فدخل الشبلى الحمام وتنور[٢] بلحيته ، فكل من أتاه معزِّيًا قال : ما هذا يا أبا بكر ؟ .

فكان يقول : موافقة لأهلى .

فقال له بعضهم : أخبرنى يا أبا بكر لِمَ فعلت هذا ؟ .

فقال : علمت أنهم يعزوننى على الغفلة[٣] ويقولون : آجرك الله تعالى ، ففديت ذكرهم لله تعالى بالغفلة[٤] بلحيتى .

وسمع النورى رجلًا يؤذّن ، فقال[٥] : طعنة وسم الموت ، وسمع كلبًا ينبح فقال : لبيك وسعديك . فقيل له : إن هذا تركٌ للدِّين .. فإنه يقول للمؤمن فى تشهده طعنة وسم الموت ، ويلبى عند نباح الكلاب ، فسئل عن ذلك فقال أما ذلك فكان ذكره لله على رأس الغفلة ، وأما الكلب فقال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[٦] .

وأذن الشبلى مرّة ، فلما انتهى إلى الشهادتين قال : لولا أنك أمرتنى ما ذكرتُ معك غيرك .

وسمع رجل رجلًا يقول : جلّ الله . فقال له : أحبُّ أن تجلهّ عن هذا .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ رأى أعرابيًا يبول فى المسجد فقال : دعوه حتى إذا فرغ دعا بماء فصبه عليه . وفيما رواه أبو هريرة قال : قام أعرابى فبال فى المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبى ﷺ : دعوه وهريقوا على بوله سجلًا من ماء أو ذنوبًا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » أخرجه البخارى .

(٢) أى أنه حلقها .

(٣) أى وهم غافلون عن تعظيم الله .

(٤) أى مع الغفلة .

(٥) داعيًا عليه .

(٦) آية ٤٤ من سورة الإسراء .

سمعت بعض الفقراء يقول : سمعت أبا الحسن الخزفانى رحمه الله يقول :

لا إلهَ إلا الله من داخل القلب[١] . محمد رسول الله من القرط[٢] ومن نظر إلى ظاهر هذا اللفظ توهم أنه استصغر الشرع ، ولا كما يخطر بالبال ، إذ الإخطار للأغيار بالإضافة إلى قدر الحق سبحانه متصاغرة فى التحقيق[٣] .

---

(١) أى يقولها من يقولها من داخل قلبه .

(٢) والذى يقول محمد رسول الله يقولها من خلف القرط : أى بغير اختيار . والقرط (بضم القاف وإسكان الراء) هو ما يعلق فى شحمة الأذن .

(٣) وقد عقب شيخ الإسلام زكريا الأنصارى على هذا التأويل بقوله « وإذا كان التأويل محتملاً إلا أن بشاعة هذا القول وشناعته وقبح ظاهره لا يخفى على من له أدنى ذوق فى طريق الأدب ، لأن تعظيم رسل الله بأمر الله تعظيم لله .

باب الولاية

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيهم وَلَاهُمْ يَحْزَنونَ ﴾[١] .

أخبرنا حمزة بن يوسف السَّهمى ، رحمه الله ، قال : حدثنا عبد الله بن عدى الحافظ ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن هارون بن حميد ، قال : حدثنا محمد بن هارون المقرى قال : حدثنا حمّاد الخياط ، عن عبد الواحد بن ميمون مولى عروة ، عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من آذى وليًا فقد استحلّ محاربتى ، وما تقرّب إلىّ العبد بمثل أداء ما افترضت عليه ، وما يزال العبد يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبه ، وما تردّدت فى شىء أنا فاعله كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن ؛ لأنه يكره الموت وأكره مساءته ولابدّ له منه »[٢] .

الولّى : له معنيان : أحدهما : فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[٣] فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولّى الحق ، سبحانه ، رعايته .

والثانى : فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذى يتولى عبادة الله وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى ، من غير أن يتخللها عصيان .

وكلا الوصفين واجب[٤] حتى يكون الولى وليًا : يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إيّاه فى السرّاء والضرّاء .

ومن شرط الولى : أن يكون محفوظًا ، كما أنَّ من شرط النبىّ أن يكون معصومًا ، فكلُّ من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق رحمه الله ، يقول : قصد أبو يزيد البسطامى بعض من

---

(١) آية ٦٢ من سورة يونس .

(٢) وروى : ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله انظر الجامع الصغير ورياض الصالحين باب المجاهدة ... إلخ .

(٣) من آية ١٩٦ من سورة الأعراف .

(٤) أى وكلا المعنيين واجب تحققه .

وُصف بالولاية ، فلما وافى مسجده قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل ، وتنخّم فى المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة ، فكيف يكون أمينًا على أسرار الحقّ ؟!

واختلفوا فى أن الولىّ : هل يجوز أن يعلم أنه ولىّ ، أم لا ؟ .

فمنهم من قال : لا يجوز ذلك ، وقال : إن الولىّ يلاحظ نفسه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شىء من الكرامات خاف أن يكُون مكْراً ، وهو يستشعر الخوف دائمًا أبداً ، لخوف سقوطه عمّا هو فيه ، وأن تكون عاقبته بخلاف حاله ، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية : وفاء المآل .

وقد ورد فى هذا الباب حكايات كثيرة عن الشيوخ ، وإليه ذهب من شيوخ هذه الطائفة جماعة لا يحصون ، ولو اشتغلنا بذكر ما قالوا لخرجنا عن حدّ الاختصار ، وإلى هذا كان يذهب من شيوخنا الذين لقيناهم الإمام أبو بكر بن فورك ، رحمه الله .

ومنهم من قال : يجوز أن يعلم الولىُّ أنه ولىّ ، وليس من شرط تحقيق الولاية فى الحال الوفاءُ فى المآل .

ثم إن كان ذلك من[1] شرطه أيضًا فيجوز أن يكون هذا الولىُّ خُصّ بكرامة هى : تعريف الحق إياه أنه مأمون العاقبة ، إذ القول بجواز كرامات الأولياء واجب ، وهو وإن قارفه[2] خوف العاقبة ، فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال فى الحال أتم وأشدّ ، فإن اليسير من التعظيم والهيبة أهدأ للقلوب من كثير من الخوف .

ولما قال ﷺ : « عشرة فى الجنة من أصحابى » ، فالعشرة – لا محالة – صدَّقوا الرسول ﷺ وعرفوا سلامة عاقبتهم ، ثم لم يقدح ذلك فى حالهم .

ولأن من شرط صحة المعرفة بالنبوّة : الوقوف على حدِّ المعجزة ، ويدخل فى جملته العلمُ بحقيقة الكرامات ، فإذا رأى الكرامات ظاهرة عليه لا يمكنه أن لا يميز بينها وبين غيرها ، فإذا رأى شيئًا من ذلك علم أنه فى الحال على الحق ، ثم يجوز أن يعرف أنه فى المآل يبقى على هذه الحالة ، ويكون هذا التعريف كرامة له ، والقول بكرامات الأولياء صحيح .

---

(١) أى الوفاء فى المآل .

(٢) أى خالطه .

وكثير من حكايات القوم يدل على ذلك (كما نذكر طرفًا من ذلك فى باب كرامات الأولياء إن شاء الله تعالى) .

وإلى هذا القول كان يذهب من شيوخنا الذين لقيناهم ، الأستاذ أبو على الدقاق ، رحمه الله .

وقيل : إن إبراهيم بن أدهم قال لرجل : أتحبُّ أن تكون لله وليا ؟ فقال : نعم ، فقال : لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرّغ نفسك لله تعالى ، وأقبلْ بوجهك عليه ليُقبْل عليك ويواليك .

وقال يحيى بن معاذ فى صفة الأولياء : هم عباد تسربلوا بالأنس بالله تعالى بعد المكابدة ، واعتنقوا الرّوْح[1] بعد المجاهدة ، بوصولهم إلى مقام الولاية .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت عمى البسطامى يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا يزيد يقول : أولياء الله تعالى عرائس الله ... ولا يرى العرائس إلا المحرومون .. وهم مخدّرون[2] عنده فى حجاب الأنس ، لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة .

سمعت أبا بكر الصيدلانى - كان رجلًا صالحًا - قال : كنت أصلح اللوح فى قبر « أبى بكر الطمستانى » أنقر فيه اسمه فى مقبرة « الحيرة » كثيرًا ، وكان يُقلع ذلك اللوح ويُسرق !! ولم يقع مثله فى غيره من القبور ، فكنت أتعجب منه ، فسألت أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يومًا عن ذلك فقال : إن ذلك الشيخ آثر الخفاء فى الدنيا ، وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذى تصلحه فيه ، وإن الحق سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما آثر هو ستر نفسه .

وقال أبو عثمان المغربى : الولىُّ قد يكون مشهورًا ، ولكن لا يكون مفتونًا ..

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت النصر اباذى يقول : ليس للأولياء سؤال ، إنما هو الذبول والخمول .

قال : وسمعته يقول : نهايات الأولياء بدايات الأنبياء .

وقال سهل بن عبد الله : الولىّ : هو الذى توالت أفعاله على الموافقة .

---

(١) أى الراحة والنعيم .

(٢) أى وعرائس الله محجوبون .

وقال يحيى بن معاذ : الولىُّ لا يرائى ، ولا ينافق ، وما أقلّ صديق من كان هذا خلقُه !!

وقال أبو علىّ الجوزجانى : الولىّ هو الفانى فى حاله ، الباقى فى مشاهدة الحق سبحانه ، تولى الله سياسته فتوالت عليه أنوار التولى ، لم يكن له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار .

وقال أبو يزيد : حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء ، وقيام كل فريق منهم باسم ؛ وهو : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، فمتى فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام ، فمن كان حظه من اسمه تعالى « الظاهر » لاحظ عجائب قدرته . ومن كان حظه من اسمه « الباطن » لاحظ ما جرى فى السرائر من أنواره . ومن كان حظه من اسمه « الأول » كان شغله بما سبق ، ومن كان حظه من اسمه « الآخر » كان مرتبطًا بما يستقبله ، وكلٌّ كوشف على قدر طاقته إلا من تولاه الحق ، سبحانه ببرّه ، وقام عنه بنفسه :

وهذا الذى قاله أبو يزيد يشير إلى أن الخواصّ من عباده ارتقوا عن هذه الأقسام ، فلا العواقب هم فى ذكرها ،ولا السوابق هم فى فكرها ، ولا الطوارق هم فى أسرها .. وكذا أصحاب الحقائق يكونون محواً عن نعوت الخلائق كما قال الله تعالى : ﴿ وَتَحْسبهم أَيقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[1] .

وقال يحيى بن معاذ : الولىّ ريحان الله ، تعالى ، فى الأرض ، يشمّه الصديقون فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ، ويزدادون عبادة على تفاوت أخلاقهم .

وسئل الواسطى : كيف يُغَذّى[2] الولى فى ولايته ؟ فقال : فى بدايته بعبادته وفى كهولته بستره بلطافته ، ثم يجذبه إلى ما سبق له من نعوته وصفاته ، ثم يذيقه طعم قيامه به فى أوقاته .

وقيل : علامة الولىّ ثلاثة : شغله بالله ، وفراره إلى الله ، وهمه إلى الله .

وقال الخرّاز : إذا أراد الله تعالى أن يوالى عبدًا من عبيده فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذّ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية . وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلاهو فحينئذ صار العبد زَمِنًا فانيًا ، فوقع فى حفظه سبحانه ، وبرئ من دعاوى نفسه ..

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت

---

(١) آية ١٨ من سورة الكهف .

(٢) أى يربى .

أبا عليّ الروزبارى يقول : قال أبو تراب النخشبى : إذا ألف القلبُ الإعراض عن الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله تعالى .

وقالوا : من صفة الولىّ أن لا يكون له خوف ، لأن الخوف ترقب مكروه يحلّ فى المستقبل ، أو انتظار محبوب يفوت فى المستأنف[1] ، والولىّ ابن وقته ، ليس له مستقبل فيخاف شيئًا .

وكما لا خوف له لا رجاء له ، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل أو مكروه يُكشف ، وذلك فى الثانى من الوقت[2] .

وكذلك لا حزن له ، لأن الحزن من حزونة[3] القلب ، ومن كان فى ضياء الرضا وبرَدَ الموافقة فأنى يكون له حزن ؟! قال الله تعالى : ﴿ ألا إنَّ أَوْلِيآءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

---

(١) أى المستقبل .
(٢) أى المستقبل .
(٣) صعوبة .

باب الدعاء

قال الله تعالى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[١]

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٢] .

وأخبرنا عليّ بن أحمد بن عبدان قال : أخبرنا أبو الحسين الصفار البصرى قال : حدثنا محمد بن أحمد العودى قال : حدثنا كامل ، قال : حدثنا ابن لهيعة قال حدثنا خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « الدعاء مخّ العبادة »[٣] .

والدعاء : مفتاح الحاجة ، وهو مستروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرين ، ومتنفس ذوى المآرب ، وقد ذمّ الله سبحانه وتعالى . قومًا تركوا الدعاء فقال ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[٤] قيل : لا يمدونها إلينا فى السؤال .

وقال سهل بن عبد الله : « خلق الله تعالى الخلق وقال ناجونى ، فإن لم تفعلوا فانظروا إلىّ ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منى ، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بى » .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : قال سهل بن عبد الله : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال .

ودعاء الحال : أن يكون صاحبه مضطراً لابد له مما يدعو لأجله .

أخبرنا حمزة بن يوسف السهمى ، رحمه الله ، قال سمعت أبا عبد الله المكانسى يقول : كنت عند الجنيد ، فأتت امرأة إليه وقالت : ادع الله أن يردّ علىّ ابنى ؛ فإن ابنًا لى ضاع فقال لها : اذهبى واصبرى ، فمضت ، ثم عادت فقالت له مثل ذلك ، فقال لها الجنيد : اذهبى واصبرى فمضت ثم عادت ، ففعلت مثل ذلك مرات والجنيد يقول لها اصبرى ، فقالت له : عيل

---

(١) آية ٥٥ من سورة الأعراف .

(٢) آية ٦٠ من سورة غافر .

(٣) أخرجه الترمذى وقال : حديث غريب .

(٤) من آية ٦٧ من سورة التوبة .

صبرى ، ولم يبق لى طاقة عليه ، فادع لى . فقال لها الجنيد : إن كان الأمر كما قلت فاذهبى ، فقد رجع ابنك ، فمضت ، فوجدته ، ثم عادت تشكر له فقيل للجنيد : بم عرفت ذلك ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾[١] .

وقد اختلف الناس فى أن : الأفضل الدعاء ، أم السكوت والرضا ؟ فمنهم من قال : الدعاء فى نفسه عبادة ، قال ﷺ « الدعاء مخُّ العبادة » والإتيان بما هو عبادة أولى من تركه[٢] ، ثم هو حق الله تعالى فإن لم يستجب للعبد ، ولم يصل[٣] إلى حظِّ نفسه فلقد قام بحق ربه ؛ لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية : وقد قال أبو حازم الأعرج : لئن أحرم الدعاء أشدُّ علىّ من أن أحرم الإجابة . وطائفة قالوا : السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتمُّ ، والرضا بما سبق من اختيار الحقّ أولى ، ولهذا قال الواسطى : اختيار ما جرى لك فى الأزل خير لك من معارضة الوقت ، وقد قال ﷺ خبرًا عن الله تعالى .

« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[٤] وقال قوم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه وصاحب رضا بقلبه : ليأتى بالأمرين جميعا .

والأولى أن يقال : إن الأوقات مختلفة ، ففى بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت ، وهو الأدب ، وفى بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء ، وهو الأدب ، وإنما يعرف ذلك فى الوقت ، لأن علم الوقت إنما يحصل فى الوقت فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء له أولى ، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أولى .

ويصحّ أن يقال : ينبغى للعبد أن لا يكون ساهيًا عن شهود ربه تعالى فى حال دعائه ، ثم يجب عليه أن يراعى حاله ، فإن وجد من الدعاء زيادة بَسط[٥] فى وقته فالدعاء له أولى .. وإن عاد إلى قلبه فى وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض ، فالأولى له ترك الدعاء فى هذا الوقت ، وإن لم يجد فى قلبه زيادة بسط ولا حصول زجر فالدعاء وتركه هاهنا سيّان ، فإذا كان الغالب عليه فى هذا الوقت العلُم ، فالدعاء أولى ؛ لكونه عبادة ، وإن كان الغالب عليه فى هذا الوقت المعرفة والحال والسكوت ، فالسكوت أولى ، ويصح أن يقال : ما كان للمسلمين فيه نصيب ،

---

(١) آية ٦٢ من سورة النمل .
(٢) وفى نسخة تركها .
(٣) أى العبد .
(٤) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن وأخرجه الترمذى فى أبواب فضائل القرآن ولفظه ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ يقول الرب تبارك وتعالى : « من شغله القرآن عن ذكرى ، ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » وقال الترمذى حديث حسن غريب .
(٥) وفى نسخة « بسيطة » .

أو للحق سبحانه فيه حقّ ، فالدعاء أولى وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتمُّ . وفى الخبر المروى « أن العبد يدعو الله سبحانه وهو يحبُّه ، فيقول : يا جبريل أخِّر حاجة عبدى ، فإنى أحبُّ أن أسمع صوته ، وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه فيقول : يا جبريل ، اقض لعبدى حاجته ، فإنى أكره أن أسمع صوته »[1] .

ويحكى عن يحيى بن سعيد القطان ، رحمه الله تعالى ، أنه رأى الحقَّ ، سبحانه فى المنام ، فقال : إلهى ، كم أدعوك فلا تجيبنى !! .

فقال يايحيى ، لأنى أحبُّ أن أسمع صوتك .

وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إن العبد ليدعو الله تعالى وهو عليه غضبان ، فيعرض عنه ، ثم يدعوه ، فيعرض عنه ، ثم يدعوه ، فيعرض عنه ، ثم يدعوه ، فيقول الله تعالى لملائكته : أبى عبدى أن يدعو غيرى فقد استجبت له »[2] .

أخبرنا أبو الحسين علىّ بن محمد بن عبد الله بن بشران ببغداد قال : حدثنا أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : أخبرنا محمد بن عبد ربه الحضرمىّ قال : أخبرنا بشر بن عبد الملك قال : حدثنا موسى بن الحجاج قال : قال مالك بن دينار : حدثنا الحسن عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يتجر من بلاد الشام إلى المدينة ، ومن المدينة إلى بلاد الشام ، ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله ، عز وجل ، قال :

بينما هو جاء من الشام يريد المدينة إذ عرض له لص على فرس .. فصاح بالتاجر : قف . قف !! فوقف له التاجر ، وقال له : شأنك بمالى وخلّ سبيلى . فقال له اللص : المال مالى ، وإنما أريد نفسك . فقال له التاجر : ما تريد بنفسى ؟! شأنك والمال وخلّ سبيلى . قال : فردّ عليه اللص مثل المقالة الأولى ، قال له التاجر : أنظرنى حتى أتوضأ وأصلى وأدعو ربّى عزّ وجل .

قال افعل ما بدالك . قال فقام التاجر ، وتوضّأ ، وصلى أربع ركعات ، ثم رفع يديه إلى السماء ، فكان من دعائه أن قال : « ياودود .. ياودود .. ياذا العرش المجيد ، يامبدئ يامعيد ، يافعَّال لما يريد أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك ، وأسألك بقدرتك التى قدرت بها على خلقك ، وبرحمتك التى وسعت كلّ شىء ، لا إله إلا أنت ، يا مغيث أغثنى (ثلاث

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى السنن ، والبيهقى فى الدلائل .

(٢) أخرجه ابن ماجة .

مرات) . فلما فرغ من دعائه إذا بفارس على فرس أشهب .. عليه ثياب خضر ، بيده حربة من نور ، فلما نظر اللص إلى الفارس ترك التاجر ومرّ نحو الفارس ، فلما دنا منه شد الفارس على اللص ، فطعنه طعنة أذراه[1] عن فرسه .. قم جاء إلى التاجر فقال له قم فاقتله ، فقال له التاجر : من أنت ؟ فما قتلت أحدًا قط ولا تطيب نفسى بقتله !! قال ، فرجع الفارس إلى اللص وقتله ، ثم جاء إلى التاجر ، وقال : اعلم أنى ملك من السماء الثالثة ، حين دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة ، فقلنا أمرٌ حدث !! ثم دعوت الثانية ففتحت أبواب السماء ولها شرر كشرر النار ، ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل عليه السلام علينا من قِبل السماء وهو ينادى : من لهذا المكروب ؟ فدعوت ربى أن يُولينى قتله ، واعلم - ياعبد الله - أنه من دعا بدعائك هذا فى كلّ كربّة ، وكل شدّة ، وكلّ نازلة فرّج الله تعالى عنه ، وأعانه . قال وجاء التاجر سالمًا غانماً حتى دخل المدينة وجاء إلى النبى ﷺ فأخبره بالقصة وأخبره بالدعاء فقال له النبى ﷺ : « لقد لقنك الله عزّ وجلّ ، أسماءه الحسنى التى إذا دُعى بها أجاب ، وإذا سئل بها أعطى » .

ومن آداب الدعاء : حضورُ القلب ، وأن لا يكون ساهيًا ؛ فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ، لا يستجيب دعاء عبد من قلب لاه »[2] .

ومن شرائطه : أن يكون مطعمه حلالا ؛ فلقد قال ﷺ لسعد : « أطب كسبك تُستجب دعوتك »[3] .

وقد قيل : الدعاء : مفتاح الحاجة ، وأسنانها[4] : لقم الحلال .

وكان يحيى بن معاذ يقول : إلهى ، كيف أدعوك وأنا عاص ؟ وكيف لا أدعوك وأنت كريم ؟!.

وقيل : مرّ موسى ، عليه السلام ، برجل يدعو ويتضرّع ، فقال موسى عليه السلام : إلهى ، لو كانت حاجته بيدى قضيتُها ؛ فأوحى الله ، تعالى إليه : أنا أرحم به منك ، ولكنه يدعونى ، وله غنم وقلبه عند غنمه ، وإنى لا أستجيب لعبد يدعونى وقلبه عند غيرى . فذكر موسى عليه السلام للرجل ذلك ، فانقطع إلى الله تعالى بقلبه فقضيت حاجته .

وقيل لجعفر الصادق : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ .

---

(١) ألقاه .

(٢) البخارى ومسلم .

(٣) البخارى وأحمد فى مسنده .

(٤) الأولى أن يقال « وأسنانه » أى أسنان المفتاح .

فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق يقول : ظهر بيعقوب بن الليث علة أعيت الأطباء ، فقالوا له : فى ولايتك رجل صالح يسمَّى « سهل بن عبد الله » لو دعا لك لعلَّ الله سبحانه يستجيب له ؛ فاستحضر سهلاً وقال : ادع الله عزّ وجلّ لى . فقال سهل : كيف يستجاب دعائى فيك ، وفى محبسك[1] مظلومون ؟ فأطلق كلَّ من كان فى حبسه ، فقال سهل : اللهم كما أريته ذلَّ المعصية[2] فأره عزّ الطاعة وفرّج عنه . فعوفى ، فعرض مالاً على سهل فأبى أن يقبله ، فقيل له : لو قبلته ودفعته إلى الفقراء .

فنظر إلى الحصباء فى الصحراء فإذا هى جواهر ، فقال لأصحابه : من يعطى مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث ؟!.

وقيل : كان صالح المرّى يقول كثيرا : من أدمن قرع باب يوشك أن يفتح له . فقالت له رابعة : إلى متى تقول هذا ؟ متى أغلق هذا الباب حتى يستفتح ؟ فقال صالح : شيخ جهل وامرأة علمت .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا بكر الحربى يقول : سمعت السرىّ يقول : حضرت مجلس معروف الكرخى . فقام اليه رجل فقال : يا أبا محفوظ ، ادع الله تعالى أن يردَّ علىَّ كيسى ، فإنه سرق وفيه ألف دينار . فسكت ، فأعاد ، ثم سكت فأعاد ، فقال معروف : ماذا أقول ؟ أقول مازويته [3] عن أنبيائك وأصفيائك . فردّه عليه . فقال الرجل : فادع الله تعالى لى . فقال : اللهم خرْ له[4] .

وحكى عن الليث أنه قال : رأيت عقبة بن نافع ضريرا ، ثم رأيته بصيراً ، فقلت له : بم ردّ عليك بصرك ؟ .

فقال : أتيت[5] فى منامى ، فقيل قل : ياقريب ، يامجيب ، ياسميع الدعاء ، يالطيفا لما يشاء ، ردّ علىّ بصرى . فقلتها ، فردّ عزّ وجلّ علىّ بصرى .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : كان بى وجع العين ابتداء ما رجعت إلى « نيسابور » من « مرو » ، وكنت مدّة أيام لم أجد النوم ، فتناعست صباحاً ، فسمعت قائلاً

---

(١) وفى نسخة « حبسك » .
(٢) وفى نسخة « المصيبة » .
(٣) أى قبضته .
(٤) أى افعل له خير الأمرين عندك .
(٥) أى أتانى آت فى منامى .

يقول لى ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَه ﴾[١] ؟ فانتبهت ، وقد فارقني الرمد ، وزال فى الوقت الوجع ، ولم يصبنى بعد ذلك وجع العين .

وحكى عن محمد بن خزيمة ، أنه قال : لما مات أحمد بن حنبل كنت فى الاسكندرية ، فاغتممت .. فرأيت فى المنام أحمد بن حنبل وهو يتبختر ، فقلت : يا أبا عبد الله ، أى مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدّام فى دار السلام . فقلت : ما فعل الله عزّ وجلّ بك ؟ فقال : غفر لى . وتوجنى ، وألبسنى نعلين من ذهب ، وقال : يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامى . ثم قال : يا أحمد ادعنى بتلك الدعوات التى بلغتك عن سفيان الثورى وكنت تدعو بها فى دار الدنيا . فقلت : ياربّ كل شىء بقدرتك على كل شىء ، اغفر لى كلّ شىء ، ولا تسألنى عن شىء ، فقال : يا أحمد ، هذه الجنة فادخلها ، فدخلتها .

وقيل : تعلق شاب بأستار الكعبة ، وقال : إلهى ، لاشريك لك فيؤتى ، ولا وزير لك فيرشى ، إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد ، وإن عصيتك فبجهلى ولك الحجّة علىّ ، فبإثبات حجتك علىّ وانقطاع حجتى لديك إلا غفرت لى . فسمع هاتفًا يقول : الفتى عتيق من النار .

وقيل : فائدة الدُّعاء : إظهار الفاقة بين يديه تعالى ، وإلاّ فالربّ يفعل ما يشاء .

وقيل : دعاء العامَّة بالأقوال ، ودعاء الزهاد بالأفعال ، ودعاء العارفين بالأحوال .

وقيل : خير الدعاء ، ما هيجته الأحزان .

وقال بعضهم : إذا سألت الله تعالى حاجة فتسهلت ، فاسأل الله عقب ذلك الجنّة ، فلعل ذلك يوم إجابتك .

وقيل : ألسنة المبتدئين منطلقة بالدعاء ، وألسنة المتحققين[٢] خرست عن ذلك .

وسئل الواسطى أن يدعو ، فقال : أخشى أنى إن دعوتُ أن يُقال لى : إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا[٣] ، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا ، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك به فى الدهور .

وروى عن عبد الله بن منازل أنه قال : ما دعوت منذ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعو لى أحد .

وقيل : الدعاء سلم[٤] المذنبين .

---

(١) آية ٣٦ من سورة الزمر .
(٢) أى العارفين بالله .
(٣) أى بسبب تأخيره .
(٤) أى وسيلتهم .

وقيل : الدعاء : المراسلة ، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد .

وقيل : لسان المذنبين دعاؤهم[١] .

وسمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : إذا بكى المذنب فقد راسل الله عزّ وجلّ .

وفى معناه أنشدوا :

دموع الفتى عما يجنُّ تُترجم وأنفاسه يبدين ما القلب يكتم

وقال بعضهم : الدعاء ترك الذنوب .

وقيل : الدعاء لسان الاشتياق إلى الحبيب .

وقيل : الإذن فى الدعاء خير للعبد من العطاء .

وقال الكتانىّ لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة إلا لفتح باب المغفرة .

وقيل : الدعاء يوجب الحضور ، والعطاء يوجب الصرف[٢] ، والمقام على الباب أتمُّ من الانصراف بالمثاب .

وقيل : الدعاء مواجهة الحق ، تعالى ، بلسان الحياء .

وقيل : شرط الدعاء الوقوف مع القضا بوصف الرضا .

وقيل : كيف تنتظر إجابه الدعوة وقد سَدَدْتَ طريقها بالهفوة ؟!.

وقيل لبعضهم : ادع لى . فقال : كفاك من الأجنبية[٣] أن تجعل بينك وبينه واسطة .

سمعت حمزة بن يوسف السهمى يقول : سمعت أبا الفتح نصر بن أحمد بن عبد الملك يقول : سمعت عبد الرحمن بن أحمد يقول : سمعت أبى يقول : جاءت امرأة إلى بقىّ بن مخلد ، فقالت : إن ابنى قد أسره الروم ، ولا أقدر على مال أكثر من « دويرة » ، ولا أقدر على بيعها ، فلو أشرت إلى من يفديه بشىء فإنه ليس لى ليل ولا نهار ، ولا نوم ولا قرار !!.

فقال لها : نعم ، انصرفى حتى أنظر فى أمره إن شاء الله تعالى .

قال : فأطرق الشيخ وحرّك شفتيه ، قال : فلبثنا مدّة ، فجاءت المرأة ومعها ابنها ، وأخذت

---

(١) وفى نسخة دموعهم وهى الأنسب .

(٢) وفى نسخة : الانصراف .

(٣) أى البعد عن الله تعالى .

تدعو له وتقول : قد رجع سالمًا ، وله حديث يحدثك به . فقال الشاب : كنت فى[1] يدى بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسارى ، وكان له إنسان يستخدمنا كلّ يوم ، فكان يخرجنا إلى الصحراء للخدمة ، ثم يردنا وعلينا قيودنا ، فبينا نحن نجىء من العمل بعد المغرب مع صاحبه الذى كان يحفظنا انفتح القيد من رجلى ووقع على الأرض ، ووصف اليوم والساعة ، فوافق الوقت الذى جاءت فيه المرأة ، ودعا الشيخ ، قال : فنهض إلى الذى كان يحفظنى وصاح علىّ وقال لى : كسرتَ القيد !! قلت : لا ، إنه سقط من رجلى قال : فتحيّر .. وأحضر أصحابه ، وأحضروا الحداد ، وقيّدونى .. فلما مشيت خطوات سقط القَيد من رجلى ، فتحيّروا فى أمرى !! فدعوا رهبانهم ، فقالوا لى : ألك والدة ؟ قلت : نعم فقالوا : وافق دعاؤها الإجابة . وقد أطلقك الله عزّ وجلّ ، فلا يمكننا تقييدك .

فزوّدونى ، وأصحبونى بمن أوصلنى إلى ناحية المسلمين .

---

(١) وفى نسخة : بين يدى .

باب الفقر

قال الله تعالى :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِروا في سبيل الله ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِياء مِنَ التَّعفف تَعْرِفُهُم بِسيماهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله بِهِ عَليمٌ﴾[١] .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن شجاع بن الحسين بن موسى البزّار ببغداد ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم الأنبارى قال : حدثنا جعفر بن محمد الصائغ قال : حدثنا قبيصة قال : حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبى ، ﷺ ، قال : « يدخل الفقراء[٢] الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام : نصف يوم »[٣] .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس الحيرى ببغداد ، قال : حدثنا أبو أحمد حمزة بن العباس البزّاز ببغداد ، قال : حدثنا محمد بن غالب بن حرب قال : حدثنا عبد الله بن مسلم قال : حدثنا محمد بن أبى الفرات . عن إبراهيم الهجرى ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ؛ قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن المسكين ليس بالطوّاف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، قال : فقيل : من المسكين يارسول الله ؟ .

قال : « الذى لا يجد ما يغنيه ويستحى أن يسأل الناس ولا يفطن له فيُتصدَّق عليه »[٤] .

قال الاستاذ : معنى قوله : يستحى أن يسأل الناس : أى يستحى من الله ، تعالى . أن يسأل الناس ، لا أنه يستحى من الناس .

---

(١) آية ٢٧٣ من سورة البقرة .

(٢) يقول الإمام العروسى : لعل المراد بالفقراء فى الحديث الشريف المتجردون عن الدنيا رغبة فيما عند ربهم ، لا مطلق الخلى عن المال والكسب .

(٣) وتلك الأعوام بمثابة نصف يوم من أيام الآخرة .

(٤) انظر رياض الصالحين للنووى .

والفقر شعار الأولياء ؛ وحلية الأصفياء ؛ واختيار الحقّ ، سبحانه ، لخواصِّه من الأتقياء والأنبياء .

والفقراء : صفوة الله عزّ وجلّ من عباده ، ومواضع أسراره بين خلقه ، بهم يصون الحقُّ الخلق ، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق .

والفقراء الصُّبر[1] جلساء الله تعالى ، يوم القيامة ، بذلك ورد الخبر عن النبى ، ﷺ .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : حدثنا إبراهيم بن أحمد بن حمد بن رجاء الفزارى ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر بن أحمد بن حشيش البغدادى قال : حدثنا عثمان بن معبد قال : حدَّثنا عمر بن راشد . عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر ابن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة : حبُّ المساكين ، و الفقراء الصُّبر : هم جلساء الله تعالى يوم القيامة » .

وقيل : إن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها منه . وقال له : تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم : لا أفعل !!

وقال معاذ النسفى : ما أهلك الله ، تعالى ، قومًا وإن عملوا ما عملوا حتى أهانوا الفقراء وأذلوهم .

وقيل : لو لم يكن للفقراء إلى الله فضيلة غير إرادته وتمنيه سعة أرزاق المسلمين ورخص أسعارهم لكفاه ذلك ، لأنه يحتاج إلى شرائها والغنى يحتاج إلى بيعها ، هذا لعوامِّ الفقراء[2] ، فكيف حال خواصهم ؟ .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت عبد الواحد بن بكر يقول : سمعت أبا بكر بن سمعان يقول : سمعت أبا بكر بن مسعود يقول : سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

حقيقته : أن لا يستغنى العبد إلا بالله ، ورسمه[3] عدم الأسباب كلها .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت إبراهيم القصَّار يقول : الفقر

---

(١) الكثيرو الصبر .

(٢) وفى نسخة هذا « حال العوام من الفقراء » .

(٣) أى تعريف الفقر بجهة أخرى من جهات التعريف وهى : الرسم .

لباس يورث الرضا إذا تحقق[١] العبد فيه .

وقَدِم على الأستاذ أبى على الدّقاق فقير فى سنة : خمس ، أو أربع وتسعين وثلاثمائة من « زوزن » وعليه « مسْح »[٢] وقلنسوة مسح ، فقال له بعض أصحابه : بكم اشتريت هذا المسح ؟ (على وجه المطايبة)[٣] .

فقال : اشتريته بالدنيا وطلب منى بالآخرة فلم أبعه بها !!

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : قام فقير فى مجلس يطلب شيئاً ، فقال : إنى جائع منذ ثلاث وكان هناك بعض المشايخ فصاح عليه وقال : كذبت !! إن الفقر سرٌّ الله وهو لا يضع سره عند من يحمله إلى من يريد .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن الفراء يقول سمعت زكريا النخشبى يقول : سمعت حمدون القصار يقول : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشىء كفرحهم بثلاثة أشياء :

رجل مؤمن قتل مؤمنًا ، ورجل يموت على الكفر ، وقلب فيه خوف الفقر .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن عطاء يقول : سمعت أبا جعفر الفرغانى يقول : سمعت الجنيد يقول :

(يا معشر الفقراء : إنكم تعرفون بالله ، وتكرمون الله ، فانظروا كيف تكونون مع الله إذا خلوتم به ؟) .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، يقول : سمعت محمد بن الحسن البغدادى يقول : سمعت محمد بن عبد الله الفرغانى ، يقول : سمعت الجنيد ، وقد سئل عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى : أهو أتمُّ أم الاستغناء بالله تعالى ؟ فقال :

إذا صحَّ الافتقار إلى الله عز وجل ، فقد صح الاستغناء بالله تعالى ، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به ، فلا يقال : أيهما أتمُّ الافتقار أم الغنى !! لأنهما حالتان لاتتم إحداهما إلا بالأخرى .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت جعفرًا يقول : سمعت رويمًا يقول وقد سئل عن نعت الفقير ، فقال :

---

(١) أى تمكن .

(٢) ثوب .

(٣) أى المداعبة .

« إرسال النفس فى أحكام الله تعالى » .

وقيل : نعت الفقير ثلاثة أشياء : حفظ سره ، وأداء فرضه ، وصيانة فقره .

وقيل لأبى سعيد الخزاز : لم تأخر عن الفقراء رفقُ الأغنياء ؟

فقال لثلاث خصال :

لأن ما فى أيديهم غير طيب ، ولأنهم[1] غير موفقين ، ولأن الفقراء مرادون بالبلاء .

وقيل : أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى ، عليه السلام :

إذا رأيت الفقراء فسائلهم[2] ، كما تسائل الأغنياء ، فإن لم تفعل فاجعل كل شىء علمتُك تحت التراب .

وروى عن أبى الدرداء ، أنه قال :

لأن أقع من فوق قصر فأتحطم أحبُّ إلىَّ من مجالسة الغنىّ ، لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إياكم ومجالسة الموتى !! قيل : يارسول الله ، ومن الموتى ؟ قال : الأغنياء » .

وقيل للربيع بن خيثم : قد غلا السعر !!.

فقال : نحن أهون على الله من أن يجيعنا ، إنما يجيع أولياءه .

وقال إبراهيم بن أدهم : طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى ، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن علىّ يقول سمعت الحسن بن علوية يقول : قيل ليحيى بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر .

قيل : فما الغنى ؟ قال : الأمن بالله تعالى .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الجريرى يقول : سمعت ابن الكرينى يقول :

إن الفقير الصادق ، ليحترز من الغنى حذرًا أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره ، كما أن الغنىّ يحترز من الفقر حذرًا أن يدخل عليه فيفسد عليه غناه .

---

(١) أى الأغنياء .

(٢) أى حدثهم .

وسئل أبو حفص : بماذا يقدم الفقير على ربه عز وجل ؟

فقال : وما للفقير أن يقدم به على ربه تعالى سوى فقره .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام :

أتريد أن يكون لك يوم القيامة مثل حسنات الناس أجمع ؟ .

قال : نعم .

قال عِدِ المريضَ ، وكنْ لثياب الفقراء فاليًا ، فجعلَ موسى ، عليه السلام ، على نفسه فى كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يفلى ثيابهم ويعود المرضى .

وقال سهل بنُ عبد الله : خمسة أشياء من جوهر النفس :

فقير يُظهرُ الغنى ، وجائع يظهر الشبع ، ومحزون يظهر الفرح ، ورجل بينه وبين رجل عداوة يظهر المحبة ، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولايُظهر ضعفًا .

وقال بشر بن الحارث : أفضل المقامات :

اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر .

وقال ذو النون : علامة سخط الله على العبد : خوفه من الفقر .

وقال الشبلى : أدْنى علامات الفقر[1] : أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها فى يوم ثم خطر بباله ، أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدق فى فقره .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : تكلم الناس فى الفقر والغنى أيهما أفضل ؟ وعندى : أنَّ الأفضل : أن يُعطى الرجل كفايته ثم يُصان فيه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا محمد بن ياسين يقول : سمعت ابن الجلاء يقول : وقد سألته عن الفقر ، فسكت ، حتى خلا ، ثم ذهب ورجع عن قريب ، ثم قال :

كان عندى أربعة دوانيق[2] فاستحييت من الله عز وجل ، أن أتكلم فى الفقر فذهبت أوخرجتها ثم قعد وتكلم فى الفقر .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد الدمشقى ، يقول : سمعت إبراهيم ابن المولد يقول : سألت ابن الجلَّاء :

---

(١) أى الافتقار إلى الله .

(٢) جمع دانق : وهو سدس الدرهم .

متى يستحق الفقير اسم الفقر ؟ .

فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه .

فقلت : كيف ذاك ؟ .

فقال : إذا كان[1] له فليس له ، وإذا لم يكن له فهو له .

وقيل : صحة الفقر : أن لا يستغنى الفقير فى فقره بشىء إلا بمن إليه فقره .

وقال عبد الله بن المبارك : إظهار الغنى فى الفقر أحسن من الفقر .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى ، يقول : سمعت هلال بن محمد يقول : سمعت النقاش يقول : سمعت بنانا المصرى يقول : كنت بمكة قاعدًا وشاب بين يدى ، فجاءه إنسان وحمل إليه كيسًا فيه دراهم ووضعه بين يديه ، فقال : لا حاجة لى فيه ، فقال : فرِّقه على المساكين ، فلما كان العشاء رأيته فى الوادى يطلب شيئاً لنفسه !

فقلت : لو تركت لنفسك مما كان معك شيئًا ؟ !

قال : لم أعلم أنى أعيش إلى هذا الوقت !!

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت علىَّ بن بندار الصيرفى ، يقول : سمعت محفوظًا يقول : سمعت أبا حفص يقول : أحسن ما يتوسل[2] به العبد إلى مولاه دوام الفقر إليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة فى جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .

وسمعته يقول : سمعت الحسين بن أحمد يقول : سمعت المرتعش يقول : ينبغى للفقير أن لا تسبق همته خطوته .

وسمعته يقول : سمعت أبا الفرج الورثانى يقول : سمعت فاطمة أخت أبى على الروذبارى تقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : كان أربعة فى زمانهم :

واحد : كان لا يقبل من الإخوان ولا من السلطان شيئًا ، وهو : يوسف بن أسباط ، ورث من أبيه سبعين ألف درهم ولم يأخذ منها شيئًا وكان يعمل الخوص بيده .

وآخر : كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعا ، وهو : أبو إسحاق الفزارى فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه فى المستورين الذى لا يتحركون ، والذى يأخذه من السلطان كان يخرجه إلى مستحقيه من أهل « طرسوس » .

---

(١) أى الفقر .

(٢) وفى نسخة أخرى « أحسن ما يتوصل » .

والثالث كان يأخذ من الإخوان ولا يأخذ من السلطان وهو : عبد الله بن المبارك ، وكان يأخذ من الإخوان ويكافئ عليه .

والرابع : كان يأخذ من السلطان ولا يأخذ من الإخوان وهو : مخلد بن الحسين كان يقول : السلطان لا يمن والإخوان يمنون .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : جاء فى الخبر : « من تواضع لغنى لأجل غناه ذهب ثلثا دينه » .

إنما كان ذلك ، لأن المرء بقلبه ولسانه ونفسه ، فإذا تواضع لغنى بنفسه ولسانه ذهب ثلثا دينه ، فلو اعتقد فضله[١] بقلبه كما تواضع له بلسانه ونفسه ذهب دينه كله .

وقيل : أقلُّ ما يلزم الفقير فى فقره أربعة أشياء :

عِلم يسوسه ، وورع يحجزه ؛ ويقين يحمله ؛ وذكر يؤنسه .

وقيل : من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيرًا ؛ ومن أراد الفقر لئلا يشتغل عن الله تعالى مات غنيا .

وقال المزيِّن : كانت الطرق الموصلة إلى الله أكثر من نجوم السماء ، فما بقى منها طريق إلا طريق الفقر وهو أصحُّ الطرق .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن يوسف القزوينى يقول : سمعت إبراهيم ابن المولد يقول : سمعت الحسن بن على يقول : سمعت النورى يقول :

نعتُ الفقير : السكون عند العدم ، والإيثار عند الوجود .

سئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى العبد بشىء دون الله عز وجلَّ .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن خلف المغربى يقول : قال لى أبو سهل الخشاب الكبير : الفقر : فقر وذلّ[٢] فقلت : لا بل فقر وعزّ[٣] ، فقال : فقر وثرى[٤] ، فقلت : لا ، بل فقر وعرش[٥] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : سئلت عن معنى قوله ﷺ : « كاد الفقر أن يكون كفرْا »[٦] .

---

(١) أى تواضع له .
(٢) أى لله .
(٣) أى بالله .
(٤) أى تواضع ونزول إلى الأرض
(٥) أى إرتفاع .
(٦) أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن أنس وتمامه (.. وكاد الحسد أن يكون سبق القدر .

قال : فقلت : آفة الشيء وضده على حسب فضيلته وقدره ، فكلما كان فى نفسه أفضل فضدُّه وآفته أنقص : كالإيمان ، لما كان أشرف الخصال كان ضدُّه الكفرُ ، فلما كان الخطر على الفقر الكفر بالله دلّ على أنه[1] أشرف الأوصاف .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا نصر الهروى يقول : سمعت المرتعش يقول : سمعت الجنيد يقول :

إذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ، ولا تلقه بالعلم ؛ فإن الرفق يؤنسه ، والعلم يوحشه ، فقلت له : يا أبا القاسم وهل يكون فقير يوحشه العلم ؟ .

فقال : نعم ، الفقير إذا كان صادقا فى فقره فطرحت عليه علمك ذاب كما يذوب الرصاص على النار .

وسمعته يقول : سمعت أبا عبد الله الرازى ، يقول : سمعت مظفر القرمسينى يقول :

الفقير : هو الذى لا يكون له إلى الله حاجة .

قال الأستاذ أبو القاسم :

وهذا اللفظ فيه أدنى غموض لمن سمعه على وجه الغفلة عن مرمى القوم ، وإنما أشار قائله إلى سقوط المطالبات وانتفاء الاختيار ، والرضا بما يجريه الحق سبحانه .

وقال ابن خفيف :

الفقر : عدم الإملاك والخروج من أحكام الصفات .

وقال أبو حفص :

لا يصح لأحد الفقر حتى يكون العطاء أحب إليه من الأخذ ، وليس السخاء أن يعطى الواجد المعدم : إنما السخاء أن يعطى المعدم الواجد .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الواحد بن بكر يقول : سمعت الدقى يقول : سمعت ابن الجلاء يقول :

لولا شرف التواضع لله لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر .

وقال يوسف بن اسباط :

منذ أربعين سنة ما ملكت قميصين .

---

(١) أى الفقر إلى الله .

وقال بعضهم :

رأيت كأن القيامة قد قامت ، وقيل : أدخلوا مالك بن دينار ، ومحمد بن واسع الجنة ، فنظرت أيهما يتقدم : فتقدم محمد بن واسع ، فسألت عن سبب تقدمه ، فقيل لى : إنه كان له قميص واحد ولمالك قميصان .

وقال محمد المسوحى :

الفقير : الذى لا يرى لنفسه حاجة إلى شىء من الأسباب .

وسئل سهل بن عبد الله متى يستريح الفقير ؟ .

فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه .

وتذاكروا عند يحيى بن معاذ الفقر والغنى ، فقال :

لا يوزن غدا لا الفقر ولا الغنى ، وإنما يوزن الصبر والشكر ؛ فيقال : يشكر ويصبر .

وقيل : أوحى الله تعالى ، إلى بعض الأنبياء عليهم السلام ؛ إن أردت أن تعرف رضاى عنك فانظر كيف رضا الفقراء عنك ؟ .

وقال أبو بكر الزقاق : من لم يصحبه التقى فى فقره أكل الحرام المحض .

وقيل : كان الفقراء فى مجلس سفيان الثورى : كأنهم الأمراء .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن أحمد الفراء يقول : سمعت أبا بكر بن طاهر يقول :

من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة فى الدنيا ، فإن كان ولابد فلا تجاوز رغبته كفايته .

وأنشدنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : أنشدنى عبد الله بن إبراهيم بن العلاء قال : أنشدنى أحمد بن عطاء لبعضهم ؛ قال :

قالوا : غداً العيد ماذا أنت لابسه ؟ فقلت : خلعة ساق حبه جرعا[1]
فقر وصبر ، هما ثوباى تحتهما قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

وقيل : إن هذه الأبيات لأبى على الروذبارى .

---

(١) أى : كسوة حبيب لى سقانى محبته جرعًا .

وقال أبو بكر المصرى ، وقد سئل عن الفقير الصادق ، فقال :

الذى لا يملك ولا يميل .

وقال ذو النون المصرى :

دوام الفقر إلى الله تعالى ، مع التخليط أحب إلى من دوام الصفاء مع العجب .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى ، يقول : سمعت عبد الواحد بن أحمد ، يقول : سمعت أبا بكر الجوال ، يقول : سمعت أبا عبد الله الحصرى ، يقول :

مكث أبو جعفر الحداد عشرين سنة يعمل كل يوم بدينار ، وينفقه على الفقراء ، ويصوم ويخرج بين العشاءين فيتصدق عليه من الأبواب .

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت أبا على الحسين بن يوسف القزوينى يقول : سمعت إبراهيم بن المولد ، يقول : سمعت الحسن بن على ، يقول : سمعت النورى ، يقول :

نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبد الله ، يقول : سمعت محمد بن على الكتانى ، يقول :

كان عندنا بمكة فتى عليه أطمار[1] رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، فوقعت محبته فى قلبى ، ففتح لى بمائتى درهم من وجه حلال ، فحملتها إليه ، ووضعتها على طرف سجادته وقلت له : إنه فتح لى ذلك من وجه حلال ، تصرفه فى بعض أمورك ، فنظر إلى شزرا ، ثم كشف عما هومستور عنى ، وقال : اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى ، على الفراغ سبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلات ، تريد أن تخدعنى عنها[2] بهذه !! وقام وبددها وقعدت ألتقطها فما رأيت كعزه حين مرَّ ، ولا كذلىَّ حين كنت ألتقطها .

وقال أبو عبد الله بن خفيف :

ما وجبت على زكاة الفطر أربعين سنة ولى قبولٌ عظيم بن الخاص والعام .

سمعت الشيخ أبا عبد الله بن باكويه الصوفى ، يقول : سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول ذلك .

وسمعته يقول : سمعت أبا أحمد الصغير ، يقول :

---

(١) أى أثواب .

(٢) تفسدها على .

سألت أبا عبد الله بن خفيف عن فقير يجوع ثلاثة أيام وبعد ثلاثة أيام يخرج ويسأل مقدار كفايته : إيش يقال فيه ؟! فقال : يقال فيه : مُكد .. كلوا واسكتوا ، فلو دخل فقير من هذا الباب لفضحكم كلكم ..

سمعت محمد بن الحسين ، يقول : سمعت عبد الله بن على الصوفى ، يقول : سمعت الدقى يقول - وقد سئل عن سوء أدب الفقراء مع الله تعالى ، فى أحوالهم - فقال :

هو انحطاطهم من الحقيقة إلى العلم .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله الطبرى ، يقول : سمعت خيرًا النساج يقول :

دخلت بعض المساجد وإذا فيه فقير ، فلما رآنى تعلق بى ..

وقال : أيها الشيخ تعطف علىّ ؛ فإن محنتى عظيمة !!

فقلت : وما هى ؟ .

فقال : فقدت البلاء وقويت بالعافية ، فنظرت فإذا قد فتح عليه بشىء من الدنيا .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن محمد بن أحمد يقول : سمعت أبا بكر الوراق ، يقول :

طوبى للفقير فى الدنيا والآخرة .

فسألوه عنه ، فقال : لا يطلب السلطانُ منه فى الدنيا : الخراج ، ولا الجبار فى الآخرة : الحساب .

باب التصوف

الصفاء محمود بكل لسان ، وضدّه : الكدورة ، وهى مذمومة .

أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانى قال : أخبرنا عبد الله بن يحيى الطلحى قال : حدثنا الحسين بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن نوفل قال : حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن يزيد ابن أبى زياد ، عن أبى جحيفة قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ متغيّر اللون فقال : « ذهب صفو الدنيا وبقى الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » .

ثم هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : « رجلٌ صوفى » ، وللجماعة « صوفيّة » ، ومن يتوصلّ إلى ذلك[1] يقال له : « متصوف » ، وللجماعة : « المتصوّفة » .

وليس يشهد لهذا الاسم من حيثُ العربية قياس ولا اشتقاق . والأظهر فيه : أنه كاللقب ، فأما قول من قال : إنه من الصوف ، ولهذا يقال : تَصَّوف إذا لبس الصوف كما يقال : تقمَّص إذا لبس القميص ، فذلك وجه . ولكن القوم لم يختصُّوا بلبس : الصوف !!.

ومن قال : إنهم منسوبون إلى صُفّة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصُّفة لا تجىء على نحو الصوفى !!.

ومن قال : إنه مشتق من الصفاء ، فاشتقاق الصوفىّ من الصفاء بعيدٌ فى مقتضى اللغة .

وقول من قال : إنه مشتق من الصفّ ، فكأنهم[2] فى الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصفّ .

ثم إنَّ هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق .

وتكلم الناس فى التصوّف : ما معناه ؟ وفى الصوفى : من هو ؟ .

فكل عبَّر بما وقع له . واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز وسنذكر هنا بعض مقالاتهم فيه على حدِّ التلويح ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) بالتشبه بهم .

(٢) والأولى « لأنهم » .

سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على التميمي يقول : سئل أبو محمد الجريرى عن التصوُّف ، فقال : الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنىّ .

سمعت عبد الرحمن بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن عمار الهمدانى يقول : سمعت أبا محمد المرعشى يقول : سئل شيخى عن التصوف ، فقال : سمعت الجنيد وقد سئل عنه فقال : هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الرحمن بن محمد الفارسى يقول : سمعت أبا الفاتك يقول : سمعت الحسين بن منصور ، وقد سئل عن الصوفى ، فقال : وحدانى الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدًا .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول : سمعت أبا علىّ الورّاق يقول : سمعت أبا حمزة البغدادى يقول : علامة الصوفى الصادق : أن يفتقر بعد الغنى ، ويذلّ بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفى الكاذب : أن يستغنى بالدنيا بعد الفقر ، ويعز بعد الذلّ ، ويشتهر بعد الخفاء .

وسُئل عمرو بن عثمان المكىّ عن التصوّف ، فقال : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى به فى الوقت .

وقال محمد بن علىّ القصاب : التصوّف : أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

وسئل سمنون عن التصوف فقال : أن لا تملك شيئًا ولا يملكك شىء .

وسئل رويمٌ عن التصوف فقال : استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده .

وسئل الجنيد عن التصوف فقال : هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة .

سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر السَّراج الطوسى يقول : أخبرنى محمد بن الفضل قال : سمعت علىّ بن عبد الرحيم الواسطى يقول : سمعت رويم بن أحمد البغدادى يقولُ : التصوف مبنى على ثلاث خصال :

التمسك بالفقر والافتقار إلى الله ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال معروف الكرخىّ : التصوف الأخذ بالحقائق[1] ، واليأس مما فى أيدى الخلائق .

---

(١) أى التمسك بها والعمل على مقتضاها .

قال حمدون القصَّار : اصحب الصوفيَّة ، فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير .

وُسئل الخرّاز عن أهل التصوُّف فقال : قوم أعطوا حتى بسطوا[١] ، ومنعوا حتى فقدوا[٢] ، ثم نودوا من أسرار قريبة ألا فابكوا علينا[٣] .

وقال الجنيد : التصوف : عنوة لا صلح فيها .

وقال أيضا : هم أهل بيت واحد ، لا يدخل فيهم غيرهم .

وقال أيضا : التصوّف : ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعملٌ مع اتباع .

وقال أيضا : الصوفىّ كالأرض ، يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح .

وقال أيضا : إنه كالأرض ، يطؤها البرُّ والفاجر ، وكالسحاب يظل كلَّ شىء وكالقطر يسقى كل شىء .

وقال : إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره ، فاعلم أن باطنه خراب .

وقال سهل بن عبد الله : الصوفىّ : من يرى دمه هدرًا ، وملكه مباحاً .

وقال النورىّ : نعت الصوفى السكون عند العدم ، والإيثار عند الوجود .

وقال الكتّانى : التصوفُ خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء .

وقال أبو على الرُّوذبارى التصوفُ : الإناخة على باب الحبيب وإن طرد عنه .

وقال أيضا : صفوة القرب بعد كدورة البعد .

وقيل أقبح من كلّ قبيح صوفى شحيح .

وقيل : التصوّف : كفّ فارغ ، وقلب طيب .

وقال الشبلىّ : التصوف الجلوس مع الله[٤] بلاهّم .

وقال أبو منصور : الصوفىّ : هو المشير عن الله تعالى ؛ فإن الخلق أشاروا إلى الله تعالى .

وقال الشبلى : الصوفى منقطع عن الخلق ، متصل بالحق ، كقوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾[٥] قطعه عن كل غير ، ثم قال له ﴿ لَنْ تَرَانى ﴾ .

---

(١) أى فرحوا وانشرحت صدورهم .

(٢) قال العروسى : أى منعوا عن الالتفات إلى غير الله حتى فنوا عن أنفسهم فلم يلتفتوا إليها .

(٣) أى أشير إليهم فى سرائرهم أن يقولوا لغيرهم : ابكوا علينا لعدم وصولنا إلى مقصودنا .

(٤) أى ملازمة طاعة الله .

(٥) آية ٤١ من سورة طه .

وقال : الصوفية أطفالٌ فى حجر الحق .

وقال أيضا : التصوف بَرْقة محرقةٌ .

وقال أيضا : هو العصمة عن رؤية الكون[١] .

وقال رويم : ما تزال الصوفية بخير ما تنافروا[٢] ، فإذا اصطلحوا[٣] فلا خير فيهم[٤] .

وقال الجريرى : التصوف مراقبة الأحوال ، ولزومُ الأدب .

وقال المزين : التصوف : الانقياد للحق .

وقال أبو تراب النخشبى : الصوفى لا يكدره شىء ، ويصفو به كل شىء .

وقيل : الصوفى لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سبب .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج يقول : سئل ذو النون المصرى عن أهل التصوف فقال : هم قوم آثروا الله ، عز وجل ، على كل شىء فآثرهم الله ، عز وجل ، على كل شىء .

وقال الواسطى رحمه الله : كان للقوم إشارات .. ثم صارت حركات .. ثم لم يبق إلا حسرات !!.

وسئل النورى عن الصوفى ، فقال : من سمع السماع وآثر الأسباب[٥] .

سمعت أباحاتم السجستانى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : قلت للحصرى : من الصوفى عندك ؟ فقال : الذى لا تقله الأرض[٦] ، ولا تظله السماء .

قال الاستاذ أبو القاسم : إنما أشار إلى حال « المحو » .

وقيل : الصوفى من إذا استقبله حالان ، أو خُلقان كلاهما حسن ، كان مع الأحسن منهما .

وسئل الشبلى : لم سميت الصوفية بهذه التسمية ؟ .

فقال : لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما تعلقت بهم تسمية .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سئل ابن الجلاء :

---

(١) رؤية استحسان وميل لا رؤية بحث وعلم .

(٢) أى مدة إرشاد بعضهم بعضا .

(٣) أى فتروا عن الإرشاد والتنبيه .

(٤) فقد خرجوا عن معنى التصوف .

(٥) الأسباب : هى فعل المأمورات وترك المنهيات .

(٦) أى لا تطيق حمله .

ما معنى قولهم صوفى ؟ فقال : ليس نعرفه فى شرط العلم ، ولكن نعرف أن من كان فقيرًا مجردًا من الأسباب ، وكان مع الله تعالى بلا مكان ، ولا يمنعه الحق سبحانه عن علم كل مكان يسمى « صوفيًا » .

وقال بعضهم : التصوف : إسقاط الجاه ، وسواد الوجه فى الدنيا والآخرة[1] .

وقال أبو يعقوب المزايلى : التصوف : حال تضمحل فيها معالم الإنسانية .

وقال أبو الحسن السيروانى : الصوفى : من يكون من الواردات لامع الأوراد .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : أحسن ما قيل فى هذا الباب قول من قال : هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام قد كنس الله بأرواحهم المزابل ، ولهذا قال رحمه الله يومًا : لو لم يكن للفقير إلا روح فعرضها على كلاب هذا الباب لم ينظر كلب إليها .

وقال الاستاذ أبو سهل الصعلوكى : التصوف : الإعراض عن الاعتراض .

وقال الحصرى : الصوفى لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدَم بعد وجوده .

قال الاستاذ القشيرى : وهذا فيه إشكال . ومعنى قوله : لا يوجد بعد عدمه أى إذا فنيت آفاته لا تعود تلك الآفات . وقوله : ولا يعدم بعد وجوده ، يعنى : إذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق ، فالحادثات لا تؤثر فيه .

ويقال : الصوفى : المصطلم عنه[2] بما لاح له من الحق .

ويقال : الصوفى : مقهور بتصريف الربوبية . مستور بتصرف العبودية .

ويقال : الصوفى لا يتغير ، فإن تغير لا يتكدَّر .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت الحسين بن أحمد الرازى يقول : سمعت أبا بكر المصرى يقول : سمعت الخرّاز يقول : كنت فى جامع « قيروان » يوم جمعة ، فرأيت رجلا يدور فى الصف ، ويقول :

تصدّقوا علىَّ ، فقد كنت صوفيًا فضعفتُ ..

فرفقته[3] بشىء ، فقال لى مُر[4] ، ويلك !! ليس هذا من ذلك !! ولم يقبل الرفق .

---

(١) سواد بالجر عطفا على الجاه ويكون المعنى إسقاط الجاه وإسقاط سواد الوجه يعنى ترك كل فعل يؤدى إلى سواد الوجه فى الدنيا والآخرة .

(٢) أى المستغرق عن نفسه .

(٣) أعطيته .

(٤) اتركنى .

باب الأدب

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾[١]

قيل : حفظ آداب الحضرة .

وقال تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾[٢] . جاء فى التفسير عن ابن عباس : فقهوهم ، وأدّبوهم .

أخبرنا : على بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أبو الحسن الصفار البصرى قال : حدثنا غنام قال : حدثنا عبد الصمد بن النعمان قال : حدثنا عبد الملك بن الحسين ، عن عبد الملك ابن عمير ، عن مصعب بن شيبة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ قال :

« حقّ الولد على والده : أن يحسن اسمه ، ويحسن مرضعه ، ويحسن أدبه » .

ويحكى عن سعيد بن المسيب أنه قال : من لم يعرف ما لله عزّ وجلّ ، عليه فى نفسه ، ولم يتأدب بأمره ونهيه كان من الأدب فى عزلة .

وروى عن النبى ﷺ . أنه قال :

« إن الله ، عزّ وجلّ ، أدّبنى فأحسن تأديبى »[٣] .

وحقيقة الأدب : اجتماع جميع خصال الخير ؛ فالأديب : هو الذى اجتمع فيه خصال الخير ومنه أخذت « المأدبة » اسم للمجمع[٤] .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : العبد يصل بطاعته إلى الجنة ، وبأدبه فى طاعته إلى الله .

وسمعته أيضا يقول : رأيت من أراد أن يمد يده فى الصلاة بين يدى الله إلى أنفه ، ليزيل ما به ، فقبض على يده .

---

(١) آية ١٧ من سورة النجم .

(٢) آية ٦ من سورة التحريم .

(٣) حديث صحيح أخرجه السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود .

(٤) أى للاجتماع للطعام .

قال الأستاذ : وإنما أشار بذلك إلى نفسه ، لأنه لا يمكن الإنسان أن يعرف من غيره أنه قبض على يده .

وكان الأستاذ أبو على ، رحمه الله ، لا يستند إلى شيء ، وكان يومًا فى مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره ، لأنى رأيته غير مستند .. فتنحى عن الوسادة قليلاً .. فتوهمت أنه توقى الوسادة ، لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد .

فتأملت بعده حالة ؛ فكان لا يستند إلى شيء .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج ، يقول : سمعت أحمد بن محمد البصرى يقول : سمعت الجلاجلى البصرى يقول : التوحيد موجب يوجب الايمان ؛ فمن لا إيمان له فلا توحيد له ، والإيمان موجب يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له فلا إيمان له ولا توحيد ، والشريعة موجب يوجب الأدب ؛ فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

وقال ابن عطاء : الأدب : الوقوف مع المستحسنات[1] ، فقيل : وما معناه ؟

قال : أن تعامل الله بالأدب سرا وعلنًا ، فإذا كنت كذلك كنت أديبًا وإن كنت أعجميًا .

ثم أنشد :

إذا نطقتْ جاءت بكل ملاحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

أخبرنا . محمد بن الحسين ، قال : سمعت عبدالله الرازىّ يقول : سمعت عبد الله الجريرى يقول : منذ عشرين سنة ما مددت رجلى وقت جلوسى فى الخلوة فإن حُسن الأدب مع الله أولى .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله ، يقول : من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل .

وروى عن ابن سيرين أنه سئل : أىّ الآداب أقرب إلى الله تعالى ؟ .

فقال : معرفة بربوبيته ، وعملٌ بطاعته ، والحمد لله على السراء ، والصبر على الضراء .

وقال يحيى بن معاذ : إذا ترك العارف أدبه مع معروفه[2] ، فقد هلك مع الهالكين .

سمعت الأستاذ أبا على رحمه الله ، يقول : ترك الأدب موجب يوجب الطرد ؛ فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة[3] الدواب .

---

(١) وفى نسخة المحسنات أى ما يصير به العمل حسنًا .

(٢) أى مع الله .

(٣) خدمة .

وقيل للحسن البصرى : قد أكثر الناس فى علم الأدب ، فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً ؟ .

فقال : التفقه فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والمعرفة بما لله ، عز وجل عليك .

وقال يحيى بن معاذ : من تأدب بأدب الله تعالى صار من أهل محبة الله تعالى .

وقال سهل : القوم الذين استعانوا بالله ، على أمر الله ، وصبروا على آداب الله .

وروى عن ابن المبارك أنه قال : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منَّا إلى كثير من العلم .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سعيد يقول : سمعت العباس بن حمزة يقول : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال : قال الوليد بن عتبة : قال : ابن المبارك : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدِّبون :

وقيل : ثلاث خصال ليس معهن غُربة :

مجانبةُ أهل الرِّيب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى :

وأنشدنا الشيخ أبو عبد الله المغربى ، رضى الله عنه ، فى هذا المعنى :

يزين الغريبَ إذا ما اغترب ثلاثٌ : فمنهن حسنُ الأدب
وثانيه : حُسن أخلاقه وثالثه : اجتناب الرِّيب

ولما دخل أبو حفص بغداد قال له الجنيد : لقد أدَّبت أصحابك أدب السلاطين .

فقال له أبو حفص : حسن الأدب فى الظاهر عنوان حسن الأدب فى الباطن .

وعن عبد الله بن المبارك أنه قال : الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف[1] .

سمعت منصور بن خلف المغربى يقول : قيل لبعضهم : ياسىء الأدب .

فقال : لست بسىء الأدب ، فقيل له : من أدّبك ؟ فقال : أدَّبنى الصوفية .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا النصر الطوسى السرّاج يقول : الناس فى الأدب على ثلاث طبقات :

أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب .

---

(١) أى المبتدئ .

وأما أهل الدين فأكثر آدابهم فى رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات .

وأما أهل الخصوصية[١] فأكثر آدابهم فى طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الخواطر ، وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب .

يحكى عن سهل بن عبد الله أنه قال : من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص .

وقيل : كمال الأدب لا يصفو إلا للأنبياء والصديقين .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس فى الأدب ، ونحن نقول : هو معرفة النفس .

وقال الشبلى : الانبساط بالقول مع الحق سبحانه ترك الأدب .

وقال ذو النون المصرى : أدب العارف فوق كل أدب ، لأن معروفه مؤدِّب قلبه .

وقال بعضهم : يقول الحق ، سبحانه : من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب ، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب ، فاختر أيَّهما شئت : الأدب أو العطب .

وقيل : مدّ ابن عطاء رجله يومًا بين أصحابه وقال : ترك الأدب بين أهل الأدب أدب .

ويشهد لهذه الحكاية الخبر الذى روى « أن النبى ﷺ كان عنده أبو بكر ، وعمر ، فدخل عثمان فغطى فخذه وقال : ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة »[٢] نبه ﷺ : أن حشمة عثمان ، رضى الله عنه ، وإن عظمت عنده ، فالحالة التى بينه وبين أبى بكر وعمر كانت أصفى .

وفى قريب من معناه أنشدوا :

فىَّ انقباض وحشمة فإذا ... جالست أهل الوفاء والكرم
أرسلتُ نفسى على سجيتها ... وقلت ما قلت غيرَ محتشم

وقال الجنيد : إذا صحّت المحبَّة سقطت شروط الأدب .

وقال أبو عثمان : إذا صحّت المحبة تأكد على المحب ملازمة الأدب .

وقال النورى : من لم يتأدب للوقت فوقته[٣] المقت .

---

(١) وهم العارفون بالله .

(٢) أخرجه الترمذى عن عائشة رضى الله عنها .

(٣) أى حاله .

وقال ذو النون المصرى : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب ، فإنه يرجع من حيث جاء .

سمعت الأستاذ أبا على . رحمه الله يقول فى قوله عزَّ وجلّ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] قال : لم يقل « ارحمنى » .

لأنه حفظ آداب الخطاب .

وكذلك عيسى عليه السلام حيث قال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[2] وقال : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾[3] ولم يقل « لم أقل » ؛ رعاية لآداب الحضرة .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الطيب بن الفرحان يقول : سمعت الجنيد يقول : جاءنى بعض الصالحين يوم جمعة فقال لى : ابعث معى فقيرًا يُدخل علىّ سرورا ، ويأكل معى شيئًا ، فالتفت ، فإذا أنا بفقير شهدُت فيه الفاقة .. فدعوته .. وقلت له : امض مع هذا الشيخ وأدخل عليه سروراً ، فلم ألبث أن جاءنى الرجل فقال لى : يا أبا القاسم لم يأكل ذلك الرجل الفقير إلا لقمة ، وخرج !!.

فقلت : لعلك قلت كلمة جفاء عليه ، فقال لى : لم أقل شيئاً .

فالتفت فإذا أنا بالفقير جالس ، فقلت له : لم لْم تُتم عليه السرور ؟ .

فقال : ياسيدى ، خرجت من الكوفة وقدمت « بغداد » ولم آكل شيئًا .. وكرهت أن يبدو سوء أدب منى من جهة الفاقة فى حضرتك .. فلما دعوتنى سررتُ إذ جرى ذلك ابتداء منك ، فمضيتُ وأنا لا أرضى له الجنان .. فلما جلست على مائدته سوًّى لقمة وقال لى : كل ، فهذا أحبّ إلىّ من عشرة آلاف درهم فلما سمعت هذا منه علمت أنه دنىء الهمّة ، فتطرقت[4] أن آكل طعامه ، فقال الجنيد : ألم أقل لك إنك أسأت أدبك معه ، فقال : يا أبا القاسم .. التوبة ، فسأله أن يمضى معه ويفرحه .

---

(١) آية ٨٣ من سورة الأنبياء .

(٢) آية ١١٨ من سورة المائدة .

(٣) آية ١١٦ من سورة المائدة .

(٤) فتجنبت .

باب أحكامهم فى السفر

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ هُوَ الَّذى يُسَيِّرُكُمْ فى الْبَرِّ وَالبحْرِ ...﴾ الآية[١] .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال : حدثنا محمد ابن الفرج الأزرق قال : حدثنا حجاج قال : قال ابن جريج : أخبرنى أبو الزبير : أن عليًّا الأزدىّ أخبره : أنّ ابن عمر أعلمهم « أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على البعير خارجًا إلى سفر كبّر ثلاثًا ، ثم قال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هذَا ، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .[٢] وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنقلِبُونَ ﴾[٣] ثم يقول : اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى[٤] ، اللهم هوّن علينا سفرنا .

اللهمّ أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل .. اللهّم إنى أعوذ بك من وَعْثاء[٥] السفر ، وكآبة المنقلب[٦] ، وسوء المنظر فى المال والأهل ، وإذا رجع قالهن ، وزاد فيهن : آيبون .. تائبون .. لربنا حامدون » .

ولما كان رأى كثير من أهل هذه الطائفة اختيار « السفر » أفردنا لذكر « السَّفر » فى هذه الرسالة بابا ، لكونه من أعظم شأنهم ؛ وهذه الطائفة مختلفون ؛ فمنهم من آثر الإقامة ، على السفر ، ولم يسافر إلا لفرض ، كحجة الإسلام ، والغالب عليهم الإقامة ، مثل : الجنيد ، وسهل بن عبد الله ، وأبى يزيد البسطامى ، وابن حفص ، وغيرهم .

ومنهم من آثر السفر ، وكانوا على ذلك ، إلى أن أخرجوا من الدنيا ، مثل : أبى عبد الله المغربى ، وإبراهيم بن أدهم ، وغيرهم .

وكثير منهم سافروا فى ابتداء أمورهم فى حال شبابهم أسفارًا كثيرة ثم قعدوا عن السفر فى

---

(١) آية ٢٢ من سورة يونس .
(٢) مطيقين .
(٣) آية ١٣ وآية ١٤ من سورة الزخرف .
(٤) شدته ومشاقه .
(٥) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .
(٦) أى الحزن والغم فى العودة .

آخر أحوالهم ، مثل : أبى عثمان الحيرى ، والشبلى ، وغيرهم ، ولكل منهم أصول بنوا عليها طريقتهم .

واعلم أن السفر على قسمين :

سفر بالبدن : وهو الانتقال من بقعة إلى بقعة .

وسفر بالقلب : وهو الارتقاء من صفة إلى صفة ، فترى ألفًا يُسافر بنفسه[١] وقليل من يسافر بقلبه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : كان بـ «فَرَخْك» (قرية بظاهر « نيسابور ») شيخ من شيوخ هذه الطائفة ، وله على هذا اللسان تصانيف ، سأله بعض الناس : هل سافرت أيها الشيخ ؟ .

فقال : سفر الأرض أم سفر السماء ؟ سفر الأرض لا ، وسفر السماء ، بلى[٢] . وسمعته . رحمه الله ، يقول : جاءنى بعض الفقراء يومًا ، وأنا بمرو ، فقال لى : قطعت إليك شقة بعيدة ، والمقصود لقاؤك .

فقلت له : كان يكفيك خطوة واحدة لو سافرت عن نفسك .

وحكاياتهم فى السفر تختلف على ما ذكرنا من أقسامهم وأحوالهم .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت محمد بن على العلوى يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت أحنف الهمذانى يقول :

كنت فى البادية وحدى ، فأعييتُ ، فرفعت يدى وقلت : يارب ، إنى ضعيف زمن ، وقد جئت إلى ضيافتك ، فوقع فى قلبى أن يقال لى : من دعاك ؟ فقلت يارب هى مملكة تحتمل الطفيلى .. فإذا أنا بهاتف من ورائى .. فالتفت إليه فإذا أعرابى على راحلة ، فقال : يا أعجمى ، إلى أين ؟ .. قلت : إلى مكة ، قال : أو دعاك ؟ قلت : لا أدرى ، فقال : أليس قال : ﴿ من اسْتَطَاعَ إِلَيْه سَبيلا ﴾[٣] فقلت : المملكة واسعة تحتمل الطفيلى ، فقال : نِعم الطفيلى أنت ، يمكنك أن تخدم الجمل ؟ قلت : نعم ، فنزل عن راحلته وأعطانيها ، وقال : سر عليها .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن أحمد النجار يقول : سمعت

---

(١) أى ببدنه .

(٢) الصواب : نعم .

(٣) من آية ٩٧ من سورة آل عمران .

الكتانى يقول ؛ وقد قال له بعض الفقراء ، أوصنى ، فقال : اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، وأن لا تموت إلا بين منزلين[١] .

ويحكى عن الحصرى أنه كان يقول : جلسة خير من ألف حجة .

وإنما أراد جلسة تجمع الهَمّ[٢] على نعت الشهود[٣] .

ولعمرى ، إنها أتمُّ[٤] من ألف حجة ، على وصف الغيبة عنه .

سمعت محمد بن أحمد الصوفى ، رحمه الله ، يقول : سمعت على بن عبد الله التميمى يقول : حكى عن محمد بن اسماعيل الفرغانى أنه قال : كنَّا نسافر مقدار عشرين سنة أنا وأبو بكر الزَّقاق ، والكتَّانى ، لا نختلط بأحد ، ولا نعاشر أحداً ، فإذا قدمنا بلدا ، فإن كان فيه شيخ سلمنا عليه ، وجالسناه إلى الليل .. ثم نرجع إلى مسجد ، فيصلى الكتَّانى من أول الليل إلى آخره ويختم القرآن ؛ ويجلس الزقاق مستقبل القبلة ، وكنت استلقى متفكرًا ، ثم نصبح ونصلى صلاة الفجر على وضوء العتمة[٥] ، فإذا وقع معنا إنسان ينام كنا نراه أفضلنا .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبد الله بن على يقول سمعت عيسى القصّار يقول : سئل رويم عن أدب السفر ، فقال : أن لايجاوز همه قدمه ؛ وحيثما وقف قلبه يكون منزله .

وحكى عن مالك بن دينار أنه قال : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : اتخذ نعلين من حديد ، وعصًا من حديد ، ثم سِحْ فى الأرض ، فاطلب الآثار والعبر ، حتى تنخرق النعلان وتنكسر العصا .

وقيل : كان أبو عبد الله المغربى يسافر أبدًا ومعه أصحابه ، وكان يكون محرمًا : فإذا تحلل من إحرامه أحرم ثانيًا ، ولم يتسخ له ثوب ، ولا طال له ظفر ولا شعر .

وكان يمشى معه أصحابه بالليل وراءه ، فكان إذا حاد أحدهم عن الطريق ، يقول : يمينك يا فلان ، يسارك يا فلان ، وكان لا يمد يده إلى ما وصلت اليه يد الآدميين ، وكان طعامه أصل شيء من النبات يؤخذ فيُقلع لأجله .

وقيل : كلُّ صاحب تقول له « قم » ، فيقول : إلى أين ؟ فليس بصاحب .

وفى معناه أنشدوا .

---

(١) وفى نسخة « منزلتين » أى المنزلة التى أنت فيها والمنزلة التى تطلبها .

(٢) أى الهمة .

(٣) أى حضور القلب .

(٤) أى أفضل .

(٥) أى العشاء .

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأيـة حـرب أم لأىِّ مكـان

وحكى عن أبى علىّ الرباطى قال : صحبت عبد الله المروزى ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد ولا راحلة . فلما صحبته ، قال لى : أيما أحبُّ إليك ، أن تكون أنت الأمير أم أنا ؟ فقلت : لا ، بل أنت ، فقال : وعليك الطاعة ؟ فقلت : نعم .

فأخذ مخلاة ، ووضع فيها زاداً ، وحملها على ظهره ، فإذا قلت ٠ أعطنى حتى أحملها .

قال : الأمير أنا وعليك الطاعة .

قال : فأخذنا المطر ليلة .. فوقف إلى الصباح على رأسى وعليه كساء يمنع عنى المطر ، فكنت أقول فى نفسى : ياليتنى متُّ ولم أقل له أنت الأمير .

ثم قال لى : إذا صحبتَ إنسانًا فاصحبه كما رأيتنى صحبتك .

وقدم شاب على أبى علىٍّ الروذبارى ، فلما أراد الخروج ، قال : يقول الشيخ شيئًا ، فقال : يافتى كانوا لا يجتمعون عن موعد ، ولا يتفرَّقون عن مشورة[1] .

وعن المزين الكبير قال : كنت يومًا مع إبراهيم الخوَّاص فى بعض أسفاره ، فإذا عقرب تسعى على فخذه . فقمت لأقتلها ، فمنعنى وقال : دعها ، كلُّ شىء مفتقر إلينا . ولسنا مفتقرين إلى شىء .

وقال أبو عبد الله النصيبنى : سافرت ثلاثين سنه ما خطت قطّ خرقة على مرقعتى ، ولا عدلت إلى موضع علمت أن لى فيه رفيقًا ، ولا تركت أحدًا يحمل معى شيئًا .

واعلموا أن القوم استوفوا آداب الحضور من المجاهدات ، ثم أرادوا أن يضيفوا إليها شيئًا ، فأضافوا أحكام السفر إلى ذلك ؛ رياضة لنفوسهم ، حتى[2] أخرجوها عن المعلومات[3] ، وحملوها على مفارقة المعارف ، كى يعيشوا مع الله بلا علاقة ولا واسطة ، فلم يتركوا شيئاً من أورادهم فى أسفارهم .

وقالوا : الرُّخص لمن كان سفره ضرورة ، ونحن لا شغل لنا ولا ضرورة فى أسفارنا علينا .

سمعت أبا صادق بن حبيب قال : سمعت النصر أباذى يقول : ضعفت فى البادية مرّة ، فأيست من نفسى ، فوقع بصرى على القمر ، وكان ذلك بالنهار ، فرأيت مكتوبًا عليه : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾[4] فاستقللت[5] ، وفتح علىّ من ذلك الوقت هذا الحديث .

---

(١) أى لا يتعلقون بغير الله فى الاجتماع ولا فى الافتراق .

(٢) وفى نسخة « حين » .

(٣) أى المألوفات .

(٤) من آية ١٣٧ من سورة البقرة .

(٥) أى : قويت .

وقال أبو يعقوب السوسى : يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء فى سفره : عِلم يسوسه ، وورع يحجزه ، ووجد يحمله ، وخُلق يصونه .

وقيل : سُمى السفر سفرًا ؛ لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال .

وكان الكتانىّ إذا سافر الفقير إلى اليمن ثم رجع إليه مرّة أخرى يأمر بهجرانه ؛ وإنما كان يفعل ذلك ؛ لأنهم كانوا يسافرون إلى اليمن ذلك الوقت لأجل الرفق .

وقيل : كان إبراهيم الخوّاص لا يحمل شيئًا فى السفر ، وكان لا يفارقه « الإبرة » و « الركوة »[1] أما الأبرة فلخياطة ثوبه إن تمزّق سترًا للعورة ، وأما الركوة فللطهارة ، وكان لا يرى ذلك علاقة ولا معلومًا .

وحكى عن أبى عبد الله الرازى قال : خرجت من « طرسوس » حافيًا ، وكان معى رفيق ، فدخلنا بعض قرى الشام ، فجاءنى فقير بحذاء فامتنعت من قبوله ؛ فقال لى رفيقى : البس هذا ، فقد عييتَ ، فإنه قد فتح عليك بهذا النعل بسببى . فقلت : مالك ؟ فقال : نزعت نعلى[2] موافقة لك ، ورعاية لحق الصحبة .

وقيل : كان الخوّاص فى سفر ، ومعه ثلاثة نفر ، فبلغوا مسجدًا فى بعض المفاوز وباتوا فيه ، ولم يكن عليه باب .. وكان برد شديد فناموا ، فلما أصبحوا رأوه واقفًا على الباب ، فقالوا : له فى ذلك فقال : خشيت أن تجدوا البرد . وكان قد وقف طول ليلته .

وقيل : إن الكتانى استأذن أمه فى الحج مرة فأذنت له ، فخرج ، فأصاب ثوبه البول فى البادية ، فقال : إن هذا لخلل فى حالى ، فانصرف .. فلما دق باب داره أجابته أمه ، ففتحت .. فرآها جالسة خلف الباب .. فسألها عن سبب جلوسها فقالت : مذ خرجتَ اعتقدت[3] أن لا أبرح من هذا الموضع حتى أراك .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن محمد الدمشقى يقول : سمعت إبراهيم ابن المولد يقول : سمعت إبراهيم القصار يقول : سافرت ثلاثين سنة أصلح قلوب الناس للفقراء .

وقيل : زار رجل داود الطائىّ فقال : يا أبا سليمان ، كانت نفسى تنازعنى إلى لقائك منذ زمان ، لا بأس إذا كانت الأبدان هادئة والقلوب ساكنة فالتلاقى أيسر .

---

(١) القربة .
(٢) منذ بدء السفر .
(٣) عزمت .

سمعت أبا نصر الصوفى ، وكان من أصحاب النصراباذى ، يقول : خرجت من البحر ـ « عمان » وقد أثر فىّ الجوع ، فكنت أمرّ فى السوق .. فبلغت حانوت حلاوى .. فرأيت فيه حملانًا[1] مشوية ، وحلواء .. فتعلقت برجل وقلت : اشتر لى من هذه الأشياء .

فقال : لماذا ؟ ألك علىّ شىء ، أو علىّ دين ؟ .

فقلت : لابد أن تشترى لى من هذا .

فرآنى رجل فقال : خله يا فتى (إن الذى يجب عليه أن يشترى لك ما تريد) أنا لا هو ، اقترح علىّ ، واحكم بما تريد .

ثم اشترى لى ما أردتُ ، ومضى .

وحكى عن أبى الحسين المصرى قال : اتفقت مع الشجرى فى[2] السفر من « طرابلس » .. فسرنا أيامًا لم نأكل شيئًا ، فرأيت قرعًا مطروحًا .. فأخذت آكله ، فالتفت إلىّ الشيخ ولم يقل شيئًا ، فرميت به ، وعلمت أنه كره ذلك .. ثم فتح علينا بخمسة دنانير .. فدخلنا قرية ، فقلت : يشترى الشيخ (لنا شيئًا) لا محالة .

فمر .. ولم يفعل .. ثم قال : لعلك تقول نمشى جياعًا ولم يشتر لنا شيئاً ، هو ذا . فوافى « اليهودية » (قرية على الطريق) ، وثم رجلٌ صاحب عيال إذا دخلناها يشتغل بنا ، فادفعها إليه ، لينفقها علينا وعلى عياله .

فوصلنا إليه ، ودفع الدنانير إلى الرجل فأنفقها ، فلما خرجنا قال لى : إلى أين يا أبا الحسين ؟ .

فقلت : أسير معك . فقال : لا ، إنك تخوننى فى قرعة وتصحبنى ، لا تفعل وأبى أن أصحبه .

سمعت محمد بن عبد الله الشيرازى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا أحمد الصغير يقول : سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول : كنت فى حال حداثتى استقبلنى بعض الفقراء .. فرأى فى أثر الضرّ والجوع ، فأدخلنى داره وقدّم لى لحمًا طبخ بالكشك واللحم متغير . فكنت آكل الثريد وأتجنب اللحم لتغيره فلقمنى لقمة ، فأكلتها بجهد .. ثم لقمنى ثانية فبلغتنى مشقة .. فرأى ذلك فىّ ، وخجل ، وخجلت لأجله ، فخرجت وأنزعجت[3] فى الحال للسفر .

---

(١) خريفًا .

(٢) أى على السفر .

(٣) أى تحركت .

فأرسلت إلى والدتى من يخبرها ويحمل إلىّ مرقعتى . فلم تعارضنى الوالدة .. ورضيت بخروجى ، فارتحلت من « القادسية » مع جماعة من الفقراء .. فتهنا .. ونفد ما كان معنا .. وأشرفنا على التلف ، فوصلنا إلى حى من أحياء العرب ، ولم نجد شيئا ، فاضطررنا إلى أن اشترينا منهم كلبا بدنانير ، وشووه ، وأعطونى قطعة من لحمه .. فلما أردت أكله فكرت فى حالى ، فوقع لى أنه عقوبة خجل ذلك الفقير . فتبت فى نفسى .. فدلونا على الطريق .. فمضيت .. وحججت .. ثم رجعت معتذرًا إلى الفقير .

باب الصحبة

قال الله عزَّ وجلّ : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] .

لما أثبت الله سبحانه للصدِّيق الصحبة بين أنه أظهر عليه الشفقة ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

فالحُرُّ شفيقٌ على من يصحبه .

أخبرنا علىّ بن أحمد الإهوازى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرّى ، قال : حدّثنا يحيى بن محمد الجيانى قال : حدّثنا عثمان بن عبدالله القرشى ، عن نعيم بن سالم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« متى ألقى أحبابى ؟ فقال أصحابه : بأبينا أنت وأمنا ، أو لسنا أحبابك ؟

فقال : أنتم أصحابى ، أحبابى : قوم لم يرونى ، وآمنوا بى ، وأنا إليهم بالأشواق أكثر »[2] .

والصحبة على ثلاثة أقسام :

صحبة مع من فوقك : وهى فى الحقيقة خدمة ، وصحبة مع من دونك : وهى تقضى على المتبوع بالشفقة والرحمة ، وعلى التابع بالوفاق والحزمة .

وصحبة الأكفاء والنظراء : وهى مبنية على الإيثار والفتوة ؛ فمن صحب شيخًا فوقه فى الرتبة ، فأدبه ترك الاعتراض ، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل ، وتلقى أحواله بالإيمان به .

سمعت منصور بن خلف المغربى وسأله بعض أصحابنا : كم سنة صحبت أبا عثمان المغربى ؟ فنظر إليه شزرًا[3] وقال : إنى لم أصحبه ، بل خدمته مدة . وأما إذا صحبك من هو دونك ، فالخيانة منك فى حق صحبته أن لا تنبهه على ما فيه من نقصان فى حالته ؛ ولهذا كتب أبو الخير التينانى إلى جعفر بن محمد بن نصير : وزر جهل الفقراء عليكم ؛ لأنكم اشتغلتم

---

(١) آية ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه .

(٣) أى بمؤخر العين .

بنفوسكم عن تأديبهم ، فبقوا جهلة .

وأما إذا صحبت من هو فى درجتك ، فسبيلك التعامى[1] عن عيوبه ، وحملُ ما ترى منه على وجه من التأويل جميلٍ ، ما أمكنك ، فإن لم تجد تأويلًا عدت إلى نفسك بالتهمة وإلى التزام اللائمة .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : قال أحمد بن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى : إن فلانًا لايقع من قلبى !! فقال أبو سليمان : وليس يقع أيضًا من قلبى ، ولكن يا أحمد ، لعلنا أتينا مِنْ قِبلنا ، لسنا من جملة الصالحين ؛ فلسنا نحبهم .

وقيل : صحب رجلٌ إبراهيم بن أدهم ، فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل : إن رأيت فىَّ عيبًا فنبهنى عليه . فقال إبراهيم : إنى لم أر بك عيبًا ؛ لأنى لاحظتك بعين الوداد ؛ فاستحسنت منك ما رأيت ، فسل غيرى عن عيبك .

وفى معناه أنشدوا :

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ولكنَّ عين السخط تبدى المساويا

وحكى عن إبراهيم بن شيبان أنه قال : كنا لا نصحب من يقول «نَعلى»[2].

سمعت أبا حاتم الصوفى ، يقول : سمعت أبا نصر السراج ، يقول : قال أبو أحمد القلانسى ، وكان من أستاتذة الجنيد : صحبت أقواما بـ « البصرة » فأكرمونى .. فقلت مرّة لبعضهم : أين إزارى ؟ فسقطت من أعينهم[3] .

وسمعت أبا حاتم يقول : سمعت أبا نصر السرّاج يقول : سمعت الدقى يقول : سمعت الزقاق يقول :

منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء . فما رأيت رفقا لأصحابنا إلا من بعضهم لبعض ، أو ممن يحبهم ، ومن لم يصحبه التقوى والورع فى هذا الأمر أكل الحرام النص[4].

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : قال رجل لسهل بن عبدالله : أريد أن أصحبك يا أبا محمد . فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحبه الباقى ؟

---

(١) وفى نسخة « التغاضى » .

(٢) فإنه أضاف الشىء إلى نفسه ، فقال : « نعلى » والإضافة تؤذن بالملك أو الاستحقاق أو الاختصاص وذلك غير مذهبهم .

(٣) لأنهم كما قال الإمام العروسى : يرون أن الدنيا إنما هى زاد يستعان بها على سلوك طريق الآخرة فلا يليق بأحد منهم ، لكون أيديهم متساوية فيما يحتاجونه أن يختص بشىء دون بقيتهم فلا يقول : نعلى ولا إزارى ولا طعامى بل إذ سأل قال : أين : النعل وأين الإزار وأين الطعام ، فإن خالطهم من يدعى ملكًا لنفسه سقط من أعينهم لمخالفته ما هم عليه .

(٤) أى الخالص .

فقال : الله . فقال له : فليصحبه الآن .

وصحب رجل رجلًا مدّة ، ثم بدا لأحدهما المفارقة ، فاستأذن صاحبه ، فقال : بشرط ألا تصحب أحدًا إلا إذا كان فوقنا ، وإن كان أيضا فوقنا فلا تصحبه ؛ لأنك صحبتنا أولًا . فقال الرجل : زال من قلبى إرادة المفارقة .

سمعت أبا حاتم الصوفى ، يقول : سمعت أبا نصر السراج ، يقول : سمعت الدُّقى يقول : سمعت الكتانى يقول : صحبنى رجل ، وكان على قلبى ثقيلًا ، فوهبت له شيئًا ، ليزول ما فى قلبى ، فلم يَزُل !! .. فحملته إلى بيتى ، وقلت له : ضع رجلك على خدّى . فأبى ، فقلت : لابدّ . ففعل ، واعتقدتُ[1] أن لا يرفع رجله من خدّى حتى يرفع الله من قلبى ما كنت أجده ، فلما زال عن قلبى ما كنت أجده ، قلت له : ارفع رجلك الآن .

وكان إبراهيم بن أدهم يعمل فى الحصاد وحفظ البساتين وغيره ، وينفق على أصحابه .

وقيل : كان مع جماعة من أصحابه ، فكان يعمل بالنهار وينفق عليهم ، ويجتمعون بالليل فى موضع وهم صيام[2] ، فكان يبطئ فى الرجوع من العمل ، فقالوا ليلة : تعالوا نأكل فطورنا دونه ، حتى يعود بعد هذا أسرع ، فأفطروا ، وناموا ، فلما رجع إبراهيم وجدهم نيامًا ، فقال : مساكين ، لعلهم لم يكن لهم طعام ؛ فَعَمد إلى شىء من الدقيق كان هناك ، فعجنه ، وأوقد على النار ، وطرح الملَّة[3]، فانتبهوا ، وهو ينفخ فى النار واضعًا محاسنه على التراب ، فقالوا له فى ذلك ، فقال : قلت لعلكم لم تجدوا فطورًا .. فنمتم .. فأحببت أن تستيقظوا والملة قد أدركت[4].

فقال بعضهم لبعض : انظروا ما الذى عملنا ، وما الذى به يعاملنا .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه أحد شارطه على ثلاثة أشياء :

أن تكون الخدمةُ والأذان له[5]، وأن تكون يده فى جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيدهم .

فقال له يومًا رجل من أصحابه : أنا لا أقدر على هذا ؟

فقال : أعجبنى صدقك .

وقال يوسف بن الحسين : قلت لذى النون : مع من أصحب ؟

فقال : مع من لا تكتمه شيئًا يعلمه الله تعالى منك .

وقال سهل بن عبدالله لرجل : إن كنت ممن يخاف السباع فلا تصحبنى .

---

(١) أى عزمت .
(٢) الأولى أن يقال صوام .
(٣) الملة بفتح الميم : الرماد الحار .
(٤) أى نضج خبزها .
(٥) وهذان هما الشرطان الأولان .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن الحسن العلوى يقول : حدثنا عبدالرحمن ابن حمدان قال : حدثنا أبو القاسم بن منبه قال : سمعت بشر بن الحارث يقول : صحبة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار .

وحكى الجنيد قال : لما دخل أبو حفص بغداد كان معه إنسان أصلع لا يتكلم بشيء .. فسألت أصحاب أبى حفص عن حاله ، فقالوا : هذا رجل أنفق عليه مائة ألف درهم ، واستدان مائة ألف درهم أنفقها عليه ، ولا يُرخص له أبو حَفص أن يتكلم بحرف .

وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

وقال رجل لذى النون : مع من أصحب ؟ فقال :

مع من إذا مرضت عادك ، وإذا أذنبت تاب عليك .

سمعت الأستاذ أبا علىّ ، رحمه الله ، يقول : الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد يورق ولكنه لا يثمر ، كذاك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به لا يجيء منه شيء .

وكان الأستاذ أبو علىّ ، يقول : أخذت هذا الطريق عن النصراباذى ، والنصراباذى عن الشبلى ، والشبلى عن الجنيد ، والجنيد عن السرىّ ، والسرىّ عن معروف الكرخىّ ، ومعروف الكرخىّ ، عن داود الطائى ، وداود الطائى لقى التابعين .

وسمعته يقول : لم أختلف إلى مجلس النصراباذى قط إلا اغتسلت قبله .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : ولم أدخل أنا على الأستاذ أبى علىّ فى وقت بدايتى إلا صائمًا ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب ؛ احتشامًا منه أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت المدرسة كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدَرٍ ، حتى لو غرز فىَّ إبرة - مثلا - لعلى كنت لا أحسّ بها ، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة[1] ، فكما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتى ، وغير مرة رأيت منه هذا عيانًا ، وكنت أفكر فى نفسى كثيرًا أنه لو بعث الله فى وقتى رسولاً إلى الخلق هل يمكننى أن أزيد من حشمته على قلبى فوق ما كان منه ، رحمه الله ، فكان لا يتصوَّر لى أن ذلك ممكن ، ولا أذكر أنى فى طول اختلافى إلى مجلسه ، ثم كونى معه بعد حصول الوصلة ، أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض ، إلى أن خرج رحمه الله من الدنيا .

---

(١) أى : الواقعة .

أخبرنا حمزة بن يوسف السهمى الجرجانى ، رحمه الله ، قال : أخبرنا محمد بن أحمد العبدى ، قال : أخبرنا أبو عوانة ، قال : حدثنا يونس ، قال : حدثنا خلف بن تميم أبو الأحوص ، عن محمد بن النضر الحارثى ، قال : أوحى الله سبحانه ، إلى موسى عليه السلام :

كن يقظانًا .. مرتادًا[١] لنفسك أخدانًا . وكلُّ خدن لا يؤاتيك[٢] على مسرَّة فاقصه[٣]. ولا تصحبه ؛ فإنه يقسى قلبك ، وهو لك عدو ، وأكثر من ذكرى تستوجب على شكرى والمزيد من فضلى .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت عبدالله بن المعلم يقول : سمعت أبا بكر الطمستانى يقول :

اصحبوا مع الله ، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله ، لتوصلكم بركات صحبتهم إلى صحبة الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) طالبًا .

(٢) يوافقك ويطيعك .

(٣) فأبعده وفى نسخة فارفعه .

باب التوحيد

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[١] .

أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك ، رضى الله عنه ، قال : حدثنا أحمد بن محمود بن خرزاذ قال : حدثنا مسيح بن حاتم العكى قال : حدثنا الحجبى عبدالله بن عبدالوهاب قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن سعيد بن سعد بن حاتم العتكى ، عن أبى صدقة : عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرًا قط إلا التوحيد ، فقال لأهله : إذا مت فأحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذروا نصفى فى البرّ ونصفى فى البحر فى يوم ريح . ففعلوا ... فقال الله عزّ وجلّ للريح : أدّى ما أخذتِ ، فإذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : استحياءً منك ، فغفر له » ..

التوحيد : هو الحكم بأن الله[٢] واحد ، والعلم بأن الشىء واحد أيضًا توحيد ، ويقال[٣]: وحدته : إذا وصفته بالوحدانية ، كما يقال : شجعت فلانا إذا نسبته إلى الشجاعة ، يقال فى اللغة : وَحَد يحد فهو واحد ووَحْد ، ووحيد ؛ كما يقال : فَرَد فهو فارد ، وفَرْد ، وفريد .

وأصل أحد « وحد » فقلبت الواو همزة ، والواو المفتوحة قد تقلب همزة ، كما تقلب المكسورة والمضمومة ، ومنه امرأة أسماء ، بمعنى وسماء ، من الوسامة ، ومعنى كونه ، سبحانه ، واحدًا على لسان العلم ، قيل : هو الذى لا يصحّ فى وصفه الوضع والرفع ، بخلاف قولك : إنسان واحد ؛ لأنك تقول إنسان بلا يد ولا رجل ، فيصح رفع شىء منه ، والحق ، سبحانه ، أحدىّ الذات ، بخلاف الاسم الجملة[٤] الحاملة .

وقال بعض أهل التحقيق فى معنى أنه واحد : نفى التقسيم لذاته ، ونفى التشبيه عن حقه وصفاته ، ونفى الشريك معه فى أفعاله ومصنوعاته .

---

(١) آية ١٦٣ من سورة البقرة .

(٢) وفى بعض النسخ « الشىء » .

(٣) أى فى اللغة .

(٤) قال الإمام العروسى : أى الاسم الموضوع للدلالة على جملة مركبة من حيوانية وناطقية وحاملة لأجزاء تركبت منها الشخصية التى هى تحت النوعية .

والتوحيد ثلاثة :

توحيد الحق للحق ، وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد .

والثانى : توحيد الحق ، سبحانه ، للخلق ، وهو حكمه ، سبحانه : بأن العبد موحد ، وخلقه توحيد العبد .

والثالث : توحيد الخلق للحق ، سبحانه ، وهو علم العبد بأن الله ، عز وجل ، واحد ، وحكمه وإخباره عنه بأنه واحد .

فهذه جملة فى معنى التوحيد على شرط[1] الإيجاز والتحديد .

واختلفت عبارات الشيوخ عن[2] معنى التوحيد : سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى رحمه الله ، يقول سمعت محمد بن عبدالله بن شاذان يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول : وقد سئل عن التوحيد ، فقال : أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج[3]، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلةُ كلِّ شىء صَنَعه ، ولا علة لصُنعه ، ومهما تصور فى نفسك شىءٌ فالله بخلافه .

وسمعته يقول : سمعت أحمد بن محمد بن زكريا يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول سمعت عبدالله بن صالح يقول : قال الجريرى : ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد .

وسئل الجنيد عن التوحيد فقال : إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته بكمال[4] أحديته أنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد ، بنفى[5] الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[6]..

وقال الجنيد : إذا تناهت عقول العقلاء فى التوحيد تناهت إلى الحيرة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا الحسين بن مقسم يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول ذلك ، وسئل الجنيد عن التوحيد ، فقال :

معنى تضمحل فيه الرسوم ، وتندرج فيه العلوم ويكون الله تعالى كما لم يزل[7] وقال

---

(١) أى طريقة .

(٢) وفى نسخة « فى » .

(٣) طباع .

(٤) أى مع كمال .

(٥) أى مع نفى .

(٦) آية ١١ من سورة الشورى .

(٧) قال الشيخ زكريا « أى هو معنى يخلقه الله فى قلب الموحد العارف به ويغلب على قلبه حتى لا يرى غيره تعالى كما كان فى الأزل » .

الحصرى : أصولنا فى التوحيد خمسة أشياء .

رفع الحدث[١]، وإفراد القدم[٢] وهجر الإخوان ، ومفارقة الأوطان ، ونسيان ما عُلم وجُهل[٣].

سمعت منصور بن خلف المغربى يقول كنت[٤] فى صحن « الجامع » ببغداد [يعنى جامع المنصور] والحصرىّ يتكلم فى التوحيد ، فرأيت ملكين يعرجان إلى السماء ، فقال أحدهما لصاحبه : الذى يقول هذا الرجل عِلم التوحيد والتوحيد غيرُه ، يعنى [٥] كنت بين اليقظة والنوم .

وقال فارس . التوحيد هو إسقاط الوسائط عند غلبة الحال والرجوع إليها عند الأحكام ، وأن الحسنات لا تغير الأقسام من الشقاوة والسعادة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر بن شاذان يقول : سمعت الشبلى يقول : التوحيد : صفة الموحد حقيقة وحلية الموحِّد رسمًا .

وسئل الجنيد عن توحيد الخاصّ فقال : أن يكون العبد شبحًا[٦] بين يدى الله ، سبحانه ، تجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته ، فى لجج بحار توحيده ، بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته ، فى حقيقة قربه بذهاب حسّه وحركته ، لقيام الحق ، سبحانه له فيما أراد منه ، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوّله ، فيكون كما كان قبل أن يكون[٧].

وسئل البوشنجى عن التوحيد فقال : غير مشبه الذوات ولا منفى الصفات .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت أبا الحسين العنبرى يقول : سمعت سهل بن عبدالله يقول ، وقد سئل عن ذات الله ، عزّ وجلّ ، فقال : ذات الله تعالى موصوفة بالعلم ، غيرُ مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حدّ ولا إحاطة ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهرًا فى ملكه وقدرته ، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ؛

---

(١) أى الإعراض عن غير الله .

(٢) أى كمال الاشتغال بالله .

(٣) المراد بالجهل الإعراض عن المعلوم .

(٤) أى بين اليقظة والنوم .

(٥) أى بقوله « كنت » .

(٦) أى شخصًا ملقى .

(٧) والمراد ، كما قال الإمام الأنصارى ، أن حق العبد أن يكون راضيًا بما يجريه الله عليه مما يرضاه له وتشهد بصحته الشريعة ، وربه – حينئذ – لكمال حفظه ومحبته له لا يجرى عليه إلا ما ينفعه .

فالقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

وقال الجنيد : أشرف كلمة فى التوحيد : ما قاله أبو بكر الصّديق ، رضى الله عنه : سبحانه من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

قال الأستاذ أبو القاسم : ليس يريد الصّديق ، رضى الله عنه ، أنه لا يعرف ؛ لأن عند المحققين : العجز عجز عن الموجود ، دون المعدوم ، كالمقعد عاجزٌ عن قعوده ؛ إذ ليس بكسب له ولا فعل ، والقعود موجود فيه ، كذلك العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه ؛ لأنها ضرورية .

وعند هذه الطائفة المعرفة به سبحانه فى الانتهاء ضرورية .

فالمعرفة الكسبية فى الابتداء ، وإن كانت معرفة على التحقيق ، فلم يعدّها الصديق رضى الله عنه شيئًا بالإضافة إلى المعرفة الضرورية ، كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أحمد بن سعيد البصرى بالكوفة يقول : سمعت ابن الأعرابى يقول : قال الجنيد : التوحيد الذى انفرد به الصوفية هو : إفراد القدم عن الحدث[١] والخروج عن الأوطان ، وقطع المحاب[٢] وترك ما علم وجهل ، وأن يكون الحق ، سبحانه ، مكان الجميع .

وقال يوسف بن الحسين : من وقع فى بحار التوحيد لا يزداد على مر الأوقات إلا عطشًا :

وقال الجنيد : علم التوحيد مباين لوجوده ، ووجوده مفارق[٣] لعلمه .

وقال الجنيد أيضًا : علم التوحيد طوى بساطه منذ عشرين سنة ، والناس يتكلمون فى حواشيه !! .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن أحمد الأصبهانى يقول : وقف رجل على الحسين بن منصور ، فقال : من الحق الذى يشيرون إليه ؟ فقال : معل الأنام ولا يعتل[٤] .

---

(١) أى الحدوث .
(٢) أى محبوبات النفوس .
(٣) مباين .
(٤) أى الذى وجوده علة كل موجود ولا علة لوجوده .

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبدالله يقول : سمعت الشبلى يقول : من اطلع على ذرّة من علم التوحيد ضعف عن حمل بقة[١] لثقل ما حمله .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سئل الشبلى ؛ فقيل له أخبرنا عن توحيد مجرّد[٢] ، وبلسان حق مفرد .

فقال : ويحك !! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد ، ومن أشار[٣] إليه فهو ثنوى[٤] ، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن ، ومن نطق فيه[٥] فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن توهم أنه واصل فليس له حاصل ، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ، ومن تواجد فهو فاقد ، وكل ماميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم ، محدَث مصنوع مثلكم .

وقال يوسف بن الحسين : توحيد الخاصة أن يكون بسره ووجده وقلبه كأنه قائم بين يدى الله تعالى يجرى عليه تصاريف تدبيره وأحكام قدرته فى بحار توحيده[٦] بالفناء عن نفسه وذهاب حسه ، بقيام الحقّ سبحانه له فى مراده منه ، فيكون كما هو قيل أن يكون فى جريان حكمه سبحانه عليه .

وقيل : التوحيد للحق[٧] سبحانه ، والخلق[٨] طفيلى .

وقيل : التوحيد : إسقاط الياءات ؛ لا تقول لى بى ومنىٍّ وإلىّ .

وقيل : لأبى بكر الطمستانى : ما التوحيد ؟ فقال ، توحيد ، وموحِّد ، وموحَّد ، هذه ثلاثة .

قال رويم : التوحيد هو آثار البشرية وتجرد الألوهية .

سمعت أبا على الدقاق يقول فى آخر عمره ، وكان قد اشتدت به العلة ، فقال : من أمارات التأييد حفظ التوحيد فى أوقات الحكم ، ثم قال ، كالمفسر لقوله مشيرا إلى ما كان من حاله ، هو : أن يقرضك بمقاريض القدرة فى إمضاء الأحكام قطعةً قطعةً وأنت شاكر حامد .

---

(١) وفى نسخة « نفسه » .
(٢) خالص .
(٣) أى أجاب بالإشارة .
(٤) ثنوى : نسبة إلى « اثنين » أى فهو مدرك نفسه وربه فلم يكمل استغراقه ، فلم يكمل توحيده .
(٥) أى فى الجواب .
(٦) أى مع الفناء .
(٧) أى صفة قديمة له .
(٨) أى والتوحيد فى الخلق طفيلى أى حادث كائن بعد أن لم يكن .

وقال الشبلى : ما شم روائح التوحيد من تصور عنده التوحيد .

وقال أبو سعيد الخراز : أول مقام لمن وجد علم التوحيد ، وتحقق بذلك ، فناء ذكر الأشياء عن قلبه ، وانفراده بالله عزّ وجلّ .

وقال الشبلى لرجل : أتدرى لم لا يصح توحيدك ؟ .

فقال : لا !! فقال : لأنك تطلبه بك .

وقال ابن عطاء : علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد ، وهو أن يكون القائم به واحدًا .

ويقال من الناس من يكون مكاشفًا بالأفعال ، يرى الحادثات بالله تعالى ، ومنهم من هو مكاشف بالحقيقة ، فيضمحل إحساسه بما سواه ، فهو يشاهد الجمع سرا بسرّ ، وظاهره بوصف التفرقة .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت على بن محمد القزوينى يقول : سمعت القنفذ يقول : سئل الجنيد عن التوحيد ، فقال سمعت قائلاً يقول :

وغنّى لى من قلبى
وغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا
وكانوا حيثما كنا

فقال السائل : أهَلك القرآن والأخبار ؟! .

فقال : لا ، ولكن الموحِّد يأخذ أعلى التوحيد من أدنى الخطاب وأيسره .

باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِين تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾[1] .

يعني : طيبة نفوسهم ، ببذلهم مُهجهم لا يثقل عليهم رجوعهم إلى مولاهم .

أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهاني قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن عقبة الشيباني بالكوفة قال : حدثنا الخضر بن أبان الهاشمي قال : حدثنا أبو هدبة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ .

« إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت ، وإن مفاصله ليسلِّم بعضها على بعض ؛ تقول : عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة » .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال : حدثنا أبو العباس الأصم قال : حدثنا الخضر ابن أبان الهاشمي قال : حدثنا سوار قال : حدثنا جعفر ، عن ثابت ، عن أنس :

« أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت ، فقال : كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله تعالى وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : شيئان لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف » .

وأعلم أن أحوالهم في حال النزع مختلفة ؛ فبعضهم الغالب عليه الهيْبَة ، وبعضهم الغالب عليه الرجاء ، ومنهم من كشف له في تلك الحالة ما أوجب له السكون ، وجميل الثقة .

حكى أبو محمد الجريري قال : كنت عند الجنيد في حال نزعه ، وكان يوم الجمعة ، ويوم نيروز ، وهو يقرأ القرآن ، فختمه . فقلت : في هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ .

فقال : ومنْ أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي .

سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول بلغني عن أبي محمد الهروي أنه قال : مكثت عند الشبلي الليلة التي مات فيها فكان يقول طول ليلته هذين البيتين :

---

(١) آية ٣٢ من سورة النحل .

كــلُّ بيت[١] أنـت سـاكنـه غـير محتـاج إلى السـرُج
وجهـك المـأمـول حجتنـا يـوم تـأتى النـاس بـالحجـج

وحكى عن عبد الله بن منازل أنه قال : إن حمدون القصار أوصى إلى أصحابه أن لا يتركوه فى حال الموت بين النسوان .

وقيل لبشر الحافى ، وقد احتضر : كأنك يا أبا نصر تحبّ الحياة ؟

فقال : القدوم على الله ، عزّ وجلّ ، شديد .

وقيل : كان سفيان الثورى إذا قال له بعض أصحابه إذا سافر : أتأمر بشغل ؟؟ .

يقول : إن وجدتَ الموتَ فاشتره لى !.

فلما قربت وفاته كان يقول : كنا نتمناه .. فإذا هو شديد !! .

وقيل : لما حضرت الحسن بن على بن أبى طالب الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ .

فقال : أقدم على سيد لم أره .

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزناه !!

فقال : بل وا طرباه .. غدا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه .

وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك . وقال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

وقيل : كان مكحول الشامى الغالب عليه الحزن ، فدخلوا عليه فى مرض موته وهو يضحك ، فقيلَ له فى ذلك ، فقال : ولم لا أضحك وقد دنا فراق ما كنت أحذره ، وسرعة القدوم على ما[٢] كنت أرجوه وآمله .

وقال رويم : حضرتُ وفاة أبى سعيد الخراز ، وهو يقول فى آخر نفسه :

حنينُ قلوب العارفين إلى الذكر وتـذكـارهم وقت المناجـاة للسر
أديـرت كئوس للمنـايـا عليهم فأغْفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السكر
همُـومـهـم جَـوَّالـة بمعـسكـر به أهل ودّ الله كالأنجم الزُّهـر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبّه وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عَرَّسـوا[٣] إلا بقرب حبيبهم وما عَرَّجوا عن مس بؤس ولا ضر

(١) يريد به قلب المؤمن .
(٢) وفى نسخة « من » .
(٣) أى نزلوا فى سفرهم .

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت . فقال : لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقًا .

وقال بعضهم وقد قربت وفاته : يا غلام اشدد كتافي وعَفِّر خدى ، ثم قال : دنا الرحيل ولا براءة لى من ذنب ، ولا عذر أعتذر به ، ولا قوة أنتصر بها .. أنت لى ، أنت لى ..

ثم صاح صيحة ومات ، فسمعوا صوتًا[1] : « استكان العبدُ لمولاه ، فقبله » .

وقيل لذى النون المصرى عند موته : ما تشتهى ؟ قال أن أعرفه قبل موتى بلحظة .

وقيل لبعضهم وهو فى النزع : قل الله ، فقال : إلى متى تقولون : قل الله ، وأنا محترق بالله ؟!!.

وقال بعضهم : كنت عند ممشاد الدينورى ، فقدم فقير وقال السلام عليكم ، فردوا عليه السلام ، فقال : هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ فأشاروا عليه بمكان ، وكان ثَمَّ عين ماء .. فجدَّد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله تعالى ، ومضى إلى المكان الذى أشاروا إليه .. ومد رجليه ، ومات .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : كان أبو العباس الدينورى يتكلم يوما فى مجلسه .. فصاحت امرأة تواجدًا ، فقال لها : موتى .. فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت : قد متٌّ . ووقعت ميتة .

وقال بعضهم : كنت عند ممشاد الدينورى عند وفاته ، فقيل له : كيف تجد العلة ؟!. فقال سلوا العلة عنى كيف تجدنى ، فقيل له . قل لا إله إلا الله . فحوّل وجهه إلى الجدار وقال : أفنيت كُلِى بكلك هذا جزاء من يحبك .

وقيل لأبى محمد الدبيلى ، وقد حضرته الوفاة ، قل : لا إله إلا الله .

فقال هذا شىء قد عرفناه ، وبه نفنى ، ثم أنشأ يقول :

تسربل ثوبُ النية لما هويتُه ... وَصدَّ ولم يرض بأن أكُ عبده

وقيل للشبلى عند وفاته : قل لا إله إلا الله . فقال :

قال سلطان حبه ... أنا لا أقبل الرِّشا
فسلوه بحقه[2] ... لِمَ بقتلى تحرّشا

(١) لقائل يقول .

(٢) وفى نسخة « فديته » .

سمعت محمد بن أحمد الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على التميمى يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول : سمعت بعض الفقراء يقول : لما مات[١] يحيى الاصطخرى جلسنا حوله ، فقال له رجل منا : قل أشهد أن لا إله إلا الله ، فجلس مستويًا .. ثم أخذ بيد واحد منا ، وقال له : قل أشهد أن لا إله إلا الله .. ثم أخذ بيد آخر .. حتى عرض الشهادة على جميع الحاضرين ، ثم مات .

ويحكى عن فاطمة أخت أبى علىّ الروذبارى ، أنها قالت : لما قرب أجل أخى أبى على الروذبارى ، وكان رأسه فى حجرى ، فتح عينيه ، وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت .. وهذه الجنان قد زُينت ، وهذا قائل يقول لى : يا أبا على قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها .. ثم أنشأ يقول :

وحقّك لا نظرتُ إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذِّبى بفتورِ لحظٍ ... وبالخدّ المورد من جناكا

ثم قال : يافاطمة ، الأول[٢] ظاهر ، والثانى فيه إشكال[٣] .

سمعت بعض الفقراء يقول : لما قربت وفاة أحمد بن نصر ، رحمه الله تعالى ، قال له واحد : قل أشهد أن لا إله إلا الله فنظر إليه وقال له : لا تترك الحرمة[٤] (بالفارسية « بى حرمتى مكن ») .

وقال بعضهم : رأيت فقيرًا يجود بنفسه غريبًا .. والذباب على وجهه ، فجلست أذبُّ الذباب عن وجهه .. ففتح عينيه ، وقال : من هذا ؟ أنا منذ كذا سنة فى طلب وقت يصفو لى فلم يتفق إلا الآن .. جئت أنت توقع نفسك فيه ، مرّ عافاك الله .

وقال أبو عمران الاصطخرى : رأيت أبا تراب فى البادية قائمًا ميتًا لا يمسكه شىء .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : كان سبب وفاة أبى الحسين النورى أنه سمع هذا البيت .

لازلت أنزل فى ودادك منزلا ... تتحير الألبابُ عند نزوله

فتواجد النورى وهام فى الصحراء فوقع فى أجمه قصب قد قطعت وبقى أصولها مثلُ

---

(١) أى أشرف على الموت .
(٢) من البيتين .
(٣) أى على من لم يعرف المراد به ويتوهم أنه راجع إلى ربه .
(٤) أى الاحترام .

السيوف ، فكان يمشي عليها ويعيد هذا البيت إلى الغداة والدم يسيل من رجليه .. ثم وقع مثل السكران ، فتورّمت قدماه . ومات .

وحكى أنه قيل له عند النزع : قل لا إله إلا الله ، فقال أليس إليه أعود .

وقيل : مرض إبراهيم الخوَّاص فى المسجد الجامع : « بالرى » وكانت به علة الإسهال ، فكان إذا قام مجلساً يدخل الماء .. ويتوضأ . فدخل الماء مرّة فخرجت روحه .

سمعت منصورًا المغربى يقول : دخل عليه[1] يوسف بن الحسين عائداً له بعد ما أتى عليه أيامٌ لم يعده ، ولم يتعهده ، فلما رآه ، قال للخواص : أتشتهى شيئًا ؟ .

قال : نعم . قطعة كبد مشوى .

قال الأستاذ أبو القاسم : لعلّ الإشارة فيه أنه أراد : أشتهى قلبًا يرقى الفقير ، وكبدًا تشتوى وتحترق لغريب ، لأنه كالمستجفى ليوسف بن الحسين ؛ حيث لم يتعهده .

وقيل : كان سبب موت بن عطاء أنه أدخل مرة على الوزير ، فكلمه الوزير بكلام غليظ .

فقال له ابن عطاء : اهدأ يارجل !! فأمر . فضُرب بخفه على رأسه فمات منه[2] .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على التميمى يقول : سمعت أبا بكر الدقى يقول : كنا عند أبى بكر الزقاق بالغداة ، فقال : إلهى ، كم تبقينى هاهنا فما بلغ الغداة الأولى حتى مات .

وحكى عن أبى على الروذبارى أنه قال : رأيت فى البادية حَدَثا ، فلما رآنى قال : أما يكفيه أن شغفنى بحبه حتى علنى ، ثم رأيته يجود بروحه ، فقلت له : قل لا إله إلا الله ، فأنشأ يقول :

أيا من ليس لى عنه ... وإن عذبنى بدّ
ويا من نال من قلبى ... منالا ما له حد

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله ، فقال : ما نسيتُه فأذكره !! وقال :

حاضر فى القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره
فهو مولاى ومعتمدى ... ونصيبى منه أوفره

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على التميمى يقول :

---

(١) أى على الخواص فى مرضه .

(٢) وفى نسخة « حتى مات » .

سألت جعفر بن نصير بكران الدينوري ، وكان يخدم الشبلي ، ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال لي عليَّ درهم مظلمة ، وقد تصدَّقت عن صاحبه بألوف ، فما على قلبي شغل أعظم منه ، ثم قال : وضئني للصلاة ، ففعلت ، فنسيت تخليل لحيته ، وقد أمسكَ على لسانه ، فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ، ثم مات ، فبكى جعفر وقال : ما تقولون في رجل لم يفته حتى في آخر عمره أدب من آداب الشريعة .

سمعت عبد الله بن يوسف الاصبهاني يقول : سمعت أبا الحسن بن عبد الله الطرسوسي يقول : سمعت علوشًا الدينوري يقول : سمعت المزين الكبير يقول : كنت بمكة - حرسها الله تعالى - فوقع بي انزعاج . فخرجت أريد المدينة . فلما وصلت إلى بئر ميمونة إذا أنا بشاب مطروح ، فعدلت إليه وهو ينزع ؛ فقلت له : قل لا إله إلا الله .. ففتح عينيه ؛ وأنشأ يقول :

أنا إن مت فالهوى حشوَ قلبي ... وبداء الهوى تموت الكرام

فشهق شهقة ، ثم مات ، فغسلته ، وكفنته ، وصليت عليه ، فلما فرغت من دفنه سكن ما كان بي من إرادة السفر ، فرجعت إلى مكة .

وقيل لبعضهم : أتحبُّ الموت ؟ فقال : القدوم على من يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يُؤمن شره .

وحكي عن الجنيد أنه قال : كنت عند أستاذي ابن الكرنبي ، وهو يجود بنفسه ، فنظرت إلى السماء[1] فقال : بعد ، ثم نظرت إلى الأرض فقال : بعد ، يعني : أنه أقرب إليك من أن تنظر إلى السماء أو إلى الأرض ، بل هو وراء المكان[2] .

سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : سمعت أبا نصر الطوسي يقول : سمعت بعض أصحابنا يقول : قال أبو يزيد عند موته : ما ذكرتك إلا عن غفلة ، ولا قبضتني إلا على فترة .

سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت الوجيهي يقول : سمعت أبا علي الروذباري يقول : دخلت مصر فرأيت الناس مجتمعين ، فقالوا : كنا في جنازة فتى سمع قائلا يقول :

كبرت همة عبد طمعت في أن تراكا

فشهق شهقة ومات .

---

(١) أي داعيًا له .
(٢) أي قبل المكان .

وقيل : دخل جماعة على « ممشاد الدينورى » فى مرض موته ، فقالوا : ما فعل الله بك وما صنع ؟ فقال : منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى ، وقالوا اه عند النزع : كيف تجد قلبك ؟ فقال : منذ ثلاتين سنة فقدت قلبى .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على التميمى يقول : قال الوجيهى : كان سبب موت ابن بنان أنه ورد على قلبه شىء ، فهام على وجهه ، فلحقوه فى وسط متاهة بنى إسرائيل فى الرمل ، ففتح عينيه وقال : ارتعْ[1] ، فهذا مرتع الأحباب . وخرجت روحه .

وقال أبو يعقوب النهر جورى : كنت بمكة ، فجاءنى فقير معه دينار ، فقال : إذا كان غدا فأنا أموت ، فأصلح لى بنصف هذا قبرًا ، والنصف الثانى لجهازى . فقلت فى نفسى : دوخل الشاب[2] ؛ فإنه قد أصابته فاقة الحجاز ، فلما كان الغد جاء ؛ ودخل الطواف ، ثم مضى وامتد على الأرض ، فقلت : هو ذا يتماوت ، فذهبت إليه ، فحركته فإذا هو ميت . فدفنته كما أمر .

وقيل : لما تغيرت الحال على أبى عثمان الحيرى مزق ابنه أبو بكر قميصًا ففتح أبو عثمان عينيه وقال : يابنى . إن خلاف السنة فى الظاهر من رياء فى الباطن .

وقيل : دخل ابن عطاء على الجنيد . وهو يجود بنفسه ؛ فسلم . فأبطأ فى الجواب ، ثم رد ، وقال : اعذرنى ، فلقد كنت فى وردى ثم مات .

وحكى أبو على الروذبارى قال : قدم علينا فقير ، فمات ، فدفنته وكشفت[3] عن وجهه لأضعه فى التراب ليرحم الله عزّ وجلّ غربته ، ففتح عينيه وقال : يا أبا على ، أتدللنى[4] بين يدى من دَللنى ؟ ! فقلت : ياسيدى أحياة بعد موت ؟ فقال لى : بلى أنا حىّ ، وكل محبّ لله ، عزّ وجلّ ، حىّ لأنصرنك غداً بجاهى ياروذبارى .

ويحكى عن ابن سهل الأصفهانى أنه قال : أترون أنى أموت كما يموت الناس ، مَرض وعيادة ، وإنما أدعى ، فيقال : يا علىُّ ، فأجيب .

فكان يمشى يومًا ، فقال : « لبيك » . ومات .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول سمعت أبا الحسن المزين قال : لما مرض أبو يعقوب النهر جورى مرض وفاته ، قلت له ، وهو فى

---

(١) أى تنعم وتلذذ .
(٢) أى خولط فى عقله .
(٣) فى القبر .
(٤) أنكر منى .

النزع : قل لا إله إلا الله ، فتبسم إلى وقال : إياىّ تعنى ؟ وعزة من لا يذوق الموت ما بينى وبينه إلا حجّاب العزة . وانطفأ من ساعته ، فكان المزين يأخذ بلحيته[١] ويقول : حجام مثلى يلقن أولياء الله الشهادة ، واخجلتاه منه !! وكان يبكى إذا ذكر هذه الحكاية .

وقال أبوحسين المالكى : كنت أصحب خير النساج سنين كثيرة ، فقال لى قبل موته بثمانية أيام : أنا أموت يوم الخميس وقت المغرب ، وأدفن يوم الجمعة قبل الصلاة ، وستنسى هذا ، فلا تنس .

قال أبو الحسين : فأنسيته إلى يوم الجمعة فلقنى من أخبرنى بموته ، فخرجت لأحضر جنازته ، فوجدت الناس راجعين يقولون : يُدفن بعد الصلاة .

فلم أنصرف ، وحضرت ، فوجدت الجنازة قد أخرجت قبل الصلاة كما قال ، فسألت من حضر وفاته ، فقال : إنه غشى عليه ، ثم أفاق ، ثم التفت إلى ناحية البيت وقال :

قف عافاك الله ، فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور ، الذى أمرت به لا يفوتك ، والذى أمرت به يفوتنى ، فدعا بماء فجدد وضوءه وصلى ، ثم تمدد ، وغمض عينيه ، فروّى فى المنام بعد موته ، فقيل له : كيف حالك ! فقال : لا تسل ، ولكنى تخلصت من دنياكم الوضرة .

وذكر أبو الحسين الحمصى[٢] « مصنف كتاب بهجة الأسرار » أنه لما مات سهل بن عبد الله انكبّ الناس على جنازته ، وكان فى البلد يهودى نيف على السبعين ، فسمع الضجة ، فخرج لينظر ما كان ، فلما نظر إلى الجنازة صاح وقال : أترون ما أرى ؟ فقالوا : لا ، ماذا ترى ؟ فقال أرى أقوامًا ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة ، ثم إنه تشهد ، وأسلم ، وحسن إسلامه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا جعفر بن قيس – بمصر – يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : كنت بمكة فجزت يومًا بباب « بنى شيبة » فرأيت شابا حسن الوجه ميتًا ، فنظرت فى وجهه فتبسم فى وجهى وقال لى : يا أبا سعيد ، أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا ، وإنما ينقلون من دار إلى دار .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الجريرى يقول : بلغنى أنه قيل لذى النون المصرى عند النزع : أوصنا ، فقال : لاتشغلونى فإنى متعجب من محاسن لطفه .

---

(١) بلحية نفسه .

(٢) ابن جهضم .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول سمعت أبا عثمان الحيرى يقول : سئل أبو حفص فى حال وفاته : ما الذى تعظنا به ؟ فقال : لست أقوى على القول ، ثم رأى من نفسه قوة ، فقلت له : قل حتى أحكى عنك .

فقال : موعظتى : الانكسار بكلِّ القلب على التقصير .

باب المعرفة بالله

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[1] . جاء فى التفسير : وما عرفوا الله حق معرفته .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله العدل ، قال : حدثنا محمد بن القاسم العتكى ، قال : حدثنى محمد بن أشرس ، قال : حدثنا سليمان بن عيسى الشجرى عن عباد بن كثير ، عن حنظلة بن أبى سفيان ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ قال :

« إن دعامة البيت أساسهُ ، ودعامة الدين المعرفة بالله تعالى ، واليقينُ والعقل القامع فقلت : بأبى أنت وأمى ما العقل القامع ؟ قال الكف عن معاصى الله ، والحرص على طاعة الله » .

قال الأستاذ : المعرفة على لسان العلماء هو : العلم ؛ فكل علم معرفة ؛ وكل معرفة علم ؛ وكل عالم بالله عارف ؛ وكل عارف عالم وعند هؤلاء القوم المعرفة : صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ؛ ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ؛ ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ؛ ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله فى جميع أحواله ؛ وانقطع عنه هواجس نفسه ؛ ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبيا ومن آفات نفسه بريًّا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيًّا ؛ ودام فى السرّ مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثًا[2] من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك « عارفًا » وتسمى حالته « معرفة » .

وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربّه .

وقد تكلم المشايخ فى المعرفة ، فكلّ نطق بما وقع له ؛ وأشار إلى ما وجده فى وقته .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق ، رحمه الله يقول : من أمارات المعرفة بالله حصولُ الهيبة من الله ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

---

(١) آية ٩١ من سورة الأنعام .

(٢) أى ملهمًا .

وسمعته يقول : المعرفة توجب السكينة فى القلب كما أن العلم يُوجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أحمد بن محمد بن زيد يقول : سمعت الشبلى يقول : ليس لعارف علاقة[1] ، ولا لمحب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، ولا لخائف قرار ، ولا لأحد من الله فرار .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن محمد بن عبد الوهاب يقول : سمعت الشبلى يقول ، وقد سئل عن المعرفة ، فقال : أولها الله تعالى ، وآخرها مالا نهاية له .

وسمعته يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا العباس الدينورى يقول : قال أبو حفص : مذ عرفت الله تعالى ما دخل قلبى حق ولا باطل .

قال الأستاذ أبو القاسم : وهذا الذى أطلقه أبو حفص فيه طرف من الإشكال ، وأجلّ ما يحتمله : أنّ عند القوم المعرفة توجب غيبة العبد عن نفسه ، لاستيلاء ذكر الحق ، سبحانه ، عليه ، فلا يشهد غير الله ، عزّ وجلّ ، ولا يرجع إلى غيره ، فكما أن العقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكره فيما يسنح له من أمر ، أو يستقبله من حال ؛ فالعارف رجوعُه إلى ربه . فإذا لم يكن مشتغلاً إلا بربه لم يكن راجعاً إلى قلبه . وكيف يدخل المعنىْ قلب من لا قلب له . وفرق بين من عاش بقلبه وبين من عاش بربه عز وجل .

وسئل أبو يزيد عن المعرفة ، فقال :

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً ﴾[2] .

قال الأستاذ : هذا معنى ما أشار إليه أبو حفص .

وقال أبو يزيد : للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنه محيت رسومه[3] وفنيت هويته بهوية غيره[4] ، وغيبت آثاره بآثار غيره .

وقال الواسطى : لا تصح المعرفة وفى العبد استغناء بالله وافتقار إليه .

قال الأستاذ : أراد الواسطى بهذا : أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه ؛ لأنهما من صفاته ، والعارف محو فى معروفه[5] ، فكيف يصح له ذلك ، وهو لاستهلاكه

---

(١) أى : حظ .
(٢) آية ٣٤ من سورة النمل .
(٣) آثاره .
(٤) أى وجوده فى وجود الله .
(٥) وهو الله .

فى وجوده ، أو لاستغراقه فى شهوده إن لم يبلغ الوجود مختطف[١] عن إحساسه بكل وصف هو له .

ولهذا قال الواسطى أيضاً : من عرف الله تعالى انقطع ، بل خرس وانقمع .

قال ﷺ :

« لا أحصى ثناء عليك » .

هذه صفات الذين بعد مرماهم ، فأما من نزلوا عن هذا الحد فقد تكلموا فى المعرفة وأكثروا .

أخبرنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازى قال : حدثنا عياش بن حمزة قال : سمعت أحمد بن أبى الحوارى قال : سمعت أحمد بن عاصم الأنطاكى يقول : من كان بالله أعرف كان له أخوف .

وقال بعضهم : من عرف الله تعالى تبرّم بالبقاء ، وضاقت عليه الدنيا بسعتها .

وقيل : من عرف الله صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كلُّ شيء ، وذهب عنه خوفُ المخلوقين ، وأنس بالله تعالى .

وقيل : من عرف الله ذهب عنه رغبة الأشياء ، وكان بلا فصل ولا وصل .

وقيل : المعرفة توجب الحياء والتعظيم ، كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم .

وقال رويم : المعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه .

وقال ذو النون المصرى : ركضت أرواح الأنبياء فى ميدان المعرفة فسبقت روح نبينا ، ﷺ ، أرواح الأنبياء عليهم السلام إلى روضة الوصال .

وقال ذو النون المصرى : معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك ، تخلقًا بأخلاق الله .

وسئل بن يزدانيار : متى يشهد العارفُ الحقَّ سبحانه ؟ فقال : إذا بدا الشاهد وفنى الشواهد[٢] وذهب الحواس واضمحل الإخلاص .

وقال الحسين بن منصور : إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى[٣] الله إليه بخواطره ، وحرس سرَّه أن يسنح فيه غير خاطر الحق .

---

(١) مغيب .

(٢) الإدراكات .

(٣) ألهم .

وقال : علامة العارف أن يكون فارغًا من الدنيا والآخرة .

وقال سهل بن عبد الله : المعرفة غايتها شيئان : الدهش ، والحيرة ..

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سعيد يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول : سمعت سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول : أعرف الناس بالله تعالى أشدهم تحيرًا فيه .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا عمر الأنطاكى يقول : قال رجل للجنيد : مِنْ أهل المعرفة أقوام يقولون إن ترك الحركات[1] من باب البرّ والتقوى !!.

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيم ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة .

وقيل لأبى يزيد : بماذا وجدت[2] هذه المعرفة ؟ .

فقال : ببطن جائع وبدن عار .

وقال أبو يعقوب النهر جورى : قلت لأبى يعقوب السوسى هل يتأسف العارف على شيء غير الله عز وجل ؟ فقال : وهل يرى غيره فيتأسف عليه ؟!

قلت : فبأى عين ينظر إلى الأشياء ؟ فقال : بعين الفناء والزوال .

وقال أبو يزيد : العارف طيار[3] ، والزاهد سيار .

وقيل : العارف تبكى عينه ويضحك قلبه .

وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤه[4] البرُّ والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالمطر ، يسقى ما يحب ، وما لا يحب .

وقال يحيى بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضى وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وثناؤه على ربه ، عز وجل .

وقال أبو يزيد : إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ماله .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت

---

(١) أى الأعمال : كالصلاة والصوم .
(٢) نلت .
(٣) سريع الرجوع إلى الله .
(٤) وفى نسخة يطؤها .

يوسف بن على يقول : لا يكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله طرفة عين .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت ابن عطاء يقول : المعرفة على ثلاثة أركان : الهيبة ، والحياء ، والأنس .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : قيل لذى النون المصرى : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى .

وقيل : العالم يقتدى به ، والعارف يهتدى به .

وقال الشبلى : العارف لا يكون لغيره لاحظًا ، ولا بكلام غيره لافظًا ، ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظًا .

وقيل : العارف أنس بذكر الله فأوحشه من خلقه ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلّ لله تعالى فأعزّه فى خلقه .

وقال أبو الطيب السامرِّى : المعرفة طلوع الحق على الأسرار بمواصلة الأنوار .

وقيل : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول .

وقال أبو سليمان الدارانى : إن الله تعالى يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلى .

وقال الجنيد : العارف من نطق الحقُّ عن سره وهو ساكت .

وقال ذو النون : لكل شىء عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالى .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت الوجيهى يقول : سمعت أبا على الرُّوذبارى يقول : سمعت رويمًا يقول : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين .

وقال أبو بكر الوراق : سكوت العارف أنفع ، وكلامه أشهى وأطيب .

وقال ذو النون : الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين .

وسئل الجنيد عن العارف ، فقال : لون الماء لون إنائه (يعنى أنه بحكم وقته) .

وسئل أبو يزيد عن العارف ، فقال : لا يرى فى نومه غير الله ، ولا فى يقظته غير الله ، ولا يوافق غير الله ، ولا يطالع غير الله تعالى .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن محمد الدمشقي يقول : سئل بعض المشايخ : بمَ عرفت الله تعالى ؟ .

فقال : بلعام لمعت بلسان مأخوذ عن التمييز المعهود ، ولفظة جرت على لسان هالك مفقود (يشير[١] إلى وجد ظاهر ويخبر عن سرّ ساتر هو هو بما أظهَرهُ ، وغيره بما أشكله[٢]) ثم أنشد :

نطقتُ بلا نطق هو النطق إنه
لك النطق لفظًا أو يَبين[٣] عن النطق
تراءيت كي أخفى[٤] وقد كنتَ خافيًا[٥]
وألمعتَ[٦] لي برقًا فأنطقت بالبرق

وسمعته يقول : سمعت علي بن بندار الصيرفي يقول : سمعت الجريري يقول : سئل أبو تراب عن صفة العارف ، فقال : الذي لا يكدِّره شيء ، ويصفو به كلُّ شيء .

وسمعته يقول : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : العارف تضيء له أنوار العلم فيبصر به عجائب الغيب .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : العارف مستهلك[٧] في بحار التحقيق ، كما قال قائلهم : المعرفة أمواج تغطُّ ، ترفع وتحط .

وسئل يحيى بن معاذ عن العارف ، فقال : رجل كائن بائن[٨] ، ومرة قال : كان فبان[٩] .

وقال ذو النون : علامة العارف ثلاثة : لا يطفئ نور معرفته نورَ ورعه ، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله عز وجل ، عليه على هتك أستار محارم الله .

وقيل : ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة ، فكيف عند أبناء الدنيا ؟!.

وقال أبو سعيد الخراز : المعرفة تأتي من عين الجود وبذل المجهود .

---

(١) أي هذا القائل .
(٢) أشكل أي ستره .
(٣) يظهر .
(٤) عن غيرك .
(٥) عني .
(٦) أظهرت .
(٧) غارق .
(٨) أي كائن مع الخلق ببدنه بعيد عنهم بقلبه .
(٩) أي وعبر مرة أخرى عن العارف بقوله : كان أي مع الخلق فبان أي ففارقهم .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت جعفرًا يقول : سئل الجنيد عن قول ذى النون المصرى فى صفة العارف .

« كان هاهنا فذهب » فقال الجنيد : العارف : لا يحصره حال عن حال[1] ، ولا يحجبه منزل عن التنقل فى المنازل ، فهو مع أهل كل مكان بمثل الذى هو فيه يجد مثل الذى يجدون ، وينطق فيها بمعالمها[2] لينتفعوا بها .

وسمعته يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول : سمعت محمد بن الفضل يقول : المعرفة حياة القلب مع الله تعالى .

وسمعته يقول : سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول : سمعت الكتانى يقول : سئل أبو سعيد الخراز : هل يصير العارف إلى حال يجفو[3] عليه البكاء ؟

فقال : نعم ، إنما البكاء فى أوقات سيرهم إلى الله تعالى ، فإذا نزلوا إلى حقائق القرب وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك .

---

(١) أى لا يتقيد بحال معين .

(٢) بأماراتها .

(٣) يجفو أى يبعد .

باب المحبة

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِه فَسَوْفَ يَأْتِى الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[1] .

أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين قال : حدثنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق قال : حدثنا السلمى قال : حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ .

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن لم يحب لقاء الله لم يحب[2] الله لقاءه » .

أخبرنا أبو الحسين على بن أحمد بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن عبيد الصفار البصرى قال : حدثنا عبد الله بن أيوب قال : حدثنا الحسن بن موسى قال : حدثنا الهيثم بن خارجة قال : حدثنا الحسن بن يحيى عن صدقة الدمشقى ، عن هشام الكتانى ، عن أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ ، عن جبريل عليه السلام ، عن ربه سبحانه وتعالى قال :

« من أهان لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما ترددت فى شىء كترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولابدّ له منه ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ما أفترضت عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، ومن أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا »[3] .

أخبرنا علىّ بن أحمد بن عبدان قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا عبيد بن شريك قال : أخبرنا يحيى ، قال : حدثنا مالك ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

---

(١) آية ٥٤ من سورة المائدة .

(٢) وفى رواية ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه والحديث أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم فى صحيحيهما والترمذى والنسائى عن عائشة وعن عبادة وقال الترمذى حديث صحيح .

(٣) وقد روى الحديث برواية أخرى فى صحيح البخارى (باب التواضع) « من عادى لى وليًا فقد أذنته بالحرب ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن استنصرنى لأنصرنه ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه » .

إذا أحبّ الله عز وجل ، العبد قال لجبريل : ياجبريل ، إنى أحب فلانا فأحبّه ؛ فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يضع له القبول فى الأرض[1] ، وإذا أبغض الله العبد قال مالك لا أحسبه إلا قال فى البغض مثل ذلك » .

والمحبة : حالة شريفة . شهد الحقُّ ، سبحانه ، بها للعبد ، وأخبر عن محبته للعبد ، فالحق : سبحانه ، يوصف بأنه يحب العبدَ ، والعبدُ يوصف بأنه يحب الحق سبحانه .

والمحبة : على لسان العلماء : هى الإرادة ، وليس مراد القوم بالمحبة الإرادة ؛ فإن الإرادة لا تتعلق بالقديم ، اللهمّ إلا أن تحمل على إرادة التقرب إليه والتعظيم له .

ونحن نذكر من تحقيق هذه المسألة طرفا إن شاء الله تعالى ، فمحبة الحقُّ سبحانه ، للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه ، كما أن رحمته له إرادة الإنعام ، فالرحمة أخصّ من الإرادة والمحبة أخصّ من الرحمة ، فإرادة الله تعالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام تسمى « رحمة » وإرادته لأن يخصه بالقربة والأحوال العلية تسمى « محبة » .

وإرادته ، سبحانه صفة واحدة ، فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أسماؤها ، فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى « غضبا » ، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى « رحمة » وإذا تعلقت بخصوصها تسمى « محبة » .

وقوم قالوا : محبة الله ، سبحانه ، للعبد ، مدحه له ، وثناؤه عليه بالجميل ، فيعود معنى محبته له ، على هذا القول ، إلى كلامه ، وكلامه قديم .

وقال قوم : محبته للعبد : من صفات فعله ، فهو إحسان مخصوص يلقى الله العبد به ، وحالة مخصوصة برقيه إليها ، كما قال بعضهم : إن رحمته بالعبد نعمة معه ، وقوم من السلف قالوا : محبته من الصفات الخبرية ، فأطلقوا اللفظ وتوقفوا عن التفسير .

فأما ماعدا هذه الجملة مما هو المعقول من صفات محبة الخلق ؛ كالميل إلى الشىء ، والاستئناس بالشىء ، وكحالة يجدها المحب مع محبوبة من المخلوقين ، فالقديم ، سبحانه . يتعالى عن ذلك .

وأما محبة العبد لله : فحالة يجدها من قلبه . تلطف عن العبارة[2] .

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، والإمام مسلم فى صحيحه أيضًا عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) أى يدق التعبير عنها .

وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم له ، وإيثار رضاه ، وقلة الصبر عنه . والاهتياج إليه ، وعدم القرار من دونه ، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه ، وليست محبة العبد له . سبحانه . متضمنة مَيْلًا ، ولا اختطاطاً ، كيف . وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والدرك[١] والإحاطة ، والمحب ، بوصف الاستهلاك[٢] فى المحبوب ، أولى منه بأن يوصف بالاختطاط[٣] ، ولا توصف المحبة بوصف ولا تحدّ بحدّ أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة والاستقصاء[٤] فى المقال عند حصول الإشكال [٥] ؛ فإذا زاد الاستعجام والاستبهام سقطت الحاجة إلى الاستغراق فى شرح الكلام .

وعبارات الناس عن المحبة كثيرة ، وتكلموا فى أصلها فى اللغة ، فبعضهم قال : الحبّ اسم لصفاء المودّة ؛ لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها : « حبب الأسنان » .

وقيل : الحباب : ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، فعلى هذا « المحبة » : غليان القلب وثورانه عند العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب .

وقيل : إنه مشتق من حباب الماء (بفتح الحاء) وهو : معظمه ، فسمى بذلك ؛ لأن المحبة غاية معظم ما فى القلب من المهمات .

وقيل : اشتقاقه من اللزوم والثبات ، يقال : أحب البعير . وهو : أن يبرك فلا يقوم ، فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه .

وقيل : الحب مأخوذ من الحب . وهو « القرط » قال الشاعر :

تبيتت الحيَّة النضناض[٦] منه   مكان الحب[٧] تستمع السرارا[٨]

وسمى القرط « حبا » ؛ إما للزومه للأذن ، أو لِقلقه . وكلا المعنيين صحيح فى الحب .

وقيل : هو مأخوذ من « الحبِّ » (جمع حبَّة) وحبة القلب : ما به قوامه ، فسمى الحبّ حبا باسم محله .

---

(١) أى الإدراك .

(٢) أى الاستغراق .

(٣) أى فى خطة تحيط به وبمحبته .

(٤) أى الاستغراق .

(٥) أى الاستعجام والاستبهام .

(٦) النضنضة : تحريك الحية لسانها .

(٧) القرط .

(٨) أى تسمع ما يسره ذلك الشخص من الغدر بها .

وقيل : الحَبّ ، والحُبّ كالعَمر والعُمر .

وقيل : هو مأخوذ من الحِبَّة (بكسر الحاء) وهو بذور الصحراء : فسمى الحب حبا ، لأنه لباب الحياة ، كما أن الحب لباب النبات .

وقيل : الحب : هى الخشبات الأربع التى توضع عليها الجرّة ، فسميت المحبة حبًا لأنه يتحمل عن محبوبه كل عزّ وذلّ .

وقيل : هو من الحب[1] الذى فيه الماء ، لأنه يمسك ما فيه ، فلا يسع فيه غير ما امتلأ به ، كذلك إذا امتلأ القلب بالحب فلا مساغ فيه لغير محبوبة .

وأما أقاويل الشيوخ فيه ، فقال بعضهم : المحبة : الميل الدائم بالقلب الهائم .

وقيل : المحبة : إيثار المحبوب على جميع المصحوب .

وقيل : موافقة الحبيب فى المشهد والمغيب .

وقيل : محو المحب لِصفاته ، وإثباتُ المحبوب بذاته .

وقيل : مواطأة القلب لمرادات الرب .

وقيل : خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة .

وقال أبو يزيد البسطامى : المحبة : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار قليل من حبيبك .

وقال سهل : الحبُّ : معانقة الطاعة ومباينة المخالفة .

وسئل الجنيد عن المحبة ، فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب .

أشار بهذا إلى استيلاء ذكر المحبوب ، حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا ذكر صفات المحبوب ، والتغافل بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها .

وقال أبو على الروذبارى : المحبّة : الموافقة .

قال أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شىء .

وقال الشبلى : سميت المحبة محبة ؛ لأنها تمحو من القلب ماسوى المحبوب .

وقال ابن عطاء : المحبة : إقامة العتاب على الدوام .

---

(١) أى الوعاء .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق ، رحمه الله يقول : المحبة : لذة ، ومواضع الحقيقة دَهَش .

وسمعته يقول : العشق : مجاوزة الحدّ فى المحبة ، والحقُّ ، سبحانه ، لا يوصف بأنه يجاوز الحدّ ، فلا يوصف بالعشق ، ولو جمع محابّ الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ذلك استحقاق قدر الحق سبحانه ، فلا يقال : إن عبدا جاوز الحد فى محبة الله . فلا يوصف الحق . سبحانه بأنه يعشق ، ولا العبد فى صفته سبحانه بأنه يعشق ، فنفى العشق ، ولا سبيل له إلى وصف الحق ، سبحانه ، لا من الحق للعبد ، ولا من العبد للحق ، سبحانه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت الشبلى يقول : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك .

وسمعته يقول : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت ابن عطاء يقول ، وقد سئل عن المحبة . فقال : أغضان تغرس فى القلب فتثمر على قدر العقول .

وسمعته يقول : سمعت النصر اباذى يقول : محبة توجب حقنَ الدماء ، ومحبةٌ توجب سفك الدماء .

وسمعته يقول : سمعت محمد بن على العلوى يقول : سمعت جعفرًا يقول : سمعت سمنونًا يقول : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبى ﷺ قال :
« المرء مع من أحب[1] » ، فهم مع الله تعالى :

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة المحبة مالا ينقص بالجفاء ، ولا يزيد بالبر ، وقال : ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده .

وقال الجنيد : إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب ، وفى معناه أنشد الأستاذ أبو عليّ :

إذا صفت المودةّ بين قوم ودام ودادهم سمج الثناء

وكان يقول : لا ترى أبًا شفيقاً يبجل ابنه فى الخطاب والناس يتكلفون فى مخاطبته والأب يقول : يافلان .

وقال الكتانى : المحبة : الإيثار للمحبوب .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا سعيد الأرجانى يقول : سمعت بندار بن الحسين

---

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى عن أنس رضى الله عنه وتمامه (.... وله ما اكتسب) .

يقول : رؤى مجنون بنى عامر فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ، وجعلنى حجة على المحبين .

وقال أبو يعقوب السوسى : حقيقة المحبة : أن ينسى العبد حظه من الله وينسى حوائجه إليه .

وقال الحسين بن منصور : حقيقة المحبة : قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : قيل للنصر اباذى : ليس لك من المحبة شىء ؟ فقال : صدقوا ، ولكن لى حسراتهم ، فهو ذا أحترق فيه .

وسمعته يقول : قال النصر اباذى : المحبة : مجانبة السُّلو على كلِّ حال . ثم أنشد :

ومن كان فى طول الهوى ذاق سلوةً ... فإنى من ليلى لها[1] غير ذائق
وأكثر شىء نلته من وصالها ... أمانى لم تصدق كلمحة بارق

وقال محمد بن الفضل: المحبة : سقوط كلّ محبة من القلب إلا محبة الحبيب .

وقال الجنيد : المحبة : إفراط المَيْل بلا نيل .

ويقال : المحبة : تشويش فى القلوب يقع من المحبوب .

ويقال : المحبة : فتنة تقع فى الفؤاد من المراد .

وأنشد ابن عطاء :

غرست لأهل الحبّ غصنا من الهوى ... ولم يك يدرى ما الهوى أحدٌ قبلى
فأورْق أغصاناً ، وأينع صبوة ... وأعقب لى مرًا من الثمر المحلى[2]
وكل جميع العاشقين هواهم ... إذا نسبوه كان من ذلك الأصلى

وقيل : الحب أوله ختل[3] وآخره قتل[4] .

سمعت الأستاذ أبا على ، رحمه الله ، يقول فى معنى قوله ﷺ : « حبّك للشىء يُعمى ويُصم »[5] .

---

(١) أى السلوة .

(٢) اليابس .

(٣) ختل : مخادعة : والمقصود أن يعامل الله عبده بالرفق .

(٤) أى فناء ، فناء عن النفس وأهوائها .

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى فى التاريخ وأبو داود فى السنن عن أبى الدرداء الخرائطى فى اعتلال القلوب عن أبى برزه بن عساكر عن عبد الله بن أنيس وقال السيوطى حديث حسن .

فقال يعمى عن الغير غيرة وعن المحبوب هيبة ، ثم أنشد :

إذا ما بدا لى تعاظمته فأَصْدِر[1] فى حال من لم يرد

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أحمد بن على يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت الحارس المحاسبى يقول : المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحِك ومالك ، ثم موافقتُك له سرًّا وجهرًا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبّه .

وسمعته يقول : سمعت أحمد بن على يقول : سمعت عباس بن عصام يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرى يقول : لا تصلح[2] المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : ياأنا .

وقال الشبلى : المحب إذا سكت هلك ، والعارف إن لم يسكت هلك .

وقيل : المحبة : نار فى القلب تحرق ماسوى مراد المحبوب .

وقيل : المحبة : بذل المجهود والحبيب يفعل ما يشاء .

وقال النورى : المحبة : هتك الأستار وكشف الأسرار .

وقال أبو يعقوب السوسى : لا تصحّ المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة .

وقال جعفر : قال الجنيد : دفع السريّ إلى رقعة ، وقال : هذه لك خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلو[3] ، فإذا فيها :

ولما ادَّعيتُ الحبَّ قالت : كذبتنى
فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا[4]
فما الحبّ حتى يلصق القلب بالحشا
وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحل[5] حتى لا يبقى لك الهوى
سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

(١) أصدر : أرجع .
(٢) وفى نسخة « تصح » .
(٣) أى حديث من أحاديث الصالحين العالية الرفيعة .
(٤) كواسيا : أى مكسوات باللحم .
(٥) تهزل وتضمحل .

وقال ابن مسروق : رأيت سمنونا يتكلم فى المحبة فتكسرت قناديل المسجد كلها .

سمعت محمد بن الحسن يقول : سمعت أحمد بن على يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك يقول : سمعت سمنونا ، وهو جالس فى المسجد يتكلم فى المحبة إذ جاء طير صغير فقرب منه ، ثم قرب .. فلم يزل يدنو حتى جلس على يده .. ثم ضرب بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم ، ثم مات .

وقال الجنيد : كلّ محبة كانت لغرض إذا زال الغرض زالت تلك المحبة .

وقيل : حبس الشبلّى فى « المارستان » ، فدخل عليه جماعة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : إنا محبوك يا أبا بكر ، فأقبل يرميهم بالحجارة ، ففروا ، فقال : إن ادعيتم محبتى فاصبروا على بلائى .

وأنشد الشبلى :

أيها السيد الكريم   حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفونى   أنت بما مر بى عليم

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت النهر جورى يقول : سمعت على بن عبيد يقول : كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته . فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ، ولسانه خارج ويقول : هل من مزيد .

وأنشدوا :

عجبت لمن يقول ذكرت إلفى   وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا   ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقًا   فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحبّ كأساً بعد كأس   فما نفد الشراب وما رويت

وقيل : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إنى إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حبّ الدنيا والآخرة ملأته من حبى .

ورأيت بخط الأستاذ أبى على الدّقاق ، رحمه الله : فى بعض الكتب المنزلة « عبدى ، أنا وحقك لك محب ، فبحقى كن لى محبا » .

وقال عبد الله بن المبارك : من أعطى شيئاً من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وقيل : المحبة : ما يمحو أثرك .

وقيل : المحبة : سُكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه .

ثم السكر الذى يحصل عند الشهود لا يوصف ، وأنشدوا :

فأسكر القومَ دَوْرُ كأس وكان سكرى من المدبر

وكان الأستاذ أبو على الدقاق ينشد كثيرًا :

لى سكرتان ، وللندمان واحدة شىءٌ خصصت به من بينهم وحدى

وقال ابن عطاء : المحبة : إقامة العتاب على الدوام .

وكان للأستاذ أبى على جارية تسمى « فيروز » وكان يحبها ؛ إذ كانت قد خدمته كثيرًا ، فسمعته يقول : كانت فيروز تؤذينى يوما ، وتستطيل علىَّ بلسانها ، فقال لها أبو الحسن القارئ ، لم تؤذين هذا الشيخ ؟ فقالت : لأنى أحبه .

وقال يحيى بن معاذ : مثقالُ خردلة من الحب أحبّ إلىّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وقيل : إن شابًا أشرف على الناس فى يوم عيد وقال :

من مات عشقًا فليمت هكذا لا خير فى عشق بلا موت

وألقى نفسه من سطح عال فوقع ميتًا .

وحكى أن بعض أهل الهند عشق جارية ، فرحلت الجارية ، فخرج الرجل فى وداعها ، فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى ، فغمض التى لم تدمع أربعًا وثمانين سنة . ولم يفتحها ، عقوبة لها ، لأنها لم تبك على فراق حبيبته ، وفى معناه أنشدوا :

بكت عينى غداة البين دمعًا وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبت التى بخلت بدمع بأن غمضتها يوم التقينا

وقال بعضهم : كنا عند ذى النون المصرى ، فتذاكرنا المحبة ، فقال ذو النون : كفوا عن هذه المسألة ، لا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخوف أولى بالمسى ء إذا تأله والحزن
والحبُّ يجمل بالتقى وبالنقى من الدرَن[1]

---

(١) الدرن : الوسخ .

وقال يحيى بن معاذ : من نشر المحبة عند غير أهلها فهو فى دعواه دعىّ .

وقيل : ادَّعى رجل الاستهلاك فى محبة شخص ، فقال له الشاب : كيف هذا ، وأخى أحسن منى وجـهًا وأتم جمالا ؟ فرفع الرجل رأسه يلتفت ، وكانا على سطح فألقاه من السطح وقال : هذا أجر من يدعى هوانا وينظر إلى سوانا .

وكان سمنون يقدّم المحبة على المعرفة ، والأكثرون يقدّمون المعرفة على المحبة .

وعند المحققين : المحبة : استهلاك فى لذّة ، والمعرفة : شهودٌ فى حيْرة ، وفناءٌ فى هيبة .

وقال أبو بكر الكتانى : جرت مسألة فى المحبة ، بمكة ، أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنا ، فقالوا له : هات ما عندك ياعراقىّ ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبدٌ ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوارُ هويته ، وصفا شربه من كأس ودّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله ياتاج العارفين .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود ، إنى حرَّمت على القلوب أن يدخلها حبى وحب غيرى فيها .

أخبرنا حمزة بن يوسف السهمى قال : أخبرنا محمد بن أحمد بن القاسم قال : حدثنا هميم ابن همام قال : أخبرنا إبراهيم بن الحارث قال : حدثنى عبد الرحمن بن عفان قال : حدثنى محمد بن أيوب قال : حدثنى أبو العباس خادم الفضيل بن عياض قال : احتبس بول الفضيل ، فرفع يديه وقال : اللهم بحبى لك إلا أطلقته عنى ، فما برحنا حتى شفى .

وقيل المحبة : الإيثار كامرأة العزيز لما تناهت فى أمرها قالت : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ[1] ﴾ .

وفى الابتداء قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] فوركت[3] الذنب فى الابتداء عليه ، وفى الانتهاء نادت على نفسها بالخيانة .

سمعت الأستاذ أبا على يقول ذلك .

---

(١) آية ٥١ من سورة يوسف .

(٢) آية ٢٥ من سورة يوسف .

(٣) أى نسبت .

وحكى عن أبى سعيد الخراز أنه قال : رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقلت : يارسول الله اعذرنى ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك .. فقال : يا مبارك ، من أحبَّ الله تعالى فقد أحبنى[١] .

وقيل : قالت رابعة فى مناجاتها : إلهى ، أتحرق بالنار قلبًا يحبك ؟.

فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ، فلا تظنى بنا ظنّ السوء !! .

وقيل : الحب . حرفان : حاء وباء ، والإشارة فيه : أن من أحب فليخرج عن روحه وبدنه[٢] .

وكالإجماع من إطلاقات القوم : أن المحبة : هى الموافقة ، وأشد الموافقات : الموافقة بالقلب ، والمحبة توجب انتفاء المباينة ، فإن المحب أبدًا مع محبوبه ، وبذلك ورد الخبر :

« حدَّثنا الإمام أبو بكر بن فورك ، رحمه الله تعالى ، قال : أخبرنا القاضى أحمد بن محمود ابن حرزاد قال : حدثنا الحسين بن حماد بن فضالة قال : حدثنا يحيى بن حبيب قال : حدثنا مرحوم بن عبد العزيز ، عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن أبى موسى الأشعرى : أن النبى ﷺ قيل له :

إن الرجل ليحب القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال : المرء مع من أحب »[٣] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا عثمان الحيرى يقول ، سمعت أبا حفص يقول : أكثر فساد الأحوال من ثلاثة ، فسق العارفين ، وخيانة المحبين ، وكذب المريدين .

قال أبو عثمان : فسق العارفين : إطلاق الطرف واللسان والسمع إلى أسباب الدنيا ومنافعها .

وخيانة المحبين : اختيار هواهم على رضا الله عز وجل فيما يستقبلهم .

وكذب المريدين : أن يكون ذكر الخلق ورؤيتهم تغلب عليهم على ذكر الله عزّ وجلّ .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر الرازىّ يقول : سمعت أبا القاسم الجوهرى يقول : سمعت أبا على ممشاد بن سعيد العكبرى يقول :

---

(١) ويؤيده قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ الآية .
(٢) فالحاء من الروح ، والباء من البدن .
(٣) سبق تخريجه فى هذا الباب فانظره .

راود خطاف[1] خطابة فى قبة سليمان ، عليه السلام ، فامتنعت عليه ، فقال لها :

لِمَ تمتنعين علىّ وإن شئت قلبت القبة على سليمان !! .

فدعاه سليمان ، عليه السلام ، وقال له : ما حملك على ما قلت ؟ .

فقال : يانبى الله ، إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم !.

فقال : صدقت .

---

(١) طائر .

باب الشوق

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ ﴾[١] .

أخبرنا عليّ بن أحمد بن عبدان الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال : أخبرنا ابن أبى قماش قال : أخبرنا إسماعيل بن زرارة ، عن حماد بن يزيد ، قال : أخبرنا عطاء بن السائب ، عن أبيه ، قال : صلى بنا عمار بن ياسر صلاة ، فأوجز[٢] فيها ، فقلت : خففت أبا اليقظان !! فقال : وما عليّ من ذلك ، ولقد دعوت الله بدعوات سمعتها من رسول الله ﷺ فلما قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدعوات ، فقال :

اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى ما علمت الوفاة خيرًا لى .

اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة[٣] ، وأسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب ، وأسألك القصد[٤] فى الغنى والفقر ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرّة عين[٥] لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء ، وبرَد العيش بعد الموت ، وأسألك النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقًا إلى لقائك فى غير ضرّاء مضرة ولا فتنة مُضلة .

اللهم زينا بزينة الإيمان .. اللهم اجعلنا هداة مهتدين »[٦] .

قال الأستاذ الشوق : اهتياج[٧] القلوب إلى لقاء المحبوب ، وعلى قدر المحبة يكون الشوق .

سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق يفرق بين الشوق والاشتياق ، ويقول : الشوق يسكن باللقاء والرؤية ، والاشتياقُ لا يزول باللقاء . وفى معناه أنشدوا :

---

(١) آية ٥ من سورة العنكبوت .
(٢) أى : خفف .
(٣) أى الحضور .
(٤) أى التوسط .
(٥) أى سرورًا .
(٦) حديث صحيح أخرجه النسائى فى سننه والحاكم عن ابن عمرو انظر فيض القدير .
(٧) وفى نسخة « ارتياح » .

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود إليه الطرفُ مشتاقا

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت النصر اباذى يقول : للخلق كلهم مقامُ الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق . ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يُرى له أثر ولا قرار .

وقيل : جاء أحمد بن حامد الأسود إلى عبد الله بن منازل فقال : رأيت فى المنام أنك تموت إلى سنة ، فلو استعددت للخروج ؟ فقال له عبد الله بن منازل : لقد أجلتنا إلى أمد بعيد أأعيش أنا إلى سنة !! لقد كان لى أنس بهذا البيت الذى سمعته من هذا الثقفى « يعنى أبا على » .

يا من شكا شوقه من طول فرقته اصبر لعلك تلقى من تحب غدا

وقال أبو عثمان : علامة الشوق : حب الموت مع الراحة .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الشوق : فطام الجوارح عن الشهوات .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : خرج داود عليه السلام يومًا إلى بعض الصحارى منفردًا ، فأوحى الله تعالى إليه : مالى أراك ياداود وحدانيا ؟ فقال يا إلهى ، استأثر الشوق إلى لقائك على قلبى فحال بينى وبين صحبة الخلق . فأوحى الله تعالى إليه . ارجع إليهم ، فإنك إن أتيتنى بعبد آبق أثبتُك فى اللوح المحفوظ جهبذاً[١] .

وقيل : كانت عجوز قدمَ بعض أقاربها من السفر فأظهر قومُها السرور ، والعجوز تبكى ، فقيل لها : ما يبكيك ؟ فقالت : ذكَّرنى قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله تعالى .

وسئل ابن عطاء عن الشوق فقال : احتراق الأحشاء وتلهب القلوب وتقطع الأكباد .

وسئل أيضا عن الشوق ، فقيل له : الشوق أعلى أم المحبة ؟ فقال : المحبة لأن الشوق منها يتولد .

وقال بعضهم : الشوق لهيب ينشأ بين أثناء الحشى ، يسنح[٢] عن الفرقة ، فإذا وقع اللقاء طفئ ، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوق .

وقيل لبعضهم : هل تشتاق ؟[٣] فقال : لا ، إنما الشوق إلى غائب ، وهو حاضر ..

---

(١) أى نقادًا عالمًا .

(٢) أى يظهر .

(٣) أى إلى الله .

سمعت الأستاذ أبى على الدقاق يقول فى قوله عزَّ وجلّ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[1] قال : معناه : شوقًا إليك ، فستره[2] بلفظ « الرضا » .

وسمعته رحمه الله تعالى يقول : من علامات الشوق : تمنى الموت على بساط العوافى[3] ، كيوسف عليه السلام لمَّا ألقى فى الجبّ لم يقل « توفنى » ، ولما أدخل السجن لم يقل « توفنى » ؛ ولما دخل عليه أبواه وخرَّ له الإخوةُ سجَّدًا وتمّ له الملك والنعم قال ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾[4] . وفى معناه أنشدوا :

نحن فى أكمل السرور ولكن ليس ألا بكم يتمّ السرور
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودّى أنكم غيَّبٌ ، ونحن حضور

وفى معناه أنشدوا :

من سرَّه العيد الجديد فقد عدمت به[5] السرورا
كان السرور يتمُّ لى لو كان أحبابى حضورا

وقال ابن خفيف : الشوق : ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقاء بالقرب .

وقال أبو يزيد[6] : إن لله عبادا لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : أخبرنا أبو العباس الهاشمى بـ « البيضاء » قال : حدثنا محمد بن عبد الله الخزاعى قال : حدثنا عبد الله الانصارى قال : سمعت الحسين الأنصارى يقول : رأيت فى النوم كأن القيامة قد قامت وشخص قائم تحت العرش فيقول الحق ، سبحانه : ياملائكتى ، من هذا ؟ فقالوا : الله أعلم . فقال . هذا معروف الكرخى سكر من حبى فلا يفيق إلا بلقائى .

وفى بعض الحكايات فى مثل هذا المنام أنه قيل : هذا معروف الكرخى خرج من الدنيا مشتاقا إلى الله ، فأباح الله عزّ وجلّ له النظر إليه .

وقال فارس : قلوب المشتاقين منوّرة بنور الله تعالى ، فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إلىّ .. أشهدكم أنى إليهم أشوَق ..

---

(١) آية ٨٤ من سورة طه .
(٢) أى إلى الشوق .
(٣) العوافى : جمع عافية .
(٤) من آية ١٠١ سورة يوسف .
(٥) أى فيه .
(٦) البسطامى .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول فى قوله ﷺ :« أسألك الشوق إلى لقائك » قال : كان الشوق مائة جزء ، تسعة وتسعون له ، وجزء متفرق فى الناس ، فأراد أن يكون ذلك الجزء له أيضًا ، فغار أن يكون شظية[١] من الشوق لغيره .

وقيل : شوق أهل القرب أتمّ من شوق المحجوبين ؛ ولهذا قيل :

وأبرح ما يكون الشوق يومًا إذا دنتِ الخيامُ من الخيام

وقيل : إن المشتاقين يتحسون[٢] حلاوة الموت عند وروده ؛ لما قد كشف لهم من رَوح[٣] وصول أحلى من الشهد .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت جعفرًا يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرّى يقول : الشوق أجلّ مقام للعارف إذا تحقق[٤] فيه ، وإذا تحقق فى الشوق لها عن كل شىء يشغله عمن يشتاق إليه .

وقال أبو عثمان الحيرى فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ﴾[٥] : هذا تعزية للمشتاقين[٦] ، معناه : أنى أعلم أن اشتياقكم إلىّ غالب ، وأنا أجَّلت للقائكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه .

وقيل : أوحى الله تعالى لداود عليه السلام : قل لشبان بنى إسرائيل لم تشغلون أنفسكم بغيرى وأنا مشتاق إليكم ، ما هذا الجفاء !!

وقيل : أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقًا إلىّ ، وانقطعت أوصالهم من محبتى ، يا داود هذه إرادتى للمدبرين عنى ، فكيف إرادتى للمقبلين إلىّ ؟!

وقيل : مكتوب فى التوراة : شوّقناكم فلم تشتاقوا ، وخوّفناكم فلم تخافوا ، ونحْنَا لكم فلم تنوحوا .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : بكى شعيب حتى عمى ، فرد الله عز وجل بصره عليه ، ثم بكى حتى عمى ، فرد الله عز وجل بصره عليه ، ثم بكى حتى عمى ، فأوحى الله

---

(١) الشظية . القطعة والفلقة .

(٢) التحسى : الشرب .

(٣) أى راحة .

(٤) أى تمكن .

(٥) من آية ٥ سورة العنكبوت .

(٦) وفى نسخة « تعريض » : أى قصد به تعليلهم وراحتهم .

تعالى إليه : إن كان هذا البكاء لأجل الجنة فقد أبحتها لك ، وإن كان لأجل النار فقد أجرْتك منها ، فقال : لا ، بل شوقًا إليك ، فأوحى الله إليه : لأجل ذلك أخدمتك نبى وكليمى[1] عشر سنين .

وقيل : من اشتاق إلى الله اشتاق الله إليه كل شىء[2] .

وفى الخبر : « اشتاقت الجنة إلى ثلاثة : على ، وعمار ، وسلمان » .

سمعت الأستاذ أبا على يقول : قال بعض المشايخ : أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إلىّ ، وأنا عن جميعها حُر .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الله بن جعفر يقول : سمعت محمد بن عمر الرملى يقول : حدثنا محمد بن جعفر الإمام قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال : حدثنا مرحوم قال : سمعت مالك بن دينار يقول : قرأت فى التوراة : شوقناكم فلم تشتاقوا ، وزمَّرنا لكم فلم ترقصوا .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن فرحان يقول : سمعت الجنيد ، وقد سئل من أى شىء يكون بكاء المحبِّ إذا لقى المحبوب ؟

فقال : إنما يكون ذلك سرورًا به ، ووجدًا من شدة الشوق إليه ، ولقد بلغنى أن أخوين تعانقا ، فقال أحدهما : وا شوقاه ، وقال الآخر : وا وجداه .!!

---

(١) أى موسى عليه السلام .

(٢) يؤيده الحديث السابق الذى أخرجه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن عائشة : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ... » .

باب حفظ قلوب المشايخ
وترك الخلاف عليهم

قال الله تعالى فى قصة موسى مع الخضر ، عليهما السلام : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[١] .

قال الإمام : لما أراد صحبة الخضر حفظ شرط الأدب ، فاستأذن أوَّلا فى الصُّحبة ، ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه فى شىء ولا يعترض عليه فى حكم ، ثم لما خالفه موسى عليه السلام تجاوز عنه المرة الأولى والثانية ، فلما صار إلى الثالثة ، والثلاثُ آخر حدّ القلة وأوّل حدّ الكثرة ، سامه الفرقة[٢] ؛ فقال :﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[٣] .

أخبرنا أبو الحسين الإهوازى قال : حدثنا أحمد بن عبيد البصرى قال : حدثنا أبو سالم القزاز قال : حدثنا يزيد بن بيان قال : حدثنا أبو الرجال ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما أكرم شاب شيخًا لسنِّه إلا قيض الله تعالى له من يكرمه عند سنّه »[٤] .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : بدء كلّ فُرقة المخالفة . يعنى به : أنّ من خالف شيخه لم يبق على طريقته ، وانقطعت العُلْقةُ بينهما وإن جمعتهما البقعة ؛ فمن صحب شيخًا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ، ووجبت عليه التوبة ، على أن الشيوخ قالوا : عُقوق الأستاذين لا توبة عنها[٥] .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : خرجت إلى « مرو » فى حياة شيخى الأستاذ أبى سهل الصعلوكى ، وكان له قبل خروجى أيام الجمعة بالغدوات مجلس دَوْر[٦] القرآن والختم ، فوجدته عند رجوعى قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لأبى الغفانى فى ذلك الوقت مجلس

---

(١) آية ٦٦ من سورة الكهف .
(٢) أى أراد الفرقة منه .
(٣) من آية ٧٨ سورة الكهف .
(٤) حديث صحيح أخرجه الترمذى عن أنس وقال حديث صحيح .
(٥) الأولى أن يقول : « عنه » .
(٦) وفى نسخة « درس » .

القول ، فداخلنى من ذلك شىءٌ ؛ فكنت أقول فى نفسى : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول ، فقال لى يومًا : يا أبا عبد الرحمن ، ما يقول الناسُ فىّ ؟ فقلت : يقولون رفع مجلس القرآن ووضع مجلس القول !! فقال : من قال لأستاذه لِمَ ؟ لا يفلح أبدًا ، ومن المعروف أن الجنيد قال : دخلت على السرىّ يومًا ، فأمرنى شيئًا[1] ، فقضيت حاجته سريعًا ، فلما رجعت ناولنى رقعة وقال : هذا لمكان قضائك لحاجتى سريعًا ، فقرأت الرقعة ، فإذا فيها مكتوب « سمعت حاديًا يحدو فى البادية :

أبكى ، وهل يدريك ما يبكينى   أبكى حِذارًا أن تفارقينى
وتقطعى حبلى وتهجرينى[2]

ويحكى عن أبى الحسن الهمدانى العلوى قال : كنت ليلة عند جعفر الخلدى ، وكنت أمرت فى بيتى أن يُعَلَّق[3] طير فى التنور ، وكان قلبى معه ، فقال لى جعفر : أقم عندنا الليلة ، فتعللت بشىء ، ورجعت إلى منزلى ، فأخرج الطير من التنور ، ووضع بين يدى ، فدخل كلب من الباب ، وحمل الطير عند تغافل الحاضرين ، فأتى بـ « الجواذب »[4] الذى تحته ، فتعلق به ذيل الخادمة ، فانصب .. فلما أصبحتُ دخلت على جعفر ، فحين وقع بصره علىّ قال : من لم يحفظ قلوب المشايخ سُلِّط عليه كلب يؤذيه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبد الله بن على الطوسىّ يقول : سمعت أبا عبد الله الدينورى يقول : سمعت الحسن الدامغانى يقول : سمعت عمى البسطامى يحكى عن أبيه : أن شقيقًا البلخىّ ، وأبا تراب النخشبى ، قدما على أبى يزيد ، فقُدِّمت السفرة ، وشاب يخدم أبا يزيد ، فقالا له : كل معنا يا فتى . فقال : أنا صائم . فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر . فأبى . فقال شقيق : كل ولك أجر صوم سنة . فأبى . فقال أبو يزيد : تدعُو من سقط من عين الله تعالى !! فأخذ ذلك الشاب فى السرقة بعد سنة ، فقطعت يده !!

سمعت الأستاذ أبا علىّ يقول : وصف سهل بن عبد الله رجلًا بالولاية (خبازًا

---

(١) وفى نسخة « بشىء » أى بقضاء حاجة له .

(٢) قال الإمام الأنصارى : فالسرى علم من حال الجنيد أنه نال من معرفة الله ومحبته حال رفيعة فدله على سبب حفظ الرقعة وأنه يبكى خوفًا من أن يبعده الله عنه .

(٣) يطهى .

(٤) قال الإمام العروسى : الجواذب : لعلها أشياء توضع فى إناء الطبخ تجذب ما فى اللحم من الدسم وتؤكل مع الطعام بعد نضجه .

بالبصرة) .. فسمع رجل من أصحاب سهل بن عبد الله ذلك ، فاشتاق إليه ؛ فخرج إلى البصرة ، فأتى حانوت الخبَّاز .. فرآه يخبز وقد تنقّب لمحاسنه[1] على عادة الخبازين ، فقال فى نفسه لو كان هذا وليًّا لم يحترق شعره بغير نقاب . ثم إنه سلم عليه وسأله شيئًا ، فقال الرجل : إنك استصغرتنى ، فلا تنتفع بكلامى ، وأبى أن يكلمه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمع عبد الرحمن الرازى أبا عثمان الحيرى يصف محمد بن الفضل البلخى ويمدحه ، فاشتاق إليه ، فخرج إلى زيارته ، فلم يقع بقلبه من محمد بن الفضل ما اعتقد ، فرجع إلى أبى عثمان وسأله ، فقال : كيف وجدته ؟ فقال : لم أجده كما ظننت !! فقال : لأنك استصغرته ، وما استصغر أحدٌ أحدًا إلا حُرم فائدته ، ارجع إليه بالحرمة[2] . فرجع إليه عبد الله ، فانتفع بزيارته .

ومن المشهور أن عمر بن عثمان المكىّ رأى الحسين بن منصور يكتب شيئًا ، فقال : ما هذا ؟ فقال : هو ذا أُعارض القرآن ، فدعا عليه وهجره ؛ قال الشيوخ إنّ ما حلّ به بعد طول المدّة كان لدعاء ذلك الشيخ عليه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول : لما نفى أهل بلخ محمد بن الفضل من البلد ؛ دعا عليهم وقال : اللهم امنعهم الصدق . فلم يخرج من بلخ بعده صديق .

سمعت أحمد بن يحيى الأبيوردى يقول : من رضى عنه شيخه لا يكافأ فى حال حياته ؛ لئلا يزول عن قلبه تعظيم ذلك الشيخ ، فإذا مات الشيخ أظهر الله عز وجل عليه ما هو جزاء رضاه ومن تغير عليه قلبُ شيخه لا يكافأ فى حال حياة ذلك الشيخ ، لئلا يرقّ له ، فإنهم مجبولون على الكرم ، فإذا مات ذلك الشيخ ، فحينئذ يجد المكافأة بعده .

---

(١) أى وضع على وجهه وشعره نقابًا لحمايته من حرارة النار .

(٢) أى الاحترام .

باب السماع

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُون أَحْسَنَهُ ﴾[١] .

اللام[٢] فى قوله « القول » تقتضى التعميم والاستغراق ، والدليل عليه[٣] : أنه مدحهم باتباع الأحسن .

وقال تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾[٤] ، جاء فى التفسير : أنه السماع .

واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة والنغم المستلذة إذا لم يعتقد المستمع محظورًا ، ولم يسمع على مذموم فى الشرع ، ولم يتجر فى زمام هواه ، ولم ينخرط فى سلك لهوه ، مباحٌ فى الجملة .

ولا خلاف أن الأشعار أنشدت بين يدى رسول الله ﷺ ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم فى إنشادها[٥] . فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان .

هذا ظاهر من الأمر . ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات ، وتذكّر ما أعدّ الله تعالى لعباده المتقين من الدرجات ويحمله على التحرز من الزلات ، ويؤدى إلى قلبه فى الحال صفاء الواردات مستحبٌ فى الدين ومختار فى الشرع ، وقد جرى على لفظ رسول الله ﷺ ما هو قريب من الشعر ، وإن لم يقصد أن يكون شعرًا .

أخبرنا . أبو الحسن على بن أحمد الإهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار قال : حدثنا الحارث بن أبى أسامة قال : حدثنا أبو النضر قال : حدثنا شعبة عن حميد قال : سمعت أنسًا يقول : كانت الأنصار يحفرون الخندق فجعلوا يقولون :

نحن الـذين بـايعـوا محمـدًا   عـلى الجهـاد مـا بقينـا أبـدا

---

(١) آية ١٧ وآية ١٨ من سورة الزمر .

(٢) وفى نسخة : والألف واللام .

(٣) أى على التعميم والاستغراق .

(٤) آية ١٥ من سورة الروم .

(٥) أخرج ابن ماجة فى سننه عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله ﷺ مائة قافية من شعر أمية بن أبى الصلت يقول بين كل ما فيه : (هيه) وقال كاد أن يسلم ، وعن عكرمة عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقول : « إن من الشعر حكما » .

فأجابهم رسول الله ﷺ .

« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فأكرم الأنصار والمهاجرة »[١] .

وليس هذا اللفظ منه ، ﷺ ، على وزن الشعر لكنه قريب منه .

وقد سمع السلف والأكابرُ الأبيات بالألحان ؛ فمن قال بإباحته من السلف : مالك بن أنس : وأهل الحجاز كلهم يبيحون الغناء ، وأما « الحداء »[٢] فإجماع منهم على إجازته .

وقد وردت الأخبار واستفاضت الآثار فى ذلك ، وروى عن ابن جريج أنه كان يرخص فى السماع ، فقيل له : إذا أتى بك يوم القيامة ، ويؤتى بحسناتك وسيئاتك ، ففى أى الجانبين سماعك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات . يعنى أنه من المباحات .

وأما الشافعى ، رحمه الله ، فإنه لا يحرمه ، ويجعله فى العوام مكروهًا ، حتى لو احترف بالغناء أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهى تردّ به الشهادة ، ويجعله مما يسقط المروءة ولا يُلحقه بالمحرمات .

وليس كلامنا فى هذا النوع من السماع ؛ فإن هذه الطائفة جلت رتبتهم عن أن يستمعوا بلهو ، أو يقعدوا للسماع بسهو ، أو يكونوا بقلوبهم مفكرين فى مضمون لغو ، أو يستمعوا على صفة غير كفء .

وقد روى عن ابن عمر آثار فى إباحة السماع ، وكذلك عن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب ، وكذلك عن عمر رضى الله عنهم أجمعين ، فى الحداء وغيره .

وأنشد بين يدى النبى ﷺ الأشعار فلم ينه عنها ، وروى أنه ﷺ استنشد[٣] الأشعار .

ومن المشهور الظاهر أنه دخل بيت عائشة رضى الله عنها ، وفيه جاريتان تغنيان ، فلم ينههما .

أخبرنا الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى قال : أخبرنا محمد بن جعفر بن محمد بن مطر قال : حدثنا الحباب بن محمد التسترى قال : أخبرنا أبو الأشعث قال : حدثنا محمد بن بكر البرسانى قال : حدثنا شعبة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها : « أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، دخل عليها وعندها قينتان[٤] تغنيان بما تقاذفت به

---

(١) حديث صحيح متفق عليه .

(٢) الحداء : بضم الحاء وكسرها : هو الغناء للإبل حتى تسرع فى السير .

(٣) استنشد : طلب أن تنشد وتقال .

(٤) جاريتان .

الأنصار يوم « بُعاث[1] » ، فقال أبو بكر : مزمار الشيطان (مرتين) فقال النبى ﷺ : دعهما يا أبا بكر ؛ فإن لكل قوم عيدًا وعيدنا هذا اليوم »[2] .

أخبرنا : على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ، قال : حدثنا عثمان بن عمر الضبى قال : حدثنا أبو كامل ، قال : حدثنا أبو عوانه ، عن الأجلح ، عن أبى الزبير ، عن جابر ، عن عائشة رضى عنها :

« أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار . فجاء النبى ﷺ ، فقال : أهديتم الفتاة ؟ فقالت : نعم . قال : فأرسلت من يغنى ؟قالت : لا . فقال النبى ﷺ .

إن الأنصار فيهم غزل ، فلو أرسلتم من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم »[3]

أخبرنا : الأستاذ الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك ، رضى الله عنه ، قال : حدثنا أحمد بن محمود بن خرزاذ قال : حدثنا الحسين بن الحارث الإهوازى قال : حدثنا سلمة بن سعيد ، عن صدقة بنت أبى عمران ، قالت : حدثنا علقمة بن مرثد ، عن زاذان ، عن البراء ابن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حسنوا القرآن بأصواتكم ؛ فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا » دلّ هذا الخبر على فضيلة الصوت الحسن .

وأخبرنا على بن أحمد بن عبدان الإهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا عثمان ابن عمر الضبى قال : حدثنا أبو الربيع قال : حدثنا عبدالسلام بن هاشم قال : حدثنا عبد الله بن محرز ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ .

« لكل شىء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن »[4] .

أخبرنا على بن أحمد الأهوازى ، قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا محمد بن يونس الكريمى قال : حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم قال : حدثنا شبيب بن بشر بن البجلى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) من أيام العرب المشهورة بين الأوس والخزرج .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه « باب العيدين » ورواه ابن ماجه فى سننه عن عائشة ، جـ ١ ص ٦١٢ باب الغناء والدف رقم ١٨٩٨ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه جـ ١ ص ٦١٣ عن أبى الزبير عن ابن عباس وفى الزوائد : إسناده مختلف فيه من أجل الأجلح وأبى الزبير يقولون : إنه لم يسمع من ابن عباس ، وأثبت أبو حاتم أنه رأى ابن عباس . انظر سنن ابن ماجه حديث رقم ١٩٠٠ .

(٤) أخرجه عبد الرازق فى الجامع ، والضياء عن أنس وقال حديث صحيح .

« صوتان ملعونان : صوتُ ويل عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمه ».

مفهوم الخطاب يقتضى إباحة غير هذا فى غير هذه الأحوال[١]، وإلا بطل التخصيص . والأخبارُ فى هذا الباب تكثر ، والزيادة على هذا القدر من ذكر الروايات تخرجنا عن المقصود من الاختصار ، وقد روى أن رجلاً أنشد بين يدى رسول الله ﷺ .

أقبلتْ فلاح لها عارضان كالسَّبَج[٢]
أدبرت فقلت لها والفؤاد فى وَهج
هل على ويحكما إن عشقت من حرج

فقال رسول الله ﷺ : لا[٣] .

وإن حُسن الصوت مما أنعم الله تعالى على صاحبه من الناس : قال الله عز وجل : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾[٤] قيل فى التفسير : من ذلك ، الصوت الحسن .

وذم الله سبحانه الصوت الفظيع ؛ فقال تعالى :

﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[٥] .

واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة واسترواحها إليها مما لا يمكن جحوده ؛ فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة[٦]فيهون عليه بالحداء . قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[٧] .

وحكى إسماعيل بن علية قال : كنت أمشى مع الشافعى ، رحمه الله تعالى ، وقت الهاجرة فجزنا بموضع يقول فيه أحد شيئًا ، فقال : مل بنا إليه ، ثم قال : أيطربك هذا ؟ .

فقلت : لا . فقال : ما لك حس !! .

وقال رسول الله ﷺ : « ما أذن[٨] الله تعالى لشىء كأذنه[٩] لنبى يتغنى بالقرآن » .

---

(١) يقصد الحالين المذكورين .
(٢) السبج : الخرز الأسود .
(٣) قيل إن هذا حديث موضوع فلا يجوز الاستشهاد به .
(٤) آية ١ من سورة فاطر .
(٥) آية ١٩ من سورة لقمان .
(٦) الحمولة : بضم الحاء أى الأحمال .
(٧) آية ١٧ من سورة الغاشية .
(٨) أذن : استمع .
(٩) كأذنه : كاستماعه .

أخبرنا على بن أحمد الإهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد قال : حدثنا ابن ملحان قال : حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل ، عن ابن شهاب أنه قال : أخبرنى أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به »[1] » .

وقيل : إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجن والإنس والطير والوحش إذا قرأ الزبور ، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات ممن سمعوا قراءته .

وقال ﷺ لأبى[2] موسى الأشعرى :

« لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود » متفق عليه .

وقال معاذ بن جبل لرسول الله ﷺ : « لو علمت أنك تسمع[3] لحبَّرْتُه لك تحبيرًا[4] »[5].

أخبرنا أبو حاتم السجستانى قال : أخبرنا عبدالله بن على السراج قال : حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى الرقى قال : كنت فى البادية ، فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، وأضافنى رجل منهم ، فرأيت غلامًا أسود مقيدًا هناك . ورأيت جمالاً قد ماتت بفناء البيت ، فقال لى الغلام : أنت الليلة ضيف ، وأنت على مولاى كريم ، فتشفع لى ؛ فإنه لا يردّك .

فقلت لصاحب البيت : لا آكل طعامك حتى تحل هذا العبد .

فقال : هذا الغلام قد أفقرنى وأتلف مالى !! .

فقلت : فما فعل ؟ .

فقال : له صوت طيب ، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال ، فحملها أحمالاً ثقيلة ، وحدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى يوم واحد ، فلما حط عنها ماتت كلها ، ولكن قد وهبته لك وحلَّ عنه القيد ، فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته ، فسألته عن ذلك ، فأمر الغلامَ أن يحدو

---

(١) متفق عليه وروى بنحوه ما أخرجه أبو يعلى والبزار عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » .

(٢) أى فى شأن ذلك الصحابى الحسن الصوت ، والحديث متفق عليه ، وروى بنحوه عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد فسمع قراءة رجل ، فقال : من هذا ؟ فقيل : عبد الله بن قيس فقال : « لقد أوتى هذا من مزامير آل داود » ا هـ وفى الزوائد قلت : أصله فى الصحيحين من حديث أبى موسى وفى مسلم من حديث بريدة ، وفى النسائى من حديث عائشة وفى إسناد حديث أبى هريرة : رجاله ثقات .

(٣) أى لقراءتى .

(٤) التحبير : التزيين والتحسين .

(٥) وروى بنحوه عن أنس أن أبا موسى كان يقرأ القرآن ليلة ونساء النبى ﷺ يستمعن فقيل له ، فقال : « لو علمت لحبرته تحبيرًا ، ولشوقت تشويقًا » أخرجه أحمد بن منيع وقال عنه ابن حجر حديث صحيح انظر المطالب العالية جـ ٣٣ ص ٢٨٧ .

على جمل كان على بئر هناك يستقى عليه ، فحدا الغلام .. فهام الجمل على وجهه وقطع حباله ، ولم أظن أنى سمعت صوتًا أطيب منه ، فوقعت لوجهى .. حتى أشار إليه بالسكوت .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن عبدالله بن عبدالعزيز يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : سمعت الجنيد يقول ، وقد سئل : ما بال الإنسان يكون هادئًا ، فإذا سمع السماع اضطرب ؟ فقال : إن الله تعالى لما خاطب الذرَّ[1] فى الميثاق الأول بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾[2] استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح ، فلما سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : السماع حرام على العوام ؛ لبقاء نفوسهم ، مباحٌ للزهَّاد ؛ لحصول مجاهداتهم ، مستحب لأصحابنا ؛ لحياة قلوبهم .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر الصوفى يقول : سمعت الوجيهى يقول : سمعت أبا علىّ الروذبارى يقول : كان الحارث بن أسد المحاسبى يقول :

ثلاث إذا وجدن مُتّع بهنَّ ، وقد فقدناها : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الصوت مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء .

وسئل ذو النون المصرى عن الصوت الحسن ، فقال : مخاطبات وإشارات أودعها الله تعالى كلّ طيب وطيبة .

وسئل مرة أخرى عن السماع فقال :

وارد حقٍّ يزعج[3] القلوب إلى الحقِّ ؛ فمن أصغى إليه بحقّ تحقق ، ومن أصغَى إليه بنفس تزندق .

وحكى جعفر بن نصير : عن الجنيد أنه قال : تنزل الرحمة على الفقراء فى ثلاثة مواطن : عند السماع ؛ فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ، ولا يقولون إلا عن وَجْد ، وعند أكل الطعام ؛ فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم ؛ فإنهم لا يذكرون إلا صفات الأولياء .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت أبا بكر ابن ممشاد يقول : سمعت الجنيد يقول : السماع فتنة لمن طلبه . ترويح[4] لمن صادفه .

---

(١) الذر : الأرواح .

(٢) آية ١٧٢ من سورة الأعراف .

(٣) أى يحرك .

(٤) ترويح : أى راحة .

وحكى عن الجنيد أنه قال : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء : الزمان والمكان ؛ والإخوان .

وسئل الشبلى عن السماع فقال : ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة ؛ فمن عرف الإشارة حلّ له استماع العبرة ، وإلا فقد استدعى الفتنة ، وتعرض للبليّة .

وقيل : لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلبٌ حيّ ؛ فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة ، وقلبه حيّ بنور الموافقة .

وسئل أبو يعقوب النهرجورى عن السماع فقال : حال يُبدى[1] الرجوع إلى الأسرار من حيث الاحتراق .

وقيل : السماع لطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة .

سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : السماع طَبْع ، إلا عن شَرع . وخَرْقٌ[2] ، إلا عن حق ، وفتنةٌ إلا عن عبرة .

ويقال : السماع على قسمين : سماع بشرط العلم والصحو[3] ؛ فمن شرط صاحَبه معرفةُ الأسامى والصفات ، وإلا وقع فى الكفر المحض . وسماع بشرط الحال ؛ فمن شرط صاحبه الفناءُ عن أحوال البشرية ، والتنقى من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة .

وحكى عن أحمد بن أبى الحوارى أنه قال : سألت أبا سليمان عن السماع ، فقال : مِن اثنين أحبّ إلىّ من الواحد .

وسئل أبو الحسن النورى عن الصوفى ، فقال : مَن سمع السماع ، وآثر الأسباب .

وسئل أبو علىّ الروذبارى عن السماع يومًا فقال : ليتنا تخلصنا منه رأسًا برأس .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من ادعى السماع ولم يَسمع صوتَ الطيور ، وصريرَ الباب ، وتصفيق الرياح ، فهو فقير مُدَّعٍ .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج الطوسى يقول : سمعت أبا الطيب أحمد بن مقاتل العكى يقول : قال جعفر : كان ابن زيرى ، من أصحاب الجنيد ، شيخًا فاضلاً ، فربما كان يحضر موضعَ سماع ، فإن استطابه فرش إزاره وجلس وقال : الصوفى مع قلبه ، وإن لم يستطبه قال : السماع لأرباب القلوب ، ومرّ ، وأخذ نعله .

---

(١) يبدى : يظهر .

(٢) أى إهدار مروءة .

(٣) أى على طريقها .

سمعت محمد بن الحسين ، رحمه الله تعالى ، يقول : سمعت عبدالواحد بن بكر يقول : سمعت عبدالله بن عبدالمجيد الصوفى يقول : سئل « رويم » عن وجود[١] الصوفية عند السماع فقال :

يشهدون المعانى التى تعزب عن غيرهم فتشير إليهم : إلىّ .. إلىّ . فيتنعمون بذلك من الفرح ، ثم يقطع[٢] الحجاب فيعود ذلك الفرح بكاءً ؛ فمنهم من يخرق ثيابه ، ومنهم من يصيح ، ومنهم من يبكى . كلّ إنسان على قدْره .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمى يقول : سمعت عبدالله بن على يقول : سمعت الحصرى يقول فى بعض كلامه : ما أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع من يسمع منه ؟ ينبغى أن يكون سماعك متصلاً غير منقطع .

قال : وقال الحصرى : ينبغى أن يكون[٣] ظمأ دائم ، فكلما ازداد شربه ازداد ظمؤه .

وجاء عن مجاهد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾[٤] : أنه السماع من الحور العين بأصوات شهية :

« نحن الخالدات ، فلا نموت أبدًا ، نحن الناعمات ، فلا نبؤس أبدًا »[٥].

وقيل : السماع نداء ، والوجد قصد »[٦]..

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : قلوب أهل الحق قلوب حاضرة ، وأسماعهم أسماع مفتوحة .

وسمعته يقول : سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى يقول : المستمع بين استتار وتجلٍ ، فالاستتار يوجب التلهيب ، والتجلى يورث الترويج ؛ والاستتار يتولد منه حركات المريدين ، وهو محل الضعف والعجز ، والتجلى يتولد منه سكون الواصلين ، وهو محل الاستقامة والتمكين ، وذلك صفة الحضرة ليس فيها إلاّ الذبولُ تحت موارد الهيبة ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾[٧] .

---

(١) أى عما يجدونه .
(٢) وفى نسخة « يقع » .
(٣) أى للسامع .
(٤) آية ١٥ من سورة الروم .
(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ٣ لقوله تعالى ﴿ فهم فى روضة يحبرون ﴾ .
(٦) أى إجابة له .
(٧) من الآية ٢٩ من سورة الأحقاف .

وقال أبو عثمان الحيرى : السماع على ثلاثة أوجه :

فوجه منها للمريدين والمبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ويُخشى عليهم فى ذلك الفتنة والمراءاة .

والثانى : للصادقين يطلبون الزيادة فى أحوالهم ويستمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم .

والثالث : لأهل الاستقامة من العارفين ، فهؤلاء لا يختارون على الله تعالى فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون .

سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى ، رحمه الله ، يقول : سمعت أبا الفرج الشيرازى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : قال أبو سعيد الخراز .

من ادّعى أنه مغلوب عند الفهم يعنى فى السماع ، وأنّ الحركاتِ مالكة له ، فعلامته[1] تحسين المجلس[2] الذى هو فيه بوجده .

قال الشيخ أبو عبدالرحمن : فذكرت هذه الحكاية لأبى عثمان المغربى فقال : هذا أدناه ، وعلامته الصحيحة : أن لا يبقى فى المجلس محق إلا أنسَ به ، ولا يبقى فيه مبطل إلا استوحش منه .

وقال بندار بن الحسين : السماع على ثلاثة أوجه : منهم من يسمع بالطبع ، ومنهم من يسمع بالحال ، ومنهم من يسمع بالحق .

فالذى يسمع بالطبع يشترك فيه الخاص والعام ؛ فإن جبلة البشرية استلذاذ الصوت الطيب .

والذى يسمع بالحال فهو يتأمل ما يردُ عليه من ذكر عتاب أو خطاب أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد ، أو تأسف على فائت أو تعطش إلى آتٍ ، أو وفاء بعهد أو تصديق لوعد أو نقض لعهد ، أو ذكر قلق أو اشتياق أو خوف فراق أو فرح وصالٍ ، أو حذَر انفصال أو ما جرى مجراه .

وأما من يسمع بحق فيسمع بالله تعالى ، ولله ، ولا يتصف بهذه الأحوال التى هى ممزوجة بالحظوظ البشرية فإنها مبقاة مع العلل فيسمعون من حيثُ صفاء التوحيد بحق لا بحظ .

وقيل : أهل السماع على ثلاث طبقات : أبناء الحقائق يرجعون فى سماعهم إلى مخاطبة الحق سبحانه لهم ؛ وضرب : يخاطبون الله تعالى بقلوبهم بمعانى ما يسمعون ، فهم مطالبون بالصدق

---

(١) أى فعلامة صدقه فى دعواه .

(٢) أى تأثيره فى أهل مجلسه .

فيما يشيرون به إلى الله ؛ وثالث : هو فقير مجرّد قطع العلاقات من الدنيا والآفات ، يسمعون بطيبة قلوبهم ، وهؤلاء أقربهم إلى السلامة .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا على الروذبارى ، وقد سئل عن السماع ، فقال : مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب .

وقال الخواص ، وقد سئل : ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ، ولا يجد ذلك فى سماع القرآن ؟ فقال : لأن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته ، وسماع القول ترويح فيتحرك فيه .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الرازى يقول : سمعت الجنيد يقول : إذا رأيت المريد يُحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

وسمعته يقول : سمعت أبا عبدالله البغدادى يقول : سمعت أبا سعيد الرملى يقول : قال سهل بن عبدالله . السماع علم استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو .

وحكى أحمد بن مقاتل العكىّ قال : لما دخل ذو النون المصرى بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم قوّال ، فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئًا فأذن ، فابتدأ يقول :

صغيرُ هواك عذّبنى فكيف به إذا احتنكا[1]
وأنتَ جمعتَ من قلبى هَوى قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئب إذا ضحك الخلىّ بكا

قال : فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : الذى يراك حين تقوم .. فجلس الرجل .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول فى هذه الحكاية : كان ذو النون صاحب إشراف على ذلك الرجل ؛ حيث نبهه أن ذلك ليس مقامه ، وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف ؛ حيث قبل ذلك منه ، فرجع فقعد .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمى يقول : سمعت عبدالله بن على الصوفى يقول : سمعت الرقىّ يقول : سمعت ابن الجلاء يقول : كان بالمغرب شيخان لهما أصحاب وتلامذة ، يقال لأحدهما « جبلة » وللثانى « رزيق » فزار رزيق يومًا جبلة فى أصحابه ، فقرأ رجل من أصحاب رزيق شيئًا ، فصاح واحد من أصحاب جبلة ومات ، فلما أصبحوا قال جبلة لرزيق :

---

(١) أى استولى وقهر .

أين الذى قرأ بالأمس ؟ فليقرأ .. فقرأ آية ، فصاح جبلة صيحة ، فمات القارئ ، فقال جبلة : واحد بواحد والبادى أظلم .

وسئل إبراهيم المارستانى عن الحركة عند السماع فقال : بلغنى أن موسى عليه السلام قص[١] فى بنى إسرائيل ، فمزق واحد منهم قميصه ، فأوحى الله تعالى إليه : قل له مزِّق لى قلبك ولا تمزِّق ثيابك .

وسئل أبو على المغازلى الشبلى فقال : ربما يطرق سمعى آية من كتاب الله عز وجل فتحدونى[٢] على ترك الأشياء والإعراض عن الدنيا ، ثم أرجع إلى أحوالى وإلى الناس ..

فقال الشبلى : ما اجتذبك إليه فهو عطف منه عليك ، ولطف ، ومارُدِدت إلى نفسك فهو شفقة منه عليك ، لأنه لم يصح لك التبرى من الحول والقوة فى التوجّه إليه .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت أحمد بن مقاتل العكىّ يقول : كنت مع الشبلى فى مسجد ليلة من شهر رمضان وهو يصلى خلف إمام له وأنا بجنبه ، فقرأ الإمام : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾[٣] فزعق زعقة قلت : طارت روحه وهو يرتعد ويقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب !! ويردّد ذلك كثيرًا .

وحكى عن الجنيد أنه قال : دخلت على السرّى يومًا فرأيت عنده رجلًا مغشيا عليه ، فقلت : ماله ؟ فقال : سمع آية من كتاب الله تعالى . فقلت تُقرأ عليه ثانيًا ، فقُرئ ، فأفاق ، فقال لى : من أين علمت هذا ؟ فقلت : إن قميص يوسف ذهبت بسببه عينُ يعقوب عليهما السلام ثم به عاد بصره . فاستحسن منى ذلك .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت عبدالواحد ابن علوان يقول : كان شاب يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئًا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يومًا : إن فعلت ذلك مرةً أخرى لم تصحبنى !! فكان إذا سمع شيئًا يتغير ويضبط نفسه ، حتى كان يقطرُ كل شعرة من بدنه بقطرةٍ[٤]، فيومًا من الأيام صاح صيحة تلفت بها نفسه .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : حكى لى بعض إخوانى عن أبى الحسين الدرّاج قال : قصدت يوسف بن الحسين الرازى من بغداد ، فلما دخلت

---

(١) أى ذكر لهم قصة .

(٢) أى تدفعنى .

(٣) الآية ٨٦ من سورة الإسراء .

(٤) وفى نسخة قطرة أى قطرة ماء مما تقاسيه فى الكتم من الشدة .

« الريّ » سألت عن منزله ، فكلّ من أسأل عنه يقول لى : ما تفعل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى ، حتى عزمت على الانصراف ، فبتّ تلك الليلة فى مسجد ، ثم قلت جئتُ هذه البلدة ، فلا أقلّ من زيارته ؛ فلم أزل أسأل عنه حتى وقعت إلى مسجده وهو قاعد فى المحراب ، وبين يديه رَجل ، وعليه مصحف يقرأ فيه ، وإذا هو شيخ بهىّ ، حسن الوجه واللحية ، فدنوت منه وسلمت عليه ، فردّ السلام وقال : من أين ؟ فقلت : من بغداد ، قصدت زيارة الشيخ .فقال : لو أن فى بعض البلدان قال لك إنسان : أقم عندى حتى أشترى لك دارًا أو جارية ، أكان يمنعك عن زيارتى ؟ فقلت : ياسيدى ، ما امتحننى الله تعالى بشىء من ذلك !! ولو كان لا أدرى كيف كنت أكون ؟ .

فقال : تحسن أن تقول شيئًا ؟ فقلت : نعم ، وقلت :

رأيتُـــك تبنى دائبًـا فى قـــطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ماتبنى

فأطبق المصحف ، ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيتُه وثوبه ، حتى رحمتهُ من كثرة بكائه ؛ ثم قال لى : يابنى : لا تلمُ أهل « الريّ » على قولهم « يوسف بن الحسين زنديق » ومن وقت الصلاة هو ذا أقرأ القرآن فلك تقطر من عينىّ قطرة ، وقد قامت علىَّ القيامة بهذا البيت[1] .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفى يقول : سمعت عبدالله بن على الطوسى يقول : سمعت الرقى يقول : سمعت الدراج يقول كنت أنا وابن القوطى مارين على الدجلة بين « البصرة » و « الأُبُلة » وإذا نحن بقصر حسنٍ ، له منظر ، وعليه رجل وبين يديه جارية تغنى وتقول :

فى سـبيــل الله ود كـــان مـــنى لـــك يـبـذل
كــلَّ يـوم تــتـلوَّن غـير هذا بـك أجمل !!

وإذا شاب تحت المنظرة بيده « ركوة » ، وعليه مرقعة يسمع فقال : يا جارية ، بحياة مولاك أعيدى : كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل فأعادته .

فقال الشاب : قولى . فأعادت فقال الفقير : هذا والله تلونى مع الحق ، وشهق شهقة خرجت روحه . فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرَّة لوجه الله تعالى ، وخرج أهل البصرة ، وفرغوا من دفنه والصلاة عليه ، فقام صاحب القصر ، وقال : أليس تعرفونى !! أشهدكم أن كلَّ شىء لى فى سبيل الله ، وكلَّ مماليكى أحرار ، ثم أتزر بإزار ، وأرتدى برداء ، وتصدق بالقصر ، ومرّ ، فلم يُر له بعد ذلك وجه ، ولا سمع له أثر[2] .

---

(١) أى تغير حاله بسبب سماعه بيت الشعر .
(٢) أى خبر .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفى يقول سمعت عبد الله بن على الطوسى يقول : سمعت يحيى بن الرضا العلوى قال : سمع أبو سلمان الدمشقى « طوافًا » ينادى[١] : ياسعتر برِّى فسقط مغشيا عليه ، فلما أفاق ، سئل ، فقال : حسبته يقول : اسع ترَ برّى .

وسمع عتبةَ الغلامُ رجلًا يقول : سبحان ربِّ السماء ؛ إن المحب لفى عناء .

فقال عتبة : صدقت ؛ وسمع رجل آخر ذلك القول ، فقال : كذبت !

فكلّ واحد سمع من حيث هو .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت أبا الحسن علىّ بن محمد الصوفى يقول : سمعت رويما وقد سئل عن المشايخ ، الذين لقيهم فى السماع ، فقال : كالقطيع إذا وقع فيه الذئب .

وحكى عن أبى سعيد الخراز قال : رأيت على بن الموفق فى السماع يقول : أقيمونى ، فأقاموه ، فقام ، وتواجد ، ثم قال : أنا الشيخ « الزفان » .

وقيل : قام الرقىُّ ليلة إلى الصباح ، يقوم .. ويسقط على هذا البيت[٢] ، والناس قيام يبكون ، والبيت :

بالله فاردد فؤاد مكتئب ليس له من حبيبه خلف

سمعت محمد بن أحمد التميمى يقول : سمعت عبد الله بن على الصوفى يقول : سمعت على بن الحسين بن محمد ابن أحمد بالبصرة يقول : سمعت أبى يقول :

خدمت سهل بن عبد الله سنين كثيرة ، فما رأيته تغيَّر عند سماع شىء كان يسمعه من الذكر والقرآن وغيره ، فلما كان فى آخر عمره قُرىء بين يديه ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾[٣] رأيته تغير ، وارتعد ، وكاد يسقط ، فلما رجع إلى حال صحوه سألته عن ذلك ، فقال يا حبيبى ضعفنا[٤] .

وحكى ابن سالم قال : رأيته مرَّة أخرى قرىء بين يديه ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾[٥]

---

(١) ينادى على نبات السعتر الذى يؤتى به من البرارى .

(٢) أى على سماعه .

(٣) من الآية ١٥ من سورة الحديد .

(٤) ضعف عن كتم حاله .

(٥) من الآية ٢٦ من سورة الفرقان .

فتغير وكاد يسقط ، فقلت له فى ذلك ، فقال : ضعفتُ . وهذه صفة الأكابر لا يرد عليه وارد وإن كان قويا إلا وهو أقوى منه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : دخلت على أبى عثمان المغربىّ وواحد يستقى الماء من البئر على بكرة فقال : يا أبا عبد الرحمن ، أتدرى ما تقول البكرة ؟ فقلت : لا ، فقال : تقول الله . الله .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت على بنْ طاهر يقول : سمعت عبد الله بن سهل يقول : سمعت رويمًا يقول : روى عن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه سمع صوت ناقوس فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا : لا ، قال : إنه يقول : سبحان الله ، حقًا ، إن المولى صمدٌ يبقى .

سمعت محمد بن أحمد التميمى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت أحمد بن على الكرخى الوجيهى يقول : كان جماعة من الصوفية متجمعين فى بيت الحسن القزاز ، ومعهم قوّالون يقولون ويتواجدون ، فأشرف عليهم ممشاد الدينورى ؛ فسكتوا ، فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلو جمع ملاهى الدنيا فى أذنى ما شغل همى ولا شفى بعض ما بى .

وبهذا الإسناد عن الوجيهى قال : سمعت أبا على الروذبارى يقول : بلغنا فى هذا الأمر[1] إلى مكان مثل حد السيف إن ملنا كذا ففى النار .

وقال خير النساج : قصّ موسى بن عمران ، صلوات الله عليه ، على قوم قصة ، فزعق واحد منهم ، فانتهره موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، بطيبى فاحُوا[2] ، وبحبى باحوا ، وبوجدى صاحوا ، فلم تنكر على عبادى ؟!

وقيل : سمع الشبلى قائلًا يقول : الخيارُ عشرةٌ بدانق فصاح وقال : إذا كان الخيار عشرة بدانق فكيف الشرار ؟!

وقيل : إذا تغنت الحور العين فى الجنة توردت الأشجار .

وقيل : كان عون بن عبد الله يأمر جارية له حسنة الصوت فتغنى بصوت حزين حتى تبكى القوم .

وسئل أبو سليمان الدارانى عن السماع ، فقال : كل قلب يريد الصوت الحسن فهو ضعيف

---

(١) أى التصوف .

(٢) وفى نسخة « ناحوا » .

يداوى كما يداوى الصبىّ إذا أريد أن ينام ، ثم قال أبو سليمان : إن الصوت الحسن لا يُدخل فى القلب شيئًا ، وإنما يحرك من القلب ما فيه . قال ابن أبى الحوارى : صدق والله أبو سليمان .

وقال الجريرى : كونوا ربانيين ، أى سمّاعين من الله ، قائلين بالله .

وسئل بعضهم عن السماع فقال : بروق تلمع ثم تخمد ، وأنوار تبدو ثم تخفى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها طرفة عين ، ثم أنشأ يقول :

خطرة فى السرّ منه خطرت   خطرة البرق ابتدى ثم اضمحل
أىُّ زوْر[1] لك لو قصدًا سرَى   وملم بك لو حقا فعل

وقيل : السماع فيه نصيب لكل عضو ؛ فما يقع إلى العين تبكى ، وما يقع إلى اللسان يصيح ، وما يقع على اليد تمزق الثياب وتلطم ، وما يقع إلى الرجل ترقص .

وقيل : مات بعض ملوك العجم ، وخلف أبنًا صغيرًا ، فأرادوا أن يبايعوه فقالوا : كيف نصل إلى معرفة عقله وذكائه ؟!.. ثم توافقوا على أن يأتوا بقوّال يقول شيئًا ؛ فإن أحسن الإصغاء علموا كياسته . فأتوا بقوال ، فلما قال القوال شيئًا ضحك الرضيع ، فقبلوا الأرض بين يديه وبايعوه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : اجتمع أبو عمرو بن نجيد ، والنصر اباذى ، والطبقة فى موضع ؛ فقال النصراباذى : أنا أقول إذا اجتمع القوم فواحد يقول شيئًا ويسكت الباقون خير من أن يغتابوا أحدًا .

فقال أبو عمرو : لأن تغتاب أنت ثلاثين سنة أنجى لك من أن تظهر فى السماع ما لست به .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله ، يقول : الناس فى السماع ثلاثة : متسمع ؛ ومستمع ؛ وسامع ؛ فالمتسمع يسمع بوقت ؛ والمستمع يسمع بحال ؛ والسامع يسمع بحق .

وسألت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله تعالى ، غير مرة . شِبه طلب رخصة فى السماع ، فكان يحيلنى على ما يوجب الإمساك عنه ، ثم بعد طول المعاودة قال : إن المشايخ قالوا : « ما جمع قلبك إلى الله سبحانه وتعالى فلا بأس به » .

أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد الأهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى قال :

---

(١) زور أى زائر .

حدثنا إسماعيل بن الفضل قال : حدثنا يحيى بن معين الرازى قال : حدثنا حفص بن عمر العمرى قال : حدثنا أبو عمر وعثمان بن بدر قال : حدثنا هارون بن حمزة عن الغدافرى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام : إنى جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامى ، وعشرة آلاف لسان حتى أجبتنى ، وأحبُّ ما تكون إلى وأقربه إذا أكثرت الصلاة على محمد ﷺ .

وقيل : رأى بعضهم النبى ﷺ فى المنام فقال : الغلط فى هذا أكثر ؛ يعنى به : السماع .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا بكر النهاوندى يقول : سمعت عليًّا السائح يقول : سمعت أبا الحارث الأولاسى يقول : رأيت إبليس ، لعنه الله ، فى المنام على بعض سطوح « أولاس » وأنا على سطح ، وعلى يمينه جماعة ، وعلى يساره جماعة وعليهم ثياب نظاف ، فقال لطائفة منهم : قولوا .. فقالوا ، وغنوا ، فاستفزعنى طيبه[1] ، حتى هممت أن أطرح نفسى من السطح .

ثم قال : ارقصوا ، فرقصوا أطيب ما يكون ..

ثم قال لى : يا أبا الحارث ، ما أصبتُ شيئًا أدخل به عليكم إلا هذا .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : اجتمعت ليلة مع الشبلى ، رحمه الله ، فقال القوّال ، شيئًا ، فصاح الشبلى ، وتواجد قاعدًا ، فقيل له : يا أبا بكر ، مالك من بين الجماعة قاعدًا ؟!

فقام وتواجد ، وقال :

لى سَكْرَتان ، وللندمانِ واحدةٌ   شىء خُصِصْتُ به من بينهم وحدى

وسمعته يقول : سمعت منصور بن عبد الله الأصبهانى يقول : سمعت أبا علىّ الروذبارى يقول : جزت بقصر ، فرأيت شابًا حسن الوجه مطروحًا ، وحوله ناس ، فسألت عنه ، فقالوا : إنه جاز بهذا القصر وفيه جارية تغنّى :

كبُرَت هِمَّة عبد   طمعت فى أن تراكا
أو ما حسْب لعينٍ   أن ترى من قد رآكا

فشهق شهقة ومات .

---

(١) أى طيب قوله .

باب كرامات الأولياء

قال الأستاذ أبو القاسم : ظهورُ الكرامات على الأولياء جائز .

والدليل على جوازه أنه أمر موهومٌ حدوثه فى العقل لا يؤدى حصوله إلى رفع أصل من الأصول ، فواجبٌ وصفه ، سبحانه ، بالقدرة على إيجاده ، وإذا وجب كونه مقدورًا لله ، سبحانه ، فلا شىء يمنع جواز حصوله .

وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه فى أحواله ، فمن لم يكن صادقًا فظهور مثلها عليه لا يجوز ، والذى يدل عليه أن تعريف القديم سبحانه إيانا[1] ، حتى نفرق بين من كان صادقًا فى أحواله ، وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم ، ولا يكون ذلك إلا باختصاص الولى بما لا يوجد مع المفترى فى دعواه ، وذلك الأمر هو الكرامة التى أشرنا إليها .

ولابد أن تكون هذه الكرامة فعلًا ناقضًا للعادة فى أيام التكليف ، ظاهرًا على موصوف بالولاية فى معنى تصديقه فى حاله .

وتكلم الناس فى الفرق بين الكرامات وبين المعجزات من أهل الحق ؛ فكان الإمام أبو إسحاق الإسفراينى ، رحمه الله ، يقول :

للمعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبىّ ، كما أن العقل المحكم لمّا كان دليلًا للعالِم فى كونه عالِمًا لم يوجد ممن لا يكون عالمًا .

وكان يقول : الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء ، فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا .

وأما الإمام أبو بكر بن فورك ، رحمه الله ، فكان يقول : المعجزات : دلالات الصدق[2] ، ثم إن ادّعى صاحبها النبوة فالمعجزات تدل على صدقه فى مقالته ، وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه فى حالته ، فتسمّى « كرامة » ولا تسمى « معجزة » وإن كانت من جنس المعجزات للفرق .

---

(١) أى إعلامنا بالكرامة .

(٢) أى للأنبياء .

وكان رحمه الله يقول : من الفرق بين المعجزات والكرامات : أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها[١] والولىّ يجب عليه سترها وإخفاؤها[٢] ، والنبى ﷺ يدَّعى ذلك[٣] ويقطع القول به ، والولى لا يدعيها[٤] ولا يُقطع بكرامته ، لجواز أن يكون ذلك مكرًا .

وقال أوحد فنه فى وقته[٥] القاضى أبو بكر الأشعرى ، رضى الله عنه : إن المعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تكون للأولياء كما تكون للأنبياء ولا تكون للأولياء معجزة ، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوة النبوة بها ، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة ، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط ، لا تكون معجزة ، وأحد تلك الشرائط : دعوى النبوة ، والولىّ لا يدّعى النبوة ، فالذى يظهر عليه لا يكون معجزة ...

وهذا القول الذى نعتمده ونقول به ، بل ندين به .

فشرائط المعجزات ، كلها أو أكثرها ، توجد فى الكرامة إلا هذا الشرط الواحد . والكرامة فِعْل لا محالة محدث ، لأن ما كان قديمًا لم يكن له اختصاص بأحد ، وهو ناقض للعادة ، وتحصل[٦] فى زمان التكليف[٧] ، وتظهر على عبد تخصيصًا له وتفضيلاً . وقد تحصل باختياره ودعائه[٨] ، وقد لا تحصل له ، وقد تكون بغير اختياره فى بعض الأوقات ، ولم يؤمر الولىّ بدعاء الخلق إلى نفسه ولو أظهر شيئًا من ذلك على من يكون أهلاً له لجاز .

واختلف أهل الحق فى الولىّ : هل يجوز أن يعلم أنه ولىّ ؟ أم لا ؟

فكان الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله يقول : لا يجوز ذلك ؛ لأنه يسلبه الخوف ويوجب له الأمن .

وكان الأستاذ أبو على الدقاق رحمه الله يقول بجوازه .

وهو الذى نؤثره ونقول به .

وليس ذلك[٩] بواجب فى جميع الأولياء حتى يكون كلُّ ولىّ يعلم أنه ولىّ واجبًا ، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم كما يجوز أن لا يعلمه بعضهم ، فإذا علم بعضهم أنه ولى كانت معرفته تلك كرامةً له انفرد بها .

---

(١) أى إظهار المعجزات .
(٢) أى إخفاء الكرامات .
(٣) أى ما ذكر من المعجزات .
(٤) أى الكرامة .
(٥) وفى بعض النسخ « أوحد وقته فى فنه » .
(٦) أى الكرامة .
(٧) أى فى مدة الحياة الدنيوية .
(٨) أى طلبه لها .
(٩) أى علم الولى بأنه ولى .

وليس كل كرامة لوليّ يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء ، بل لو لم يكن للولى كرامة ظاهرة عليه فى الدنيا لم يقدح عدمها فى كونه وليًّا ، بخلاف الأنبياء فإنه يجب أن تكون لهم معجزات ؛ لأن النبى مبعوث إلى الخلق فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه ؛ ولا يعرف إلا بالمعجزة .

وبعكس ذلك حال الولى ؛ لأنه ليس بواجب على الخلق ، ولا على الولى أيضًا ، العلم بأنه وليّ .

والعشرة من الصحابة صَدَّقوا الرسول ﷺ فيما أخبرهم به أنهم من أهل الجنة .

وقول من قال لا يجوز ذلك لأنه يخرجهم من الخوف فلا بأس أن يخافوا تغيير العاقبة ، والذى يجدونه فى قلوبهم من الهيبة والتعظيم والإجلال للحق ، سبحانه ، يزيد ويربو على كثير من الخوف .

واعلم أنه ليس للوليّ مساكنة[1] إلى الكرامة التى تظهر عليه ، ولا له ملاحظة ، وربما يكون لهم فى ظهور جنسها قوة يقين وزيادة بصيرة لتحققهم أن ذلك فعل الله ، فيستدلون بها على صحة ما هم عليه من العقائد .

وبالجملة ، فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب ، وعليه جمهور أهل المعرفة ، ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبارُ والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء فى الجملة علمًا قويًا انتفى عنه الشكوك ، ومن توسَّط هذه الطائفة وتواتر عليه حكاياتهم وأخبارهم لم تبق له شبهة فى ذلك على الجملة ، ومن دلائل هذه الجملة : نص القرآن فى قصة صاحب سليمان عليه السلام ، حيث قال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[2] ولم يكن نبيًّا .

والأثر : عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، صحيح أنه قال : « ياسارية الجبل »[3] فى حال خطبته يوم الجمعة ، وتبليغ صوت عمر إلى سارية فى ذلك الوقت حتى تحرز من مكامن العدو من الجبل فى تلك الساعة .

فإن قيل : كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة فى المعانى على معجزات الرسل ؟ وهل يجوز تفضيلُ الأولياء على الأنبياء عليهم السلام ؟

قيل : هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا ﷺ ؛ لأن كل من ليس بصادق فى الإسلام

---

(١) سكون .

(٢) آية ٤٠ من سورة النمل .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ، وابن كثير .

لا تظهر عليه الكرامة ، وكل نبى ظهرت كرامته على واحد من أمته فهى معدودة من جملة معجزاته ؛ إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقًا لم تظهر على يد من تابعه الكرامة ، فأمَّا رتبة الأولياء فلا تبلغ رتبةَ الأنبياء عليهم السلام ؛ للإجماع المنعقد على ذلك .

وهذا أبو يزيد البسطامى سئل عن هذه المسألة فقال :

مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زِق فيه عسل ترشح منه قطرة ، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء ، وما فى الظرف مثل لنبينا ﷺ .

فصل

ثم هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام فى أوان فاقة من غير سبب ظاهر ، أو حصولَ ماء فى زمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة ، أو تخليصًا من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة .

واعلم أن كثيرًا من المقدورات يعلم اليوم قطعًا أنه لا يجوز أن يظهر كرامة للأولياء ، وبضرورة أو شبه ضرورة يعلم ذلك ، فمنها[1] حصول إنسان لا من أبوين ، وقلبَ جمادٍ بهيمةً أو حيوانًا ، وأمثال هذا كثير .

فصل

فإن قيل : فما معنى الولى ؟

قيل : يحتمل أمرين : أحدهما أن يكون فعيلًا مبالغة من الفاعل ؛ كالعليم ، والقدير وغيره ، فيكون معناه : من توالت طاعاته من غير تخلل معصية .

ويجوز أن يكون فعيلًا بمعنى مفعول ، كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح بمعنى مجروح ، وهو الذى يتولى الحقّ ، سبحانه ، حفظه وحراسته على الإدامة والتوالى ، فلا يخلق له الخذلان الذى هو قدرة العصيان ، وإنما يديم توفيقه الذى هو قدرة الطاعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[2] .

---

(١) أى من تلك المقدورات .

(٢) من أية ١٩٦ من سورة الأعراف .

فصل

فإن قيل : فهل يكون الولىّ معصومًا ؟

قيل : إمَّا وجوبًا ، كما يقال فى الأنبياء فلا ، وإمَّا أن يكون محفوظًا حتى لا يصرّ على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلّات ، فلا يمتنع ذلك فى وصفهم .

ولقد قيل للجنيد : العارف يزنى يا أبا القاسم ؟

فأطرق مليّا[1] ، ثم رفع رأسه وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[2] .

فصل

فإن قيل : فهل يسقط الخوف عن الأولياء ؟

قيل : أمّا الغالب على الأكابر فكان الخوف ، وذلك الذى قلنا فيما تقدم على جهة الندرة غير ممتنع ، وهذا السرىّ السقطىّ يقول :

لو أن واحدا دخل بستانًا فيه أشجار كثيرة وعلى كلِّ شجرة طير يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا ولى الله . فلو لم يخف أنه مكرٌ لكان ممكورًا . وأمثال هذا من حكاياتهم كثيرة .

فصل

فإن قيل : فهل تجوز رؤية الله سبحانه ، بالأبصار اليوم فى الدنيا على جهة الكرامة ؟

فالجواب عنه : أن الأقوى فيه أنه لا يجوز ؛ لحصول الإجماع عليه ، ولقد سمعت الإمام أبا بكر بن فورك ، رضى الله عنه ، يحكى عن أبى الحسن الأشعرى أنه قال فى ذلك قولين فى كتاب « الرؤية الكبير » .

---

(١) أى طويلًا .

(٢) من آية ٣٨ من سورة الأحزاب .

فصل

فإن قيل : فهل يجوز أن يكون وليا فى الحال ثم تتغير عاقبته ؟

قيل : من جعل من شرط الولاية حسن الموافاة لا يجوز ذلك .

ومن قال : إنه فى الحال مؤمن على الحقيقة وإن جاز أن يتغير حاله بعد لا يبعد أن يكون وليا فى الحال صديقًا ، ثم يتغير ، وهو الذى نختاره .

ويجوز أن يكون من جملة كرامات الولىّ أن يعلم أنه مأمون العاقبة ، وأنه لا تتغير عاقبته ، فتلتحق هذه المسألة بما ذكرنا أن الولى يجوز أن يعلم أنه ولى .

فصل

فإن قيل : فهل يزايل الولىّ خوف المكر ؟

قيل : إن كان مصطلمًا[1] عن شاهده ، مختطفًا عن إحساسه بحاله فهو مستهلك عنه فيما استولى عليه ، والخوف من صفات الحاضرين بهم[2] .

فصل

فإن قيل : فما الغالب على الولىّ فى حال صحوه ؟

قيل : صدقه فى أداء حقوقه ، سبحانه ، ثم رفقه وشفقته على الخلق فى جميع أحواله ، ثم انبساط رحمته لكافة الخلق ، ثم دوام تحمله عنهم بجميل الخُلق ، وابتدائه لطلب الإحسان من الله عزَّ وجلَّ إليهم من غير التماس منهم ، وتعليق الهمة بنجاة الخلق ، وترك الانتقام منهم ، والتوقى عن استشعار حقد عليهم مع قصر اليد عن أموالهم ، وترك الطمع بكل وجه فيهم ، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم ، والتصاون عن شهود مساويهم ، ولا يكون خصمًا لأحدٍ فى الدنيا ولا فى الآخرة .

---

(١) أى مستغرقًا .

(٢) أى منهم .

واعلم أنَّ من أجَلّ الكرامات التى تكون للأولياء : دوامَ التوفيق للطاعات ، والعصمة عن المعاصي والمخالفات ، ومما يشهد من القرآن على إظهار الكرامات على الأولياء قوله ، سبحانه ، فى صفة مريم عليها السلام ولم تكن نبيا ولا رسولاً :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ . وكان يقول : ﴿ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ ﴾[1] فتقول مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾[1] . وقوله سبحانه : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[2] وكان فى غير أوان الرطب ، وكذلك قصة أصحاب الكهف والأعاجيب التى ظهرت عليهم من كلام الكلب معهم وغير ذلك ، ومن ذلك قصة « ذى القرنين » وتمكينه سبحانه له ما لم يمكن لغيره ، ومن ذلك ما أظهر على يدى الخضر عليه السلام من إقامة الجدار وغيره من الأعاجيب ، وما كان يَعْرِفه مما خفى على موسى عليه السلام . كلّ ذلك أمور ناقضة للعادة اختصَّ الخضر عليه السلام بها ، ولم يكن نبيًّا ، وإنما كان وليًّا .

ومما رُوى من الأخبار فى هذا الباب حديث « جريج الراهب » ؛ أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني قال : أخبرنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق قال : حدّثنا عمار بن رجاء قال : حدثنا وهب بن جرير قال : حدثنا أبى قال : سمعت محمد ابن سيرين ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ .

« لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصبىّ فى زمن جريج ، وصبى آخر ؛ فأما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلاً عابدًا فى بنى إسرائيل . وكانت له أم ، فكان يومًا يصلى إذ اشتاقت إليه أمه ، فقالت : يا جريج . فقال : يارب ، الصلاة خير أم أتيها ؟[3] ثم صلى[4] . فدعته ، فقال مثل ذلك . ثم صلى . فاشتدّ على أمه . فقالت : اللهمَّ لا تمته حتى تريه وجوه المومسات . وكانت زانيةٌ فى بنى إسرائيل ، فقالت لهم : أنا أفتن جريجًا حتى يزنى ؛ فأتته ، فلم تقدر على شىء ، وكان راع يأوى بالليل إلى أصل صومعته[5] ، فلما أعياها راودت الراعى على نفسها ؛ فأتاها ، فولدت ، ثم قالت : ولدى هذا من جريج . فأتاه بنو إسرائيل ، وكسروا صومعته ، وشتموه ، ثم صلى ودعا ، ثم نخس[6] الغلام ..

---

(١) آية ٣٧ من سورة آل عمران .
(٢) آية ٢٥ من سورة مريم .
(٣) وفى نسخة « أم إجابتها » .
(٤) أى استمر فى صلاته .
(٥) أى صومعة جريج .
(٦) طعنه بيده .

قال محمد[١] قال أبو هريرة : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ حين قال بيده : يا غلام من أبوك ؟

فقال : الراعى ؛ فندموا على ما كان منهم ، واعتذروا إليه ، وقالوا : نبنى صومعتك من ذهب - أو قال : من فضة - فأبى عليهم ، وبناها كما كانت ..

وأمَّا الصبىُ الآخر فإن امرأة كان معها صبى لها ترضعه ، إذ مرَّ بها شاب جميل الوجه ، ذو شارة[٢] ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فقال الصبى : اللهم لا تجعلنى مثله ..

قال محمد : قال أبو هريرة : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ حين كان يحكى الغلامُ وهو يرضع ثم مرت بها أيضًا امرأة ذكروا أنها سرقت ، وزنت ، وعوقبت ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذا !!

فقال : اللهم اجعلنى مثلها ...

فقالت له أمه فى ذلك ، فقال : إن الشابَّ جبار من الجبابرة ، وإن هذه (المرأة) قيل : إنها زنت ولم تزن ، وقيل : سرقت ولم تسرق ، وهى تقول : حسبىَ الله »[٣] .

وهذا الخبر روى فى الصحيح ، ومن ذلك حديث الغار ، وهو مشهور مذكور فى الصحاح .

أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني قال : حدثنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق قال : حدثنا محمد بن عون ، وزيد بن عبد الصمد الدمشقى ، وعبد الكريم بن الهيثم الديرعاقولى ، وأبو الخصيب بن المستنير المصيصى قالوا : حدثنا أبو اليمان قال : حدثنا شعيب عن الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم ، فآواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدّت عليهم الغار . فقالوا : إنه والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ؛ فقال رجل منهم : إنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبُق[٤] قبلها أهلًا ولا مالًا ، فعاقنى طلب الشجر يومًا ، فلم أُرح[٥] عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبُوقهما[٦] ، فجئتهما به .. فوجدتهما نائمين .. فتحرجت أن أوقظهما ، وكرهت أن

---

(١) ابن سيرين .

(٢) أى هيئة حسنة .

(٣) وحديث : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة .. أخرجه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال صحيح . وقد ذكره النووى فى الرياض أيضًا .

(٤) أغبق (بضم الباء) أى أسقى .

(٥) أصل إليهما .

(٦) مشروبهما .

أغبق[١] قبلها أهلاً ولا مالاً[٢] ، فقمت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا ، فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت انفراجًا لا يستطيعون الخروج منه ، فقال رسول الله ﷺ : وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى بنت عمّ ، وكانت أحبّ الناس إلىّ ، فراودتها عن نفسها ، فامتنعت ، حتى ألمت بها سنةٌ من السنين[٣] فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلّى بينى وبين نفسها ، ففعلت .. حتى إذا قدرت عليها ، قالت : لا يحلّ لك أن تفضَّ الخاتم إلّا بحقّه !! فتحرجت من الوقوع عليها .. فانصرفت عنها وهى أحبّ الناس إلىّ .. وتركتُ الذهبَ الذى أعطيتها : اللهم ، إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، قال رسول الله ﷺ : ثم قال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم ، غير رجل واحد منهم ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله ، أدّ إلىّ أجرتى ، فقلت له . كلٌّ ما ترى من أجرتك من الإبل والغنم والبقر والرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى !! فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، فأخذ ذلك كله فاستاقه[٤] ، ولم يترك منه شيئًا . اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه .. فانفرجت الصخرة ، فخرجوا من الغار يمشون »[٥] .

ومن ذلك الحديث الذى قال ﷺ فيه إن البقرة كلمتهم : أخبرنا أبو نعيم الإسفراييني قال : أخبرنا أبو عوانة قال : حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرنى يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب قال : حدثنى سعيد بن المسيَّب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال :

بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها .. التفتت البقرة وقالت : إنى لم أخلق لهذا ؛ إنما خلقت للحرث !! فقال الناس : سبحان الله !! فقال النبى ﷺ : آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر » .

ومن ذلك حديث أويس القرنى ، وما شهد به عمر بن الخطاب رضى الله عنه من حاله وقصته ، ثم التقاؤه[٦] مع هرم بن حيان ، وتسليم أحدهما على صاحبه من غير معرفة تقدمت بينهما ، وكل ذلك أحوال ناقضة للعادة . وتركنا شرح حديث أويس لشهرته .

---

(١) الغبوق : الشرب آخر النهار والصبوح الشرب أوله .
(٢) أى حيوانا .
(٣) أى سنة مجدبة .
(٤) ساقه .
(٥) حديث صحيح متفق عليه .
(٦) أى أويس .

ولقد ظهر على السلف من الصحابة والتابعين ، ثم على من بعدهم من الكرامات ما بلغ حد الاستفاضة .

وقد صُنف فى ذلك كتب كثيرة وسنشير إلى طرف منها على وجه الإيجاز ، إن شاء الله عز وجل ، فمن ذلك : أن ابن عمر كان فى بعض الأسفار فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع ، فطردَ السبعَ من طريقهم ، ثم قال : إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه ، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شىء . وهذا خبر معروف .

وروى أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمى فى غزاة ، فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر ، فدعا الله باسمه الأعظم ومشوا على الماء .

وروى أن عتاب بن بشير ، وأسيد بن حضير خرجا[1] من عند رسول الله ﷺ ، فأضاء لهما رأس عصا أحد كالسراج[2] .

وروى أنه كان بين يدى سلمان وأبى الدرداء قصعة .. فسبحت حتى سمعا التسبيح .

وروى أن النبى ﷺ قال : « كم من أشعث أغبر ذى طمرين[3] لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره »[4] .

ولم يفرق بين شىء وشىء فيما يقسم به على الله سبحانه .

وهذه الأخبار لشهرتها أضربنا عن ذكر أسانيدها .

وحكى عن سهل بن عبد الله أنه قال : « من زهد فى الدنيا أربعين يومًا صادقًا من قلبه مخلصًا فى ذلك ظهرت له الكرامات ، ومن لم تظهر له ، فلعدم الصدق فى زهده » ، فقيل لسهل : كيف تظهر له الكرامة ؟ فقال : يأخذ ما يشاء كما يشاء من حيث يشاء .

أخبرنا على بن أحمد بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن عبيد الصفار قال : حدثنا أبو مسلم قال : حدثنا عمرو بن مرزوق قال : حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون قال : حدثنا وهب بن كيسان ، عن ابن عمر ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « بينا رجل ذكر كلمة

---

(١) فى ليلة مظلمة .

(٢) وروى : يظهر عند طرف سوط أحدهما كالقنديل من النور يستضيئان به فقال صاحبه : لو حدثنا الناس بهذا لكذبونا .

(٣) ثوبين قديمين .

(٤) الحديث رواه البراء بن مالك وأخرجه الترمذى والضياء عن أنس ورمز له السيوطى بالضعف وقال المناوى فى الفيض : (الحديث رواه أبو نعيم وغيره عن أنس ، والترمذى والضياء فى المختارة عن أنس ، ورواه عنه أيضًا الحاكم وصححه أبو نعيم .

وفى رواية أخرى فيها أخرجه ابن عساكر عن عائشة : (كم من ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » ورمز السيوطى لهذه الرواية بالضعف ، ورواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى : سنده ضعيف يجبر بتعدده فقد رواه الرافعى فى أماليه أيضًا .

إذ سمع رعدًا فى السحاب . فسمع صوتًا فى السحاب : أن اسق حديقة فلان ، فجاء ذلك السحاب إلى « سرحة »[١] فأفرغ ماءه فيها ، فأتبع[٢] السحاب . فإذا رجل قائم يصلى فى حديقة . فقال : ما اسمك ؟ فقال : فلان بن فلان باسمه . قال : فما تصنع بحديقتك هذه إذ صرمتها[٣] ؟ قال : ولم تسأل عن ذلك ؟ قال : إنى سمعت صوتًا فى السحاب أن اسق حديقة فلان . قال : أما إذ قلت[٤] فإنى أجعلها أثلاثًا . فأجعل لنفسى ولأهلى ثلثًا وأرد عليها[٥] ثلثا ، وأجعل للمساكين وابن السبيل ثلثًا » .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : دخلنا « تستر » فرأينا فى قصر سهل بن عبد الله بيتًا كان الناس يسمونه « بيت السباع » فسألنا الناس عن ذلك . فقالوا : كان السباع تجىء إلى سهل ، فكان يدخلهم هذا البيت ، ويضيفهم ، ويطعمهم اللحم ، ثم يخليهم .

قال أبو نصر : ورأيت أهل « تستر » كلهم متفقين على هذا لا ينكرونه وهم الجمع الكثير .

سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمى يقول : سمعت عبد الله بن على الصوفى يقول ؛ سمعت حمزة بن عبد الله العلوى يقول : دخلت على أبى الخير التيناتى ، وكنت أعتقدت فى نفسى أن أسلم عليه وأخرج ولا آكل عنده طعاما ، فلما خرجت من عنده ومشيت قدرًا فإذا به خلفى ، وقد حمل طبقًا عليه طعام ، فقال : يا فتى . كل هذا ؛ فقد خرجت الساعة من اعتقادك .

وأبو الخير التيناتى مشهور بالكرامات .

وحكى عن إبراهيم الرقىّ أنه قال : قصدته مسلمًا عليه ، فصلى صلاة المغرب فلم يقرأ الفاتحة مستويًا[٦] . فقلت فى نفسى : ضاعت سفرتى ، فلما سلمت خرجت للطهارة فقصدنى السبع ، فعدت إليه وقلت : إن الأسد قصدنى !! فخرج وصاح على الأسد وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفانى ؟؟ وتنحى .. وتطهرت . فلما رجعت قال : اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم القلب فخافنا الأسد .

---

(١) أى حديقة .
(٢) أى السامع .
(٣) أى قطعت شجرها .
(٤) أى سألت .
(٥) أى أخصصه لأجلها .
(٦) أى لم يحسن قراءتها .

وقيل : كان لجعفر الخلدى « فص » فوقع يومًا فى « دجلة » وكان عنده دعاء مجرَّب للضالة ترد فدعا به ؛ فوجد الفصّ فى وسط أوراق كان يتصفحها .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول :

إن ذلك الدعاء : « يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع على ضالتى » .

قال أبو نصر السرَّاج : أرانى أبو الطيب العكى جزءًا ذكر فيه من ذكر هذا الدعاء على ضالة وجدها ، وكان الجزء أوراقًا كثيرة .

سألت أحمد الطابرانى السرخسى ، رحمه الله ، فقلت له :

هل ظهر لك شىء من الكرامات ؟ فقال : فى وقت إرادتى وابتداء أمرى ربما كنت أطلب حجرًا أستنجى به فلم أجد ، فتناولت شيئًا من الهواء فكان جوهرًا ، فاستنجيت به وطرحته .

ثم قال : وأىّ خطر للكرامات ؟! إنما المقصود منه : زيادة اليقين فى التوحيد ، فمن لا يشهد غيره[1] موجدًا[2] فى الكون فسواء أبصر فعلًا معتادًا ، أو ناقضًا للعادة .

سمعت محمد بن أحمد الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت أبا الحسن البصرى يقول :

كان بـ« عبادان » رجل أسود فقير يأوى إلى الخرابات ، فحملتُ معى شيئًا وطلبته ، فلما وقعت عينه علىَّ تبسم ، وأشار بيده إلى الأرض ، فرأيت الأرض كلها ذهبًا يلمع ، ثم قال : هات ما معك ، فناولته ، وهالنى أمره ، وهربت .

سمعت منصور المغربى يقول : سمعت أحمد بن عطاء الروذبارى يقول : كان لى استقصاء[3] فى أمر الطهارة ، فضاق صدرى ليلة ، لكثرة ما صببت من الماء ، ولم يسكن قلبى ، فقلت : ياربّ عفوك ، فسمعت هاتفًا يقول : العفو فى العلم ، فزال عنى ذلك .

سمعت منصورًا المغربى يقول : فرأيته[4] يومًا قعد على الأرض فى الصحراء وكان عليها آثار الغنم بلا سجادة ، فقلت : أيها الشيخ هذه آثار الغنم !! فقال : اختلف الفقهاء فيه .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرّاج يقول : سمعت الحسين بن أحمد الرازىّ يقول : سمعت أبا سليمان الخواص يقول : كنت راكبًا حمارًا يومًا ، وكان الذباب

---

(١) أى غير الله الواحد .
(٢) وفى نسخة : « موجودًا » .
(٣) أى مبالغة .
(٤) أى الروذبارى .

يؤذيه ، فيطأطئ رأسه ، فكنت أضرب رأسه بخشبة فى يدى ، فرفع الحمار رأسه وقال : اضرب ، فإنك على رأس هوذا تضرب .

قال الحسين : فقلت لأبى سليمان لك وقع هذا ؟ فقال : نعم . كما تسمعنى .

وذكر عن ابن عطاء أنه قال : سمعت أبا الحسين النورى يقول :

كان فى نفسى شىء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ، ثم قلت : وعزّتك إنْ لم تخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسى ، قال : فخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال .

فبلغ ذلك الجنيد فقال : كان حكمه[1] أن تخرج له أفعى تلدغه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا الفتح يوسف بن عمر الزاهد القوّاس ببغداد يقول : حدثنا محمد بن عطية قال : حدثنا عبد الكبير بن أحمد قال : سمعت أبا بكر الصائغ قال : سمعت أبا جعفر الحداد أستاذ الجنيد قال : كنت بمكة ، فطال شعرى ولم يكن معى قطعة من حديد آخذ بها شعرى ، فتقدمت إلى مزين توسمت فيه الخير ، فقلت : تأخذ شعرى لله تعالى ؟ فقال : نعم ، وكرامة ، وكان بين يديه رجل من أبناء الدنيا فصرفه وأجلسنى ، وحلق شعرى ، ثم دفع إلىّ قرطاسًا فيه دراهم وقال لى : استعن بها على بعض حوائجك ، فأخذتها واعتقدت[2] أن أدفع إليه أوّل شىء يفتح علىّ به .

قال : فدخلت المسجد ، فاستقبلنى بعض أصحابى وقال لى : جاء بعض إخوانك بصرّة من البصرة من بعض إخوانك فيها ثلاثمائة دينار .

قال : فأخذت الصرّة وحملتها إلى المزين وقلت : هذه ثلاثمائة دينار تصرفها فى بعض أمورك . فقال لى : ألا تستحى يا شيخ !! تقول لى احلقْ شعرى لله ، ثم آخذ عليه شيئًا .. انصرف عافاك الله .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : سمعت بن سالم يقول : لما مات إسحاق بن أحمد دخل عليه سهل بن عبد الله صومعته فوجد فيها « سفطا »[3] فيه قارورتان فى واحدة منها شىء أحمر ، وفى الأخرى شىء أبيض ، ووجد « شوشقة »[4] ذهب ، وشوشقة فضة ، قال : فرمى بالشوشقين فى الدجلة ؛ وخلط ما فى القارورتين

---

(١) أى جزاء النورى .
(٢) أى عزمت .
(٣) السفط « بفتح الفاء » القفة .
(٤) يعنى : قطعة .

بالتراب ، وكان على إسحاق دين قال ابن سالم : قلت لسهل : ماذا كان فى القارورتين ؟ قال : إحداهما لو طرح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس صار ذهبًا ، والأخرى لو طرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صار فضة ، فقلت : وماذا عليه لو قضى منه دَيْنه ؟

فقال : أى « دوست »[1] خاف على إيمانه .

وحكى عن النورى أنه خرج ليلة إلى شط « دجلة » فوجدها وقد التزق الشطان ، فانصرف وقال : وعزتك لا أجوزها إلا فى زورق[2] .

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج يقول : أملى علينا الوجيهى حكاية عن محمد بن يوسف البناء قال : كان أبو تراب النخشبى صاحب كرامات ، فسافرت معه سنة ، وكان معه أربعون نفسًا : ثم أصابتنا مرّة فاقة ، فعدل أبو تراب عن الطريق ، وجاء « بِعذْق » موز فتناولنا ، وفينا شاب فلم يأكل !! فقال له أبو تراب : كل ..

فقال : الحال الذى اعتقدته ترك المعلومات ، وصرت أنت معلومى ، فلا أصحبك بعد هذا !!

فقال له أبو تراب : كن مع ما وقع لك .

وحكى أبو نصر السراج عن أبى يزيد[3] قال : دخل علىَّ أبو علىّ السندىّ وكان أستاذه وبيده جراب ، فصبَّها فإذا هى جواهر ، فقلت : من أين لك هذا ؟ فقال : وافيت واديا هاهنا ، فإذا هو يضىء كالسراج ، فحملت هذا .

فقلت : فكيف كان وقتك الذى وردت فيه الوادى ؟

فقال : وقت فترة عن الحال التى كنت فيها .

وقيل لأبى يزيد : فلان يمشى فى ليلة إلى مكة !

فقال : الشيطان يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب فى لعنة الله .

وقيل له فلان يمشى على الماء ويطير فى الهواء .

فقال : الطير يطير فى الهواء ، والسمك يمر على وجه الماء .

---

(١) لفظة فارسية معناها : يا صاحبى .

(٢) قال الإمام العروسى: أى التقيا له الشطان بحيث لو مد رجله كان على الشط الآخر فانصرف ، وقال تأدبًا واعترافًا بتوالى نعم الله عليه فى كل خارق : « وعزتك لا أجوزها إلا فى زورق » كسائر الناس .

(٣) البسطامى .

وقال سهل بن عبد الله : أكبر الكرامات أن تُبدّل خُلقًا مذمومًا من أخلاقك ...

سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي يقول : سمعت عبد الله بن على الصوفى يقول : سمعت ابن سالم يقول : سمعت أبى يقول : كان رجل يقال له « عبد الرحمن بن أحمد » يصحب سهل بن عبد الله ، فقال له يومًا : ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء بين يدى قضبانَ ذهب وفضة .

فقال سهل : أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون « خشخاشة »[١] ليشتغلوا بها ؟!

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرّاج يقول أخبرنى جعفر بن محمد قال : حدثنى الجنيد قال :

دخلت على السرى يومًا فقال لى : عصفور كان يجىء فى كل يوم فأفتُّ له الخبز ، فيأكل من يدى ، فنزل وقتًا من الأوقات فلم يسقط على يدى ، فتذكرت فى نفسى : ماذا يكون السبب ؟ فذكرت أنى أكلت ملحًا بأبزار[٢] ، فقلت فى نفسى : لا آكل بعدها ، وأنا تائب منه ، فسقط على يدى وأكل .

وحكى أبو عمرو الأنماطى قال : كنت مع أستاذى فى البادية ، فأخذنا المطر ، فدخلنا مسجدًا نستكنُّ فيه ، وكان السقف يكف[٣] ، فصعدنا السطح ، ومعنا خشبة نريد إصلاح السقف ، فقصر الخشب عن الجدار ، فقال لى أستاذى : مدّها ، فمددتها .. فركبت الحائط من ها هنا ومن ها هنا .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن أحمد النجار يقول : سمعت الرقى يقول : سمعت أبا بكر الدقاق يقول :

كنت مارًا فى تيه بنى إسرائيل فخطر ببالى أن علم الحقيقة مباين للشريعة ، فهتف بى هاتف من تحت شجرة : كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهى كفر .

وقال بعضهم : كنت عند خير النساج ، فجاءه رجل وقال : أيها الشيخ رأيتك أمس وقد بعت الغزل بدرهمين[٤] ، فجئت خلفك ، فحللتهما من طرف إزارك ، وقد صارت يدى منقبضة على الدرهمين فى كفى ، قال : فضحك خير وأومأ بيده إلى يدى ففتحها ، ثم قال : امض واشتر

---

(١) الخشخاش - بفتح الأول - نبات . واحدته خشخاشة .
(٢) الأبزار : التوابل .
(٣) أى يقطر ويسيل .
(٤) وصررت الدرهمين فى طرف إزارك .

بها لعيالك شيئًا ، ولا تعد لمثله .

وحكى عن أحمد بن محمد السلمى قال : دخلت على ذى النون المصرى يومًا ، فرأيت بين يديه طشتا من ذهب ، وحوله النّدّ[١] ، و « العنبر » يسجر[٢] ، فقال لى : أنت ممن يدخل على الملوك فى حال بسطهم ؟ ثم أعطانى درهما ، فأنفقت منه إلى بلخ .

وحكى عن أبى سعيد الخرّاز قال : كنت فى بعض أسفارى ، وكان يظهر لى كل ثلاثة أيام شىء ، فكنت آكله ، وأستقلّ به[٣] ، فمضى علىّ ثلاثة أيام وقتًا من الأوقات ولم يظهر شىء فضعفت !! وجلست ، فهتف بى هاتف . أيما أحب إليك : سبب ، أو قوة ؟

فقلت : القوة . فقمت من وقتى ، ومشيت اثنى عشر يومًا لم أذق فيها شيئًا ، ولم أُضْعُف .

وعن المرتعش قال : سمعت الخواص يقول : تهت فى البادية أيامًا ، فجاءنى شخص وسلم علىّ ، وقال لى : تهت !! فقلت له : نعم ، فقال : ألا أدلك على الطريق ؟

ومشى بين يدى خطوات ، ثم غاب عن عينى ، وإذا أنا على الجادة ، فبعد ذلك ما تهت ولا أصابنى فى سفر جوع ولا عطش .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى ، يقول : سمعت عمر بن يحيى الأردبيلى يقول : سمعت الرقىّ يقول : سمعت ابن الجلاء يقول لى :

لما مات أبى ضحك عند المغتسل ؛ فلم يجسر أحد يغسله ، وقالوا : إنه حىّ ، حتى جاء واحد من أقرانه وغسله .

سمعت محمد بن أحمد التميمى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت طلحة القصائرى يقول : سمعت المنيحى صاحب سهل بن عبد الله يقول : كان سهل يصبر عن الطعام سبعين يومًا ، وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوى .

وكان أبو عبيد البسرىّ إذا كان أو شهر رمضان يدخل بيتًا ، ويقول لامرأته : طبنى علىَّ الباب ، وألقى إلىّ كل ليلة من الكوّة[٤] رغيفًا ، فإذا كان يوم العيد فتح الباب ودخلت امرأته البيت فإذا بثلاثين رغيفًا فى زاوية البيت ، فلا أكل ولا شرب ، ولا نام ، ولا فاتته ركعة من الصلاة .

---

(١) الند – بفتح النون – خليط من مسك وكافور .
(٢) أى يوقد فى النار .
(٣) أى أكتفى .
(٤) بفتح الكاف ، ومر الطاقة .

وقال أبو الحارث الأولاسى : مكثت ثلاثين سنة ما يسمع[1] لسانى إلّا من سرّى ، ثم تغيرت الحال ؛ فمكثت ثلاثين سنة لا يسمع سرّى إلّا من ربى .

حدثنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : حدثنا أبو الحسين غلام شعوانة قال : سمعت على ابن سالم يقول : كان سهل بن عبد الله أصابته زمانة فى آخر عمره ، فكان إذا حضر وقت الصلاة انتشرت يداه ورجلاه ، فإذا فرغ من الفرض عاد إلى حال الزمانة .

وحكى عن أبى عمران الواسطى قال : انكسرت السفينة وبقيت أنا وامرأتى على لوح ، وقد ولدت فى تلك الحالة صبية ، فصاحت بى وقالت لى : يقتلنى العطش !! فقلت : هو ذَا يرى حالنا ؛ فرفعت رأسى ، فإذا رجل فى الهواء وفى يده سلسلة من ذهب وفيها كوز من ياقوت أحمر ، وقال : هاكَ اشربا . قال : فأخذت الكوز وشربنا منه فإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل . فقلت : من أنت رحمك الله ؟

فقال : عبد لمولاك . فقلت : بِمَ وصلت إلى هذا ؟

قال : تركت هواى لمرضاته فأجلسنى فى الهواء . ثم غاب عنى ولم أره .

أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : حدثنا بكران بن أحمد الجيلى قال : سمعت يوسف ابن الحسين يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول :

رأيت شابا عند الكعبة يكثر الركوع والسجود فدنوت منه ، وقلت : إنك تكثر الصلاة !! فقال : أنتظر الإذن من ربى فى الانصراف .

قال : فرأيت رقعة سقطت عليه ، مكتوب فيها : « من العزيز الغفور إلى عبدى الصادق : انصرف مغفورًا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

وقال بعضهم :

كنت بمدينة الرسول ﷺ فى مسجده مع جماعة نتجارى[2] الآيات ، ورجل ضرير بالقرب منا يسمع ، فتقدّم إلينا ، وقال : أنست بكلامكم ؛ واعلموا أنه كان لى صبية وعيال ، وكنت أخرج إلى البقيع أحتطب ، فخرجت يومًا .. فرأيت شابا عليه قميص كتان ونعله فى إصبعه ، فتوهمت أنه تائه . فقصدته أسلب ثوبه : فقلت له : انزع ما عليك . فقال : سر فى حفظ الله . فقلت الثانية والثالثة . فقال : لا بد ؟ فقلت : لا بد !! فأشار من بعيد بأصبعه إلى عينى فسقطتا . فقلت : بالله عليك . من أنت ؟ فقال : إبراهيم الخوّاص .

---

(١) أى لا ينطق .

(٢) أى نقص ونحكى كرامات الأولياء .

وقال ذو النون المصرى :

كنت وقتًا فى السفينة فسرقت قطيفة[١] . فاتهموا بها رجلًا . فقلت : دعوه حتى أرفق به ، وإذا الشاب نائم فى عباءة ، فأخرج رأسه من العباءة فقال له : ذو النون فى ذلك المعنى[٢] . فقال : ألىَ تقول ذلك ؟! أقسمت عليك يارب أن لا تدع واحدًا من الحيتان إلا جاء بجوهرة . قال : فرأينا وجه الماء حيتانًا فى أفواههم[٣] الجواهر ، ثم ألقى الفتى نفسه فى البحر ومرّ إلى الساحل .

وحكى عن إبراهيم الخواص قال :

دخلت البادية مرة فرأيت نصرانيا على وسطه « زُنار » فسألنى الصحبة فمشينا سبعة أيام . فقال لى : يا راهب الحنيفية[٤] هات ما عندك من الانبساط فقد جعنا . فقلت : إلهى لا تفضحنى مع هذا الكافر ، فرأيت طبقًا عليه خبز وشِوَاء ورطب وكوز ماء . فأكلنا وشربنا ومشينا سبعة أيام . ثم بادرت وقلت : يا راهب النصارى . هات ما عندك . فقد انتهت النوبة إليك . فاتكأ على عصاه ، ودعا ، فإذا بطبقين عليهما أضعاف ما كان على طبقى . قال : فتحيرت ، وتغيرت ، وأبيت أن آكل . فألح علىَّ فلم أجبه ، فقال : كل ؛ فإنى أبشرك ببشارتين . إحداهما : أنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله . وحَلّ الزنار ، والأخرى : أنى قلت : اللهم إن كان لهذا العبد خطر عندك فافتح علىّ بهذا ؛ ففتح ، فأكلنا ومشينا وحجّ[٥] ، وأقمنا بمكة سنة ثم إنه مات ودفن بالبطحاء .

وقال محمد المبارك الصورى :

كنت مع إبراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس فنزلنا وقت القيلولة تحت شجرة رمّان ، فصلينا ركعات ، فسمعت صوتًا من أصل الرمان : يا أبا إسحق أكرمنا بأن تأكل منا شيئًا ، فطأطأ إبراهيم رأسه ، فقال ثلاث مرات . ثم قال : يا محمد كن شفيعًا إليه ؛ ليتناول منا شيئًا فقلت : يا أبا اسحق ، لقد سمعت ، فقام وأخذ رمانتين ، فأكل واحدة وناولنى الأخرى فأكلتها وهى حامضة ، وكانت شجرة قصيرة ، فلما رجعنا[٦] مررنا بها فإذا هى شجرة عالية ورمانها حلو . وهى تثمر فى كل عام مرتين . وسموها « رمانة العابدين » ويأوى إلى ظلها العابدون . .

---

(١) وفى نسخة « جوهرة » .
(٢) أى اتهامهم له .
(٣) الأولى : فى أفواهها كما فى بعض النسخ .
(٤) أى المسلمين .
(٥) وفى نسخة وحججنا .
(٦) بعد زيارتها لبيت المقدس .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن الفرحان يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت أبا جعفر الخصاف يقول : حدثنى جابر الرحبى قال :

أكثر أهلُ الرحبة علىَّ الإنكارَ فى باب الكرامات ، فركبت السبع يومًا ودخلت الرحبة ، وقلت : أين الذين يكذبون أولياء الله ؟ قال : فكفوا بعد ذلك عنى .

سمعت منصورًا المغربى يقول : رأى بعضهم الخضر عليه السلام ، فقال له : هل رأيت فوقك أحدًا ؟

فقال : نعم ، كان عبد الرزاق بن همام يروى الأحاديث بالمدينة ، والناس حوله يستمعون ...

فرأيت شابا بالبعد منهم رأسه على ركبتيه . فقلت له : يا هذا عبد الرزاق يروى أحاديث رسول الله ﷺ ، فلم لا تسمع منه ؟ فقال : إنه يروى عن ميت ، وأنا لست بغائب عن الله ؟

فقلت : إن كنت كما تقول ، فمن أنا ؟! فرفع رأسه وقال : أنت أخى أبو العباس الخضر ، فعلمت أن لله عبادًا لم أعرفهم .

وقيل : كان لإبراهيم بن أدهم صاحب يقال له ، يحيى[1] ، يتعبد فى غرفة ليس إليها سُلم ولا دَرَج ، فكان إذا أراد أن يتطهر ، يجىء إلى باب الغرفة ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . ويمر فى الهواء كأنه طير ، ثم يتطهر ، فإذا فرغ يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود إلى غرفته .

أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : سمعت عمر بن محمد بن أحمد الشيرازى بالبصرة قال : سمعت أبا محمد جعفر الحذَّاء بشيراز قال :

كنت أتأدب بأبى عمر الاصطخرى ، فكان إذا خطر لى خاطر أخرجُ إلى « اصطخر » فربما أجابنى عما أحتاج إليه من غير أن أسأله ، وربما سألته فأجابنى . ثم شغلت عن الذهاب فكان إذا خطر على سرِّى مسألة أجابنى من اصطخر ، فيخاطبنى بما يَردُ علىَّ .

وحكى عن بعضهم قال :

مات فقير فى بيت مُظلم ، فلما أردنا غسله تكلفنا طلب سراج ، فوقع من كوة ضوء .. فأضاء البيت ، فغسلناه ، فلما فرغنا ذهب الضوء كأنه لم يكن .

---

(١) ابن سعيد .

وعن آدم بن أبى إياس قال :

كنا بعسقلان ، وشاب يغشانا ويجالسنا . ويتحدث معنا ؛ فإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلى ، قال : فودعنا يومًا وقال : أريد الإسكندرية . فخرجت معه ، وناولته دريهمات ، فأبى أن يأخذها . فألححت عليه فألقى كفا من الرمل فى ركوته . واستقى من ماء البحر . وقال : كله !! فنظرت فإذا هو سويق بسكر كثير . فقال ، من كان حاله معه[1] مثل هذا يحتاج إلى دراهمك ؟!

ثم أنشأ يقول :

بحقّ الهوى يا أهل ودّى تفهموا لسانَ وجودى بالوجود غريب
حرام على قلب تعرّض للهوى يكونُ لغير الحق فيه نصيب

ولغيره :

ليس فى القلب والفؤاد جميعا موضعٌ فارغ يراه الحبيب
هو سُؤْلى ومُنيتى وسرورى وبه ما حييت عيشى يطيب
وإذا ما السِّقام حلّ بقلبى لم أجد غيره لسقْمى طبيب

وحكى عن إبراهيم الآجرى قال :

جاءنى يهودىّ يتقاضى علىّ فى دين[2]كان له علىَّ . وأنا قاعد عند الأتون أوقد تحت الآجر . فقال لى اليهودى : يا إبراهيم . أرنى آية أسلم عليها ..

فقلت له : تفعل ؟! فقال : نعم . فقلت : انزع ثوبك . فنزع ، فلففته ، ولففت على ثوبه ثوبى ، وطرحته فى النار ، ثم دخلت الأتون وأخرجت الثوب من وسط النار وخرجت من الباب الآخر ، فإذا ثيابى بحالها لم يصبها شىء ، وثيابُه[3] فى وسطها صارت حراقةً . فأسلم اليهودىّ .

وقيل : كان حبيب العجمى يُرى بالبصرة يوم التروية ، ويوم عرفة بعرفات سمعت محمد ابن عبد الله الصوفى يقول : سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغانى يقول :

تزوج عباس بن المهتدى امرأة ، فلما كانت ليلة الدخول وقع عليه ندامة ، فلما أراد الدنوَّ منها زُجر عنها ، فامتنع من وطئها ، وخرج .. فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج !!

---

(١) وفى نسخه « مع الله » .
(٢) أى : يطالبنى بدين .
(٣) وفى نسخة « وثوبه فى وسطه » .

قال الأستاذ الإمام : هذا هو الكرامة على الحقيقة ؛ حيث حَفظ عليه العلم .

وقيل : كان الفضيل بن عياض على جبل من جبال « مِنى » ، فقال : لو أن وليا من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد[1] لماد ، قال : فتحركَّ الجبل . فقال : اسكن ، لم أردك بهذا !! فسكن الجبل .

وقال عبد الواحد بن زيد لأبي عاصم البصرى :

كيف صنعت حين طلبك الحجاج ؟ قال : كنت فى غرفتى فدقوا على الباب ، فدخلوا ، فدَفعت بى دفعةً ، فإذا أنا على جبل « أبى قبيس » بمكة ، فقال له عبد الواحد : من أين كنت تأكل ؟ قال : كانت تصعد إلى عجوز كلَّ وقت إفطارى بالرغيفين اللذين كنت آكلهما بالبصرة .

فقال عبد الواحد : تلك الدنيا أمرها الله تعالى أن تخدم أبا عاصم .

وقيل : كان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاءه[2] ، ولا يستقبله أحد إلا أعطاه شيئًا ، فكان إذا أتى منزله رمى إليه بالدراهم ، فتكون بمقدار ما أخذه لم ينقص شيئًا .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول : سمعت أبا أحمد الكبير يقول : سمعت أبا عبد الله ابن خفيف يقول : سمعت أبا عمرو الزجاجى يقول :

دخلت على الجنيد ، وكنت أريد أن أخرج إلى الحج ، فأعطانى درهمًا صحيحًا ، فشددته على مئزرى ، فلم أدخل منزلاً إلا وجدت فيه رفقاء ، ولم أحتج إلى الدرهم ؛ فلما حججت ، ورجعت إلى بغداد دخلت على الجنيد ، فمدَّ يده وقال : هات ، فناولته الدرهم ، كيف كان ؟ فقلت : كان الحتم[3] نافذًا .

وحكى عن أبى جعفر الأعور قال :

كنت عند ذى النون المصرى ، فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء ، فقال ذو النون ؛ من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ، ثم يرجع إلى مكانه فيفعل ، قال : فدار السرير فى أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه ، وكان هناك شاب فأخذ يبكى حتى مات فى الوقت .

---

(١) يتحرك .

(٢) نصيبه الشهرى من بيت المال .

(٣) أى الأمر .

وقيل : إن واصلًا الأحدب قرأ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[١] . فقال : رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ؟ والله لا طلبته أبدًا !! فدخل خَربةً ومكث يومين فلم يظهر له شىء[٢] . فاشتد عليه ، فلما كان اليوم الثالث إذا « بدوخلة »[٣] من رطب ، وكان له أخ أحسن منه نيّة ، فصار معه ، فإذن : قد صار دوخلتين[٤] فلم يزل ذلك حالهما حتى فرّق بينهما الموت .

وقال بعضهم : أشرفت على إبراهيم بن أدهم ، وهو فى بستان يحفظه ، وقد أخذه النوم ، وإذا حية فى فيها[٥] طاقةُ نرجس تروِّحه بها .

وقيل : كان جماعة مع أيوب السجستانى فى السفر فأعياهم طلب الماء ، فقال أيوب : أتسترون علىّ ما عشت ؟ فقالوا : نعم ، فدور دائرة فنبع الماء ، فشربنا قال : فلما دخلنا البصرة[٦] أخبر به حماد بن زيد ، فقال عبد الواحد بن زيد : شهدتُ معه ذلك اليوم .

وقال بكر بن عبد الرحمن :

كنا مع ذى النون المصرى فى البادية ، فنزلنا تحت شجرة من « أم غيلان » فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب ؛ فتبسم ذو النون وقال أتشتهون الرطب ؟ وحرّك الشجرة وقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرة إلا نثرتِ علينا رطبًا جنيا .. ثم حرّكها ، فنثرت رطبا جنيا . فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا فانتبهنا وحركنا الشجرة فنثرت علينا شوكًا .

وحكى عن أبى القاسم بن مروان النهاوندى قال :

كنت أنا وأبو بكر الوراق مع أبى سعيد الخراز نمشى على ساحل البحر نحو « صيدا » فرأى شخصًا من بعيد ، فقال : اجلسوا . لا يخلو هذا الشخص أن يكون وليا من أولياء الله . قال : فما لبثنا أن جاء شاب حسن الوجه ، وبيده رِكوة و « محبرة » وعليه مرقّعة . فالتفت أبو سعيد إليه منكرًا عليه لحمله المحبرة مع الركوة فقال له : يا فتى ، كيف الطرق إلى الله تعالى ؟ فقال : يا أبا سعيد ، أعرف إلى الله طريقين : طريقا خاصا ، وطريقا عاما ، فأما الطريق العام فالذى أنت عليه ، وأما الطريق الخاص : فهلم[٧] ، ثم مشى على الماء حتى غاب عن أعيننا . فبقى أبو سعيد حيران مما رأى !!

---

(١) آية ٢٢ من سورة الذاريات .
(٢) أى رزق .
(٣) قفة من خوص يوضع فيها الرطب .
(٤) صار ما معه مضاعفًا لوجود أخيه معه .
(٥) وفى نسخة فى فمها .
(٦) بعد موت أيوب .
(٧) أى : تعال إلى لأعرفه لك .

وقال الجنيد :

جئت مسجد « الشونزية » فرأيت فيه جماعة من الفقراء يتكلمون فى الآيات[١] فقال فقير منهم : أعرف رجلًا لو قال لهذه الأسطوانة كونى ذهبًا نصفك ، ونصفك فضةً كانت .. قال الجنيد : فنظرت . فإذا الأسطوانة نصفها ذهب ونصفها فضة .

وقيل : حج سفيان الثورى مع شيبان الراعى ، فعرض لهما سبع ، فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا السبع ؟ فقال : لا تخف ، فأخذ شيبان أذنه فعركها ... فبصبص[٢] وحرَّك ذنبه .. فقال سفيان : ما هذه الشهرة ؟! فقال : لولا مخافة الشهرة لما وضعت زادى إلا على ظهره حتى آتى مكة !!

وحكى أن السرى لما ترك التجارة كانت أخته تنفق عليه من ثمن غزلها . فأبطأت يومًا ، فقال لها السرى : لم أبطأت ؟! فقالت : لأن غزلى لم يشتر ، وذكروا أنه مخلط ، فامتنع السرى عن طعامها ، ثم إن أخته دخلت عليه يومًا فرأت عنده عجوزًا تكنس بيته ، وتحمل إليه كل يوم رغيفين . فحزنت أخته[٣] وشكت إلى أحمد بن حنبل ، فقال أحمد بن حنبل للسرى فيه ؛ فقال : لما امتنعتُ من أكل طعامها قيض الله لى الدنيا لتنفق على وتخدمنى .

أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : حدثنا على بن هارون قال : حدثنا على ابن أبى محمد التميمى قال : حدثنا جعفر بن القاسم الخواص قال : حدثنا أحمد بن محمد الطوسى قال : حدثنا محمد بن منصور الطوسى قال :

كنت عند أبى محفوظ معروف الكرخى ، فدعا لى ؛ فرجعت إليه من الغد وفى وجهه أثر ، فقال له إنسان : يا أبا محفوظ ، كنا عندك بالأمس ولم يكن بوجهك هذا الأثر ، فما هذا ؟! فقال : سل عما يعنيك !! فقال الرجل : بمعبودك أن تقول ، فقال : صليت البارحة ها هنا ، واشتهيت أن أطوف بالبيت ، فمضيت إلى مكة ، وطفتُ ، ثم مِلت إلى زمزم ؛ لأشرب من مائها . فزلقت على الباب ، فأصاب وجهى ما تراه .

وقيل : كان عتبة الغلام يقعد فيقول : « ياوَرَشان »[٤] إن كنت أطوع لله عز وجل منى فتعال واقعد على كفى : فيجيء « الوَرَشان » ويقعد على كفه .

---

(١) أى : الكرامات .
(٢) أى : حرك .
(٣) وفى نسخة : فخرجت .
(٤) نوع من الطيور .

وحكى عن أبى على الرازى أنه قال :

مررت يومًا على الفرات ، فَعرَّضَتْ لنفسى شهوة السمك الطرىّ ، فإذا الماء قد قذف سمكة نحوى ، وإذا رجل يعدو ويقول : أشويها لك ؟

فقلت : نعم . فشواها ، فقعدت وأكلتها .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم فى رفقة فعرض لهم السبع : فقالوا : يا أبا إسحاق قد عرض لنا السبع !! فجاء إبراهيم وقال : يا أسد ، إن كنت أمرت فينا بشىء فامض ، وإلا فارجع . فرجع الأسد ، ومضوا .

وقال حامد الأسود :

كنت مع الخواص فى البرية ، فبتنا عند[1] شجرة ، إذ جاء السبع ، فصعدت الشجرة إلى الصباح لا يأخذنى النوم ، ونام إبراهيم الخواص والسبع يشم من رأسه إلى قدمه .. ثم مضى .

فلما كانت الليلة الثانية بتنا فى مسجد فى قرية ، فوقعت بقّة على وجهه فضرَبته[2] ، فأنَّ أنةً ، فقلت : هذا عجب ، البارحة لم تجزع من الأسد ، والليلة تصيح[3] من البقّ !!

فقال : أما البارحة ، فتلك حالة كنت فيها بالله عز وجل ، وأما الليلة ، فهذه حالة أنا فيها بنفسى[4] .

وحكى عن عطاء الأزرق : أنه دفعت إليه امرأته درهمين من ثمن غزلها ؛ ليشترى لهم شيئًا من الدقيق ، فخرج من بيته ، فلقى جارية تبكى ، فقال لها : مابالك ؟ فقالت : دفع إلى مولاى درهمين اشترى لهم شيئًا ، فسقطا منى فأخاف أن يضربنى !! فدفع عطاء الدرهمين إليها . ومرّ . وقعد على حانوت صديق له ممن يشق الساج[5] وذكر له الحال وما يخاف من سوء خلق امرأته ، فقال له صاحبه : خذ من هذه النشارة فى هذا الجراب لعلكم تنتفعون بها فى سجر التنور[6] ؛ إذ ليس يساعدنى الإمكان فى شىء آخر .. فحمل النشارة ، وفتح باب داره ، ورمى بالجراب ، وردّ الباب ودخل المسجد إلى ما بعد العُتْمة ؛ ليكون النوم أخذهم ولا تستطيل عليه المرأة ، فلما فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز ؛ فقال : من أين لكم هذا الخبز ؟ فقالوا : من الدقيق الذى كان فى الجراب . لا تشتر من غير هذا الدقيق ! قال : أفعل إن شاء الله .

---

(١) وفى نسخة « تحت شجرة » .
(٢) أى قرصته .
(٣) وفى نسخة « تضج » .
(٤) أى مشتغل بنفسى .
(٥) نوع من الخشب .
(٦) أى إيقاده .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا جعفر بن بركات يقول :

كنت أجالس الفقراء ، ففتح عليَّ بدينار ، فأردت أن أدفعه إليهم ، ثم قلت في نفسى : لعلى أحتاج إليه .. فهاج بى وجع الضرس ، فقلعت سِنًّا ، فوجعت الأخرى حتى قلعتها ..

فهتف بى هاتف : إن لم تدفع إليهم الدينار ، فلا يبقى فى فمك سنٌّ واحدة !!.

قال الأستاذ : وهذا[1] فى باب الكرامة أتم من أن كان يفتح عليه بدنانير كثيرة تنقض العادة .

وحكى أبو سليمان الدارانى قال :

خرج عامر بن قيس إلى الشام ، ومعه « شِكْوَة »[2] إذا شاء صَبَّ منها ماءً ليتوضأ للصلاة ، وإذا شاء صبَّ منها لبنًا يشربه .

وروى عثمان بن أبى العانكة قال :

كنا فى غزاة فى أرض الروم ، فبعث الوالى سرية إلى موضع ، وجعل الميعاد فى يوم كذا .

قال : فجاء الميعاد ولم تقدم السرية ، فبينا أبو مسلم[3] يصلى إلى رمحه الذى ركزه بالأرض إذ جاء طائر إلى رأس السنان وقال : إن السرية قد سلمت وغنمت وسيردون عليكم يوم كذا فى وقت كذا .

فقال أبو مسلم للطير : من أنت ، رحمك الله تعالى ؟

فقال : أنا مذهب الحزن عن قلوب المؤمنين .

فجاء أبو مسلم إلى الوالى وأخبره بذلك ، فلما كان اليوم الذى قال أتت السرية على الوجه الذى قال .

وعن بعضهم قال :

كنا فى مركب فمات رجل كان معنا عليلٌ ، فأخذنا فى جهازه ، وأردنا أن نلقيه فى البحر فصار البحر جافا ، ونزلت السفينة[4] ، فخرجنا وحفرنا له قبرًا ، ودفناه ، فلما فرغنا استوى الماء ، وارتفع المركب ، وسرنا .

---

(١) أى تنبيه الله ، سبحانه ، له بوساطة الهاتف .
(٢) قربة .
(٣) الخولانى .
(٤) على الأرض .

وقيل : إن الناس أصابتهم مجاعة بالبصرة ، فاشترى حبيب العجمى طعامًا بالنسيئة ، وفرقه على المساكين وأخذ كيسه فجعله تحت رأسه ، فلما جاءوا يتقاضونه أخذه ، وإذا هو مملوء دراهم ، فقضى منها ديونهم .

وقيل : أراد إبراهيم بن أدهم أن يركب السفينة فأبوا إلا أن يعطيهم دينارًا ، فصلى على الشط ركعتين ، وقال : اللهم إنهم قد سألونى ما ليس عندى ، فصار الرمل بين يديه دنانير .

حدثنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : حدثنا عبد العزيز بن الفضل قال : حدثنا محمد بن أحمد المروزى قال : حدثنا عبد الله بن سليمان قال : قال أبو حمزة نصر بن الفرج خادم أبى معاوية الأسود قال :

كان أبو معاوية ذهب بصره ، فإذا أراد أن يقرأ نشر المصحف فيرد الله عليه بصره ، فإذا أطبق المصحف ذهب بصره ..

وقال أحمد بن الهيثم المتطيب : قال لى بشر الحافى : قل لمعروف الكرخى : إذا صليت جئتك ؛ قال : فأديت الرسالة وانتظرته ، فصلينا الظهر ولم يجىء ، ثم صلينا العصر ، ثم المغرب ، ثم العشاء ، فقلت فى نفسى : سبحان الله مثلُ بشرٍ يقول شيئًا ثم لا يفعل !! لا يجوز أن لا يفعل !!.. وانتظرته وأنا فوق مسجد على مَشْرَعة[1] ، فجاء بشر بعد هوى من الليل ، وعلى رأسه سجادة ، فتقدم إلى دجلة ومشى على الماء ، فرميت بنفسى من السطح ، وقبلت يديه ورجليه ، وقلت : ادع الله لى ، فدعا لى ، وقال : استره علىّ . قال : فلم أتكلم بهذا حتى مات .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى قال : حدثنا أبو الفرج الورثانى قال : سمعت على بن يعقوب بدمشق قال : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد يقول : سمعت قاسمًا الجرعى يقول :

رأيت رجلًا فى الطواف لا يزيد على قوله : إلهى ، قضيت حوائج الكل ولم تقض حاجتى ..

فقلت : مالك لا تزيد على هذا الدعاء ؟

فقال : أُحَدِّثك .. اعلم أنا كنا سبعة أنفس من بلدان شتى ، فخرجنا إلى الجهاد ، فأسَرَنا الروم ، ومضوا بنا لنقتل ؛ فرأيت سبعة أبواب فتحت من السماء وعلى كل باب جارية حسناء من الحور العين ، فقدم واحد منا فضربت عنقه ، فرأيت جارية منهن هبطت إلى الأرض وبيدها منديل فقبضت روحه حتى ضُربت أعناق ستة منا ، فاستوهبنى بعض رجالهم ، فقالت الجارية :

---

(١) المشرعة : بفتح الميم والراء شريعة الماء « موردة الشاربة » .

أىُّ شىء فاتك يا محروم !!.. وغلَّقت الأبواب ؛ فأنا يا أخى متأسف متحسر على ما فاتنى ...

قال قاسم الجرعى :

أراه أفضلهم ، لأنه رأى ما لم يروا .. وعمل على الشوق بعدهم .

وسمعته يقول : سمعت أبا النجم أحمد بن الحسين « بخورستان » يقول سمعت أبا بكر الكتانى يقول :

كنت فى طريق مكة فى وسط السنة ، فإذا أنا « بهميان »[1] ملآن يلتمع دنانير ، فهممت أن أحمله لأفرقه على فقراء مكة ، فهتف بى هاتف : إن أخذته سلبناك فقرك .

حدثنا محمد بن محمد بن عبد الله الصوفى قال : حدثنا أحمد بن يوسف الخياط قال : سمعت أبا على الرُّوذبارى يقول : سمعت العباس الشرقى يقول :

كنا مع أبى تراب النخشبى فى طريق مكة ، فعدل عن الطريق إلى ناحية فقال له بعض أصحابه : أنا عطشان . فضرب برجله إلى الأرض فإذا عين من ماء زلال ، فقال الفتى : أحب أن أشربه فى قدح ، فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحًا من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت ، فشرب وسقانا ، وما زال القدح معنا إلى مكة فقال لى أبو تراب يومًا : ما يقول أصحابك فى هذه الأمور التى يكرم الله بها عباده ؟ ..

فقلت : ما رأيت أحدًا إلا وهو يؤمن بها .

فقال : من لم يؤمن بها فقد كفر ، إنما سألتك من طريق الأحوال .

فقلت : ما أعرف لهم قولاً فيه .

قال : بلى ، قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق ، وليس الأمر كذلك ، إنما الخدع فى حال السكون إليها ، فأما من لم يقترح ذلك[2] ، ولم يساكنها فتلك مرتبة الرَّبانيين .

حدثنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : حدثنا أبو الفرج الورثانى قال :

سمعت محمد بن الحسين الخلدى بطرسوس قال : سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول :

كنا فى غرفة سرىّ السقطى ببغداد ، فلما ذهب من الليل شىء لبس قميصًا نظيفًا وسراويل ورداء ونعلاً ، وقام ليخرج ؛ فقلت : إلى أين فى هذا الوقت ؟ فقال : أعود فتحًا الموصلى .

---

(١) الهميان : الكيس .

(٢) أى لم يسألها .

فلما مشى فى طرقات بغداد أخذه العَسَسُ وحبسوه ، فلما كان من الغد أمر بضربه مع المحبوسين ، فلما رفع الجلاد يده ليضربه وقفت يده فلم يقدر أن يحركها فقيل للجلاد : اضرب !!

فقال : بحذائى شيخ واقف يقول لى لا تضربه ، فتقف يدى لا تتحرك .

فنظروا من الرجل ، فإذا هو فتح الموصلى ؛ فلم يضربوه .

أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا الحارث الخطابى قال : حدثنا محمد بن الفضل قال : حدثنا على بن مسلم قال : حدثنا سعيد بن يحيى البصرى قال :

كان أناس من قريش يجلسون إلى عبد الواحد بن زيد ، فأتوه يومًا وقالوا : إنا نخاف من الضيقة والحاجة !! فرفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إنى أسألك باسمك المرتفع الذى تكرم به من شئت من أوليائك ، وتلهمه الصفى من أحبابك أن تأتينا برزق من لدنك تقطع به علائق الشيطان من قلوبنا وقلوب أصحابنا هؤلاء فأنت الحنان المنان القديم الإحسان ، اللهم الساعة ، الساعة ..

قال : فسمعت والله قعقعة للسقف ، ثم تناثرت علينا دنانير ودراهم ، فقال عبد الواحد بن زيد : استغنوا بالله عز وجل عن غيره ، فأخذوا ذلك ، ولم يأخذ عبد الواحد بن زيد شيئًا .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن على الجوزى بـ « جند يسابور » قال : سمعت الكتانى يقول :

رأيت بعض الصوفية ، وكان غريبا ما كنت أثبته[1] قد تقدّم إلى الكعبة وقال : ياربّ ما أدرى ما يقول هؤلاء ! - يعنى الطائفين - فقيل له : انظر ما فى هذه الرقعة . قال : فطارت الرقعة فى الهواء وغابت .

وسمعته يقول : سمعت عبد الواحد بن بكر الورثانى يقول : سمعت محمد بن على بن الحسين المقرى بـ « طرسوس » يقول : سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول :

اشتهت والدتى على والدى يوماً من الأيام سمكاً ، فمضى والدى إلى السوق وأنا معه ، فاشترى سمكاً ، ووقف ينتظر من يحمله ، فرأى صبيا وقف بحذائه مع صبى فقال : ياعم ، تريد من يحمله ؟ فقال : نعم ، فحمله ومشى معنا ، فسمعنا الأذان ، فقال الصبى : أذّن

---

(١) أى أعرفه .

المؤذن ، وأحتاج أن أتطهر وأصلى ، فإن رضيت ، وإلا فاحمل السمك ، ووضع الصبى السمك ومرّ .

فقال أبي : فنحن أولى أن نتوكل[1] فى السمك . فدخلنا المسجد فصلينا ، وجاء الصبىّ وصلى ، فلما خرجنا فإذا بالسمك موضوع مكانه ، فحمله الصبى ومضى معنا إلى دارنا .

فذكر والدى ذلك لوالدتى ، فقالت : قل له حتى يقيم عندنا ويأكل معنا ، فقلنا له ، فقال : إنى صائم ، فقلنا : فتعود إلينا بالعشى ، فقال : إذا حملت مرّة فى اليوم لاأحمل ثانياً ، ولكنى سأدخل المسجد إلى المساء ، ثم أدخل عليكم ، فمضى .

فلما أمسينا دخل الصبى ، وأكلنا ، فلما فرغنا دللناه على موضع الطهارة ، ورأينا فيه أنه يؤثر الخلوة ، فتركناه فى بيت ، فلما كان فى بعض الليل وكان لقريب لنا بنتٌ زمنة ، فجاءت تمشى ، فسألناها عن حالها ، فقالت : قلت يارب بحرمة ضيفَنا أن تعافينى ، فقمت . قالت : فمضينا لنطلب الصبى ، فإذا الأبواب مغلقة كما كانت ، ولم نجد الصبى . فقال أبى : فمنهم صغير ، ومنهم كبير .

سمعت محمد بن الحسين يقول : حدثنا أبو الحارث الخطابى قال : حدثنا محمد بن الفضل قال : حدثنا علىّ بن مسلم قال : حدثنا سعيد بن يحيى البصرى قال :

أتيت عبد الواحد بن زيد وهو جالس فى ظل ، فقلت له : لو سألت الله أن يوسع عليك الرزق لرجوت أن يفعل : فقال : ربى أعلم بمصالح عباده ، ثم أخذ حصى من الأرض ، ثم قال : اللهم إن شئت أن تجعلها ذهباً فعلت ، فإذا هى والله فى يده ذهب ، فألقاها إلىّ وقال : أنفقها أنت فلا خير فى الدنيا إلا للآخرة .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت الحسين بن أحمد الفارسى يقول : سمعت الرَّقى يقول : سمعت أحمد بن منصور يقول :

قال لى أستاذى أبو يعقوب السوسى : غسّلتُ مُريداً فأمسك إبهامى وهو على المغتسل . فقلت : يا بنى خلّ يدى ؛ أنا أدْرى أنك لست بميت ، وإنما هى نقلة من دار إلى دار .. فخلى يدى .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر أحمد بن محمد الطرسوسى يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول :

---

(١) أى يتوكلا على الله .

صحبتى شاب حسن الإرادة ، فمات ، فاشتغل قلبى به جدًّا ، وتوليت غسله ، فلما أردت غسل يديه بدأت بشماله من الدهشة ، فأخذها منى وناولنى يمينه ؛ فقلت : صدقت يا بنى ، أنا غلطت .

وسمعته يقول : سمعت أبا النجم المقرّى البرذعى بشيراز يقول : سمعت الرِّقىّ يقول : سمعت أحمد بن منصور يقول : سمعت أبا يعقوب السوسى يقول :

جاءنى مريد بمكة فقال : يا أستاذ ، أنا غداً أموت وقت الظهر ؛ فخذ هذا الدينار فاحفر لى بنصفه ، وكفنى بنصفه الآخر ، ثم لما كان الغد جاء وطاف بالبيت ، ثم تباعد ومات ، فغسلته ، وكفّنته ووضعته فى اللحد ، ففتح عينيه ، فقلت : أحياة بعد موت ؟! فقال : أنا حىّ ، وكل محبٍ لله حى .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن الحسين البغدادى يقول : سمعت أبا على بن وصيف المؤدب يقول :

تكلم سهل بن عبد الله يوما فى الذكر فقال : ان الذاكر لله على الحقيقة لو همّ أن يحيى الموتى لفعل ، ومسح يده على عليلٍ بين يديه ، فبرئ ، وقام .

سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول : أخبرنى على بن إبراهيم بن أحمد قال : حدثنا عثمان بن أحمد قال : حدثنا الحسين بن عمر قال : سمعت بشر بن الحارث يقول :

كان عمرو بن عُتبة يصلى والغمام فوق رأسه ، والسباع حوله تحرك أذنابها .

وسمعته يقول : سمعت أبا عبد الله بن مفلح يقول : سمعت المغازلى يقول : سمعت الجنيد يقول :

كانت معى أربعة دراهم فدخلت على السرى وقلت : هذه أربعة دراهم حملتها إليك ، فقال : أبشر يا غلام بأنك تُفلح ؛ كنت أحتاج إلى أربعة دراهم ؛ فقلت « اللهم ابعثها على يد من يفلح عندك » .

وسمعته يقول : حدثنى إبراهيم بن أحمد الطبرى قال : حدثنا أحمد بن يوسف قال : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن يحيى قال : حدثنى أبى قال : حدثنى أبو إبراهيم اليمانى قال : خرجنا نسير على ساحل البحر مع إبراهيم بن أدهم فانتهينا إلى « غيضة »[1] فيها حطب

---

(١) أشجار من قصب .

يابس كثير ، وبالقرب منه حصن ، فقلنا لإبراهيم بن أدهم : لو أقمنا الليلة هاهنا وأوقدنا من هذا الحطب ؟ فقال : افعلوا فطلبنا النار من الحصن . فأوقدنا ، وكان معنا الخبز فأخرجنا نأكل ، فقال واحد منا : ما أحسن هذا الجمر ، لو كان لنا لحم نشويه عليه ؟! فقال إبراهيم بن أدهم : إن الله تعالى لقادر على أن يطعمكموه . قال : فبينا نحن كذلك إذا بأسد يطرد « إيَّلا »[١] فلما قرب منا وقع ، فاندقت عنقه[٢] ، فقام إبراهيم بن أدهم وقال : اذبحوه ، فقد أطعمكم الله . فذبحناه .. وشوينا من لحمه والأسد واقف ينظر إلينا .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا القاسم عبد الله بن على الشجرى يقول : سمعت حامداً الأسود يقول :

كنت مع إبراهيم الخواص فى البادية سبعة أيام على حالة واحدة ، فلما كان السابع ضعفت ، فجلست ، فالتفت إلى وقال مالك ؟ فقلت : ضعفت !! فقال : أيما أغلب عليك[٣] : الماء أو الطعام ؟ فقلت : الماء ، فقال : الماء وراءك .

فالتفت فإذا عين ماء كاللبن الحليب ، فشربت وتطهرت ، وإبراهيم ينظر ولم يقربه .

فلما أردت القيام هممت أن أحمل منه ؛ فقال ، أمسك ؛ فإنه ليس مما يتزود منه .

سمعت أبا عبد الله بن عبد الله يقول : سمعت أبا عبد الله الدباس البغدادى يقول : سمعت فاطمة أخت أبى علىّ الروذبارى تقول : سمعت زيتونة خادمة أبى الحسين النورى - وكانت تخدمه ، وخدمت أبا حمزة ، والجنيد - قالت :

كان يوم بارد ، فقلت للنورى : أحمل إليك شيئاً ؟ فقال : نعم ، فقلت : ماذا تريد ؟ قال : خبز ولبن[٤] ، فحملت ، وكان بين يديه فحم ، وكان يقلبها بيده وقد اشتغلت يده ، فأخذ يأكل الخبز واللبنُ يسيل على يده وعليها سواد الفحم ، فقلت فى نفسى : ما أقذر أولياءك يارب !! ما فيهم أحد نظيف !! قالت : فخرجت من عنده ، فتعلقت بى امرأة وقالت : سرقت لى رزمة ثياب وجرونى إلى الشرطىّ ، فأخبر النورى بذلك ، فخرج وقال للشرطى : لا تتعرضوا لها ؛ فإنها وليّة من أولياء الله تعالى ، فقال الشرطى : كيف أصنع والمرأة تدّعى ؟!

---

(١) التيس الجبلى .
(٢) وفى نسخة « ومد عنقه » .
(٣) وفى نسخة « أحب إليك » .
(٤) والأولى لغويا أن يكون التعبير « خبزًا ولبنًا » .

قال : فجاءت جارية ومعها الرزمة المطلوبة ، فاستردّ النورى المرأة ، وقال لها : تقولين بعد هذا ما أقذر أولياءك ، قالت : فقلت قد تبت إلى الله تعالى .

سمعت محمد بن عبد الله الشيرازى يقول ؛ سمعت محمد بن فارس الفارسى يقول : سمعت أبا الحسن خيراً النساج يقول : سمعت الخواص يقول :

عطشت فى بعض أسفارى وسقطت من العطش فإذا أنا بماء رُشَّ على وجهى ففتحت عينى فإذا برجل حسن الوجه راكب دابة شهباء ، فسقانى الماء ، وقال : كن رديفى ، وكنت بالحجاز فما لبثت إلّا يسيراً ، فقال لى : ما ترى ؟ فقلت : أرى المدينة ، فقال : انزل وأقرئ رسول الله ﷺ منى السلام ، وقل : أخوك الخضر يقرئك السلام .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت محمد بن الحسن البغدادى يقول : قال أبو الحديد : سمعت المظفر الجصّاص يقول :

كنت أنا ونصر الخراط ليلة فى موضع فتذاكرنا شيئاً من العلم ، فقال الخراط : إن الذاكر لله تعالى فائدته فى أول ذكره أن يعلم أن الله تعالى ذكره فبذكر الله تعالى ذِكرهُ . قال فخالفته ، فقال : لو كان الخضر عليه السلام هاهنا لشهد بصحته ، قال : فإذا نحن بشيخ يجىء بين السماء والأرض حتى بلغ إلينا وسلم وقال : صدق : الذاكرُ لله تعالى بفضل ذكر الله تعالى له ذكره ، فعلمنا أنه الخضر ، عليه السلام :

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :

جاء رجل إلى سهل بن عبد الله وقال : إن الناس يقولون إنك تمشى على الماء . فقال : سل مؤذن المحلة ، فإنه رجل صالح لا يكذب . قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدرى هذا !! ولكنه كان فى بعض هذه الأيام نزل الحوض ليتطهر فوقع فى الماء فلو لم أكن أنا لبقى فيه .

قال الأستاذ أبو على الدقاق :

إن سهلا كان بتلك الحالة التى وصف بها ، ولكن الله سبحانه يريد أن يستر أولياءه فأجرى ما وقع من حديث المؤذن والحوض ستراً لحال سهل ، وسهل كان صاحب الكرامات .

وفى قريب من هذا المعنى[1] ما حكى عن أبى عثمان المغربى قال :

رأيته بخط أبى الحسين الجرجانى قال : أردت مرة أن أمضى إلى مصر ، فخطر لى أن أركب

---

(١) أى من ستر حال الولى .

السفينة ، ثم خطر ببالى أنى أعرف هناك ، فخفت الشهرة ، فمرّ المركب فبدا لى ، فمشيت على الماء ولحقت بالمركب ودخلت السفينة والناس ينظرون ، ولم يقل أحد إن هذا ناقض للعادة أو غير ناقض ، فعرفت أن الولى مستور وإن كان مشهوراً .

ومما شاهدنا من أحوال الأستاذ أبى على الدقاق ، رضى الله عنه ؛ معاينة أنه كان به علة حرقة[١] البول ، وكان يقوم فى ساعة غير مرة ، حتى كان يجدد الوضوء غير مرة لركعتى فرض ، وكان يحمل معه قارورة فى طريق المجلس ، وربما كان يحتاج إليها فى الطريق مرات ذاهباً وجائيا ، وكان إذا قعد على رأس الكرسى يتكلم لا يحتاج إلى الطهارة ولو امتد به المجلس زماناً طويلاً ، وكنا نعاين ذلك منه سنين ، ولم يقع لنا فى حياته أن هذا شىء ناقض للعادة ، وإنما وقع لى هذا وفتح علىَّ علمه بعد وفاته .

وفى قريب من هذا ما يحكى عن سهل بن عبد الله أنه كان قد أصابته زمانة فى آخر عمره ، فكان ترد عليه القوة فى أوقات الفرض فيصلى قائما .

ومن المشهور أن عبد الله الوزان كان مقعدا ، وكان فى السماع إذا ظهر به وجد يقوم ويستمع .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : حدثنا إبراهيم بن محمد المالكى قال : حدثنا يوسف بن أحمد البغدادى قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال :

حججت أنا وأبو سليمان الدارانى ، فبينا نحن نسير إذ سقطت السطيحة[٢] منى ، فقلت لأبى سليمان فقدت السطيحة ، وبقينا بلا ماء ، وكان برد شديد ، فقال أبو سليمان : ياراد الضالة .. ويا هادياً من الضلالة أردد علينا الضالة ، فإذا واحد ينادى : من ذهبت له سطيحة ؟ قال : فقلت : أنا .. فأخذتها ، فبينا نحن نسير وقد تدرَّعنا بالفراء من شدة البرد فإذا نحن بإنسان عليه طِمْران[٣] وهو يترشح عرقاً ، فقال أبو سليمان : تعال ندفع إليك شيئاً مما علينا من الثياب ، فقال : يا أبا سليمان أتشير إلىّ بالزهد وأنت تجد البرد ؟ أنا أسيح فى هذه البرية منذ ثلاثين سنة ما انتفضت ، ولا ارتعدت ، يلبسنى الله فى البرد فيحاً من محبته ، ويلبسنى فى الصيف مذاق برد محبته .. ومرَّ .

---

(١) وفى نسخه « حزق » .

(٢) أى : القربة .

(٣) أى ثوبان قديمان .

وسمعته يقول : سمعت أبا بكر محمد بن على ألتكريتى[١] يقول : سمعت محمد بن على الكتانى بمكة يقول : سمت الخواص يقول : كنت فى البادية مرة ، فسرت فى وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة ، وبالقرب منها ماء ، فنزلت ، فإذا بسبع عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب منى إذا هو يعرج ، فحمحم وبرك بين يدى ، ووضع يده فى حجرى ، فنظرت فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشددت على يده خرقة ، ومضى ، فإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبصان[٢] لى ، وحملا إلى رغيفاً .

وسمعته يقول : حدثنا أحمد بن على السائح قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن مطرف قال : حدثنا محمد بن الحسينْ العسقلانى قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال : اشتكى محمد بن السماك ، فأخذنا ماءه[٣] وانطلقنا به إلى الطبيب ، وكان نصرانيا .

قال : فبينا نحن نسير بين « الحيرة » و « الكوفة » استقبلنا رجل حسن الوجه ، طيب الرائحة ، نقى الثوب ، فقال لنا : إلى أين تريدان ؟ فقلنا : نريد فلاناً الطبيب نريه ماء ابن السماك .

فقال : سبحان الله !! تستعينون على ولىّ الله بعدوّ الله !!.. اضربوا به الأرض ، وأرجعوا إلى ابن السماك وقولوا له : ضع يدك على موضع الوجع وقل : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾[٥] ثم غاب عنا فلم نره .

فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك ، فوضع يده على موضع الوجع وقال ما قال الرجل ، فعوفى فى الوقت ، فقال : كان ذلك الخضر عليه السلام .

سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت عبد الرحمن بن محمد الصوفى يقول : سمعت عمى البسطامى يقول : كنا قعودا فى مجلس أبى يزيد البسطامى ، فقال : قوموا بنا نستقبل وليا من أولياء الله تعالى . فقمنا معه ، فلما بلغنا الدرب فإذا إبراهيم بن شيبة الهروى ، فقال له أبو يزيد : وقع فى خاطرى أن أستقبلك ، وأشفع لك إلى ربّى . فقال إبراهيم بن شيبة : ولو شفعت فى جميع الخلق لم يكن بكثير ، إنما هم قطعة طين !! فتحير أبو يزيد من جوابه .

قال الأستاذ : وكرامة إبراهيم فى استصغار ذلك أتم من كرامة أبى يزيد فيما حصل له من الفراسة ، وصدق له من الحالة فى باب الشفاعة .

---

(١) وفى نسخة « البكرى ». (٢) يحركان ذنبيهما.
(٣) بوله. (٥) سورة الإسراء الآية ١٠٥.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول وقد سأله سالم المغربى عن أصل توبته ، فقال : خرجت من مصر إلى بعض القرى ، فنمت فى الطريق ، ثم انتبهت ، وفتحت عينى ، فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من شجرة على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها « سكر جتان » إحداهما من ذهب ، والأخرى من فضة ، وفى إحداهما سمسم ، وفى الأخرى ماء ورد فأكلتْ من هذه ، وشربت من هذه فقلت : حسبى .. تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلنى .

وقيل : أصاب عبد الواحد بن زيد « فالج » فدخل وقت الصلاة واحتاج إلى الوضوء ، فقال : من ها هنا ، فلم يجبه أحد فخاف فوت الوقت ، فقال : يارب أحللنى من وثاقى ؛ حتى أقضى طهارتى ، ثم شأنك وأمرك . قال : فَصحَّ ، حتى أكمل طهارته ، ثم عاد إلى فراشه ، وصار كما كان .

وقال أبو أيوب الحمال : كان أبو عبد الله الديلمى إذا نزل منزلاً فى سفر عمد إلى حماره وقال فى أذنه : كنت أريد أن أشدّك ، فالآن لا أشدّك ، وأرسلك فى هذه الصحراء ؛ لتأكل الكلأ ، فإذا أردنا الرحيل فتعال .. فإذا كان وقت الرحيل يأتيه الحمار .

وقيل : زوج أبو عبد الله الديلمى ابنته ، واحتاج إلى ما يجهزها به ، وكان له ثوب يخرج به كل وقت فيُشْترى بدينار ، فخرج له ثوب ، فقال له البياع : إنه يساوى أكثر من دينار ، فلم يزالوا يزيدون فى ثمنه حتى بلغ مائة دينار ، فجهزها .

وقال النضر بن شميل : ابتعت إزاراً فوجدته قصيراً فسألت ربى تعالى أن يمغط لى ذراعاً ، ففعل (يمغط : أى يمد ، من مغط القوس ، وهو « مده ») قال النضر بن شميل : ولو استزدته لزادنى .

وقيل : كان عامر بن عبد قيس سأل أن يهوّن عليه طهوره فى الشتاء ؛ فكان يؤتى به وله بخار ، وسأل ربه أن ينزع شهوة النساء من قلبه فكان لا يبالى بهن ، وسأله أن يمنع الشيطان من قلبه وهو فى صلاته فلم يجبه إليه .

وقال بشر بن الحارث : دخلت الدار فإذا أنا برجل ، فقلت : من أنت ؟ دخلت دارى بغير إذنى ، فقال : أخوك الخضر . فقلت : ادع الله لى . فقال : هون عليك طاعته ؛ فقلت : زدنى ، فقال : وسترها عليك .

وقال إبراهيم الخواص : دخلت خربة فى بعض الأسفار فى طريق مكة بالليل ؛ فإذا فيها

سبع عظيم ، فخفت ، فهتف بى هاتف : أثبت ؛ فإن حولك سبعين ألف ملك يحفظونك .

أخبرنا محمد بن الحسين قال : أخبرنا أبو الفرج الورثانى قال : سمعت أبا الحسن على بن محمد الصيرفى يقول : سمعت جعفراً الدبيلى يقول : دخل النورى الماء فجاء لص فأخذ ثيابه ، ثم إنه جاء ومعه الثياب وقد جفت يده ، فقال النورى : قد ردّ علينا الثياب فرُدَّ عليه يده . فعوفى .

وقال الشبلى : أعتقدت[1] وقتاً أن لا آكل إلا من الحلال ، فكنت أدور فى البرارى ، فرأيت شجرة تين ، فمددت يدى إليها لآكل ، فنادتنى الشجرة : احفظ عليك عقدك ، لا تأكل منى فإنى ليهودى .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : دخلت بغداد قاصداً إلى الحج وفى رأسى نخوة الصوفية ، ولم آكل الخبز أربعين يوما ، ولم أدخل على الجنيد ، وخرجت ولم أشرب الماء إلى « زُبالة[2] » ، وكنت على طهارتى ، فرأيت ظبيا على رأس البئر وهو يشرب ، وكنت عطشان ، فلما دنوت من البئر ولى الظبى ، وإذا الماء فى أسفله[3] .. فمشيت وقلت : يا سيدى ، مالى محل هذا الظبى[4] ؟!

فسمعت من خلفى : جربناك فما صبرت !! ارجع وخذ الماء .

فرجعت ، فإذا البئر ملأى ماء ، فملأت ركوتى وكنت أشرب منه وأتطهر إلى المدينة ، ولم ينفد .

ولما استقيت سمعت هاتفاً يقول : إن الظبى جاء بلا ركوة ولا حبل ، وأنت جئت مع الركوة والحبل !! فلما رجعت من ا لحج ذخلت الجامع ، فلما وقع بصر الجنيد علىّ قال : لو صبرت لنبع الماء من تحت رجلك ، لو صبرت صبر ساعة !

سمعت حمزة بن يوسف السهمى الجرجانى يقول : سمعت أبا أحمد بن علىّ الحافظ يقول : سمعت أحمد بن حمزة بمصر يقول : حدثنى عبد الوهاب - وكان من الصالحين - قال : قال محمد بن سعيد البصرى : بينا أنا أمشى فى بعض طرق البصرة إذ رأيت أعرابيًّا يسوق جملاً ، فالتفتُّ فإذا الجمل قد وقع ميتاً ، ووقع الرجل والقتب ، فمشيت ثم التفت فإذا الأعرابى

---

(١) أى عزمت .

(٢) اسم بلدة .

(٣) الأولى : أسفلها .

(٤) أى منزلته فى أن أشرب الماء من أعلى البئر كما شرب الظبى .

يقول : يا مسبب كلّ سبب ، ويا مولى من طلب ، ردّ علىّ ما ذهب من جمل يحمل الرحل والقتب ، فإذا الجمل قائم والرحل والقتب فوقه .

وقيل : إن شبلاً المروذى اشتهى لحماً فأخذه بنصف درهم ، فاستلبته منه حدأة فى الطريق ، فدخل شبل مسجداً ليصلى ، فلما رجع إلى منزله قدمت امرأته إليه لحماً ، فقال : من أين هذا ؟ فقالت : تنازعت حدأتان ، فسقط هذا منها ، فقال شبل : الحمد لله الذى لم ينس شبلاً ، وإن كان شبلٌ كثيراً ينساه .

أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفى قال : حدثنا عبد الواحد بن بكر الورثانى قال : سمعت محمد بن داود يقول : سمعت أبا بكر بن معمر يقول : سمعت ابن أبى عبيد البسرى يحدث عن أبيه أنه غزا سنة من السنين ، فخرج فى السرية ، فمات المهر الذى كان تحته وهو فى السرية ، فقال : يارب ، أعرناه حتى نرجع إلى « بُسرى » يعنى : قريته ، فإذا المهر قائم ، فلما غزا ورجع إلى « بسرى » وقال : يا بنى ، خذ السرج عن المهر ، فقلت : إنه عَرِقَ فإن أخذتُ السرج عنه داخله الريح ، فقال : يا بنى ، إنه عارية ، قال : فلما أخذتُ السرج عنه وقع المهر ميتا .

وقيل : كان بعضهم نباشاً ، فتوفيت امرأةٌ ، فصلى الناس عليها وصلى هذا النباش ؛ ليعرف القبر ، فلما جنَّ عليه الليل نبش قبرها ، فقالت : سبحان الله ، رجل مغفور له يأخذ كفن امرأة مغفور لها ؟! قال : هبى أنك مغفور لك ، فأنا من أين ؟! فقالت : إن الله تعالى غفر لى ولجميع من صلى علىّ ، وأنت قد صليت علىَّ . قال : فتركتها ، ورددتُ التراب عليها ، ثم تاب الرجل وحسنت توبته .

سمعت حمزة بن يوسف يقول : سمعت أبا الحسن إسماعيل بن عمرو بن كامل بمصر يقول : سمعت أبا محمد نعمان بن موسى الحيرى بالحيرة يقول : رأيت ذا النون المصرى وقد تقاتل اثنان : أحدهما من أولياء السلطان ، والآخر من الرعية ، فعدا الذى من الرعية عليه ، فكسر ثنيته ، فتعلق الجندى بالرجل وقال : بينى وبينك الأمير ، فجازوا بذى النون ، فقال لهم الناس : اصعدوا إلى الشيخ ؛ فصعدوا إليه ، فعرفوه ماجرى ، فأخذ السن ، ثم بلها بريقه ، وردّها إلى فم الرجل فى الموضع الذى كانت فيه ، وحرّك شفتيه[1] ، فتعلقت بإذن الله تعالى ، فبقى الرجل يفتش فاه ، فلم يجد الأسنان إلا سواء .

---

(١) أى دعا .

حدثنا أبو الحسين **محمد** بن الحسين القطان ببغداد قال : حدثنا أبو علىّ إسماعيل بن **محمد** بن إسماعيل الصفار قال : حدثنا الحسين بن عرفة بن يزيد قال : حدثنا عبد الله بن إدريس الأودى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى سبرة النخعى قال : أقبل رجل من اليمن .. فلما كان فى بعض الطريق نفق حماره ، فقام وتوضأ ، ثم صلى ركعتين ، ثم قال : اللهم إنى جئت مجاهداً فى سبيل ابتغاء مرضاتك ، وأنا أشهد أنك تحيى الموتى وتبعث من فى القبور ، لا تجعل لأحد علىَّ منة ، اليوم أطلب منك أن تبعث حمارى . فقام الحمار ينفض أذنيه .

سمعت حمزة بن يوسف يقول : سمعت أبا بكر النابلسى يقول : سمعت أبا بكر الهمدانى يقول . بقيت فى برية الحجاز أياماً لم آكل شيئا ، فاشتهيت باقلا حاراً وخبزاً من « باب الطاق[1] » ؛ فقلت : أنا فى البرية وبينى وبين العراق مسافة بعيدة ، فلم أتَمّ خاطرى إلا وأعرابى من بعيد ينادى : باقلا حارٌّ وخبز ، فتقدمت إليه فقلت عندك باقلا حار وخبز ؟ فقال : نعم . وبسط مئزراً كان عليه ، وأخرج خبزاً وباقلا ، وقال لى : كل . فأكلت ، ثم قال لى : كل . فأكلت ، ثم قال لى : كل . فأكلت . فلما قال لى فى الرابعة ، قلت : بحق الذى بعثك إلىّ إلا ما قلت لى من أنت ؟ فقال : أنا الخضر . وغاب عنى فلم أره .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول . سمعت أبا العباس بن الخشاب البغدادى يقول . سمعت محمد بن عبد الله الفرغانى يقول . سمعت أبا جعفر الحداد يقول : جئت « الثعلبية » وهى خراب ، ولى سبعة أيام لم آكل شيئا ، فدخلت القبة ، وجاء قوم خراسانيون أصابهم جهدٌ فطرحوا أنفسهم على باب القبة ، فجاء أعرابى على راحلة وصبَّ تمراً بين أيديهم فاشتغلوا بالأكل ولم يقولوا لى شيئا ، ولم يرنى الأعرابى ، فلما كان بعد ساعة فإذا بالأعرابى جاء وقال لهم : معكم غيركم ؟ فقالوا : نعم ، هذا الرجل داخل القبة . قال : فدخل الأعرابى ، وقال لى . من أنت ؟ لم لم تتكلم ؟! مضيتُ ، فعارضنى إنسان فقال لى . قد خلفت إنساناً لم تطعمه . ولم يمكنى أن أمضى ، فتطوَّلت على الطريق[2] ، لأنى رجعت عن أميال !! وصبَّ بين يدى التمر الكثير ، ومضى ، فدعوتهم ، فأكلوا وأكلت .

سمعت حمزة بن يوسف يقول : سمعت أبا طاهر الرقى يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول : كلمنى جمل ؛ فى طريق مكة رأيت جمالا والمحامل عليها ، وقد مدّت أعناقها فى الليل ، فقلت : سبحان من يحمل عنها ما هى فيه ، فالتفت إلىّ جمل وقال لى : قل جلّ الله فقلت : جلّ الله .

---

(١) اسم مكان بالعراق .

(٢) أى أتعبتنى .

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت الحسن بن أحمد الفارسى يقول : سمعت الرقىّ يقول : سمعت أبا بكر بن معمر يقول : سمعت أبا ذرعة الجنبى يقول : مكرت بى امرأة فقالت : ألا تدخل الدار فتعود مريضاً ؛ فدخلت فأغلقت الباب .. ولم أر أحداً ؛ فعلمت ما فعلت ، فقلت : اللهم سوّدها . فاسودّت : فتحيرتْ . وفتحت الباب ؛ فخرجت ، فقلت : اللهم ردها إلى حالها فردّها إلى ما كانت عليه .

سمعت حمزة بن يوسف يقول : سمعت أبا محمد الغطريفى يقول : سمعت السراج يقول : سمعت أبا سليمان الرومى يقول سمعت : خليلاً الصياد يقول : غاب ابنى محمد فوجدنا عليه وجدا شديدا ؛ فأتيت معروفا الكرخىّ فقلت : يا أبا محفوظ ، غاب ابنى وأمه واجدة عليه !!

فقال : ما تشاء ؟

فقلت : ادع الله أن يردّه .

فقال اللهم إن السماء سماؤك ، والأرض أرضك .. وما بينهما لك .. ائت بمحمد .

قال خليل : فأتيت باب الشام فإذا هو واقف ، فقلت : أين كنت يا محمد ؟ فقال : يا أبت كنت الساعة بالأنبار .

قال الأستاذ أبو القاسم : واعلم أن الحكايات فى هذا الباب تربو على الحصر ، والزيادة على ماذكرناه تخرجنا عن المقصود من الإيجاز : وفيما ذكرناه مَقْنع[1] فى هذا الباب .

---

(١) أى رضا يقتنع به .

باب رؤيا القوم

قال الله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فى الْحياة الدُّنْيا ، وَفى الْآخِرَةِ[1] ﴾ .

قيل : هى الرؤيا الحسنة يراها المرء ، أو ترى له .

أخبرنا أبو الحسن الإهوازى قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصرى ، قال : حدثنا إسحق بن إبراهيم المنقرى قال : حدثنا منصور بن أبى مزاحم قال : حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عاصم ، عن أبى صالح ، عن أبى الدرداء قال : « سألت النبى ﷺ عن هذه الآية : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فى الْحَيَاة الدُّنْيا وَفِى الْآخِرَةِ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم : « ما سألنى عنها أحد قبلك . هى الرؤيا الحسنة يراها المرء ، أو ترى له » .

أخبرنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى قال : أخبرنا أبو على الحسن بن محمد زيد قال حدثنا على بن الحسين قال : حدثنا عبد الله بن الوليد ، عن سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، عن أبى سلمة ، عن أبى قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان ؛ فإذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليتفل عن يساره ، وليتعوذ ؛ فإنها لن تضرّه » .

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد عبدوس المزكى قال : حدثنا أبو أحمد حمزة بن العباس البزار قال : حدثنا عياش بن محمد بن حاتم قال : حدثنا عبد الله بن موسى قال : حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ .

« من رآنى فى المنام فقد رآنى ؛ فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى » .

ومعنى الخبر : أن تلك الرؤيا رؤيا صدق ، وتأويلها حق ، وأن الرؤيا نوع من أنواع الكرامات ، وتحقيق الرؤيا خواطرُ ترد على القلب ، وأحوال تتصور فى الوهم إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، فيتوهم الإنسان عند اليقظة أنه كان رؤية فى الحقيقة ، وإنما كان ذلك تصورا وأوهاما للخلق تقررت فى قلوبهم ، وحين زال عنهم الإحساس الظاهر تجردت تلك الأوهام عن المعلومات بالحس والضرورة فقويت تلك الحالة عند صاحبها ، فإذا استيقظ

---

(١) آية ٦٤ من سورة يونس .

ضعفت تلك الأحوال التى تصوَّرها بالإضافة إلى حال إحساسه بالمشاهدات وحصول العلوم الضرورية ، ومثاله[١] : كالذى يكون فى ضوء السراج عند اشتداد الظلمة ، فإذا طلعت الشمس عليه غلبت ضوء السراج . فيتقاصر نور[٢] السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس ، فمثال حال النوم كمن هو فى ضوء السراج ، ومثال المستيقظ كمن تعالى عليه النهار ؛ فإن المستيقظ يتذكر ما كان متصوّراً له فى حال نومه .

ثم إن تلك الأحاديث والخواطر التى كانت ترد على قلبه فى حال نومه مرة تكون من قبل الشيطان[٣] ، ومرةً من هواجس النفس[٤] ، ومرة بخواطر الملك[٥] ، ومرة تكون تعريفاً من الله عز وجل بخلق تلك الأحوال فى قلبه ابتداء ، وفى الخبر : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » .

واعلم أن النوم على أقسام : نوم غفلة ، ونوم عادة ؛ وذلك[٦] غير محمود ، بل هو معلول[٧] ؛ لأنه أخو الموت ، وفى بعض الأخبار المروية : « النوم أخو الموت » .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوفَّاكُمْ بِالَّليلِ ، وَيعلَمُ مَا جَرَحْتُم[٨] بِالنَّهَارِ ﴾[٩] . وقال تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنامِهَا[١٠] ﴾ .

وقيل : لو كان فى النوم خير لكان فى الجنة نوم .

وقيل : لما ألقى الله على آدم النوم فى الجنة أخرج منه حوّاء . وكلُّ بلاء به إنما حصل حين حصلت حواء .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : لما قال إبراهيم لإسماعيل ، عليهما السلام : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك قال إسماعيل : يا أبت ، هذا جزاء من نام عن حبيبه ، لو لم تنم لما أمرت بذبح الولد .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : كذب من ادّعى محبتى ، فإذا جنَّه الليل نام عنى !!

والنوم ضد العلم ؛ ولهذا قال الشبلى : نعسةٌ فى ألف سنة فضيحة .

وقال الشبلى : اطلع الحق على الخلق فقال : من نام غَفَل ، ومن غَفَل حُجب ، فكان

---

(١) أى النائم الرائى .
(٢) وفى نسخة ضوء .
(٣) فتسمى أحلامًا .
(٤) فتسمى هاجسًا .
(٥) فتسمى رؤيا .
(٦) أى وكل منهما .
(٧) مذموم .
(٨) كسبتم .
(٩) آية ٦٠ من سورة الأنعام .
(١٠) آية ٤٢ من سورة الزمر .

الشبلى يكتحل بالملح بعده حتى كان لا يأخذه النوم ، وفى معناه أنشدوا :

عجبًا للمحب كيف ينام كلّ نوم على المحب حرامُ

وقيل : المريد : أكله فاقة ، ونومه غلبةٌ ، وكلامه ضرورة .

وقيل : لما نام آدم عليه السلام بالحضرة قيل له : هذه حواء لتسكن إليها ، هذا جزاء من نام بالحضرة .

وقيل : إن كنت حاضراً فلا تنم ؛ فإن النوم فى الحضرة سوءُ أدب ، وإن كنت غائباً فأنت من أهل الحسرة والمصيبة ، والمصاب لا يأخذه نوم . وأمَّا أهل المجاهدات فنومهم صدقة من الله عليهم ، وأن الله عز وجل يباهى بالعبد إذا نام فى سجوده ، يقول : انظروا إلى عبدى نام وروحه عندى ، وجسده بين يدى .

وقال الأستاذ : أى روحه فى محل النجوى ، وبدنه على بساط العبادة .

وقيل : كل من نام على الطهارة يؤذن لروحه أن تطوف بالعرش وتسجد لله عز وجل قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً ﴾[1] » .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : شكا رجل إلى بعض المشايخ من كثرة النوم ، فقال : اذهب فاشكر الله تعالى على العافية ، فكم من مريض فى شهوة غمضة من النوم الذى تشكو منه .

وقيل : لا شىء أشد على إبليس من نوم العاصى ؛ يقول : متى ينتبه ويقوم حتى يعصى الله !!

وقيل : أحسن أحوال العاصى أن ينام ؛ إن لم يكن الوقت له لم يكن عليه .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : تعود شاه الكرمانىُّ السهر ، فغلبه النوم مرة ، فرأى الحق ، سبحانه ، فى النوم ، فكان يتكلف النوم بعد ذلك ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال :

رأيت سرور قلبى فى منامى فأحببت التنعسُّ والمناما

وقيل : كان رجل له تلميذان ، فاختلفا فيما بينهما ، فقال أحدهما : النوم خير ، لأن الإنسان لا يعصى الله فى تلك الحالة ، وقال الآخر : اليقظة خير ، لأنه يعرف الله تعالى فى تلك الحالة .

---

(١) آية ٩ من سورة النبأ .

فتحاكما إلى ذلك الشيخ فقال : أما أنت الذى قلت بتفضيل النوم فالموت خير لك من الحياة ، وأما أنت الذى قلت بتفضيل اليقظة ، فالحياة خيرٌ لك من الموت .

وقيل : اشترى رجل مملوكة ، فلما دخل الليل قال : افرشى الفراش . فقالت المملوكة : يا مولاى ، ألك مولى ؟ قال : نعم ، فقالت : ينام مولاك ؟ فقال : لا . قالت : ألا تستحى أن تنام ومولاك لا ينام !!

وقيل : قالت بنية لسعيد بن جبير : لم لا تنام ؟ فقال : إن جهنم لا تدعنى أن أنام .

وقيل : قالت بنت لمالك بن دينار : لم لا تنام ؟ فقال : إن أباك يخاف البيات .

وقيل : لما مات الربيع بن خيثم قالت بنية لأبيها : الأسطوانة[1] التى كانت فى دار جارنا أين ذهبت ؟ فقال : إنه كان جارنا الصالح يقوم من أول الليل إلى آخره ؛ فتوهمت البنية أنه كان سارية ؛ لأنها كانت لا تصعد السطح إلا بالليل فتجده قائماً[2] .

وقال بعضهم : فى النوم معان ليست فى اليقظة ؛ منها أنه يرى المصطفى ، ﷺ ، والصحابة ، والسلف الماضين فى النوم ، ولا يراهم فى اليقظة وكذلك يرى الحق فى النوم ، وهذه مزية عظيمة .

وقيل : رأى أبو بكر الآجرى الحق ، سبحانه ، فى النوم ، فقال له : سل حاجتك ، فقال اللهم اغفر لجميع عصاة أمة محمد ﷺ ، فقال : أنا أولى بهذا منك ، سل حاجتك .

وقال الكتانى : رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقال لى : من تزين للناس بشىء يعلم الله منه خلافه شانه الله .

وقال الكتانى أيضا : رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقلت : ادع الله أن لا يميت قلبى ، فقال : قل كل يوم أربعين مرة « ياحى ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت » فإن الله يحيى قلبك .

ورأى الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، عيسى بن مريم ، فى المنام ، فقال : إنى أريد أن أتخذ خاتماً ، فما الذى أكتب عليه ؟ فقال : اكتب عليه : لا إله إلا الله ، الملك الحق المبين » فإنه فى آخر الأنجيل[3] .

وروى عن أبى يزيد[4] أنه قال : رأيت ربى عز وجل فى المنام ، فقلت ، كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال .

---

(١) أى السارية (العمود).

(٢) وقد سقطت هذه الجملة فى بعض النسخ.

(٣) أى فى خاتمته..

(٤) البسطامى.

وقيل : رأى أحمد بن خضرويه ربه فى المنام ، فقال : يا أحمد ، كل الناس يطلبون منى إلا أبا يزيد فإنه يطلبنى .

وقال يحيى بن سعيد القطان : رأيت ربى فى المنام فقلت : يارب ، كم أدعوك فلا تستجيب لى !! فقال تعالى : يا يحيى إنى أحب أن أسمع صوتك .

وقال بشر بن الحارث : رأيت أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه فى المنام ، فقلت : يا أمير المؤمنين عظنى ، فقال : ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً لثواب الله تعالى ، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالى ، فقلت له : يا أمير المؤمنين : زدنى ، فقال :

قد كنت ميتا فصرت حيا وعن قريب تصير ميتا
عِزٌّ[1] بدار الفناء بيت فابن بدار البقاء بيتا

وقيل : رؤى سفيان الثورى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال : رحمنى ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو ممن يلج على ربه كل يوم مرتين .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : رأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام ، وكان الزجاجى يقول بوعيد الأبد[2] ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال الزجاجى : الأمر هاهنا أسهل مما كنا نظنه !!

ورؤى الحسن بن عاصم الشيبانى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما يكون من الكريم إلا الكرم .

ورؤى بعضهم فى المنام فسئل عن حاله ، فقال :

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

ورؤى حبيب العجمى فى المنام ، فقيل له : متَّ يا حبيب العجمى ؟! فقال : هيهات .. ذهبت العجمة وبقيت فى النعمة .

وقيل : دخل الحسن البصرى مسجداً ليصلى فيه المغرب ، فوجد إمامهم حبيباً العجمى ، فلم يصل خلفه . لأنه خاف أن يلحن لعجمة فى لسانه ، فرأى فى المنام تلك الليلة قائلاً يقول له : لِم لَم تصل خلفه ؟ لو صليت خلفه لغفر لك ماتقدم فى ذنبك ..

---

(١) أى تعزز .
(٢) أى أن الكبائر لا يغفرها الله .

ورؤى مالك بن أنس فى المنام . فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة : « سبحان الحىّ الذى لا يموت » .

ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأنّ أبواب السماء مفتحة .. وكأن منادياً ينادى : ألا إن الحسن البصرى قدم على الله تعالى وهو عنه راض .

سمعت أبا بكر بن أشكيب يقول : رأيت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى فى المنام على حالة حسنة فقلت : يا أستاذ ، بم وجدت هذا ؟ فقال : بحسن ظنى بربى .

وقيل : رؤى الجاحظ فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

فلا تكتب بخطك غير شىء يسرّك فى القيامة أن تراه

وقيل : رأى الجنيدُ إبليس فى منامه عريانا ، فقال له : ألا تستحى من الناس ؟ فقال : هؤلاء لا ناس ، إنما الناس أقوام فى مسجد « الشونزية » أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى ، قال الجنيد : فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة وضعوا رءوسهم على ركبهم متفكرين ، فلما رأونى قالوا : لا يغرنك حديث الخبيث .

ورؤى النصر اباذى بمكة بعد وفاته فى النوم ، فقيل له : ما فعل الله تعالى بك ! فقال : عوتبت عتاب الأشراف ، ثم نوديت : يا أبا القاسم ، أبعد الاتصال انفصال ؟ فقلت : لا ياذا الجلال ، فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بالأحد .

ورؤى ذو النون المصرى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : كنت أسأله ثلاث حوائج فى الدنيا ، فأعطانى البعض ، وأرجو أن يعطينى الباقى ؛ كنت أسأله أن يعطينى من العشرة[1] التى على يد رضوان واحدة ، ويعطينى بنفسه ، وأن يعذبنى عن الواحدة التى بيد مالك بعشرة ويتولىَّ هو[2] ، وأن يرزقنى أن أذكره بلسان الأبدية[3]

وقيل : رؤى الشبلى فى المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال : لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوى إلا على شىء واحد ، قلت يوماً : لا خسارة أعظم من خسران الجنة ، ودخول النار ، فقال لى : وأىّ خسارة أعظم من خسران لقائى !! .

---

(١) أى الكرامات .

(٢) أى يتولى الله تعذيبه ، كما تولى نعيمه ، قال الإمام العروسى : إن غرضه أن الحق سبحانه يتولى كلا من نعيمه وعذابه ، وذلك ليعظم الأول ويسهل الثانى .

(٣) وهذه هى الطلبة الدنيوية التى تحققت له .

سمعت الأستاذ أبا عليّ يقول : رأى الجريرى الجنيد فى المنام . فقال : كيف حالك يا أبا القاسم ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وبادت تلك العبارات ، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات . وقال النباجىّ : تشهيت يوما شيئا ، فرأيت فى المنام كأن قائلاً يقول : أيجمل بالحرّ المريد أن يتذلل للعبيد ، وهو يجد من مولاه ما يريد ؟!

وقال ابن الجلاء : دخلت المدينة[1] وبى فاقة ، فتقدمت إلى القبر ، وقلت أنا ضيفك يا نبىَّ الله .. فغفوت غفوة ، فرأيت النبى ﷺ فى نومى وقد أعطانى رغيفاً فأكلت نصفه وانتبهت وبيدى النصف [الآخر] .

وقال بعضهم : رأيت النبى ﷺ فى المنام يقول : زوروا ابن عون ؛ فإنه يحب الله ورسوله .

وقيل : رأى عتبة الغلامُ حوراء فى المنام على صورة حسنة ، فقالت له : يا عتبة ، أنا لك عاشقة ، فانظر أن لا تعمل من الأعمال شيئاً يحال بينى وبينك ، فقال لها عتبة : طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعة لى عليها ، حتى ألقاك .

سمعت منصوراً المغربى يقول : رأيت شيخاً فى بلاد الشام كبير الشأن ، وكان الغالب عليه الانقباضُ ، فقيل لى : إن أردت أن ينبسط هذا الشيخ معك فسلم عليه وقل له : رزقك الله الحور العين ؛ فإنه يرضى منك بهذا الدعاء . فسألت عن سببه ، فقيل : إنه رأى شيئاً من الحور فى منامه ، فبقى فى قلبه شىء من ذلك ، فمضيت وسلمت عليه ، وقلت : رزقك الله الحور العين ، فانبسط الشيخ معى .

وقيل : رأى أيوب السختيانى جنازة عاص ، فدخل دهليزاً ؛ لئلا يحتاج إلى الصلاة عليها فرأى بعضهم الميت فى المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى . وقال لى قل لأيوب السختيانى ﴿ قُلْ لوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إذا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾[2] .

وقيل : رؤى الليلة التى مات فيها مالك بن دينار كأن أبواب السماء قد فتحت ، وقائلاً يقول : ألا إن مالك بن دينار أصبح من سكان الجنة .

وقال بعضهم : رأيت الليلة التى مات فيها داود الطائى نوراً ، وملائكة صعودا وملائكة نزولاً ، فقلت : أىّ ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه على أهلها .

---

(١) المنورة .
(٢) آية ١٠٠ من سورة الإسراء .

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيرى : رأيت الأستاذ أبا علىّ الدقاق فى المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؛ فقال : ليس للمغفرة ها هنا كبير خطر[1] ، أقل من حضر ها هنا خطراً[1] « فلان » أعطى كذا كذا .

ووقع لى فى المنام أن ذلك الإنسان الذى عناه قتل نفساً بغير حقّ .

وقيل : لما مات كرز بن وبرة رؤى فى المنام كأن أهل القبور خرجوا من قبورهم وعليهم ثياب جدد بيض فقيل : ما هذا ؟ قيل : إن أهل القبور كسوا ثياباً جدداً[2] لقدوم كرز بن وبرة عليهم .

ورؤى يوسف بن الحسين فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ، فقيل له : بماذا ؟ فقال : لأنى ما خلطت جدا بهزل قط .

ورؤى أبو عبد الله الزرّاد فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال : أوقفنى ، وغفر لى كلَّ ذنب أقررت به فى الدنيا ، إلا واحداً استحييت أن أقرّ به ، فوقفنى فى العرق ، حتى سقط لحم وجهى !!

فقيل له : وما ذاك ؟ فقال : نظرت يوماً إلى شخص جميل ؛ فاستحييت أن أذكره .

سمعت أبا سعيد الشحام يقول : رأيت الشيخ الإمام أبا الطيب سهلًا الصعلوكى فى المنام ، فقلت له : أيها الشيخ ، فقال : دعْ الشيخ !! فقلت : وتلك الأحوال التى شاهدتها ؟! فقال : لم تغن عنا شيئا ، فقلت : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال غفر لى بمسائل كانت تسأل عنها العُجُر[3] فأجبتهم عنها .

سمعت أبا بكر الرشيدى الفقيه يقول : رأيت محمدا الطوسى المعلم فى المنام ، فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى
فقد ، وحياة الحب حِلتُم ، وما حِلنا
تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا   وأظهرتُم الهجران ، ما هكذا كنَّا !!
لعل الذى يقضى الأمور بعلمه   سيجمعنا بعد الممات كما كنَّا

---

(١) أى قدر .
(٢) وفى نسخة « لبسوا لباسًا جديدًا » .
(٣) العوام .

قال : فانتبهت ، وقلت ذلك لأبى سعيد الصفّار ، فقال : كنت أزور قبره كل يوم جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة .

وحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت فى المنام رسول الله ﷺ وحوله جماعة من الفقراء ، فبينما هو كذلك إذ نزل من السماء ملكان ، وبيد أحدهما طست ، وبيد الآخر إبريق ؛ فوضع الطست بين يدى رسول الله ﷺ ، فغسل يده ، ثم أمر الملكين حتى غسلوا أيديهم ، ثم وضع الطست بين يدى ، فقال أحدهما للآخر : لا تصبَّ على يده ؛ فإنه ليس منهم ، فقلت يا رسول الله ، أليس قد روى عنك أنك قلت « المرء مع من أحب » ؟ فقال : بلى ، فقلت وأنا أحبك ، وأحبُّ هؤلاء الفقراء ، فقال ﷺ : صبّ على يده ، فإنه منهم » .

وحكى عن بعضهم أنه كان يقول ، أبداً[1] : العافية .. العافية ، فقيل له : ما معنى هذا الدعاء ؟ فقال : كنت حمالاً فى ابتداء أمرى ، وكنت حملت يوماً صنْراً[2] من الدقيق ، فوضعته لأستريح ، فكنت أقول : يارب ، لو أعطيتنى كلّ يوم رغيفين من غير تعب لكنت أكتفى بهما ، فإذا رجلان يختصمان .

فتقدمت أصلح بينهما .. فضرب أحدهما رأسى بشىء أراد أن يضرب به خصمه ، فدمى وجهى .. فجاء صاحب « الربع » فأخذهما ، فلما رآنى ملوثا بالدم أخذنى وظن أننى ممن تشاجر . فأدخلنى السجن ، وبقيت فى السجن مدّه أوتى كلّ يوم برغيفين ، فرأيت ليلة فى المنام قائلاً يقول لى : إنك سألت الرغيفين كل يوم من غير نصب ، ولم تسأل العافية !! فأعطاك ما سألت . فانتبهت ، وقلت العافية ، العافية ، فرأيت باب السجن يُقرع ، وقيل : أين عمر الحمال ؟ فأطلقونى وخلوا سبيلى .

وحكى عن الكتانى أنه قال : كان عندنا رجل من أصحابنا هاجت عينه ، فقيل له : ألا تعالجها ؟ فقال : عزمت على أن لا أعالجها حتى تبرأ ، قال : فرأيت فى المنام كأن قائلاً يقول : لو كان هذا العزم على أهل النار كلهم ، لأخرجناهم من النار .

وحكى عن الجنيد أنه قال : رأيت فى المنام كأنى أتكلم على الناس[3] .. فوقف علىّ ملكٌ . فقال : أقرب ما تقرّب به المتقربون إلى الله ماذا ؟ فقلت : عملٌ خفىّ بميزان وفىّ . قال : فولى الملك عنى ، وهو يقول : كلام موفق والله .

---

(١) أى دائمًا .
(٢) أى حملا ثقيلًا .
(٣) أى : أعظهم .

وقال رجل للعلاء بن زياد : رأيت فى النوم كأنك من أهل الجنة . فقال : لعل الشيطان أراد أمراً فعُصمت منه ، فأشخص[١] إلىّ رجلا يعينه على مقصوده من إضلالى .

وقيل رؤى عطاء السلمى فى النوم ، فقيل له : لقد كنت طويل الحزن ، فما فعل الله تعالى بك ؟ فقال : أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائما ، فقيل له : ففى أى الدرجات أنت ؟

فقال : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ والصِّدِّيقِينَ .. ﴾ الآية[٢] .

وقيل : رؤى الأوزاعى فى المنام ، فقال : ما رأيت هاهنا درجة أرفع من درجة العلماء ، ثم المحزونين .

وقال النباجىّ : قيل لى فى المنام : من وثق بالله فى رزقه زيد فى حسن خلقه ، وسمحت نفسه فى نفقته ، وقلّت وساوسه فى صلاته .

وقيل : رؤيت زُبيدة[٣] فى المنام ، فقيل لها : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقالت : غفر لى ، فقيل : بكثرة نفقتك فى طريق مكة ؟ فقالت : لا ، أما إنّ أجرها عاد إلى أربابها ، ولكن غفر لى بنيّتى .

ورؤى سفيان الثورى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : وضعت أول قدمىّ على الصراط ، والثانى فى الجنة .

وقال أحمد بن أبى الحوارى : رأيت فى النوم جارية ما رأيت أحسن منها ، يتلألأ وجهها نورا ، فقلت : ما أنور وجهك ، فقالت : تذكر الليلة التى بكيت فيها ؟ فقلت : نعم ، فقالت : حملت إلىّ دمعتك فمسحت بها وجهى ، فصار وجهى هكذا .

وقيل : رأى يزيد القرشى النبى ﷺ فى المنام ، فقرأ عليه ، فقال له : هذه القراءة فأين البكاء ؟!

وقال الجنيد : رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء ، فقال أحدهما لى : ما الصدق ؟ فقلت : الوفاء بالعهد ، فقال الآخر : صدق ، ثم صعدا .

---

(١) أى : أرسل .
(٢) آية ٦٩ من سورة النساء .
(٣) زوجة هارون الرشيد .

ورؤى بشر الحافى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال : غفر لى ، وقال : أما استحييت يا بشر منى ، كنت تخافنى كلّ ذلك الخوف !!

وقيل : رؤى أبو سليمان الدارانى فى المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ، وما كان شىء أضرَّ علىَّ من إشارات القوم !!

وقال على بن الموفق : كنت أفكر يوماً فى سبب عيالى والفقر الذى بهم ، فرأيت فى المنام رقعة فيها مكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم : يا ابن الموفق ، أتخشى الفقر وأنا ربُّك !! » .

فلما كان وقت الغلس أتانى رجل بكيس فيه خمسة آلاف دينار ، وقال : خذها إليك يا ضعيف اليقين .

وقال الجنيد : رأيت فى المنام كأنى واقف بين يدى الله تعالى فقال لى : ، يا أبا القاسم : من أين لك هذا الكلام الذى تقول ؟ فقلت : لا أقول إلا حقًّا ، فقال : صدقت .

وقال أبو بكر الكتانى : رأيت فى المنام شابا لم أر أحسن منه ، فقلت : من أنت ؟ فقال : التقوى ، قلت : فأين تسكن ؟ قال : فى قلب كل حزين ، ثم التفت فإذا امرأة سوداء كأوحش ما يكون ، فقلت : من أنت ؟ فقالت : الضحك ، فقلت : وأين تسكنين ؟ فقالت فى كل قلب فرح . مرح . قال : فانتبهت ، واعتقدت[1] أن لا أضحك إلا غلبة .

وحكى عن أبى عبد الله بن خفيف أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام كأنه قال لى : من عرف طريقاً إلى الله تعالى فسلكه ، ثم رجع عنه عذبه الله عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين .

ورؤى الشبلى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال : ناقشنى حتى أيست ، فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته .

وقال أبو عثمان المغربى : رأيت فى النوم كأن قائلا يقول لى : يا أبا عثمان ، اتق الله فى الفقر ، ولو بقدر سمسمة .

وقيل : كان لأبى سعيد الخراز ابن مات قبله ، فرآه فى المنام ، فقال له : يا بنى ، أوصنى .

فقال : يا أبت ، لا تعامل الله على الجبن ، فقال : يا بنى ، زدنى .

فقال : لا تخالف الله تعالى فيما يطالبك به ، فقال : زدنى .

فقال : لا تجعل بينك وبين الله قميصاً[2] قال : فما لبس القميص ثلاثين سنة .

---

(١) عزمت .

(٢) أى : حائلا يحجبك عن طاعة الله .

وقيل : كان بعضهم يقول فى دعائه : اللهم الشىء الذى لا يضرك وينفعنا لا تمنعه عنا ، فرأى فى المنام كأنه قيل له : وأنت . فالشىء الذى يضرك ولا ينفعك فدعه .

وحكى عن أبى الفضل الأصبهانى أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقلت : يا رسول الله سل الله أن لا يسلبنى الإيمان ، فقال ﷺ : ذاك شىء قد فرغ الله تعالى منه .

وحكى عن أبى سعيد الخراز قال : رأيت إبليس فى المنام ، فأخذت عصاى لأضربه ، فقيل لى : إنه لا يفزع من هذا ، إنما يفزع من نور يكون فى القلب .

وقال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدوية ، فرأيتها فى النوم تقول : هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمّرة[1] بمناديل من نور .

ويروى عن سماك بن حرب أنه قال : كفّ بصرى ، فرأيت فى المنام كأن قائلًا يقول لى : إئت الفرات ، فانغمس[2] فيه ، وافتح عينيك ، قال : ففعلت ، فأبصرت .

وقيل : رؤى بشر الحافى فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لما رأيت ربى عز وجل قال لى : مرحبا يا بشر ، لقد توفيتك يوم توفيتك ، وما على الأرض أحبّ إلىّ منك .

---

(١) أى مغطاة .

(٢) وفى نسخة « فاغتسل » .

باب الوصية للمريدين

قال الأستاذ الإمام : لما أثبتنا طرفا من سير القوم ، وضممنا إلى ذلك أبوابا من المقامات ، أردنا أن نختم هذه الرسالة بوصيَّة للمريدين ، نرجو من الله تعالى حسن توفيقهم لاستعمالها ، وأن لا يحرمنا القيام بها ، وأن لا يجعلها - سبحانه - حجة علينا .

فأول قدم للمريد فى هذه الطريقة ينبغى أن يكون على الصدق ، ليصحَّ له البناءُ على أصل صحيح ؛ فإن الشيوخ قالوا : إنما حُرموا الوصول لتضييعهم الأصول .

كذلك سمعت الأستاذ أبا على يقول ؛ فتجب البداية بتصحيح اعتقاد بينه وبين الله تعالى ، صاف عن الظنون والشبه ، خال من الضلالة والبدع ، صادر عن البراهين والحجج .

ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة .

وليس انتساب الصوفىّ إلى مذهب من مذاهب المختلفين ، سوى طريقة الصوفية ، إلا نتيجة جهلهم[١] بمذاهب أهل هذه الطريقة ؛ فإن هؤلاء حججهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب .

والناس : إمَّا أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفِكر .

وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ؛ فالذى للناس غيبٌ ، فهو لهم ظهور[٢] ، والذى للخلق من المعارف مقصود[٣] فلهم[٤] من الحق ، سبحانه ، موجود ، فهم أهل الوصال ، والناسُ أهل الاستدلال .

وهم كما قال القائل :

ليـلى بـوجـهـك مـشـرق ... وظـلامُـه فى النـاس سـارى
فـالنـاس فى سـدَف[٥] الـظلام ... ونـحـن فى ضـوء الـنهـار

---

(١) والأولى أن يقول « جهله » .
(٢) أى ظاهر .
(٣) أى مقصود تحصيله .
(٤) أى فهو لهم .
(٥) جمع سدفة (بفتح السين وإسكان الدال) وهى الظلمة .

ولم يكن عصر من الأعصار فى مدة الإسلام إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة ، ممن له علوم التوحيد ، وإمامة القوم إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء استسلموا لذلك الشيخ ، وتواضعوا له وتبركوا به .

ولولا مزية ، وخصوصية لهم ، وإلا كان الأمر بالعكس .

هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعى ، رضى الله عنهما ، فجاء شيبان الراعى فقال أحمد : أريد يا أبا عبد الله أن أُنبِّه هذا على نقصان علمه ، ليشتغل بتحصيل بعض العلوم .

فقال الشافعى : لا تفعل !!

فلم يقنع ؛ فقال لشيبان : ما تقول فيمن نسى صلاة من خمس صلوات فى اليوم والليلة ، ولا يدرى أىّ صلاة نسيها ، ما الواجب عليها : يا شيبان ؟!

فقال شيبان : يا أحمد ، هذا قلب غفل عن الله تعالى ، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعدُ !!

فغشى على أحمد .. فلما أفاق ، قال له الإمام الشافعى ، رحمه الله : ألم أقل لك لا تحرك هذا !!

وشيبان الراعى كان أميًّا منهم ، فإذا كان حالُ الأمىِّ منهم هكذا ، فما الظنُّ بأئمتهم ؟؟

وقد حكى أن فقيها من أكابر الفقهاء كانت حلقته بجنب حلقة الشبلى فى جامع « المنصور » ، وكان يقال لذلك الفقيه « أبو عمران » وكان تتعطل عليهم حلقتهم لكلام الشبلىّ .

فسأل أصحابُ أبى عمران يوما الشبلىّ عن مسألة فى الحيض ، وقصدوا إخجاله !! فذكر مقالات الناسَ فى تلك المسألة ، والخلافَ فيها .

فقام أبو عمران وقبَّل رأس الشبلىّ ، وقال : يا أبا بكر ، استفدت فى هذه المسألة عشر مقالات ، لم أسمعها ، وكان عندى من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل .

وقيل : اجتاز أبو العباس بن شريح الفقيه بمجلس الجنيد ، رحمهما الله ، فسمع كلامه ، فقيل له : ما تقول فى هذا الكلام ؟

فقال : لا أدرى ما يقول ... ولكنى أرى لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل .

وقيل لعبد الله بن سعيد بن كلاب : أنت تتكلم على كلام كل أحد ، وها هنا رجل يقال له الجنيد ، فانظر هل تعترض عليه أم لا ؟ فحضر حلقته .

فسأل الجنيدَ عن التوحيد فأجابه ، فتحيَّر عبد الله وقال : أعد عليّ ما قلت ؟ فأعاده ولكن لا بتلك العبارة .

فقال له عبد الله : هذا شيء آخر لم أحفظه ، تعيده عليّ مرّة أخرى .

فأعاد بعبارة أخرى ، فقال عبد الله : ليس يمكنني حفظ ما تقول !! أَمْلِه علينا ، فقال : إن كنت أَجَزْته[1] فأنا أمليه ، فقام عبد الله ، وقال بفضله ، واعترف بعلوّ شأنه .

فإذا كان أصول هذه الطائفة أصحَّ الأصول ، ومشايخُهُم أكبرَ الناس ، وعلماؤهم أعلَم الناس ، فالمريد الذى له إيمان بهم : إن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقاصدهم فهو يساهمهم فيما خُصُّوا به من مكاشفات الغيب ، فلا يحتاج إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة ، وإن كان مريداً طريقة الاتباع وليس بمستقل بحاله ، ويريد أن يعرِّج فى أوطان التقليد إلى أن يصل إلى التحقيق فليقلد سلَفَه ، وليجر على طريقة هذه الطبقة[2] ؛ فإنهم أولى به من غيرهم .

ولقد سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت الشبلىّ يقول : ما ظنك بعلِم عَلِمَ العلماءُ فيه تهمة !!

وسمعته يقول : سمعت محمد بن على بن محمد المخرمي يقول : سمعت محمد بن عبد الله الفرغاني يقول : سمعت الجنيد يقول : لو علمت أن لله عِلْماً تحت أديم[3] السماء أشرفُ من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه ، ولقصدته .

وإذا أَحْكم المريدُ بينه وبين الله عقدَه ، فيجب أن يحصل من علم الشريعة ، إمّا بالتحقيق ، وإما بالسؤال عن[4] الأئمة ما يؤدّى به فَرْضَه ، وإن اختلف عليه فتاوَى الفقهاء يأخذ بالأحوط ؛ ويقصد[5] الخروجَ من الخلاف ، فإن الرُّخَصَ فى الشريعةَ للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال .

وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقهِّ سبحانه ، ولهذا قيل : إذا انحطّ الفقير عن درجة الحقيقة إلى رُخصة الشريعة فقد فسخ عقده[6] مع الله ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى .

ثم يجب على المريد أن يتأدّب بشيخ ؛ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً .

---

(١) أى سلكته .
(٢) وفى نسخة : « الطائفة » .
(٣) أديم : وجه .
(٤) عن بمعنى من .
(٥) أى بالأخذ بالأحوط .
(٦) أى عزمه وتصميمه .

هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، ولكن لا تُثمر ؛ كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ من طريقته نَفَسًا[1] نَفَسًا فهو عابد هواه ، لا يجد نفاذاً .

ثم إذا أراد السلوكَ فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله سبحانه من كلّ زلة ؛ فيدع جميع الزلات : سرّها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد فى إرضاء الخصوم أولا ، ومن لم يُرض خصومَه لا يفتح له من هذه الطريقة بشىء .

وعلى هذا النحو جروا ، ثم بعد هذا يعمل فى حذف العلائق والشواغل ؛ فإنَّ بناء هذا الطريق على فراغ القلب .

وكان الشبلىُّ يقول للحصرىِّ فى ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية التى تأتينى فيها غيرَ الله تعالى فحرام عليك أن تحضرنى .

وإذا أراد الخروجَ عن العلائق فأوّلها : الخروج عن المال ؛ فإن ذلك الذى يميل به عن الحق ، ولم يوجد مريدٌ دخل فى هذا الأمر[2] ومعه علاقة من الدنيا إلا جرّته تلك العلاقة عن قريب إلى ما منه خرج ، فإذا خرج عن المال ، فالواجب عليه الخروجُ عن الجاه ، فإن ملاحظة حبّ الجاه مقطعة عظيمة .

وما لم يستو عند المريد قبول الخلق وردّهم لا يجىء منه شىء ، بل أضرُّ الأشياء له ملاحظة الناس إياه بعين الإثبات والتبرك به لإفلاس الناس عن هذا الحديث[3] ، وهو بعد لم يصحح الإرادة ، فكيف يصحّ أن يتبرّك به ؟!

فخروجهم من الجاه واجب عليهم ؛ لأن ذلك سمٌّ قاتل لهم ، فإذا خرج عن ماله وجاهه فيجب أن يصحح عقده[4] بينه وبين الله تعالى ، وأن لا يخالف شيخه فى كلِّ ما يشير عليه ؛ لأن الخلاف للمريد فى ابتداء أمره عظيم الضرر ؛ لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره .

ومن شرطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المريد أن له فى الدنيا والآخرة قدرا أو قيمة ، أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له فى الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ، ليعرف ربه ، لا ليحصِّل لنفسه قدراً .

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسه ، إما فى عاجله وإما فى آجله ، ثم

---

(١) أى درجة درجة ومقامًا مقامًا .

(٢) أى فى التصوف .

(٣) أى عن الملاحظة والتبرك .

(٤) أى عهده .

يجب عليه حفظ سره حتى عن زِرّه إلا عن شيخه ، ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه ، فيجب أن يقر بذلك بين يديه فى الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته ، إما بسفر يُكلفه ، أو أمر ما يراه .

ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئا من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ، فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله فى هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء ، فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل ، والفقر والأسقام والآلام ، وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة ، ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ، ولا يؤثر الدعة ، ولا يستشعر الكسل فإن وقفة المريد شر من فترته .

والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .

وكل مريد وقف فى ابتداء إرادته لا يجىء منه شىء .

فإذا جَرَّبه شيخه ، فيجب عليه أن يلقنه ذكرا من الأذكار على ما يراه شيخه فيأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ، ثم يأمره أن يستوى قلبه مع لسانه ، فيقول له : اثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبداً بقلبك ، ولا يجرى على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك ثم يأمره أن يكون أبداً فى الظاهر على الطهارة ، وأن لا يكون نومه إلا غلبة ، وأن يقلل من غذائه بالتدريج شيئا بعد شىء حتى يقوى على ذلك ، ولا يأمره أن يترك عادته بمرة ، فإن فى الخبر : « إنَّ المنبتَّ[1] لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى » .

ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة ، ويجعل اجتهاده فى هذه الحالة لا محالة فى نفى الخواطر الدنيَّة والهواجس الشاغلة للقلب .

وأعلم ، أن فى هذه الحالة قلما يخلو المريد فى أوان خلوته فى ابتداء إرادته من الوساوس فى الاعتقاد ، لاسيما إذا كان فى المريد كياسة قلب ، وقلَّ مريدٌ لا تستقبله هذه الحالة[2] فى ابتداء إرادته .

---

(١) أى الرجل الذى حمل دابته ما لا تطيقه فماتت فى الطريق .

(٢) أى ابتلاؤه بالوساوس .

وهذه من الامتحانات التى تستقبل المريدين ، فالواجب على شيخه إن رأى فيه كياسة[١] ، أن يحيله على الحجج العقلية ، فإن بالعلم يتخلص لا محالة المتعرّف مما يعتريه من الوساوس .

وإن تفرّس شيخه فيه القوة والثبات فى الطريقة أمره بالصبر واستدامة الذكر حتى تسطع فى قلبه أنوار القبول ، وتطلع فى سره شموس الوصول ، وعن قريب يكون ذلك .

ولكن لا يكون هذا إلا لأفراد المريدين ، فأما الغالب فأن تكون معالجتهم بالرد إلى النظر[٢] ، وتأمل الآيات بشرط تحصيل علم الأصول على قدر الحاجة الداعية للمريد .

وأعلم أنه يكون للمريدين على الخصوص بلايا من هذا الباب[٣] ، وذلك أنهم إذا خَلوا فى مواضع ذكرهم ، أو كانوا فى مجالس سماع ، أو غير ذلك فيهجس فى نفسه ويخطر ببالهم أشياء منكرة ، يتحققون أن الله ، سبحانه ، منزه عن ذلك ، وليس تعتريهم شبهة فى أن ذلك باطل ، ولكن يدوم ذلك ، فيشتد تأذيهم به ، حتى يبلغ ذلك حدا يكون أصعب شتم وأقبح قول وأشنع خاطر ، بحيث لا يمكن المريد إجراء ذلك على اللسان ، وإبداؤه لأحد ، وهذا أشد شىء يقع لهم .

فالواجب عند هذا ترك مبالاتهم بتلك الخواطر ، واستدامة الذكر ، والابتهال إلى الله باستدفاع ذلك .

وتلك الخواطر ليست من وساوس الشيطان ، وإنما هى من هواجس النفس ، فإذا قابلها العبد بترك المبالاة بها ينقطع ذلك عنه .

ومن آداب المريد ، بل من فرائض حاله ، أن يلازم موضع إرادته[٤] ، وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق ، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب ، فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل ، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر فى غير وقته .

وإذا أراد الله بمريد خيرا ثبته فى أول إرادته ، وإذا أراد الله بمريد شرا رَده إلى ما خرج عنه من حرفته أو حالته ، وإذا أراد الله بمريد محنة شرَّده فى مطارح غربته .

هذا إذا كان المريد يصلح للوصول : فأما إذا كان شابا طريقته الخدمة فى الظاهر بالنفس للفقراء ، وهو دونهم فى هذه الطريقة رتبة ، فهو وأمثاله يكتفون بالترسم فى الظاهر ، فينقطعون فى الأسفار . وغاية نصيبهم من هذه الطريقة حِجَّات يحصِّلونها ، وزيارات لموضع يُرْتحل إليه ،

---

(١) أى حذقا .
(٢) أى : الدليل .
(٣) أى باب الوساوس .
(٤) أى الخلوة .

ولقاء شيوخ بظاهر سلام ، فيشاهدون الظواهر ، ويكتفون بما فى هذا الباب من السير ، فهؤلاء الواجب لهم دوام السفر ، حتى لا تؤدّيهم الدَّعة إلى ارتكاب محظور فإن الشاب إذا وجد الراحة والدعة كان فى معرض الفتنة[١] .

وإذا توسَّط المريد جمعَ الفقراء والأصحاب فى بدايته فهو مضر له جدا ، فإن امتحن واحد بذلك فليكن سبيله احترام الشيوخ ، والخدمة للأصحاب ، وترك الخلاف عليهم ، والقيامَ بما فيه راحة الفقير ، والجهد فى أن لا يستوحش منه قلب شيخ .

ويجب أن يكون فى صحبته مع الفقراء أبداً خصمهم على نفسه ، ولا يكون خصم نفسه عليهم ، ويرى لكل واحد منهم عليه حقا واجباً ، ولا يرى لنفسه واجباً على أحد .

ويجب أن لا يخالف المريد أحداً ، وإن علم أن الحق معه يسكت ، ويُظهر الوفاق لكل أحد .

وكل مريد يكون فيه ضحك ولجاج[٢] ومماراة[٣] فإنه لا يجىء منه شىء !!

وإذا كان المريد فى جمع من الفقراء ، إمَّا فى سفر أو حَضَر ، فينبغى أن لا يخالفهم فى الظاهر ، لا فى أكل ولا صوم ولا سكون ولا حركة ، بل يخالفهم بسرهٌ وقلبه ، فيحفظ قلبه مع الله عزَّ وجلَّ ، وإذا أشاروا عليه بالأكل ، مثلاً ، يأكل لقمة أو لقمتين ، ولا يعطى النفس شهوتها .

وليس من آداب المريدين كثرة الأوراد فى الظاهر ، فإن القوم فى مكابدة إخلاء خواطرهم ، ومعالجة أخلاقهم ، ونفى الغفلة عن قلوبهم ، لا فى تكثير أعمال البر ، والذى لا بدّ لهم منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة .

فأما الزيادة من الصلوات النافلة فاستدامة الذكر بالقلب أتم لهم .

ورأس مال المريد : الاحتمال عن[٤] كل أحد ، بطيبة النفس ، وتلقى ما يستقبله بالرضا ، والصبر على الضر والفقر ، وترك السؤال والمعارضة فى القليل والكثير فيما هو حظ له .

ومن لم يصبر على ذلك فليدخل السوق ، فإن من اشتهى ما يشتهيه الناس ، فالواجب أن يحصِّل شهوته من حيث يحصِّلها الناس ، من كد اليمين ، وعرَق الجبين .

وإذا التزم المريد استدامة الذكر وآثر الخلوة فإن وجد فى خلوته مالم يجده قبله إمّا فى النوم

---

(١) أى معرضا لها .

(٢) غضب .

(٣) مجادلة .

(٤) عن بمعنى من .

وإما فى اليقظة ، أو بين اليقظة والنوم من خطاب يُسْمع ، أو معنى يُشَاهد مما يكون نقضاً للعادة ، فينبغى أن لا يشتغل بذلك[١] ألبتة ، ولا يسكن إليه ، ولا ينبغى له أن ينتظر حصول أمثال ذلك ، فإن ذلك كله شواغل عن الحق سبحانه .

ولا بد له فى هذه الأحوال من وصف ذلك لشيخه حتى يصير قلبه فارغاً عن ذلك .

ويجب على شيخه أن يحفظ عليه سره ، فيكتم عن غيره أمره ، ويصغر ذلك فى عينه[٢] ، فإن ذلك كله اختبارات ، والمساكنة إليها مكر ، فليحذر المريد عن ذلك ، وعن ملاحظتها ، وليجعل همته فوق ذلك .

وأعلم أن أضرّ الأشياء بالمريد : استئناسه بما يلقى إليه فى سره من تقريبات الحق سبحانه له ، ومنته عليه بأنى خصصتك بهذا وأفردتك عن أشكالك ، فإنه[٣] لو قال[٤] بترك هذا فعن قريب سيختطف عن ذلك[٥] مما يبدو له من مكاشفات الحقيقة .

وشرح هذه الجملة[٦] بإثباته فى الكتب متعذر .

ومن أحكام المريد إذا لم يجد من يتأدب به فى موضعه أن يهاجر إلى من هو منصوب فى وقته لإرشاد المريدين ، ثم يقيم عليه ، ولا يبرح عن سدّته[٧] إلى وقت الإذن .

واعلم أن تقديم معرفة رب البيت – سبحانه – على زيارة البيت واجب ، فلولا معرفة ربّ البيت ما وجبت زيارة البيت ، والشباب الذين يخرجون إلى الحج ثم زيارة البيت من هؤلاء القوم[٨] من غير إشارة إلى الشيوخ فهى[٩] بدلالات نشاط النفوس ، فهم متوسمون[١٠] بهذه الطريقة ، وليس سفرهم على أصل .

والذى يدل على ذلك : أنه لا يزداد سفرهم إلا وتزداد تفرقة قلوبهم ، فلو انهم ارتحلوا من عند[١١] أنفسهم بخطوة لكان أحظى لهم من ألف سفرة .

---

(١) أى بما وجده فى خلوته .
(٢) أى يزهده فيه ويأمره بالإعراض عنه لئلا يقف عنده فيختل سلوكه . وليرغبه فى الأرقى .
(٣) أى المريد .
(٤) أى عزم وصمم .
(٥) أى يفتح عليه بما هو أعظم .
(٦) أى جملة ما يلقى إلى المريد فى سره من تقريبات الحق .
(٧) باب داره .
(٨) يعنى الفقراء .
(٩) أى سفرتهم .
(١٠) أى مظهرون على أنفسهم لعلامتها .
(١١) أى خرجوا على رغبات أنفسهم .

ومن شرط المريد إذا زار شخصا أن يدخل عليه بالحرمة[1] ، وينظر إليه بالحشمة ، فإن أهله الشيخ لشىء من الخدمة عدّ ذلك من جزيل النعمة .

فصل

ولا ينبغى للمريد أن يعتقد فى المشايخ العصمة ، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم : فيحسن بهم الظنّ ويراعى مع الله تعالى حدّه فيما يتوجه عليه من الأمر .

والعلم كافيه فى التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول .

فصل

وكلُّ مريد بقى فى قلبه لشىء من عروض الدنيا مقدار وخطر فاسم الإرادة له مجاز .

وإذا بقى فى قلبه اختيار فيما يخرج عنه من معلومه فيريد أن يخص به نوعا من أنواع البرّ ، أو شخصا دون شخص ، فهو متكلف فى حاله ، وبالخطر أن يعود سريعا إلى الدنيا ، لأن قصد المريد فى حذف العلائق الخروجُ منها ، لا السعى فى أعمال البرّ .

وقبيح بالمريد أن يخرج من معلومه من رأس ماله ، وقنيته[2] ، ثم يكون أسير حرفة .

وينبغى أن يستوى عنده وجود ذلك وعدمه ، حتى لا ينافر لأجله فقيرا ، ولا يضايق به أحداً ، ولو مجوسيًّا .

فصل

وقبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته .

ومن ردّه قلب شيخ من الشيوخ فلا محالة يرى غبّ[3] ذلك ، ولو بعد حين .

ومن خُذل بترك حرْمة الشيوخ فقد أظهر رقم[4] شقاوته ، وذلك لا يخطئ .

---

(١) بالأدب والاحترام .

(٢) أى ما اقتناه .

(٣) أى عاقبة .

(٤) علامة .

فصل

ومن أصعب الآفات فى هذه الطريقة صحبة الأحداث .

ومن ابتلاه الله بشىء من ذلك فبإجماع الشيوخ : ذلك[١] عبدٌ أهانه الله عزّ وجلّ وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو بألف ألف كرامة أهله .

وهب أنه بلغ رتبة الشهداء ، لما فى الخبر تلويح بذلك ، أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق !!

وأصعب من ذلك : تهوين ذلك على القلب ، حتى يعد ذلك يسيرا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا . وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾[٢] .

وهذا الواسطى رحمه الله ، يقول : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف .

سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن أحمد النجار يقول : سمعت أبا عبد الله الحصرى يقول : سمعت فتحا الموصلىّ يقول : صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يُعدُّون من الأبدال ، كلهم أوصونى عند فراقى إياهم ، وقالوا لى : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم .

ومن ارتقى فى هذا الباب[٣] عن حالة الفسق ، وأشار إلى أن ذلك من بلاء الأرواح وأنه لا يضرّ ، وما قالوه[٤] من وساوس القائلين بالشاهد ، وإيراد حكايات عن بعض الشيوخ ، لما كان الأولى بهم إسبال الستر على هناتهم وآفاتهم ، الصادرة منهم فذلك نظير الشرك وقرين الكفر .

فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ، ومخالطتهم ؛ فإن اليسير منه فتح باب الخذلان ، وبدء حال الهجران . ونعوذ بالله من قضاء السوء .

فصل

ومن آفات المريد : ما يتداخل النفس من خفىِّ الحسد للإخوان ، والتأثر بما يفرد الله عز وجل به أشكاله من هذه الطريقة ، وحرمانه إيّاه ذلك .

---

(١) أى الذى ابتلى بشىء مما ذكر .
(٢) آية ١٥ من سورة النور .
(٣) أى باب صحبة الأحداث .
(٤) والأولى أن يقال « وما قاله » .

وليعلم أن الأمور قِسَم[١] ، وإنما يتخلص العبد عن هذا باكتفائه بوجود الحق ، وقدمه عن مقتضى جوده ونعمه .

فكل من رأيت أيها المريد قَدم الحقُّ ، سبحانه ، رتبته فاحمل أنت غاشيته[٢] ؛ فإن الظرفاء من القاصدين[٣] على ذلك استمرت سنتهم .

فصل

واعلم أن من حق المريد إذا اتفق وقوعه فى جمع إيثار الكل بالكل[٤] ، فيقدِّم الجائع والشبعان على نفسه ، ويتلمذ لكل من أظهر عليه التشيخ ، وإن كان هو أعلم منه ، ولا يصل إلى ذلك إلا بتبريه عن حوله وقوته ، وتوصله إلى ذلك بطول[٥] الحق ومنته .

فصل

وأمّا آداب المريد فى السماع ؛ فالمريد لا تسلم له الحركة فى ا لسماع بالاختيار ألبتة ؛ فإن ورد عليه وارد حركة ولم يكن فيه فضل قوة فبمقدار الغلبة يعذر ، فإذا زالت الغلبة يجب عليه القعود والسكون ، فإن استدام الحركة مستحليا للوجد من غير غلبة وضرورة لم يصح[٦] ، فإن تعود ذلك يبقى متخلفا لا يكاشف بشىء من الحقائق ، فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبه .

وفى الجملة إن الحركة تأخذ من كل متحرك وتنقص من حاله ، مريدا كان أو شيخاً ، إلا أن تكون بإشارة من الوقت ، أو غلبة تأخذ عن التمييز .

فإن كان مريدا أشار عليه الشيخ بالحركة فتحرك على إشارته[٧] فلا بأس إذا كان الشيخ ممن له حكم على أمثاله .

وأما إذا أشار عليه الفقراء بالمساعدة فى الحركة فيساعدهم فى القيام ، وفى أداء مالا يجد منه بداً مما يراعى عن[٨] الاستيحاش لقلوبهم[٩] .

ثم إنّ صدقه فى حاله يمنع قلوب الفقراء من سؤالهم عند المساعدة معهم .

---

(١) جمع قسم (بكسر القاف وإسكان السين) أى حظ ونصيب .

(٢) كناية عن الخضوع .

(٣) للوصول إلى الله .

(٤) إى إيثار جميع الناس بكل ما معه .

(٥) بفضل الله .

(٦) أى لم يصح سماعه .

(٧) أى لأجلها .

(٨) عن بمعنى فى .

(٩) أى فى طرق البعد عنهم .

وأما طرح الخرقة فحق المريد أن لا يرجع فى شىء خرج منه ألبتة ، اللهم إلا أن يشير عليه شيخ بالرجوع فيه ، فيأخذه على نية العارية بقلبه ، ثم يخرج عنه بعده من غير أن يستوحش قلب ذلك الشيخ .

وإذا وقع بين قوم عادتهم طرحُ الخرقة ، وعلم أنهم يرجعون فيها ، فإن لم يكن فيهم شيخ تجب حشمته وحرمته ، وكان طريق هذا المريد أن لا يعود فى الخرقة فالأحسن له أن يساعدهم فى الطرح ، ثم يؤثر به القوّال إذا رجعوا هم فيها[1] ، ولو لم يطرح ؛ فإنه يجوز إذا علم من عادة القوم أنهم يعودون فيما طرحوا فإن القبيح إنما هو سنتهم فى العود إلى الخرق ، لا فى مخالفته لهم . على أن الأولى الطرْح على الموافقة ، ثم ترك الرجوع فيه .

ولا يسلم للمريد ألبتة التقاضى[2] على[3] القوال ؛ لأن صدق حاله يحمل القوال على التكرار ، ويحمل غيره على الاقتضاء .

ومن تبرك بمريد فقد جار عليه ، لأنه يضره لقلة قوَّته ، فالواجب على المريد ترك تربية الجاه[4] عند من قال بتركه وإثباته .

فصل

وإن ابتلى مريد بجاه ، أو معلوم ، أو صحبة حدث ، أو ميل إلى امرأة ، أو استنامة إلى معلوم ، وليس هناك شيخ يدله على حيلة يتخلص بها من ذلك ، فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ، ليشوش على نفسه تلك الحالة .

ولا شىء أضر بقلوب المريدين من حصول الجاه لهم قبل خمود بشريتهم .

ومن آداب المريد : أن لا يسبق علمه فى هذه الطريقة منازلته[5] ، فإنه إذا تعلم سير هذه الطائفة ، وتكلف الوقوف على معرفة مسائلهم وأحوالهم قبل تحققه بها بالمنازلة والمعاملة بعد وصوله إلى هذه المعانى ، ولهذا قال المشايخ : إذا حدّث العارف عن المعارف[6] ، فجهِّلوه ، فإن الاخبار عن المنازل دون المعارف .

ومن غلب علمه منازلته فهو صاحب علم ، لا صاحب سلوك .

---

(١) أى فى خرقهم .
(٢) أى الطلب .
(٣) أى لا ينبغى له أن يطلب منه تكرار ما أنشده .
(٤) أى أسباب الظهور .
(٥) أى منزلته .
(٦) أى المعلوم .

فصل

ومن آداب المريدين : أن لا يتعرّضوا للتصدر ، وأن يكون لهم تلميذا ومريدا فإن المريد إذا صار مرادا[1] ، قبل خمود بشريته وسقوط آفته ، فهو محجوب عن الحقيقة ، لا تنفع أحدا إشارته وتعليمه .

فصل

وإذا خدم المريد الفقراء فخواطر الفقراء رُسلهم إليه . فلا ينبغى أن يخالف المريد ما حكم به باطنه عليه من الخلوص فى الخدمة ، وبذلك الوسع والطاقة .

فصل

ومن شأن المريد إذا كان طريقته خدمة الفقراء الصبر على جفاء القوم معه .

وأن يعتقد أنه يبذل روحه فى خدمتهم ، ثم لا يحمدون له أثرا ، فيعتذر إليهم من تقصيره ، ويقرّ بالجناية على نفسه ؛ تطبيقا لقلوبهم .

وإن علم أنه برىء الساحة ، وإذا زادوه فى الجفاء ، فيجب أن يزيدهم فى الخدمة والبرّ .

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يقول : إن فى المثل : « إذا لم تصبر على المطرقة فلماذا كنت سندانا » . وفى معناه انشدوا :

ربمــا جئتــه لأسلفــه العــذر لبعض الـذنـوب قبـل التجنى

فصل

وبناء على هذا الأمر ومِلاكه ، على حفظ آداب الشريعة ، وصون اليد عن المدّ إلى الحرام والشبهة ، وحفظ الحواس عن المحظورات ، وعدّ الأنفاس مع الله تعالى عن الغفلات[2] ، وأن لا يستحلّ مثلا سمسمة فيها شبهة فى أوان الضرورات فكيف عند الاختيار ، ووقت الراحات ؟!

---

(١) أى مرادًا للخلق لينتفعوا به .

(٢) أى ليبتعد عن الغفلات ، والتعبير كناية عن التفرغ لعبادة الله .

ومن شأن المريد دوام المجاهدة فى ترك الشهوات ، فإن من وافق شهوته عدَم صفوته .

وأقبح الخصال بالمريد رجوعه إلى شهوة تركها لله تعالى .

فصل

ومن شأن المريد : حفظ عهوده مع الله تعالى ، فإن نقضَ العهد فى طريق الإرادة كالرِّدة عن الدين لأهل الظاهر .

ولا ينبغى للمريد أن يعاهد الله تعالى على شىء باختياره ما أمكنه ، فإن فى لوازم الشرع ما يستوفى منه كل وسع : قال الله تعالى فى صفة قوم : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[1] .

فصل

ومن شأن المريد . قِصَر الأمل ؛ فإن الفقير ابنُ وقته .

فإذا كان له تدبير فى المستقبل ، وتطلُّع لغير ما هو فيه من الوقت ، وأَمَلٌ فيما يستأنفه لا يجىء منه شىء .

فصل

ومن شأن المريد : أن لا يكون له معلوم ، وإن قلّ ، لا سيما إذا كان بين الفقراء ؛ فإن ظلمة المعلوم تطفئ نور الوقت .

فصل

ومن شأن المريد ، بل من طريقة سالكى هذا المذهب : ترك قبول رفق النسوان ، فكيف التعرض لاستجلاب ذلك ؟!

وعلى هذا درج شيوخهم ، وبذلك نفذت وصاياهم .

ومن استصغر هذا[2] ، فعن قريب يلقى ما يفتضح فيه .

---

(١) من آية ٢٧ من سورة الحديد .

(٢) أى الحكم السابق وهو قبول عطايا النساء .

فصل

ومن شأن المريد : التباعد عن أبناء الدنيا ، فإنَّ صُحبتهم سمٌّ مجرَّب !! لأنهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾[1] .

وأنّ الزّهاد يخرجون المال عن[2] الكيس تقرُّباً إلى الله تعالى ، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا بالله تعالى .

* * *

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، رضى الله تعالى عنه :

فهذه وصيتنا إلى المريدين ، نسأل الله الكريم لهم التوفيق ، وأن لا يجعلها وبالا علينا .

وقد نجز لنا إملاء هذه الرسالة فى أوائل سنة : ثمان وثلاثين وأربعمائة ، نسأل الله الكريم أن لا يجعلها حجة علينا ووبالاً ، بل تكون لنا وسيلة ونوالاً ، إنّ الفضل منه مألوف ، وهو بالعفو موصوف .

والحمد لله حقّ حمده ، وصلواته ، وبركاته ، ورحمته على رسوله سيدنا محمد النبىّ الأمىّ وآله الطاهرين ، وصحبه الكرام المنتخبين ، وسلّم تسليماً كثيراً .

---

(١) من آية ٢٨ من سورة الكهف .

(٢) وفى نسخة « من » .

فهرس موضوعات الجزء الثانى

فهــرس الأعــلام

هذه العلامة= معناها: انظر

(ب)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

رقم الإيداع		١٩٩٤/١١٤٥٢
الترقيم الدولى	977-02-4818-5	ISBN

١/٩٠/١٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

Dhakhāir AL Arab 75

EL Resalā AL Kūshairia

LiL Imam Abil Kasem Abdel Karim Al Kushairy

Editted By

AL Imam, Dr. Abdel Halim Mahmoud

Dr. Mahmoud Ibn El Sherif

DAR AL-MAAREF